

القسم الثاني
النص المحقق

محقق عن نسختين كاملتين وأكثر من عشرة نسخ أخرى يستوعب مجموعها التفسير كله

تفسير القرآن العظيم

للمحافظ

أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي

(٧٠٠ - ٧٧٤ هـ)

تحقيق

سامي بن محمد السلامة

الجزء الأول

الفاحة - البقرة

مقدمة ابن كثير^(١)

قال الشيخ الإمام الأوحى، البارع الحافظ المشتم، عماد الدين أبو الفداء^(٢) إسماعيل بن الخطيب أبي حفص عمر بن كثير البصرى الشافعى، رحمه الله تعالى، ورضى عنه:

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤٢]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا. قِيمًا يُبَدِّرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُنشِرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا. مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا. وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥١]، وافتتح خلقه بالحمد، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتمه بالحمد، فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، ولهذا قال [الله]^(٣) تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [التقصص: ٧٠]، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبا: ١].

فله الحمد فى الأولى والآخرة، أى فى جميع ما خلق وما هو خالق. هو المحمود فى ذلك كله، كما يقول المصلى: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعده»^(٤)، ولهذا يُلهم أهل الجنة تسيبته وتحميده كما يُلهمون النَّس، أى يسبحونه ويحمدونه عدد أنفسهم؛ لما يرون من عظيم نعمه عليهم، وكمال قدرته وعظيم سلطانه، وتوالى منته ودوام إحسانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِيَدَيْهِمْ رَبِّهِمْ يُرْسِلُ فِي ذُرِّيَّتِهِم مِّنْ سَمَوَاتِهِم مَّوَدِّعًا مِّنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحْتِهَا فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

والحمد لله الذى أرسل رسله ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وختتمهم بالنبي الامى العربى المكى الهادى لاوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

(١) بعدها فى ج: «رب يسر ولا تعسروا» وفى ط: «رب يسر وأسر يا كريم».

(٢) فى ج: «قال الشيخ العالم العلامة الأرحد الحافظ، المنجهد القدر، علامة العلماء، بوث الأبياء، بركة الإسلام، حجة الاعلام، محسن السنة، ومن عظم الله به علينا المنة عماد الدين أبو الفداء»

(٣) زيادة من ج.

(٤) هذا اقتباس من حديث رواه مسلم فى صحيحه برفقه (٧٧١) من حديث البراء بن عازب، رضى الله عنه.

إِيَّكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَسْمُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿ [الاعراف: ١٥٨] ، وقال تعالى: ﴿ لَا تَنْدِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسود وأحمر، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود: ١٧]. فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا^(١) فالنار موعده، بنص الله تعالى، وكما قال تعالى: ﴿ فَذُرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

وقال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»^(٢). قال مجاهد: يعنى: الإنس والجن. فهر، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مبلِّغاً لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نذيرهم إلى تفهمه، فقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقرآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

فالرأجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ نُبِّئْتُمْ لَكُمْ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكَلِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٧].

فدم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا - أيها المسلمون - أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأثر بما أمرنا به، من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهمه، قال الله تعالى: ﴿ هَلْ أَلَمَ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَضَالٍ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَغَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثُرَ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ . اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٦، ١٧]. ففى ذكره تعالى لهذه الآية بعد التى قبلها تشبه على أنه تعالى كما يحيى الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصى، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه

(١) فى ج: ذكرناه.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) من حديث جابر، رضى الله عنه.

جواد كريم.

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يُفسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بِهِ النَّاسُ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»^(١) يعني: السنة. والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي، كما ينزل^(٢) القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن. وقد استدل الإمام الشافعي، رحمه الله^(٣)، وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فعن السنة. كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟» قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد برأى. قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله»^(٤). وهذا الحديث في المساند^(٥) والسنن بإسناد جيد، كما هو مقرر في موضعه.

وحينئذ، إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعتنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدركوا بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختلفوا بها، ولما تبين من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علمائهم وكبارهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنه^(٦).

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير^(٧): حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من^(٨) كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١٣١/٤) وأبو داود في السنن برقم (٤٦٠٤) من حديث مقدم بن معدي كرب - رضي الله عنه.

(٢) في ب: «كما ينزل عليه».

(٣) في ب: «رحمة الله عليه».

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٣٠/٥) وأبو داود في السنن برقم (٣٥٩٢) والترمذي في السنن برقم (١٣٢٨) من طرق عن شعبة عن أبي عون عن الخازن بن عمرو عن ناس من أصحاب معاذ عن معاذ به، وقال الترمذي: «هذا حديث لا يعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي متصل». وأبو عون الثقفى اسمه محمد بن عبد الله. وللشيخ ناصر الأسدي بحث مانع بين فيه كلام العلماء في نقد الحديث. انظر: السلسلة الضعيفة برقم (٨٨١).

(٥) في ج: «المسانيد».

(٦) في ب: «أين».

(٧) في ب: «جرير الطبري».

(٨) في ب: «عنهم».

بكتاب الله منى تناله المطايا لآتيته^(١). وقال الأعمش أيضاً، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن^(٢).

وقال أبو عبد الرحمن السلمى: حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً^(٣).

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن وببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»^(٤).

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مسلم قال^(٥): قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: نعم ترجمان القرآن ابن عباس^(٦). ثم رواه عن يحيى بن داود، عن إسحاق الأزرق، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم بن صبيح أبي الضحى، عن سروق، عن ابن مسعود أنه قال: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس^(٧). ثم رواه عن بندار، عن جعفر ابن عون، عن الأعمش^(٨)، به كذلك.

فهذا إسناده صحيح إلى ابن مسعود: أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد سأت ابن مسعود، رضى الله عنه، في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعمر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟

وقال الأعمش عن أبي وائل: استخلف عليّ عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي رواية: سورة النور، فمفسرها تفسيراً لم سمعته الروم والترك والديلم لاسلموا^(٩).

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير في تفسيره، عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بلغوا عنى ولو آية». وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوا مقعده من النار» رواه البخارى عن عبد الله^(١٠)؛ وهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زامتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه

(١) تفسير الطبرى (٨٠/١) وجابر بن نوح ضعيف لكنه توبخ، فرواه البخارى في صحيحه برقم (٥٠٠٢) عن عمر بن حفص عن أبيه عن الأعمش به.

(٢) رواه الطبرى في تفسيره (٨٠/١) من طريق الحسين بن واقد عن الأعمش به.

(٣) رواه الطبرى في تفسيره (٨٠/١) من طريق جرير عن عطاء عن أبي عبد الرحمن السلمى.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٣٢٧/١، ٢٦٦، ٣١٤) وأصله في صحيح البخارى برقم (٧٥).

(٥) في ب: أكذا قال.

(٦) تفسير الطبرى (٩٠/١).

(٧) تفسير الطبرى (٩٠/١) ورواه الخازن في المستدرک (٥٣٧/٣) من طريق سفيان به.

(٨) تفسير الطبرى (٩٠/١) ورواه أبو خزيمة في العزم برقم (٤٨) من طريق جعفر بن عون به.

(٩) رواه الطبرى في تفسيره (٨١/١) والفسوى في تاريخه (٤٩٥/١) من طريق الأعمش به.

(١٠) صحيح البخارى برقم (٣٤٦١).

من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح ^(١).

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا يؤمن به ولا تكذبه، ونحو حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أى الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التى أحيها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذى ضرب به القليل من البقرة، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهته الله تعالى فى القرآن، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم. ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْبِهِمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٢٢)، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام وتعليم ما ينبغي فى مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لردده كما رددهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال فى مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾، فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، من أطلعه الله عليه؛ فأنه قال: ﴿فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أى: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه. أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً. فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعدد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبى زور، والله الموفق للصواب.

[قال سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي يزيد: كان ابن عباس إذا سئل عن الآية فى القرآن قال به، فإن لم يكن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به، فإن لم يكن فعن أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما، فإن لم يكن اجتهد برأيه] ^(٢).

(١) فى ج: «صحيح للاعتقاد».

(٢) زيادة من ط: ب.

فصل

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجعت كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر^(١)، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: عَرَضْتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه الواح، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله^(٣). ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به^(٤).

وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق ابن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليظن اللبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه محمد بن جرير، رحمه الله، حيث قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سفيان، حدثني عبد الأعلى، هو ابن عامر الثعلبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار»^(٥).

وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي، من طرق، عن سفيان الثوري، به. ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن أبي عوَّانة، عن عبد الأعلى، به^(٦). وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

(١) في ج: ط: جبير.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٩٠/١).

(٣) تفسير الطبري (٩٠/١).

(٤) رواه الطبري في تفسيره (٩١/١) من طريق أبي بكر الخفي سمعت سفيان يذكره.

(٥) تفسير الطبري (٧٧/١).

(٦) سنن الترمذي برقم (٢٩٥٢) وسنن النسائي الكبير برقم (٨٤-٨) وسنن أبي داود برقم (٢٦٥٢)، واخذت مداره على عبد الأعلى ابن عامر قال أبو زرعة: ضعيف، وتركه ابن مهدي.

وهكذا رواه ابن جرير - أيضاً - عن يحيى بن طلحة اليربوعي، عن شريك، عن عبد الأعلى، به مرفوعاً^(١). ولكن رواه محمد بن حميد، عن الحكم بن بشير، عن عمرو بن قيس الملائي، عن عبد الأعلى، عن سعيد، عن ابن عباس، فوقفه^(٢). وعن محمد بن حميد، عن جرير، عن ليث، عن بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس من قوله^(٣)، فالله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا العباس بن عبد العظيم العنبري، حدثنا حبان بن هلال، حدثنا سهيل أخو حزم، حدثنا أبو عمران الجوني، عن جندب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ»^(٤).

وقد روى هذا الحديث أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القطعي، وقال الترمذي: غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في سهيل^(٥).

وفي لفظ لهم: «من قال في كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ» أي: لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ، والله أعلم، وهكذا سمي الله القذفة كاذبين، فقال: ﴿فَأَذْنُمُ يَا أَيُّهَا الشَّاهِدَةُ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]، فالتأذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخير بما لا يحل له الإخبار به، ولو كان أخيراً بما يعلم؛ لأنه تكلف ما لا علم له به، والله أعلم.

ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة، عن سليمان، عن عبد الله بن مرة، عن أبي معمر، قال: قال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: أي أرض تغلني؟ وأي سماء تظلني؟ إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم^(٦).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد^(٧) بن يزيد، عن العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي؛ أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿وَأَفَاكِهِ وَأَبَا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تغلني؟ إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. منقطع^(٨).

وقال أبو عبيد أيضاً: حدثنا يزيد، عن حميد، عن أنس؛ أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر:

(١) تفسير الطبري (١/٧٧).

(٢) تفسير الطبري (١/٧٨) ورواه وكيع عن عبد الأعلى فوقفه، رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٥١٢).

(٣) تفسير الطبري (١/٧٨).

(٤) تفسير الطبري (١/٧٩).

(٥) سنن أبي داود برقم (٣٦٥٢) وسنن الترمذي برقم (٢٩٥٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٦-٨).

(٦) روى الطبري في تفسيره (١/٧٨).

(٧) في ب: «محمود».

(٨) فضائل القرآن (ص ٢٢٧) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٥١٣) عن محمد بن عبد عن العوام بن حوشب به.

﴿وَفَاكِهَةٌ وَأَبْنَا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهُو التكلف يا عمر^(١).

وقال عبد بن حميد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس، قال: كنا عند عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وفى ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: ﴿وَفَاكِهَةٌ وَأَبْنَا﴾ فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهُو التكلف^(٢)، فما عليك ألا تدرية^(٣).

وهذا كله محمول على أنهما، رضى الله عنهما، إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا﴾ الآية [عبس: ٢٧، ٢٨].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة: إن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها^(٤). إسناده^(٥) صحيح.

وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، قال: سأل رجلاً ابن عباس عن ﴿يَوْمَ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] فقال له ابن عباس: فما ﴿يَوْمَ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثنى. فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله تعالى فى كتابه، الله أعلم بهما. فكره أن يقول فى كتاب الله ما لا يعلم^(٦).

وقال - أيضاً - ابن جرير: حدثنى يعقوب - يعنى ابن إبراهيم - حدثنا ابن علية، عن مهدي بن ميمون، عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن؟ فقال: أحرَج عليك إن كنت مسلماً إلا ما قمت عنى، أو قال: إن تجالسنى^(٧).

وقال مالك، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول فى القرآن شيئاً^(٨).

وقال الثعلبى، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان لا يتكلم إلا فى المعلوم من القرآن^(٩).

وقال شعبة، عن عمرو بن مرة، قال: سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال: لا

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢٧) ورواه ابن أبي شيبة فى المصنف (٥١٢/١٠) عن يزيد بن، ورواه الخاتم فى المستدرک (٥١٤/٢) من طريق يزيد بن حميد به. وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٢) فى ج: «التكلف يا عمر».

(٣) ورواه ابن سعد فى الطبقات (٣٢٧/٣)، ورواه البخارى فى صحيحه برقمه (٧٢٩٣) عن سليمان بن حرب - محضراً ولفظه: «لها من التكلف».

(٤) تفسير الطبرى (٨٦/١).

(٥) فى ب: «إسناده».

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٢٨).

(٧) تفسير الطبرى (٨٦/١).

(٨) روى الطبرى فى تفسيره (٨٥/١) من طريق ابن وهب عن مالك به.

(٩) روى الطبرى فى تفسيره (٨٦/١) من طريق ابن وهب عن مالك به.

تسألني عن القرآن، وصل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء، يعني: عكرمة^(١).

وقال ابن شوذب: حدثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كنا نسال سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع^(٢).

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن عمر، قال: لقد أدركتُ فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم ابن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع^(٣).

وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الليث، عن هشام بن عروة، قال: ما سمعت أبا تآول آية من كتاب الله قط^(٤).

وقال أيوب، وابن عون، وهشام الدستوائي، عن محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني، عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل^(٥) القرآن؟ فأتى الله، وعليك بالسداد^(٦).

وقال أبو عبيد: حدثنا معاذ، عن ابن عون، عن عبد الله بن مسلم بن يسار، عن أبيه، قال: إذا حدثت عن الله فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده^(٧).

حدثنا هشيم، عن مغيرة، عن إبراهيم، قال: كان أصحابنا يتشون التفسير ويهابونه^(٨).

وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السفر، قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله عز وجل^(٩).

وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم، حدثنا عمر بن أبي زائدة، عن الشعبي، عن مسروق، قال: اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله^(١٠).

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما

(١) رواه الطبري في تفسيره (٨٧/١) وابن أبي شيبة في المصنف (٥١١/١٠) من طريق محمد بن جعفر عن شعبة به.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٨٦/١) عن العباس بن الوليد عن أبيه عن ابن شوذب به.

(٣) تفسير الطبري (٨٥/١).

(٤) فضائل القرآن (ص ٢٢٩).

(٥) في ج: «نزل».

(٦) رواه الطبري في تفسيره (٨٦/١) من طريق ابن علية عن أيوب وابن عون به.

(٧) فضائل القرآن (ص ٢٢٩).

(٨) فضائل القرآن (ص ٢٢٩) ورواه أبو نعيم (٢٢٢/٤) من طريق جرير عن المغيرة به.

(٩) رواه الطبري في تفسيره (٨٧/١) من طريق سعيد بن عامر عن شعبة به.

(١٠) فضائل القرآن (ص ٢٢٩).

مثل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتَبَيَّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروى من طرق: «من مثل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(١).

فأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير:

حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا محمد بن خالد بن عثمة، حدثنا جعفر بن محمد بن الزبير، حدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آتياً تُعد، علمهن إياه جبريل، عليه السلام. ثم رواه عن أبي بكر محمد بن يزيد الطرسوسي، عن مَعْن بن عيسى، عن جعفر بن خالد، عن هشام، به.^(٢)

فإنه حديث منكر غريب، وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيرى، قال البخارى: لا يتابع في حديثه، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدى: منكر الحديث.

وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى، بما وقفه عليها جبريل. وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث؛ فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد في جهله، كما صرح بذلك ابن عباس، فيما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد [عن الأعرج]^(٣)، قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالة، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله^(٤).

قال ابن جرير: وقد روى نحوه في حديث في إسناده نظر:

حدثني يونس بن عبد الأعلى الصدفي، أنبأنا ابن وهب قال: سمعت عمرو بن الحارث يحدث عن الكلبي، عن أبي صالح، مولى أم هانئ، عن عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على أربعة^(٥) أحرف: حلال وحرام، لا يعذر أحد بالجهالة به. وتفسير نفسه [العرب، وتفسير

(١) جاء من حديث أبي هريرة، ومن حديث أنس، وأبي سعيد الخدري، رضي الله عنهم. أما حديث أبي هريرة، فرواه أحمد في المسند (٢٦٣/٢) وأبو داود في السنن برقم (٣٦٥٨) والترمذي في السنن برقم (٢٦٤٩) وابن ماجه في السنن برقم (٢٦١) من طريق عفي ابن أخكم عن عطاء عن أبي هريرة. وقال الترمذي: «حديث حسن». وأما حديث أنس، فرواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٦٤) من طريق يوسف بن إبراهيم عن أنس، وقال البوصيري في الزوائد (١١٧/١): «هذا إسناد ضعيف». وأما حديث أبي سعيد، فرواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٦٥) من طريق محمد بن داب عن صفوان بن سليم عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبي سعيد، وقال البوصيري في الزوائد (١١٨/١): «هذا إسناد ضعيف».

(٢) تفسير الطبري (٨٤/١) ورواه أبو يعلى في مسنده (٢٣/٨) من طريق معن القزاز عن فلان بن محمد بن خالد، عن هشام بن عروة به، ورواه البزار في مسنده برقم (٢١٨٥) كشف الاستار عن محمد بن القاسم، عن محمد بن خالد بن عثمة، عن حفص - أظنه أبي عبد الله - عن هشام عن أبيه به.

(٣) زيادة من نسخة مساعدة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٤) تفسير الطبري (٧٥/١).

(٥) في هـ، ب: «سبعة» والثبت من ج، و: «ثلاثة».

تفره^(١) العلماء . ومثابه لا يعلمه إلا الله، عز وجل، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب^(٢) .
والنظر الذي أشار إليه في إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبي؛ فإنه متروك الحديث؛
لكن قد يكون إنما وهم في رفعه . ولعله من كلام ابن عباس، كما تقدم . والله أعلم بالصواب .

(١) زيادة من ج، والطبري .

(٢) تفسير الطبري (١/٧٦) .

كتاب فضائل القرآن

قال البخارى، رحمه الله:

كيف نزول الوحي وأول ما نزل:

قال ابن عباس: المهيمن الأمين القرآن، أمين على كل كتاب قبله: حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيان عن يحيى عن أبي سلمة قال: أخبرتنى عائشة وابن عباس قالا: لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً^(١).

ذكر البخارى، رحمه الله، كتاب «فضائل القرآن» بعد كتاب التفسير؛ لأن التفسير أهم ولهذا بدأ به، [ونحن قدمنا الفضائل قبل التفسير وذكرنا فضل كل سورة قبل تفسيرها ليكون ذلك باعثاً على حفظ القرآن وفهمه والعمل بما فيه والله المستعان]^(٢).

وقول ابن عباس فى تفسير المهيمن إنما يريد به البخارى قوله تعالى فى المائدة بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله:

حدثنا المثنى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى معاوية عن على - يعنى ابن أبى طلحة - عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: المهيمن: الأمين. قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله^(٣). وفى رواية: شهيداً عليه^(٤). وقال سفيان الثورى وغير واحد من الأئمة عن أبى إسحاق السيمى، عن النسيمى، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: مؤتمناً^(٥). وبنحو ذلك قال مجاهد والسدى وقتادة وابن جريج والحسن البصرى وغير واحد من أئمة السلف. وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال إذا رَقِبَ الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه، فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن، وفى أسماء الله تعالى: المهيمن، وهو الشهيد على كل شيء، والرقيب: الحفيظ بكل شيء.

وأما الحديث الذى أسنده البخارى: أنه، عليه السلام، أقام بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً، فهو مما انفرد به البخارى دون مسلم، وإنما رواه النسائى من حديث شيان وهو ابن عبد الرحمن، عن يحيى وهو ابن أبى كثير، عن أبى سلمة عنها^(٦).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يزيد عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة، ثم

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٨، ٤٩٧٩).

(٢) جاء فى م: «فجرنا على منواله وسنته مقتدين به» وما أثبت من ط، ج.

(٣) تفسير الطبرى (٣٧٩/١٠) ط: المعارف.

(٤) تفسير الطبرى (٣٧٧/١٠) ط: المعارف.

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٣٧٨/١٠) ط: المعارف.

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٧٧).

قرأ ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَانَهُ لِنُرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]. هذا إسناد صحيح^(١). أما إقامته بالمدينة عشرا فهذا ما لا خلاف فيه، وأما إقامته بمكة بعد النبوة فالشهور ثلاث عشرة سنة؛ لانه، عليه الصلاة والسلام، أوحى إليه وهو ابن أربعين سنة، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح، ويحتمل أنه حذف ما زاد على العشرة اختصارا في الكلام؛ لأن العرب كثيرا ما يحذفون الكسور في كلامهم، أو أنهما إنما اعتبرا قرن جبريل، عليه السلام، به عليه السلام. فإنه^(٢) قد روى الإمام أحمد أنه قرن به، عليه السلام، ميكائيل في ابتداء الأمر، يلقي إليه الكلمة والشيء، ثم قرن به جبريل.

ووجه مناسبة هذا الحديث بفضائل القرآن: أنه ابتدئ بنزوله في مكان شريف، وهو البلد الحرام، كما أنه كان في زمن شريف وهو شهر رمضان، فاجتمع له شرف الزمان والمكان؛ ولهذا يستحب إكثار تلاوة القرآن في شهر رمضان؛ لأنه ابتدئ نزوله فيه؛ ولهذا كان جبريل يعارض به رسول الله ﷺ في كل سنة في شهر رمضان، فلما كان في السنة التي توفى فيها عارضه به مرتين تأكيدا وتثبيتاً.

وأیضا في هذا الحديث بيان أنه من القرآن مكى ومنه مدنى، فالمكى: ما نزل قبل الهجرة، والمدنى: ما نزل بعد الهجرة، سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أى البلاد كان، حتى ولو كان بمكة أو عرفة. وقد أجمعوا على سور أنها من المكى وأخر أنها من المدنى، واختلفوا في آخر، وأراد بعضهم ضبط ذلك بضوابط في تقييدها عسر ونظر، ولكن قال بعضهم: كل سورة في أولها شيء من الحروف المقطعة فهي مكية إلا البقرة وآل عمران، كما أن كل سورة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهي مدنية وما فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. فيحتمل أن يكون من هذا ومن هذا، والغالب أنه مكى. وقد يكون مدنيا كما في البقرة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا^(٣) رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢٠]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

قال أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا من سمع الأعمش يحدث عن إبراهيم بن علقمة: كل شيء في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه أنزل بالمدينة، وما كان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فإنه أنزل بمكة^(٤). ثم قال: حدثنا علي بن معبد، عن أبي المثنى، عن ميمون بن مهران، قال: ما كان في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ و﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ فإنه مكى، وما كان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه مدنى^(٥).

ومنهم من يقول: إن بعض السور نزل مرتين، مرة بالمدينة ومرة بمكة، والله أعلم. ومنهم من يشتنى من المكى آيات يدعى أنها من المدنى، كما في سورة الحج وغيرها.

والحق في ذلك ما دل عليه الدليل الصحيح، فالله أعلم. وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢٢) ورواه الحاكم في المستدرک (٢/ ٢٢٢) من طريق يزيد بن هارون به، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) في ط: «نكاه».

(٣) في ط: «نكاه».

(٤) فضائل القرآن (ص ٢٢٢).

صالح، عن معاوية بن صالح بن علي بن أبي طلحة، قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، والذين كفروا، والفتح، والحديد، والمجادنة، والحشر، والمتحة، والحواريون، والتغابن، و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ والفجر، و﴿اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾ و﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ و﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ وسائر ذلك بمكة^(١).

وهذا إسناد صحيح عن ابن أبي طلحة مشهور، وهو أحد أصحاب ابن عباس الذين رووا عنه التفسير، وقد ذكر في المدني سورا في كونها مدنية نظرا، وقاته الحجرات والمعوذات.

الحديث الثاني: وقال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا معتمر قال: سمعت أبي عن أبي عثمان قال: أنبت أن جبريل، عليه السلام، أتى النبي ﷺ وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، فقال النبي ﷺ: «من هذا؟» أو كما قال، قالت: هذا دحية الكلبي، فلما قام قلت: والله ما حسبه إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبي ﷺ يُخبر خبر جبريل. أو كما قال، قال أبي: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أسامة بن زيد. وهكذا رواه أيضا في علامات النبوة عن عباس بن الوليد النرسي، وسلم في فضائل أم سلمة عن عبد الأعلى بن حماد [ومحمد بن عبد الأعلى]^(٢) كلهم عن معتمر بن سليمان به^(٣).

والغرض من إيراد هذا الحديث هاهنا أن السفير بين الله وبين محمد ﷺ جبريل عليه السلام وهو ملك كريم ذو وجهة وجلالة ومكانة كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ الآيات [التكوير: ١٩ - ٢٢]. فمدح الرب تبارك وتعالى عبديه ورسوليه جبريل ومحمداً ﷺ وسنتقضى الكلام على تفسير هذا الكتاب^(٤) في موضعه إذا وصلنا إليه إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وفي الحديث فضيلة عظيمة لام سلمة، رضى الله عنها - كما بينه مسلم رحمه الله - لرؤيتها لهذا الملك العظيم، وفضيلة أيضا لدحية بن خليفة الكلبي، وذلك أن جبريل، عليه السلام، كان كثيرا ما يأتي رسول الله ﷺ على صورة دحية وكان جميل الصورة، رضى الله عنه، وكان من قبيلة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، كلهم ينسبون إلى كلب بن وبرة وهم قبيلة من قضاة، وقضاة قيل: إنهم من عدنان، وقيل: من قحطان، وقيل: بطن مستقل بنفسه، والله أعلم.

(١) فضائل القرآن (ص ٢٢١).

(٢) زيادة من ج. م.

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٩٨٠)، (٣٦٣٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٤٥١).

(٤) في ج. الم. كان.

الحديث الثالث: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث بن سعيد المقرئ، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال النبي ﷺ (١): «لما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» (٢).

ورواه أيضا فى [كتاب] (٣) الاعتصام عن عبد العزيز بن عبد الله ومسلم والنسائي عن قتيبة جميعا، عن الليث بن سعد، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبيه - واسمه كيسان المقرئ - به.

وفى هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أعطيها نبي من الأنبياء، وعلى كل كتاب أنزله، وذلك أن معنى الحديث: ما من نبي إلا أعطى من المعجزات ما آمن عليه البشر، أى: ما كان دليلا على تصديقه فيما جاءهم به واتبعه من أتباعه من البشر، ثم لما مات الأنبياء لم يبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهدته فى زمانه، فأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ﷺ فإنما كان معظم ما آتاه الله وحيا منه إليه منتقولا إلى الناس بالتواتر، ففى كل حين هو كما أنزل، فلهذا قال: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا»، وكذلك وقع، فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته؛ ولهذا قال الله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ [الإسراء: ١٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأدعوا من دون الله إن كنتم صادقين﴾ [هود: ١٣] ثم تحداهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه قل فأتوا بسورة مثله وأدعوا من استظتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ [يونس: ١٣٨]، وقصر التحدى على هذا المقام فى السور (٤) المكية كما ذكرنا وفى المدينة أيضا كما فى سورة البقرة، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، [٢٤] فأخبرهم بأنهم عاجزون عن معارضته بمثله، وأنهم لا يفعلون ذلك فى المستقبل أيضا، وهذا وهم أفصح الخلق وأعلمهم بالبلاغة والشعر وقريض الكلام وضروبه، لكن جاءهم من الله مالا قبل لأحد من البشرية من الكلام الفصيح البليغ، الوجيز، المحتوى على العلوم الكثيرة الصحيحة النافعة، والأخبار الصادقة عن الغيوب الماضية والآتية، والأحكام العادلة والمحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَوَسَّاتُ كَلِمَاتٍ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبى، حدثنا محمد بن إسحاق قال: ذكر محمد بن كعب القرظى عن الحارث بن عبد الله الأعور قال: قلت: لأبى أمير المؤمنين، فلاسأله عما سمعت العشي [قال] (٥): فجيته بعد العشاء، فدخلت عليه، فذكر الحديث. قال: ثم

(١) فى ج: فرسول الله.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٨١)، (٧٢٧٤).

(٣) زيادة من ج.

(٤) من ج: هذا السورة.

(٥) زيادة من ج.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا نبي جبريل فقال: يا محمد، أمتك مختلفة بعدك». قال: «فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟» قال: فقال: «كتاب الله به يُقَصَّم الله كلَّ جبار، من اعتصم به نجاب، ومن تركه هلك، مرتين، قول فصل وليس بالهزل، لا تخلقه الألسن، ولا تنفى عجائبه، فيه نبأ من كان قبلكم، وفصل ما بينكم، وخبر ما هو كائن بعدكم» هكذا رواه الإمام أحمد^(١). وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا حسين بن علي الجعفي، حدثنا حمزة الزيات، عن أبي المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث؟ قال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة» فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: «إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فأمنا به» [الجن: ١، ٢]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم». خذها إليك يا أعور، ثم قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول وفي حديث الحارث مقال^(٢).

قلت: لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، فبرئ حمزة من عهده، على أنه وإن كان ضعيف الحديث إلا أنه إمام في القراءة والحديث، مشهور من رواية الحارث الأعور وقد تكلموا فيه، بل قد كذب بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما إنه نعم الكذب في الحديث فلا، والله أعلم.

وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي، رضى الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ.

قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه فضائل القرآن: حدثنا أبو اليقظان، حدثنا عمار بن محمد الثوري أو غيره عن أبي إسحاق الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن هذا القرآن مادية الله تعالى فتعلموا من مادته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله عز وجل، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يعرج فيقوم، لا يزيغ فيستعيب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فأن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنة، أما إنني لا أقول لكم التم حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر»^(٣). وهذا غريب من هذا الوجه، وقد رواه محمد بن فضيل عن أبي إسحاق

(١) البلد (١/٩١).

(٢) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٦).

(٣) فضائل القرآن (ص ٢١) ورواه الحاكم في المستدرک (١/٥٥٥) من طريق الهجري به.

الهجرى، واسمه إبراهيم بن مسلم، وهو أحد التابعين، ولكن تكلموا فيه كثيرا.

وقال أبو حاتم الرازى: لين ليس بالقوى. وقال أبو الفتح الأزدي: رَفَاعٌ كثير الهمم. قلت: فيحتمل، والله أعلم، أن يكون وهم فى رفع هذا الحديث، وإنما هو من كلام ابن مسعود، ولكن له شاهد من وجه آخر، والله أعلم.

وقال أبو عبيد أيضا: حدثنا حجاج عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود قال: لا يسأل عبد عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله^(١).

الحديث الرابع: قال البخارى: حدثنا عمرو بن محمد، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن^(٢) شهاب، قال: أخبرني أنس بن مالك أن الله تابع الوحي على رسوله ﷺ قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي، ثم توفى رسول الله ﷺ بعد. وهكذا رواه مسلم عن عمرو بن محمد هذا - وهو الناقد - وحسن الحلوانى وعبد بن حميد والنسائى عن إسحاق ابن منصور الكوسج، أربعتهم عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهرى به^(٣).

ومعناه: أن الله تعالى تابع نزول الوحي على رسول الله ﷺ شيئا بعد شيء كل وقت بما يحتاج إليه، ولم تقع فترة بعد الفترة الأولى التى كانت بعد نزول الملك أول مرة بقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] فإنه استلبت الوحي بعدها حينما يقال: قريبا من سنتين أو أكثر، ثم حصى الوحي وتتابع. وكان أول شيء نزل بعد تلك الفترة ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢].

الحديث الخامس: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن الأسود بن قيس قال: سمعت جنديا يقول: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأنته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا تركك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١-٣]^(٤).

وقد رواه البخارى فى غير موضع أيضا، ومسلم والترمذى والنسائى من طرق آخر^(٥)، عن سفيان - وهو الثورى - وشعبة بن الحجاج كلاهما عن الأسود بن قيس العبدى، عن جندي بن عبد الله البجلي. به. وسيأتى الكلام على هذا الحديث فى تفسير سورة الضحى إن شاء الله تعالى.

والمناسبة فى ذكر هذا الحديث والذى قبله فى فضائل القرآن: أن الله تعالى له برسوله عناية

(١) فضائل القرآن (ص ٢٦).

(٢) فى ط، ج: «أبي».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٢) وصحيح مسلم برقم (٣٠١٦).

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٣).

(٥) صحيح البخارى برقم (١١٢٥)، ٤٩٥٠، ٤٩٥١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٧) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٥١) وسنن النسائى

الكبرى برقم (١١٦٨١).

عظيمة ومحبة شديدة، حيث جعل الوحي متابعا عليه ولم يقطعه عنه؛ ولهذا إنما أنزل عليه القرآن مفرقا ليكون ذلك في أبلغ العناية والإكرام.

قال البخاري، رحمه الله: نزل القرآن بلسان قريش والعرب، قرآنا عربيا، بلسان عربي مبين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب^(١)، عن الزهري: أخبرني أنس بن مالك قال: فأمر عثمان بن عفان زيد بن ثابت ومعهيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلسانهم، ففعلوا^(٢).

هذا الحديث قطعة من حديث سيأتي قريبا والكلام عليه ومقصود البخاري منه ظاهرا، وهو أن القرآن نزل بلغة قريش، وقريش خلاصة العرب؛ ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عبد الله بن محمد بن خلاد، حدثنا يزيد، حدثنا شيبان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لا يملئ في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش أو غلمان ثقيف. وهذا إسناد صحيح^(٣). وقال أيضا: حدثنا إسماعيل بن أسد، حدثنا هود، حدثنا عرف، عن عبد الله بن فضالة، قال: لما أراد عمر أن يكتب الإمام أعدل له نفرا من أصحابه وقال: إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر^(٤)، وقد قال الله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِجْزٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ الآية [فصلت: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم ذكر البخاري، رحمه الله، حديث يعلى بن أمية أنه كان يقول: ليتنى أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي. فذكر الحديث الذي سأل عن أحرم بعمره وهو متمطخ بطيب وعليه جبة، وقال: فنظر رسول الله ﷺ ساعة ثم فجأه الوحي. فأشار عمر إلى يعلى أي: تعال، فجاء يعلى، فأدخل رأسه فإذا هو محمر الوجه يغط كذلك ساعة، ثم سرى عنه، فقال: «أين الذي سألني عن العمرة آنفا؟» فذكر أمره بنزع الجبة وغسل الطيب.

وهذا الحديث رواه جماعة^(٥) من طرق عديدة^(٦)، والكلام عليه في كتاب الحج، ولا تظهر مناسبة ما بينه وبين هذه الترجمة، ولا يكاد، ولو ذكر في الترجمة التي قبلها لكان أظهر وأبين، والله أعلم.

(١) في ج: «سفيان».

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٩٨٤).

(٣) المصاحف (ص ١٧).

(٤) المصاحف (ص ١٧).

(٥) ط، ج، الحاشية.

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٩٨٥)، وبرقم (١٨٤٧، ١٧٨٩) وصحيح مسلم برقم (١١٨٠) وسنن أبي داود برقم (١٨١٩، ١٨٢٠)

وسنن الترمذي برقم (٨٣٦) وسنن النسائي (١٣٠/٥).

جمع القرآن

قال المؤلف، رحمه الله^(١): فائدة جليلة حسنة: ثبت في الصحيحين عن أنس قال: جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة، كلهم من الأنصار؛ أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. فقيل له: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتى. وفي لفظ للبخاري عن أنس قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة؛ أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ونحن ورثناه.

قلت: أبو زيد هذا ليس بمشهور؛ لأنه مات قديماً، وقد ذكروه في أهل بدر، وقال بعضهم: سعيد ابن عبيد. ومعنى قول أنس: «ولم يجمع القرآن». يعني من الأنصار سوى هؤلاء، وإلا فمن المهاجرين جماعة كانوا يجمعون القرآن كالصديق، وابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم.

قال الشيخ أبو الحسن الأشعري، رحمه الله: قد علم بالاضطرار أن رسول الله ﷺ قدم أبا بكر في مرض الموت ليصلى بالناس، وقد ثبت في الخبر المتواتر أن رسول الله ﷺ قال: «ليوم القوم أقرؤهم»^(٢)، فلو لم يكن الصديق أقرأ القوم لما قدمه عليهم. نقله أبو بكر بن زنجويه في كتاب فضائل الصديق عن الأشعري.

وحكى القرطبي في أوائل تفسيره عن القاضي أبي بكر الباقلاني أنه قال - بعد ذكره حديث أنس ابن مالك هذا -: فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان، وعلي، وتميم الداري، وعبادة بن الصامت، وعبد الله بن عمرو بن العاص. فقول أنس: «لم يجمعه غير أربعة» يحتمل لم يأخذه تلقياً من في رسول الله ﷺ غير هؤلاء الأربعة، وأن بعضهم تلقى بعضه عن بعض. قال: وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ لأجل سبقهم إلى الإسلام، وإعظام الرسول لهم^(٣).

قال القرطبي: لم يذكر القاضي ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة، وهما ممن جمع القرآن^(٤). [نقلت هذه من على ظهر الجزء الأول من أجزاء المؤلف]^(٥). ا. هـ.

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن عبيد بن السباق، أن زيد بن ثابت قال: أرسل إلى أبو بكر - مقتل أهل اليمامة - فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر بن الخطاب أتاني، فقال: إن القتل قد استحرَّ بقرء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقرء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد

(١) في م: أقال المؤلف، رحمه الله، فيما وجد على ظهر الجزء الأول من تفسيره، وسألتني هذا في ط في آخر الفائدة.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (٦٧٢) من حديث عتبة بن عمرو، رضي الله عنه.

(٣) (٤) تفسير القرطبي (١/٥٧).

(٥) زيادة من ط.

كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما. فتبعت القرآن أجمعه من العُقب واللُخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الانصارى لم أجد لها مع غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر، رضى الله عنهم^(١).

وقد روى البخارى هذا [الحديث]^(٢) فى غير موضع من كتابه، ورواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى من طرق عن الزهري به^(٣).

وهذا من أحسن وأجل وأعظم ما فعله الصديق، رضى الله عنه، فإنه أقامه الله بعد النبى ﷺ مقاماً لا يتغى لأحد بعده، قاتل الأعداء من مانعى الزكاة، والمُرتدين، والفرس والروم، ونفذ الجيوش، وبعث البعث والسرايا، ورد الأمر إلى نصابه بعد الخوف من تفرقه وذهابه، وجمع القرآن العظيم من أماكن المتفرقة حتى تمكن القارئ من حفظه كله، وكان هذا من سر قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فجمع الصديق الخير وكف الشرور، رضى الله عنه وأرضاه. ولهذا روى غير واحد من الأئمة منهم وكيع وابن زيد وقبيصة عن سفیان الثوري عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير عن عبد خير، عن عنى بن أبى طالب، رضى الله عنه، أنه قال: أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر، إن أبى بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين^(٤). إسناده صحيح.

وقال أبو بكر بن أبى داود فى كتاب المصاحف: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا عبدة، عن هشام، عن أبيه، أن أبى بكر هو الذى جمع القرآن بعد النبى ﷺ، يقول: ختمه^(٥). صحيح أيضاً. وكان عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، هو الذى تنبه لذلك لما استحر القتلى بالقراء، أى اشتد القتل وكثر فى قراء القرآن يوم اليمامة، يعنى يوم اليمامة، يعنى يوم قتال مسيلمة الكذاب وأصحابه ومن بنى حنيفة بأرض اليمامة فى حديقة الموت، وذلك أن مسيلمة التف مع من المرتدين قريب من مائة ألف، فجهز الصديق لقتاله خالد بن الوليد فى قريب من ثلاثة عشر ألفاً، فالتقوا معهم^(٦)، فانتكشفت الجيش الإسلامى لكثرة من فيه من الأعراب، فنادى القراء من كبار الصحابة: يا خالد، يقولون: ميزنا من هؤلاء الأعراب فتميزوا^(٧) منهم، وانفردوا، فكانوا قريباً من ثلاثة آلاف، ثم صدقوا الحملة، وقاتلوا قتالاً شديداً، وجعلوا يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، فلم يزل ذلك دأبهم حتى فتح الله

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٦).

(٢) زيادة من ج.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٧٩، ٤٩٨٩) والسند (١/١) وسنن الترمذى برقم (٣٦٠٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٧٩٩٥).

(٤) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص ١٥٦) وابن أبى داود فى المصاحف (ص ١١).

(٥) المصاحف (ص ١٢). (٦) فى ج: ابهوا. (٧) فى ج: فتميزوا.

عليهم وولّى جيش الكفار^(١) فإزاء، وأتبعتهم السيوف المسلمة فى [أقنيتهم]^(٢) قتلا وأمرا، وقتل الله مسيلمة، وفرق شمل أصحابه، ثم رجعوا إلى الإسلام، ولكن قتل من القراء يومئذ قريب من خمسمائة، رضى الله عنهم، فلهذا أشار عمر على الصديق بأن يجمع القرآن؛ لئلا يذهب منه شيء بسبب موت من يكون يحفظه من الصحابة بعد ذلك فى مواطن القتال، فإذا كتب وحفظ صار ذلك محفوظا فلا فرق بين حياة من بلغه أو موته، فراجع الصديق قليلا ليثبت فى الأمر، ثم وافقه، وكذلك راجعهما زيد بن ثابت فى ذلك ثم صاروا^(٣) إلى ما رأياه، رضى الله عنهم أجمعين، وهذا المقام من أعظم فضائل زيد بن ثابت الانتصارى؛ ولهذا قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا عبد الله بن محمد بن خلّاد، حدثنا يزيد، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن؛ أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله فقيل: كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة، فقال: إنا لله، فأمر بالقرآن فجمع فكان أول من جمعه فى المصحف^(٤).

هذا منقطع، فإن الحسن لم يدرك عمر، ومعناه: أشار بجمعه فجمع؛ ولهذا كان مهينا على حفظه وجمعه كما رواه ابن أبى داود حيث قال: حدثنا أبو الطاهر^(٥)، حدثنا ابن وهب، حدثنا عمر ابن طلحة الليثى، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، أن عمر لما جمع القرآن كان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان^(٦).

وذلك عن أمر الصديق له فى ذلك، كما قال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، أخبرنى ابن أبى الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: لما استحر القتل بالقراء يومئذ فرق أبو بكر، رضى الله عنه، أن يضيع، فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت: فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه^(٧). منقطع حسن.

ولهذا قال زيد بن ثابت: وجدت آخر سورة التوبة، يعنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآيتين [التوبة: ١٢٨، ١٢٩] مع أبى خزيمه الأنصارى، وفى رواية: مع خزيمه بن ثابت الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشاهدين لم أجدها مع غيره فكتبوها عنه لأنه جعل رسول الله ﷺ شهادته بشاهدين فى قصة الفرس التى ابتاعها رسول الله ﷺ من الأعرابى، فأنكر الأعرابى البيع، فشهد خزيمه هذا بتصديق رسول الله ﷺ، فأمضى شهادته وقبض الفرس من الأعرابى. والحديث رواه أهل السنن^(٨) وهو مشهور، وروى أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية أن أبى ابن كعب أملاها عليهم مع خزيمه بن ثابت^(٩).

وقد روى ابن وهب عن عمرو^(١٠) بن طلحة الليثى، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن يحيى

(٣) فى ط: «صاروا».

(٢) فى ط: «أقنيتهم».

(١) فى ج: «الكفر».

(٤) المصاحف (ص ١٦).

(٥) فى ج: «الظاهر».

(٦) المصاحف (ص ١٧).

(٧) المصاحف (ص ١٢).

(٨) سنن أبى داود برقم (٣٦٠٧) وسنن النسائي (٣٠٢/٧).

(٩) رواه أحمد فى المسند (١٣٤/٥) من طريق عمر بن شقيق عن أبى جعفر به.

(١٠) فى ط: «عمرو».

ابن عبد الرحمن بن حاطب؛ أن عثمان شهد بذلك أيضاً^(١).

وأما قول زيد بن ثابت^(٢): «فتبعت القرآن أجمعه من العُسْبِ واللُّخافِ وصدور الرجال» وفي رواية: «من العسب والرِّقَاع والأضلاع»، وفي رواية: «من الأكتاف والأقتاب وصدور الرجال».

أما العُسْبُ فجمع عسيب. قال أبو النصر إسماعيل بن حماد الجوهري: وهو من العف فويق الكَرْب لم يثبت عليه الخوص، وما ثبت عليه الخوص فهو العف.

واللُّخاف: جمع لَخْفَة وهي القطعة من الحجارة متدقة، كانوا يكتبون عليها وعلى العسب وغير ذلك، مما يمكنهم الكتابة عليه مما يناسب ما يسمونه من القرآن من رسول الله ﷺ.

ومنهم من لم يكن يحسن الكتابة أو يثق بحفظه، فكان يحفظه، فنلقاه زيد بن ثابت من هذا من عسيبه، ومن هذا من لخافه، ومن صدر هذا، أي من حفظه وكانوا أحرص شيء على أداء الأمانات وهذا من أعظم الأمانة؛ لأن رسول الله ﷺ أودعهم ذلك ليبلغوه إلى من بعده كما قال [الله] ^(٣) تعالى: «يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» [المائدة: ٦٧]، ففعل، صلوات الله وسلامه عليه، ما أمر به؛ ولهذا سألهم في حجة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد والصحابة أوفر ما كانوا مجتمعين، فقال: «إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون^(٤)؟». فقالوا: نشهد أنك قد بَلَّغْتَ وأدَّيْتَ ونصحت، فجعل يشير بأصبعه إلى السماء، وينكبها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد». رواه مسلم عن جابر^(٥). وقد أمر أمته أن يبلغ الشاهد الغائب وقال: «بَلِّغُوا عني ولو آية»^(٦) يعني: ولو لم يكن مع أحدكم سوى آية واحدة فليزدها إلى من وراءه، فبَلِّغُوا عنه ما أمرهم به، فأدوا القرآن قرآناً، والسنة سنة، لم يلبسوا هذا بهذا؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من كتب عني سوى القرآن فليمحاه»^(٧) أي: لئلا يختلط بالقرآن، وليس معناه: ألا يحفظوا السنة ويرووها، والله أعلم.

فلهذا نعلم بالضرورة أنه لم يبق من القرآن مما أداه الرسول ﷺ إليهم إلا وقد بلغوه إلينا، والله الحمد والمنة، فكان الذي فعله الشيخان أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، من أكبر المصالح الدينية وأعظمها، من حفظهما كتاب الله في الصحف؛ لئلا يذهب منه شيء بموت من تلقاه عن رسول الله ﷺ، ثم كانت تلك الصحف عند الصديق أيام حياته، ثم أخذها عمر بعده محروسة معظمة مكرمة، فلما مات كانت عند حفصة أم المؤمنين، رضي الله عنها، حتى أخذها منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

قال البخاري، رحمه الله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، عن

(١) رواه ابن أبي داود في المصنف (ص ١٧).

(٢) (٢، ٣) زيادة من م

(٤) في ط، ح: امجبون.

(٥) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).

(٦) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو، رضي الله عنه.

(٧) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٢٩٩) من حديث أبي سعيد، رضي الله عنه.

أنس بن مالك، حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان رضى الله عنهما وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفرغ حذيفة اختلافهم فى القراءة. فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم. ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى محل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال ابن شهاب الزهري: فأخبرنى خارجة ابن زيد بن ثابت: سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، التمتاها فوجدناها مع خزيمه بن ثابت الأنصارى: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» [الأحزاب: ٢٣]، فأحقتاها فى سورتها فى المصحف^(١).

وهذا - أيضا - من أكبر مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شيء وهو جمع الناس على قراءة واحدة؛ لتلا يختلفوا فى القرآن، ووافقه على ذلك جميع الصحابة، وإنما روى عن عبد الله^(٢) بن مسعود شيء من التخصيب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف وأمر أصحابه بغل مصاحفهم لما أمر عثمان بحرقه ماعدا المصحف الإمام، ثم رجع ابن مسعود إلى الرفاق حتى قال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: لو لم يفعل ذلك عثمان لفعلته أنا. فانتقى الأئمة^(٣) أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، رضى الله عنهم، على أن ذلك من مصالح الدين، وهم الخلفاء الذين قال رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى»^(٤). وكان السبب فى هذا حذيفة بن اليمان، رضى الله عنه لما^(٥) كان غازيا فى فتح أرمينية وأذربيجان، وكان قد اجتمع هناك أهل الشام والعراق وجعل حذيفة يسمع منهم قراءات على حروف شتى، ورأى منهم اختلافًا وافتراقًا، فلما رجع إلى عثمان أعلمه وقال لعثمان: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

وذلك أن اليهود والنصارى مختلفون فيما بأيديهم من الكتب، فاليهود بأيديهم نسخة من التوراة، والسامرة يخالفونهم فى ألفاظ كثيرة ومعان أيضا، وليس فى توراة السامرة حرف الهمزة ولا حرف الياء، والنصارى - أيضا - بأيديهم توراة يسمونها العتيقة وهى مخالفة لنسختى اليهود والسامرة، وأما

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٨٧، ٤٩٨٨).

(٢) فى ط، ج: «عبد الرحمن».

(٣) رواه أحمد فى المسند (١٢٦/٤) وأبو داود فى السنن برقم (٤٦٠٧) والترمذى فى السنن برقم (٢٦٧٦) وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

(٤) فى ط، ج: «فإنه».

الأنجيل التي بأيدي النصارى فأربعة: إنجيل مرقس، وإنجيل لوقا وإنجيل متى، وإنجيل يوحنا، وهي مختلفة - أيضا - اختلافا كثيرا، وهذه الأنجيل الأربعة كل منها لطيف الحجم منها ما هو قريب من أربع عشرة ورقة بخط متوسط، ومنها ما هو أكثر من ذلك إما بالنصف أو بالضعف، ومضمونها سيرة عيسى وأيامه وأحكامه وكلامه وفيه شيء قليل مما يدعون أنه كلام الله، وهي مع هذا مختلفة، كما قلنا، وكذلك التوراة مع ما فيها من التبديل والتحريف، ثم هما منسوخان بعد ذلك بهذه الشريعة المحمدية المظهرة.

فلما قال حذيفة لعثمان ذلك أفزعه وأرسل إلى حفصة أم المؤمنين أن ترسل إليه بالصحف التي عندها مما جمعه الشيخان ليكتب ذلك في مصحف واحد، ويتفذه إلى الأفاق، ويجمع الناس على القراءة به وترك ما سواه، ففعلت حفصة وأمر عثمان هؤلاء الأربعة وهم زيد بن ثابت الانصارى، أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ، وعبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أحد فقهاء الصحابة ونجائبهم علما وعملا وأصلا وفضلا، وسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي، وكان كريما جوادا ممدحا، وكان أشبه الناس لهجة برسول الله ﷺ وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي. فجلس هؤلاء النفر يكتبون القرآن نسخا، وإذا اختلفوا في وضع الكتابة على أي لغة رجعوا إلى عثمان، كما اختلفوا في التابوت أكتبونه بالباء والهاء، فقال زيد بن ثابت: إنما هو التابوت. وقال الثلاثة القرشيون: إنما هو التابوت فراجعوا^(١) إلى عثمان فقال: أكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم.

وكان عثمان - والله أعلم - رتب السور في المصحف، وقدم السبع الطوال وثني بالمئين؛ ولهذا روى ابن جرير وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث غير واحد من الأئمة الكبار، عن عوف الأعرابي، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتم بينها ولم تكتبوا بينها سطر «بسم الله الرحمن الرحيم»، ووضعتموها في السبع الطوال؟ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، فإذا أنزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وحسبت أنها منها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» فوضعتها في السبع الطوال^(٢).

(١) في ط: «فراجعوا».

(٢) تفسير الطبري (١/٢٠٢) وسنن أبي داود برقم (٧٨٦) وسنن الترمذي برقم (٣٠٨٦) وسنن النسائي الكبير برقم (٧٠٠٧) ويزيد الفارسي مجهول وقد انفرد بهذا الحديث.

ففهم من هذا الحديث أن ترتيب الآيات والصور أمر توقيفي متلقى عن الرسول ﷺ، وأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه؛ ولهذا ليس لأحد أن يقرأ القرآن إلا مرتباً؛ فإن نكسه أخطأ خطأ كبيراً. وأما ترتيب السور فمتحب اقتداء بعثمان، رضى الله عنه، والأولى إذا قرأ أن يقرأ متوالياً كما قرأ عليه، الصلاة والسلام، فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين وتارة بسبح وهل أتاك حديث الغاشية، فإن فرق جاز، كما صح أن رسول الله ﷺ قرأ فى العيد بقاف واتقربت الساعة، رواه مسلم عن أبى واقد^(١) فى الصحيحين عن أبى هريرة، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة: الم كالسجدة، وهل أتى على الإنسان^(٢).

وإن قدم بعض السور على بعض جاز أيضاً، فقد روى حذيفة أن رسول الله ﷺ قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران. أخرجه مسلم^(٣).

وقرأ عمر فى الفجر بسورة النحل ثم بيوسف. ثم إن عثمان رد المصحف إلى حفصة، فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مروان بن الحكم يطلبها فلم تعطه حتى ماتت، فأخذها من عبد الله بن عمر فحرقها لثلاث يكون فيها شيء يخالف المصاحف التى نفذها عثمان إلى الآفاق، مصحفاً إلى أهل مكة، ومصحفاً إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وترك عند أهل المدينة مصحفاً، رواه أبو بكر بن أبى داود عن أبى حاتم السجستاني، سمعه يقول^(٤). وصحح القرطبي أنه إنما نفذ إلى الآفاق أربعة مصاحف. وهذا غريب، وأمر بما عدا ذلك من مصاحف الناس أن يحرق لثلاث تختلف قراءات الناس فى الآفاق، وقد وافقه الصحابة فى عصره على ذلك ولم ينكره أحد منهم، وإنما نقم عليه ذلك أولئك الرهط الذين تمازؤوا عليه وقتلوه، قاتلهم الله، وفى ذلك جملة ما أنكروه مما لا أصل له، وأما سادات المسلمين من الصحابة، ومن نشأ فى عصرهم ذلك من التابعين، فكلهم وافقوه.

قال أبو داود الطيالسي وابن مهدي وعُندَر عن شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن رجل، عن سويد ابن غفلة، قال على حين حرق عثمان المصاحف: لو لم يصنعه هو لصنعت^(٥).

وقال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق^(٦)، عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص، قال: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد^(٧). وهذا إسناده صحيح.

وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصواف، حدثنا يحيى بن كثير، حدثنا ثابت بن عمار

(١) صحيح مسلم برقم (٨٩٦).

(٢) صحيح البخارى برقم (٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (٨٨٠).

(٣) صحيح مسلم برقم (٧٧٢).

(٤) المصاحف لابن أبى داود (ص ٤٤٣).

(٥) رواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص ١٩).

(٦) فى ج ١، أبى مصعب.

(٧) المصاحف (ص ١٩).

الحنفى، قال: سمعت غنيم بن قيس المازنى قال: قرأت القرآن على الحرفين جميعا، والله ما يسنى أن عثمان لم يكتب المصحف، وأنه ولد لكل مسلم كلما أصبح غلام، فأصبح له مثل ماله. قال: قلنا له: يا أبا العنبر، ولم؟ قال: لو لم يكتب عثمان المصحف لطفق الناس يقرؤون الشعر^(١).

حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا محمد بن عبد الله، حدثني عمران بن حدير، عن أبي مجلز قال: لولا أن عثمان كتب القرآن لألفيت الناس يقرؤون الشعر. حدثنا أحمد بن سنان قال: سمعت ابن مهدي يقول: حصلتان لعثمان بن عفان لستا لأبي بكر ولا لعمر: صبره نفسه حتى قتل مظلوماً، وجمعه الناس على المصحف^(٢).

وأما عبد الله بن مسعود فقد قال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن حميد^(٣) بن مالك قال: لما أمر عثمان بالمصاحف - يعنى بتحريقها - ساء ذلك عبد الله بن مسعود وقال: من استطاع منكم أن يقل مصحفاً فليغلل، فإنه من غل شيئاً جاء بما غل يوم القيامة.

ثم قال عبد الله: لقد قرأت القرآن من في رسول الله ﷺ سبعين سورة وزيد صبى، أفاترك ما أخذت من في رسول الله ﷺ^(٤).

وقال أبو بكر: حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان، حدثنا سعيد بن سليمان^(٥)، حدثنا ابن شهاب، عن الأعمش، عن أبي وائل، قال: خطبنا ابن مسعود على المنبر فقال: ﴿وَمَنْ يَقُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، غلوا مصاحفكم، وكيف تأمرونى أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت، وقد قرأت القرآن من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليأتى مع الغلمان له ذؤابتان، والله ما نزل من القرآن شيء إلا وأنا أعلم فى أى شيء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله منى، وما أنا بخيركم، ولو أعلم مكانا تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله منى لأتيته. قال أبو وائل: فلما نزل عن^(٦) المنبر جلست فى الخلق، فما أحد ينكر ما قال^(٧). أصل هذا مخرج فى الصحيحين^(٨) وعندهما: ولقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله. وقول أبي وائل: «فما أحد ينكر ما قال»، يعنى: من فضله وعلمه وحفظه، والله أعلم.

وأما أمره بقل المصاحف وكتماها، فقد أنكره عليه غير واحد. قال الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، قال: قدمت الشام فلقيت أبا الدرداء، فقال: كنا نعد عبد الله جباناً^(٩)، فما باله يواثب الأمراء^(١٠). وقال أبو بكر بن أبي داود: باب رضا عبد الله بن مسعود بجمع عثمان المصاحف بعد ذلك: حدثنا عبد الله بن سعيد ومحمد بن عثمان العجلي قالوا: حدثنا أبو أسامة، حدثني الوليد بن قيس، عن عثمان بن حسان العامري، عن قُلفلة الجعفى قال: فرغت فيمن فرغ إلى عبد الله فى

(١) المصاحف (ص ١٩).

(٢) فى ج: عمير.

(٣) المصاحف (ص ٢١).

(٤) فى ج: سليمان.

(٥) المصاحف (ص ٢٣).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٠٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٢).

(٧) فى المصاحف: «سنان».

(٨) المصاحف (ص ٢٥).

(٩) فى ج: من.

(١٠) فى ط، ج: أبو.

المصاحف، فدخلنا عليه، فقال رجل من القوم: إنا لم نأتك زائرين، ولكننا جئنا حين راعنا هذا الخبر، فقال: إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب، على سبعة أحرف - أو حروف - وإن الكتاب قبلكم كان ينزل - أو نزل - من باب واحد على حرف واحد^(١). وهذا الذي استدل به أبو بكر، رحمه الله، على رجوع ابن مسعود فيه نظر، من جهة أنه لا يظهر من هذا اللفظ رجوع عما كان يذهب إليه، والله أعلم.

وقال أبو بكر أيضا: حدثنا عمي، حدثنا أبو رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخطب الناس فقال: [يا]^(٢) أيها الناس عهدكم ببيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن، وتقولون: قراءة أبي وقراءة عبد الله، يقول الرجل: والله ما تقيم قراءتك وأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله لما جاء به، فكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم: لسمعت رسول الله ﷺ أمله عليك فيقول: نعم، فلما فرغ من ذلك عثمان قال: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت. قال: فأى الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص. قال عثمان: فليمل سعيد، وليكتب زيد. فكتب زيد مصاحف ففرقتها في الناس، فسمعت بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقولون^(٣): قد أحسن^(٤). إسناده^(٥) صحيح.

وقال أيضا: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن كثير بن أفلح قال: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قریش والأنصار، فيهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت، قال: فبعثوا إلى الربعة التي في بيت عمر فجيء بها، قال: وكان عثمان يتعاهدهم، وكانوا إذا تدارؤوا في شيء آخره. قال محمد: فقلت لكثير - وكان فيهم فيمن يكتب -: هل تدرون لم كانوا يؤخرونها؟ قال: لا. قال محمد: فظننت ظنا إنما كانوا يؤخرونها لينظروا أحدثهم عهدا بالعرضة الأخيرة فيكتبونها على قوله^(٦). صحيح أيضا.

قلت: الربعة هي الكتب المجتمعة، وكانت عند حفصة، رضى الله عنها، فلما جمعها عثمان، رضى الله عنه، في المصحف، ردها إليها، ولم يحرقها في جملة ما حرقه مما سواها، إلا أنها هي بعينها الذي كتبه، وإنما رتبته، ثم إنه كان قد عاهدما على أن يردها إليها، فما زالت عندها حتى ماتت، ثم أخذها مروان بن الحكم فحرقها وتآول في ذلك ما تآول^(٧) عثمان، كما رواه أبو بكر بن أبي داود:

حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، أخبرني سالم بن عبد الله:

(١) المصاحف (ص ٢٥).

(٢) زيادة من جء، ط.

(٣) في ط، جء: «يقول».

(٤) المصاحف (ص ٣١).

(٥) في جء، ط: «إسناده».

(٦) المصاحف (ص ٣٣).

(٧) في ط: «أول».

أن مروان كان يرسل إلى حفصة يسألها الصحف التي كتب منها القرآن، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها. قال سالم: فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلن إليه بتلك الصحف، فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر فأمر بها مروان فشقت، وقال مروان: إنما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف، فخشيت إن طال بالناس زمان^(١) أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب أو يقول: إنه كان شيء منها لم يكتب^(٢). إسناده صحيح.

وأما ما رواه الزهري^(٣) عن خارجة عن أبيه في شأن آية الأحزاب وإلحاقهم إياها في سورتها، فذكره^(٤) لهذا بعد جمع عثمان فيه نظر، وإنما هذا كان حال جمع الصديقين الصحف كما جاء مصرحاً به في غير هذه الرواية عن الزهري، عن عبيد بن السباق، عن زيد بن ثابت، والدليل على ذلك أنه قال: «فألحقناها^(٥) في سورتها من الصحف» وليست هذه الآية ملحقة في الحاشية في المصاحف العثمانية. فهذه الأفعال^(٦) من أكبر القربات التي بادر إليها الأئمة الراشدون أبو بكر وعمر، رضى الله عنهما، حفظا على الناس القرآن، جمعاه لئلا يذهب منه شيء، وعثمان، رضى الله عنه، جمع قراءات الناس على مصحف واحد ووضع على العريضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، فإنه عارضه به عامئذ مرتين: ولهذا قال رسول الله ﷺ لفاطمة ابنته لما مرض: «وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي». أخرجه في الصحيحين^(٧).

وقد روى أن علياً، رضى الله عنه، أراد أن يجمع القرآن بعد رسول الله ﷺ مرتباً بحسب نزوله أولاً فاولاً، كما رواه^(٨) ابن أبي داود حيث قال: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا ابن فضيل، عن أشعث، عن محمد بن سيرين قال: لما توفي النبي ﷺ أقسم على ألا يرتدى برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ففعل، فأرسل، إليه أبو بكر، رضى الله عنه، بعد أيام: أكرهت إمارتي يا أبا الحسن؟ فقال: لا والله إلا أنني أقسمت ألا ارتدى برداء إلا لجمعة. فبايعه ثم رجع^(٩). هكذا رواه وفيه انقطاع، ثم قال: لم يذكر المصحف أحد إلا أشعث^(١٠)، وهو لين الحديث^(١١)، وإنما روي^(١٢): حتى أجمع القرآن، يعني أتم حفظه، فإنه يقال للذي يحفظ القرآن: قد جمع القرآن.

قلت: وهذا الذي قاله أبو بكر أظهر، والله أعلم، فإن علياً لم ينقل عنه مصحف على ما قيل ولا غير ذلك، ولكن قد توجد مصاحف على الوضع العثماني، يقال: إنها بخط علي، رضى الله عنه، وفي ذلك نظر، فإنه في بعضها: كتب علي بن أبي طالب، وهذا حن من الكلام^(١٣)، وعلي،

(١) في ج: الزمان.

(٢) المصاحف (ص ٣٢).

(٣) رواه ابن أبي داود في المصاحف (ص ٣٧) عن الزهري.

(٤) في ج: «فذكر».

(٥) في ط: ح: «وأخفها».

(٦) في ح: «الآيات».

(٧) صحيح البخاري برقم (١٢٨٥ - ١٢٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٤٥٠).

(٨) في ج: «روي».

(٩) المصاحف (ص ١٦).

(١٠) في ج: «الأشعث».

(١١) في ج: ط: «وهو بن الخرت».

(١٢) في ج: ط: «رواه».

(١٣) وقد ذكر كوركيس عواده في كتابه «أقدم مخطوطات في العالم» بعض هذه المصاحف وما كتبها وأرقانها في إيران وطاشكند، ولا يشك عاقل أنها ليست من خط علي، رضى الله عنه.

رضى الله عنه، من أبعده الناس عن ذلك فإنه كما هو المشهور عنه هو أول من وضع علم النحو، فيما رواه عنه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي، وأنه قسم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، وذكر أشياء أخر تمها أبو الأسود بعده، ثم أخذته الناس عن أبي الأسود فوسعوه ووضحوه، وصار علما مستقلا.

وأما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعصومة بذكر الله، وقد كانت قديماً بمدينة طبرية ثم نقل منها إلى دمشق في حدود ثمان عشرة وخمسمائة، وقد رأيت كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوى بحير محكم في رق أظنه من جلود الإبل، والله أعلم، زاده الله تشريفاً وتكريماً وتعظيماً^(١).

فأما عثمان، رضي الله عنه، فما يعرف أنه كتب بخطه هذه المصاحف، وإنما كتبها زيد بن ثابت في أيامه، ربما وغيره، فنسبت إلى عثمان لأنها بأمره وإشارته، ثم قرئت على الصحابة بين يدي عثمان، ثم نفذت إلى الآفاق، رضي الله عنه، وقد قال أبو بكر بن أبي داود:

حدثنا علي بن حرب الطائفي، حدثنا قريش^(٢) بن أنس، حدثنا سفيان التيمي، عن أبي نصر، عن أبي سعيد مولى بني أمية^(٣)، قال: لما دخل المصريون على عثمان ضربه بالسيف على يده فرقت على: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فمد يده فرقت: والله إنها لأول يد خطت المفصل^(٤).

وقال أيضاً: حدثنا أبو طاهر، حدثنا ابن وهب قال: سألت مالكا عن مصحف عثمان، فقال لي: ذهب. يحتمل أنه سأله عن المصحف الذي كتبه بيده، ويحتمل أن يكون سأله عن المصحف الذي تركه في المدينة، والله أعلم.

قلت: وقد كانت الكتابة في العرب قليلة جداً، وإنما أول ما تعلموا ذلك ما^(٥) ذكره هشام بن محمد بن السائب الكلبي وغيره: أن بشر بن عبد الملك أكيدر دومة تعلم الخط من الأنبار، ثم قدم مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية فعلمه حرب بن أمية وابنه سفيان، وتعلمه عمر بن الخطاب من حرب بن أمية، وتعلمه معاوية من عمه سفيان بن حرب، وقيل: إن أول من تعلمه من الأنبار قوم من طيء من قرية هناك يقال لها: بقة، ثم هذبوه ونشروه في جزيرة العرب فتعلمه الناس. ولهذا قال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا عبد الله بن محمد الزهري، حدثنا سفيان عن مجاهد عن الشعبي قال: سألتنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الحيرة. وسألنا أهل الحيرة: من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الأنبار^(٦).

قلت: والذي كان يغلب على زمان السلف الكتابة المكتوفة ثم هذبها أبو علي مقلة الوزير، وصار

(١) ذكر كوريس عواده في كتابه المتقدم ذكره (ص ٣٤) أن مصحفاً في متحف الآثار الإسلامية بدار مكتبة علي الرقي كتب في آخره أنه مصحف عثمان، رضي الله عنه، وهو في هذا المصحف برقم (٤٥٧).

(٢) في ج: ابونس، (٣) في ط: جد: الي.

(٤) في ج: ابونس،

(٥) لم نجد هذا الأثر والذي بعده في المصاحف.

(٦) في ط: جد: كما.

(٧) المصاحف (ص ٩).

له في ذلك منهج وأسلوب في الكتابة، ثم قربها على بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب وسلك الناس وراءه. وطريقته في ذلك واضحة جيدة. والغرض أن الكتابه لما كانت في ذلك الزمان لم تحكم جيدا، وقع في كتابة المصاحف اختلاف في وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة لا من حيث المعنى، وصنف الناس في ذلك، واعتنى بذلك الإمام الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، في كتابه فضائل القرآن^(١)، والحافظ أبو بكر بن أبي داود، رحمه الله، فبينا على ذلك^(٢)، وذكر قطعة صالحة هي من صناعة القرآن، ليست مقصدنا هنا؛ ولهذا نص الإمام مالك، رحمه الله، على أنه لا توضع المصاحف إلا على وضع كتابة الإمام، ورخص في ذلك غيره، واختلفوا في الشكل والنقطة فمن مرخص ومن مانع. فأما كتابة السور وآياتها والتعشير والأجزاء والأحزاب فكثير^(٣) في مصاحف زماننا، والأولى اتباع السلف الصالح.

ثم قال البخاري: ذكر كتاب النبي ﷺ. وأورد فيه من حديث الزهري، عن ابن السباق، عن زيد بن ثابت، أن أبا بكر الصديق قال له: وكنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ وذكر نحو ما تقدم في^(٤) جمعه للقرآن^(٥)، وقد تقدم. وأورد حديث زيد بن ثابت في نزول: **لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرُورَةِ** [النساء: ٩٥]^(٦)، وميأتي الكلام عليه في سورة النساء إن شاء الله تعالى، ولم يذكر البخاري أحداً من الكتاب في هذا الباب سوى زيد بن ثابت، وهذا عجب. وكأنه لم يقع له حديث يورده سوى هذا، والله أعلم.

وموضع هذا في كتاب السيرة عند ذكر كتابه عليه السلام.

ثم قال البخاري، رحمه الله:

أنزل القرآن على سبعة أحرف

حدثنا سعيد بن عفير، حدثنا الليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: حدثني عبيد الله بن عبد الله؛ أن عبد الله بن عباس حدثه: أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأتني جبريل على حرف فراجعتة، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»^(٧).

وقد رواه - أيضاً - في بدء الخلق، ومسلم من حديث يونس، ومسلم - أيضاً - من حديث معمر، كلاهما عن الزهري بنحوه^(٨)، ورواه ابن جرير من حديث الزهري به^(٩)، ثم قال الزهري: بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً لا تختلف في حلال ولا في حرام.

(١) فضائل القرآن (ص ٢٣٧ - ٢٤٣).

(٢) المصاحف (ص ١٤٥ - ١٧٦).

(٣) في ط، ج: افكرو.

(٤) في ط، ج: افكرو.

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٩٨٩).

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٩٩٠).

(٧) صحيح البخاري برقم (٤٩٩١).

(٨) في ج: نحوه.

(٩) صحيح البخاري برقم (٣٢١٩) وصحيح مسلم برقم (٨١٩) وتفسير الطبري (٢٩/١).

وهذا مبسوط في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام حيث قال:

حدثنا يزيد ويحيى بن سعيد كلاهما عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك، عن أبي بن كعب قال: ما حاك في صدري شيء منذ أسلمت، إلا أننى قرأت آية وقرأها آخر غير قراءتى فقلت: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فأمس رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أقرأتنى آية كذا وكذا؟ قال: «نعم»، وقال الآخر: اليس نقرأنى آية كذا وكذا؟ قال: «نعم». فقال: «إن جبريل وميكائيل أتاني فتعد جبريل عن يمينى وميكائيل عن يسارى، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ سبعة أحرف وكل حرف شاف كاف»^(١).

وقد رواه النسائي من حديث يزيد - وهو ابن هارون - ويحيى بن سعيد القظان كلاهما عن حميد الطويل، عن أنس، عن أبي بن كعب بنحوه^(٢). وكذا رواه ابن أبي عدى ومحمود^(٣) بن ميمون الزعفراني ويحيى بن أيوب كلهم عن حميد به^(٤). وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حميد، عن أنس، عن عبادة بن الصامت، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» فأدخل بينهما عبادة بن الصامت^(٥).

وقال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل بن أبي خالد، حدثنى عبد الله بن عيسى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب، قال: كنت في المسجد فدخل رجل فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فقمنا جميعاً، فدخلنا على رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل هذا فقرأ قراءة غير قراءة صاحبه، فقال لهما النبي ﷺ: «اقرأ»، فقرأ، فقال: «أصبتما». فلما قال لهما النبي ﷺ الذى قال كبر على ولا إذا كنت في الجاهلية، فلما رأى الذى عشيى ضرب في صدري ففضضت عرقاً، وكأنا أنظر إلى [رسول] الله ﷺ فرقا فقال: «يا أبا بنى، إن ربي أرسل إلى أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هون على أمتى، فأرسل إلى أن اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتى، فأرسل إلى أن اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة مسألة تسألنيها». قال: «قلت: اللهم اغفر لأمتى، اللهم اغفر لأمتى، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى فيه الخلق حتى إبراهيم عليه السلام». وهكذا رواه مسلم من حديث إسماعيل بن أبي خالد به^(٦).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا محمد بن فضيل، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، عن جده، عن أبي بن كعب، قال: قال

(١) فضائل القرآن (ص ٢٠٦).

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٩٨٦).

(٣) في ط، ج: «محمد».

(٤) رواه الطبري في تفسيره (٣٣/١).

(٥) تفسير الطبري (٣٤/١).

(٦) زيادة من ج.

(٧) المسند (١٢٧/٥) وصحيح مسلم برقم (٨٢٠).

رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: خفف عن أمتي، فقال^(١): اقرأه على حرفين، فقلت: اللهم رب خفف عن أمتي، فأمرني أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة كلها شاف كاف^(٢)».

وقال ابن جرير: حدثنا يونس عن ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن عبيد الله بن عمر، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب، أنه قال: سمعت رجلاً يقرأ في سورة النحل قراءة تخالف قراءتي، ثم سمعت آخر يقرأها بخلاف ذلك، فانطلقت بهما إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذين يقرآن في سورة النحل فسألتهما: من أقرأكما^(٣)؟ فقالا: رسول الله ﷺ، فقلت: لأذهبن بكما إلى رسول الله ﷺ إذ خالفتما ما أقرآني رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأحدهما: «اقرأ». فقرا، فقال: «أحسنت» ثم قال للآخر: «اقرأ». فقرا، فقال: «أحسنت». قال أبي: فوجدت في نفسي وسوسة الشيطان حتى احمر وجهي، فعرف ذلك رسول الله ﷺ في وجهي، فضرب يده في صدرى ثم قال: «اللهم أحسى^(٤) الشيطان عنه، يا أباي، أتاني آت من ربي فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: رب، خفف عني، ثم أتاني الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين^(٥) فقلت: رب، خفف عن أمتي، ثم أتاني الثالثة، فقال: مثل ذلك وقلت له مثل ذلك، ثم أتاني الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف، ولك بكل ردة مسألة، فقلت: يارب، اللهم اغفر لأمي، يارب، اغفر لأمي، واختبات الثالثة شفاعة لأمي يوم القيامة^(٦)». إسناده صحيح.

قلت: وهذا الشك الذي حصل لأبي في تلك الساعة هو، والله أعلم، السبب الذي لأجله قرأ عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وإعلام ودواء لما كان حصل له سورة «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ آخِرِهَا لِاسْتِمَالِهَا عَلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢، ٣]، وهذا نظير تلاوته سورة الفتح حين أنزلت مرجعه، عليه السلام، من الخديبية على عمر بن الخطاب، وذلك لما كان تقدم له من الأسئلة لرسول الله ﷺ ولأبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوُؤْيَا بِالْحَقِّ لِنُدْخِلَنَّهُ الصُّجُودَ الْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثني، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن أبي ليلى، عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ كان عند أخبية بني غفار، فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، قال: «أسألك الله معافاته ومغفرته، فإن أمي لا تطيق ذلك». ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين. قال:

(١) في ط: ج: «قال».

(٢) تفسير الطبري (١/٣٧).

(٣) في ط: ج: «أقرأهما».

(٤) في ج: «أذهب».

(٥) تفسير الطبري (١/٤١).

(٦) في ط: ج: «ثم لأبي».

(٥) في ط: ح: «حرف واحد».

«أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمتي لا تطيق ذلك». ثم جاءه الثالثة قال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف قال: «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك». ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأبما حرف قوؤوا عليه فقد أصابوا^(١).

وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من رواية شعبة به، وفي لفظ لأبي داود عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا، إني أقرئت القرآن فقيل لي: على حرف أو حرفين؟ فقال الملك الذي معنى: قال على حرفين. قلت: على حرفين. فقيل لي: على حرفين أو ثلاثة؟ فقال الملك الذي معنى: قل على ثلاثة. قلت: على ثلاثة. حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال: ليس منها إلا شاف كاف إن قلت: سمعنا عليهما، عزيزا حكيما، ما لم تختتم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب»^(٢).

وقد روى ثابت بن قاسم نحو ما هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ^(٣) ومن كلام ابن مسعود، رضى الله عنه، نحو ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن علي الجعفي، عن زائدة، عن عاصم، عن زر، عن أبي قال: لقي رسول الله ﷺ عند أحجار المراء، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: «إني بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ العاسي، والعجوز الكبيرة، والغلام، فقال: مرهم فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف»^(٤).

وأخرجه الترمذي من حديث عاصم بن أبي النجود، عن زر، عن أبي بن كعب، به^(٥)، وقال: حسن صحيح.

وقد رواه أبو عبيد عن أبي النضر، عن شيبان، عن عاصم بن أبي النجود، عن زر، عن حذيفة أن رسول الله ﷺ لقي جبريل عند أحجار المراء، فذكر الحديث^(٦)، والله أعلم.

وهكذا رواه الإمام أحمد عن عفان، عن حماد، عن عاصم، عن زر، عن حذيفة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «القيت جبريل عند أحجار المراء، فقلت: يا جبريل، إني أرسلت إلى أمة أمية؛ الرجل، والمرأة، والغلام، والجارية، والشيخ الفاني، الذي لم يقرأ كتاب قط فقال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»^(٧).

وقال أحمد أيضا: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن ربيع بن حراش: حدثني من لم يكذبني - يعني حذيفة - قال: لقي النبي ﷺ جبريل عند أحجار المراء

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (٨٢-) وسنن أبي داود برقم (١٤٧٨) وسنن النسائي (١٥٣/٢).

(٣) ورواه أحمد في المسند (٢/ ٢٣٢، ٤٤٠) من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، رضى الله عنه.

(٤) المسند (٥/ ١٣٢) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٧٣٩) «سواردا» من طريق زائدة به مثله.

(٥) سنن الترمذي برقم (٢٩٤٤).

(٦) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ٢٠٢).

(٧) المسند (٥/ ٣٩١، ٤٠).

فقال: إن أمك يقرؤون القرآن على سبعة أحرف، فمن قرأ منهم على حرف فليقرأ كما علم، ولا يرجع عنه. وقال عبد الرحمن: إن في أمك الضعيف، فمن قرأ على حرف فلا يتحول منه إلى غيره رغبة عنه^(١). وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه.

حديث آخر في معناه عن سليمان بن صرد: قال ابن جرير: حدثنا إسماعيل بن موسى السدي، حدثنا شريك عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد - يرفعه - قال: «أتاني ملكان، فقال أحدهما: اقرأ. قال: على كم؟ قال: على حرف. قال: زده، حتى انتهى إلى سبعة أحرف»^(٢). ورواه النسائي في اليوم والليلة عن عبد الرحمن بن محمد بن سلام عن إسحاق الأزرق عن العوام بن حوشب، عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد قال: أتى أبي بن كعب رسول الله ﷺ برجلين اختلفا في القراءة، فذكر الحديث^(٣).

وهكذا رواه أحمد بن محمد بن مَيْمُون عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب به، ورواه أبو عبيد عن يزيد بن هارون، عن العوام، عن أبي إسحاق، عن سليمان بن صرد، عن أبي أنه أتى النبي ﷺ برجلين، فذكره^(٤).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن فلان العبدى - قال ابن جرير: ذهب عنى اسمه - عن سليمان بن صرد، عن أبي بن كعب قال: رحمت إلى المسجد، فسمعت رجلاً يقرأ فقلت: من أقرأك؟ قال: رسول الله ﷺ، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: استقرئ هذا. قال: اقرأ، فقال: «أحسنت». قال: قلت: إنك أقرأتني كذا وكذا! فقال: «وأنت قد أحسنت». فقلت: قد أحسنت قد أحسنت. قال: فضرب يده على صدرى ثم قال: «اللهم أذهب عن أبي الشك». قال: ففضت عرقاً، وامتلا جوفى فرقاً. قال: ثم قال: «إن الملكين أتاني، فقال أحدهما: اقرأ القرآن على حرف، وقال الآخر: زده. قال: قلت: زدني. فقال^(٥): اقرأ على حرفين، حتى بلغ سبعة أحرف فقال: اقرأ على سبعة أحرف»^(٦).

وقد رواه أبو عبيد عن حجاج، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن شير^(٧) العبدى، عن سليمان بن صرد^(٨) عن أبي، عن النبي ﷺ بنحو ذلك^(٩)، ورواه أبو داود عن أبي داود الطيالسي، عن همام، عن قتادة، عن يحيى بن يعمر، عن سليمان بن صرد، عن أبي بن كعب بنحو^(١٠).

(١) السنن (٥/٣٨٥، ٤٠١).

(٢) تفسير الطبري (١/٣٠).

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٥٠٦).

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ٢٠١).

(٥) ص ٤، جزء ١.

(٦) تفسير الطبري (١/٣٢).

(٧) في فضائل أبي عبيد: «صغير».

(٨) في ط، جزء ١، حددا.

(٩) فضائل القرآن (ص ٢٠٢).

(١٠) سنن أبي داود برقم (١٤٧٧).

فهذا الحديث محفوظ من حيث الجملة عن أبي بن كعب، والظاهر أن سليمان بن صرد الخزاعي شاهد على ذلك، والله أعلم.

حديث آخر عن أبي بكر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «أثنى جبريل وميكائيل، عليهما السلام، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف واحد، فقال ميكائيل: استرده، فقال: اقرأ على سبعة أحرف، كلها شاف كاف، ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب^(١) أو آية عذاب برحمة^(٢)».

وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب، عن زيد بن الحباب، عن حماد بن سلمة به، وزاد في آخره كقولك: هلم وتعال^(٣).

حديث آخر عن سمرة: قال الإمام أحمد: حدثنا بهز وعفان كلاهما عن حماد بن سلمة، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف». إسناد صحيح، ولم يخرجوه^(٤).

حديث آخر عن أبي هريرة: قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثني أبو حازم، عن أبي سلمة - لا أعلمه إلا عن أبي هريرة - أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، مرأه في القرآن كثر - ثلاث مرات - فما علمتم منه فاعملوا وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». ورواه النسائي عن قتيبة عن أبي ضمرة أنس بن عياض به^(٥).

حديث آخر عن أم أيوب: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عبيد الله وهو ابن أبي يزيد - عن أبيه، عن أم أيوب - يعني امرأة أبي أيوب الأنصارية - أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، أيها قرأت جزاك^(٦)»^(٧). وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه أحد من أصحاب الكتب الستة.

حديث آخر عن أبي جهيم: قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن يزيد بن خصيفة، عن مسلم بن سعيد مولى الحضرمي^(٨)، وقال غيره: عن بسر بن سعيد، عن أبي جهيم الأنصاري؛ أن رجلين اختلفا في آية من القرآن، كلاهما يزعم أنه تلاها من رسول الله ﷺ، فمشيا جميعا حتى أتيا رسول الله ﷺ، فذكر أبو جهيم أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فلا

(١) في ط، ج: «ما لم تختم آية رحمة بعذاب».

(٢) المسند (٥/٤١).

(٣) تفسير الطبري (١/٤٢).

(٤) المسند (٥/١٦).

(٥) المسند (٢/٣٠٠) وسنن النسائي الكبرى برقم (٩٢-٨).

(٦) في ط: «أجزأه».

(٧) المسند (٦/٤٣٣، ٤٦٢).

(٨) في فضائل أبي عبيد: مولى ابن الحضرمي.

ثمّاروا، فإن مرء فيه كفر^(١). هكذا رواه أبو عبيد على الشك^(٢)، وقد رواه الإمام أحمد على الصواب، فقال: حدثنا أبو سلمة الخزامي، حدثنا سليمان بن بلال، حدثني يزيد بن خصيفة، أخبرني بسر بن سعيد، حدثني أبو جهيم؛ أن رجلين اختلفا في آية من القرآن فقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ وقال هذا: تلقيتها من رسول الله ﷺ فسألا النبي ﷺ فقال: «القرآن يقرأ على سبعة أحرف، فلا تماروا في القرآن، فإن مرء في القرآن كفر»^(٣). وهذا إسناده صحيح - أيضا - ولم يخرجوه.

ثم قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث، عن يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن بسر^(٤) بن سعيد، عن أبي قيس - مولى عمرو بن العاص - أن رجلا قرأ آية من القرآن، فقال له عمرو - يعني ابن العاص -: إنما هي كذا وكذا، بغير ما قرأ الرجل، فقال الرجل: هكذا أقرانيها رسول الله ﷺ [فخرجوا إلى رسول الله ﷺ]^(٥) حتى أتياه، فذكروا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فأى ذلك قرأتم أصبتم، فلا تماروا في القرآن، فإن مرء فيه كفر»^(٦). ورواه الإمام أحمد عن أبي سلمة الخزامي، عن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخزومة، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن بسر^(٧) بن سعيد، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص به نحوه، وفيه: «فإن المرء فيه كفر أو إنه الكفر به»^(٨). وهذا - أيضا - حديث جيد^(٩).

حديث آخر عن ابن مسعود: قال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني حيرة بن شريح، عن عقيل بن خالد، عن سلمة بن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الكتاب الأول نزل من باب واحد وعلى حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف: زاجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فأحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا»^(١٠). ثم رواه عن أبي كريب عن المحاربي، عن ضمرة بن حبيب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن ابن مسعود من كلامه^(١١) وهو أشبه^(١٢). والله أعلم.

(١) فضائل القرآن (ص ٢٠٢).

(٢) قال الشيخ أحمد شاکر في حاشيته على الطبري (١/٤٤): قوله: على الشك، إنما للحديث طريقان. الأول: بإسماعيل بن جعفر يرويه عن يزيد عن مسلم بن سعيد، وسليمان يرويه عن يزيد عن بسر - أخو سلمة، فاشهد أبو عبيد أثناء الإسناده إلى الرواية الأخرى دون أن يذكر إسنادهما.

(٣) المسند (٤/١٧٠).

(٤) زيادة من ج، ط.

(٥) في ج: بشر.

(٦) في ج: بشر.

(٧) فضائل القرآن (ص ٢٠٢).

(٨) في ط: «آية الكفر».

(٩) المسند (٤/٢٠٤).

(١٠) تفسير الطبري (١/٦٨).

(١١) تفسير الطبري (١/٦٩).

(١٢) قال الشيخ أحمد شاکر: وهو الصحيح، حيث صرح بذلك الطبري بقوله: يروى عن ابن مسعود من قبله، أما الإسناده السابق فقد قال ابن عبد البر: حديث لا يثبت؛ لأنه من رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود، ولم يلق ابن مسعود.

فصل

قال أبو عبيد: قد تواترت^(١) هذه الأحاديث كلها عن الأحرف السبعة إلا ما حدثني عفان، عن حماد بن سلمة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: «نزل القرآن على ثلاثة أحرف»^(٢).

قال أبو عبيد: ولا نرى المحفوظ إلا السبعة لأنها المشهورة، وليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يقرأ على سبعة أوجه، وهذا شيء غير موجود، ولكنه عندنا أنه نزل سبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات العرب، فيكون الحرف الواحد منها بلغة قبيلة والثاني بلغة أخرى سوى الأولى، والثالث بلغة أخرى سواهما، كذلك إلى السبعة، وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض، وذلك بين في أحاديث تترى، قال: وقد روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزل القرآن على سبع لغات، منها خصص بلغة العجز من هوازن^(٣).

قال أبو عبيد: والعجز هم بنو أسعد^(٤) بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف هم عليا^(٥) هوازن الذين قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم يعني دارم. ولهذا قال عمر: لا يملى في مصاحفنا إلا غلمان قريش أو ثقيف^(٦).

قال ابن جرير: واللغتان الأخريان: قريش وخزاعة رواه قتادة عن ابن عباس، ولكن لم يلقه^(٧). قال أبو عبيد: وحدثنا هُثَيْم عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس؛ أنه كان يسأل عن القرآن فيشد فيه الشعر. قال أبو عبيد: يعني: أنه كان يستشهد به على التفسير^(٨). حدثنا هُثَيْم عن أبي بشر، عن سعيد أو مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧]، قال: ما جمع وأنشد:

قد اتسقن لو يجدن سائقا^(٩)

حدثنا هُثَيْم، أنبأنا^(١٠) حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]، قال: الأرض، قال: وقال ابن عباس: قال أمية بن أبي الصلت: عندهم لحم بحر ولحم ساهرة^(١١)

(١) في ج: «تواترت».

(٢) فضائل القرآن (ص ٣-٢) ورواه من طريق البيهقي في السنن الكبرى (٢/٣٨٥).

(٣) فضائل القرآن (ص ٤-٢).

(٤) في ط: أسعد.

(٥) في ط: عليا.

(٦) فضائل القرآن (ص ٤-٢).

(٧) تفسير الطبري (١/٦٦).

(٨) فضائل القرآن (ص ٥-٢).

(٩) فضائل القرآن (ص ٦-٢).

(١٠) فضائل القرآن (ص ٦-٢)، وكتب بين قوسين:

وفيها لحم ساهر وبحر وما فاهوا به لهم مقيم

حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، حتى أتاني أعربيان يختصمان في بشر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها^(١). إسناده جيد أيضا.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري، رحمه الله، بعد ما أورد طرفا مما تقدم: وصح وثبت أن الذي نزل به القرآن من ألسن العرب البعض منها دون الجمع^(٢)، إذا كان معلوما أن ألسنتها ولغاتها أكثر من سبع بما يعجز عن إحصائه ثم قال: وما برهانك على ما قلته دون أن يكون معناه ما قاله مخالفوك، من أنه نزل بأمر وزجر، وترغيب وترهيب، وقصص ومثل، ونحو ذلك من الأقوال فقد علمت قائل ذلك من سلف الأمة وخيار الأئمة؟ قيل له: إن الذين قالوا ذلك لم يدعوا أن تأويل الأخبار التي تقدم ذكرها، هو ما زعمت أنهم قالوه في الأحرف السبعة، التي نزل بها القرآن دون غيره فيكون ذلك لقولنا مخالفا، وإنما أخبروا أن القرآن نزل على سبعة أحرف، يعنون بذلك أنه نزل على^(٣) سبعة أوجه، والذي قالوا من ذلك كما قالوا، وقد روينا بمثل الذي قالوا من ذلك عن رسول الله ﷺ وعن جماعة من الصحابة، من أنه نزل من سبعة أبواب الجنة، كما تقدم. يعني كما تقدم في رواية عن أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: أن القرآن نزل من سبعة أبواب الجنة^(٤).

قال ابن جرير: والأبواب السبعة من الجنة هي المعاني التي فيها من الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والقصص والمثل، التي إذا عمل بها العامل وانتهى إلى حدودها المنتهى، استوجب بها الجنة.

ثم بسط القول في هذا بما حاصله: أن الشارع رخص للأمة التلاوة على سبعة أحرف، ثم لما رأى الإمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، اختلاف الناس في القراءة، وخاف من تفرق كلمتهم - جمعهم على حرف واحد، وهو هذا المصحف الإمام، قال: واستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فيما فعله من ذلك الرشد والهداية، وتركت القراءة الأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها طاعة منها له، ونظر منها لأنفسها وعن بعدها من سائر أهل ملتها، حتى درست من الأمة معرفتها، وتعفت آثارها، فلا سبيل اليوم لأحد إلى القراءة بها لثبوتها وعفو آثارها. إلى أن قال: فإن قال من ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ وأمرهم بقراءتها؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر بإباحة ورخصة؛ لأن القراءة بها لو كانت فرضا عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة عند من يقوم بنفسه بالحجة، ويقطع خبره العذر، وبزيل الشك من قراءة الأمة، وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين. إلى أن قال: فأما ما كان من اختلاف القراءة في رفع حرف ونصبه وجره وتسكين حرف وتخريكه، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق

(١) فضائل القرآن (ص ٢٠٦).

(٢) في هذا الجمع.

(٣) في هذا، ح ١٠٠٠.

(٤) تفسير الطبري (١/٤٧).

الصورة في معنى قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف» بعزل؛ لأن المراء في مثل هذا ليس بكفر، في قول أحد من علماء الأمة، وقد أوجب ﷺ بالمراء في الأحرف السبعة الكفر، كما تقدم^(١).

الحديث الثاني: قال البخاري، رحمه الله: حدثنا معبد بن عفير، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير: أن المسور بن مخزوم وعبد الرحمن بن عبد القارئ حدثاه^(٢) أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأها رسول الله ﷺ، فكذت أساوره في الصلاة، فتبصرت حتى سلم فليت بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرأها! فقال رسول الله ﷺ: «أرسله، اقرأ يا هشام»، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت»، ثم قال: «اقرأ يا عمر»، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت. إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»^(٣).

وقد رواه الإمام أحمد والبخاري - أيضا - ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من طرق عن الزهري^(٤)، ورواه الإمام أحمد - أيضا - عن ابن مهدي، عن مالك، عن الزهري، عن عروة، عن عبد الرحمن بن عبد، عن عمر، فذكر الحديث بنحوه^(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب بن ثابت، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه، عن جده قال: قرأ رجل عند عمر فغير عليه فقال: قرأت على رسول الله ﷺ فلم يغير عليّ قال: فاجتمعا عند النبي ﷺ، فقرأ الرجل على النبي ﷺ فقال له: «قد أحسنت». قال: فكان عمر وجد من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، إن القرآن كله صواب، ما لم يجعل عذاب مغفرة أو مغفرة عذابا»^(٦).

وهذا إسناد حسن. وحرب بن ثابت هذا يكنى بأبي ثابت، لا نعرف أحدا جرحه.

وقد اختلف العلماء في معنى هذه السبعة الأحرف وما أريد منها على أقوال: قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي المالكي في مقدمات تفسيره: وقد اختلف العلماء في المراء بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً، ذكرها أبو حاتم محمد بن حبان البستي، ونحن نذكر منها خمسة أقوال.

(١) تفسير الطبري (١/٤٩).

(٢) في هذا: «أخبرناه».

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٩٩٢).

(٤) المسند (١/٢٤١) وصحيح البخاري برقم (٢٤١٩) وصحيح مسلم برقم (٨١٨) وسنن أبي داود برقم (١٤٧٥) وسنن النسائي

(٢/١٥٠) وسنن الترمذي برقم (٢٩٤٣).

(٥) المسند (١/٤٠).

(٦) المسند (٤/٣٠).

قلت: ثم سردها القرطبي، وحاصلها ما أنا مورده ملخصاً:

فالأول - وهو قول أكثر أهل العلم، منهم سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب، وأبو جعفر بن جرير، والطحاوي -: أن المراد سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بالفاظ مختلفة نحو: أقبل وتعال وهلم. وقال الطحاوي: وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكر قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: اقرأ على حرف، فقال ميكائيل: استرده فقال: اقرأ على حرفين، فقال ميكائيل: استرده، حتى بلغ سبعة أحرف، فقال: اقرأ فكل شاف كاف إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأقبل واذهب واسرع وعجل.

وروي عن ورقاء عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب: أنه كان يقرأ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]: «الذين آمنوا أمهلونا» «الذين آمنوا أخرونا» «الذين آمنوا ارتقبونا»، وكان يقرأ: ﴿كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَثْوًا فِيهَا﴾ [البقرة: ٢٠]: «امروا فيه» «سمروا فيه». قال الطحاوي وغيره: وإنما كان ذلك رخصة أن يقرأ الناس القرآن على سبع لغات، وذلك لما كان يتعسر على كثير من الناس التلاوة على لغة قريش، وقرأه رسول الله ﷺ لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ وقد ادعى الطحاوي والقاضي الباقلاني والشيخ أبو عمرو بن عبد البر أن ذلك كان رخصة في أول الأمر، ثم نسخ بزوال العذر وتيسير الحفظ وكثرة الضبط وتعلم الكتابة.

قلت: وقال بعضهم: إنما كان الذي جمعهم على قراءة واحدة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أحد الخلفاء الراشدين المهديين المأمور باتباعهم، وإنما جمعهم عليها لما رأى من اختلافهم في القراءة المفضية إلى تفرق الأمة وتكثير بعضهم بعضاً، فرتب لهم المصاحف الأئمة على العرصة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره، عليه الصلاة والسلام، وعزم عليهم ألا يقرؤوا بغيرها، وألا يتعاطوا الرخصة التي كانت لهم فيها سعة، ولكنها أنضت إلى الفرقة والاختلاف، كما ألزم عمر بن الخطاب الناس بالطلاق الثلاثة المجموعة حين تابعوا فيها وأكثروا منها، قال: فلو أنا أمضيتها عليهم، فأمضاه عليهم. وكان كذلك ينهى عن المتعة في أشهر الحج لئلا ينقطع زيارة البيت في غير أشهر الحج. وقد كان أبو موسى يخشى بالتمتع فترك فتياه اتباعاً لامير المؤمنين وسمعا وطاعة لأئمة المهديين.

القول الثاني: أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وليس المراد أن جميعه يقرأ على سبعة أحرف، ولكن بعضه على حرف وبعضه على حرف آخر. قال الخطابي: وقد يقرأ بعضه بالسبع لغات كما في قوله: ﴿وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ﴾ [المائدة: ٦٠] و﴿يَرْتَعِ وَيَلْعَبُ﴾ [يوسف: ١٢]. قال القرطبي: ذهب إلى هذا القول أبو عبيد، واختاره ابن عطية. قال أبو عبيد: وبعض اللغات أسعد به من بعض، وقال القاضي الباقلاني: ومعنى قول عثمان: إنه نزل بلسان قريش، أى: معظمه، ولم يتم دليل على أن جميعه بلغة قريش كله، قال الله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، ولم يقل: قُرْشِيًّا. قال: واسم العرب يتناول جميع القبائل تناولاً واحداً، يعنى حجازها ويمناها، وكذلك قال الشيخ أبو عمرو بن

عبد البر، قال: لأن لغة قريش موجودة في صحيح القراءات بتحقيق الهمزات، فإن قريشا لا تهمز. وقال ابن عطية: قال ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، حتى سمعت أعربيا يقول لبشر ابتداء حفرها: أنا فطرتها.

القول الثالث: أن لغات القرآن السبع منحصرة في مضر على اختلاف قبائلها خاصة؛ لقول عثمان: إن القرآن نزل بلغة^(١) قريش، وقريش هم بنو النضر بن الحارث على الصحيح من أقوال أهل النسب، كما نطق به الحديث في سنن ابن ماجه وغيره.

القول الرابع - وحكاه الباقلاني عن بعض العلماء -: أن وجوه القراءات ترجع إلى سبعة أشياء، منها ما تتغير حركته ولا تتغير صورته ولا معناه مثل: ﴿وَيَضِيقُ صُدْرِي﴾ [الشعراء: ١٣] و «يضيق»، ومنها ما لا تتغير صورته ويختلف معناه مثل: ﴿فَقَالُوا إِنَّا بَاعِدٌ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] و «باعد بين أسفارنا»، وقد يكون الاختلاف في الصورة والمعنى بالحرف مثل: ﴿وَنَنْشُرْهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، و«نَنْشُرُهَا»^(٢)، أو بالكلمة مع بقاء المعنى [مثل: ^(٣) ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، أو «كالصوف المنفوش» أو باختلاف الكلمة بالتقدم والتأخر مثل: ﴿وَجَاءَتْ مَكْرَةَ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، أو «مكرة الحق بالموت»، أو بالزيادة مثل «تسع وتسعون نعجة أنثى»، «وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين»^(٤). «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور».

القول الخامس: أن المراد بالأحرف السبعة معاني القرآن وهي: أمر، ونهى، ووعد، ووعد، وقصص، ومجادلة، وأمثال. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن هذه لا تسمى حروفاً، وأيضاً فالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال^(٥)، ولا في تغيير شيء من المعاني، وقد أورد القاضى الباقلاني في هذا حديثاً، ثم قال: وليست هذه هي التي أجاز لهم القراء^(٦) بها^(٧).

فصل

قال القرطبي: قال كثير من علمائنا كالداودي وابن أبي صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من السبعة وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف. ذكره ابن النعمان وغيره.

قال القرطبي: وقد مرغ كل واحد من القراء السبعة قراءة الآخر وأجازها، وإنما اختار القراءة المنسوبة إليه لأنه رآها أحسن والأولى^(٨) عنده. قال: وقد أجمع المسلمون في هذه الأمصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة فيما رووه ورأوه من القراءات، وكتبوا في ذلك مصنفات واستمر الإجماع على الصواب وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب^(٩).

قال البخاري، رحمه الله:

(١) في ج: «بلسان».

(٢) كذا في ج، ط.

(٣) تفسير القرطبي (١/٤٢ - ٤٧).

(٤) في م: «وأولى».

(٥) تفسير القرطبي (١/٤٦).

(٦) زيادة من ط.

(٧) في ج: «القراءة».

(٨) في ج: «ينشرها».

(٩) في ج: «حرام».

تأليف القرآن

حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف: أن ابن جريج أخبرهم قال: وأخبرني يوسف ابن ماهك قال: إني لعند عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، إذ جاءها عراقى فقال: أى الكفن خيرا؟ قالت: ويحك! وما يضرك، قال: يا أم المؤمنين، أرى مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلى أؤلف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل، إنما أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء: ولا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية العيب: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف فأملت عليه آى السور^(١). وهكذا رواه النسائي من حديث ابن جريج به^(٢)، والمراد من التأليف ههنا ترتيب سورته. وهذا العراقى سأل أولا عن أى الكفن خيرا، أى: أفضل، فأخبرته عائشة، رضى الله عنها، أن هذا لا ينبغى أن يعنى بالسؤال عنه ولا القصد له ولا الاستعداد، فإن فى هذا تكلفا لا طائل تحته، وكانوا فى ذلك الزمان يصفون أهل العراق بالتعنت فى الأسئلة، كما سأل بعضهم عبد الله بن عمر عن دم البعوض يصيب الثوب فقال عبد الله بن عمر: انظروا أهل العراق، يسألون عن دم البعوضة، وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ^(٣). ولهذا لم تبالغ معه عائشة، رضى الله عنها، فى الكلام لثلاث يظن أن ذلك أمر مهم، والا فقد روى أحمد وأهل السنن من حديث سمرة وابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «البسوا من ثيابكم البياض، وكفتموا فيها موتاكم، فإنها أطهر وأطيب»^(٤) وصححه الترمذى من الوجهين.

وفى الصحيحين عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: كفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض محمولة، ليس فيها قميص ولا عمامة^(٥). وهذا محروى فى باب الكفن من كتاب الجنائز.

ثم سألتها عن ترتيب القرآن فانتقل إلى سؤال كبير، وأخبرها أنه يقرأ غير مؤلف، أى: غير مرتب السور. وكان هذا قبل أن يبعث أمير المؤمنين عثمان، رضى الله عنه، إلى الأفاق بالمصاحف الأئمة المؤلفة على هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله أعلم.

ولهذا أخبرته: أنك لا يضرك بأى سورة بدأت، وأن أول سورة نزلت فيها ذكر الجنة والنار،

(١) صحيح البخارى برقم (٣٩٩٣).

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٩٨٧).

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٧٥٣).

(٤) حديث ابن عباس فى المسند (١/٢٣١، ٢٤٧) وسنن أبى داود برقم (٣٨٧٨) وسنن النسائي (١/١٤٩) وسنن الترمذى برقم

(٩٩٤) وسنن ابن ماجه برقم (١٤٧٢)، وحديث سمرة فى المسند (٥/٢٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨١٩) وسنن النسائي (٨/٢٠٥).

(٥) صحيح البخارى برقم (١٢٦٤) وصحيح مسلم برقم (٩٤١).

وهذه إن لم تكن «اقرأ» فقد يحتمل أنها أرادت اسم جنس لسور المفصل التي فيها الوعد والوعيد، ثم لما انقاد الناس إلى التصديق أمروا ونهوا بالتدرج أولاً فأولاً، وهذا من حكمة الله ورحمته، ومعنى هذا الكلام: أن هذه السورة أو السور التي فيها ذكر الجنة والنار ليس البداية بها في أوائل المصحف، مع أنها من أول ما نزل، وهذه البقرة والنساء من أوائل ما في المصحف، وقد نزلت عليه في المدينة وأنا عنده.

فأما ترتيب الآيات في السور فليس في ذلك رخصة، بل هو أمر توقيفي عن رسول الله ﷺ، كما تقدم تقرير ذلك؛ ولهذا لم ترخص له في ذلك، بل أخرجت له مصحفها، فأملت عليه آي السور، والله أعلم. وقول عائشة: لا يضرك بأى سورة بدأت، يدل على أنه لو قدم بعض السور أو آخر، كما دل عليه حديث حذيفة وابن مسعود، وهو في الصحيح أنه، عليه السلام، قرأ في قيام الليل بالبقرة ثم النساء^(١) ثم آل عمران^(٢). وقد حكى القرطبي عن أبي بكر بن الأنباري في كتاب الرد أنه قال: فمن آخر سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة كمن أفسد نظم الآيات وغير الحروف والآيات^(٣)، وكان مستنده اتباع مصحف عثمان، رضى الله عنه، فإنه مرتب على هذا النحو المشهور، والظاهر أن ترتيب السور فيه منه ما هو رجع إلى رأى عثمان، وذلك ظاهر في سؤال ابن عباس له في ترك البسمة في أول براءة، وذكره الأنفال من الطول، والحديث في الترمذي وغيره بإسناد جيد وقوى. وقد ذكرنا عن علي أنه كان قد عزم على ترتيب القرآن بحسب نزوله.

ولقد حكى القاضي الباقلاني: أن أول مصحفه كان: «اقرأ باسم ربك الأكرم» وأول مصحف ابن مسعود: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ثم البقرة، ثم النساء على ترتيب مختلف، وأول مصحف أبي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الانعام، ثم المائدة، ثم كذا على اختلاف شديد، ثم قال القاضي: ويحتمل أن ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه اليوم من اجتهاد الصحابة، رضى الله عنهم، وكذا ذكره مكى في تفسير سورة براءة قال: فأما ترتيب الآيات والبسمة في الأوائل فهو من النبي ﷺ.

وقال ابن وهب في جامعه: سمعت سليمان بن بلال يقول: سئل ربيعة: لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة؟ فقال: قدمنا وألف القرآن على علم عن ألفه، وقد اجتمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ينتهى إليه ولا يسأل عنه. قال ابن وهب: وسمعت مالكا يقول: إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ^(٤).

قال أبو الحسن بن بطلال: إنا نجد^(٥) تأليف سورة في الرسم والحفظ خاصة ولا يعلم أن أحداً منهم

(١) في ج: بالنساء.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (٧٧٢).

(٣) تفسير القرطبي (١/٦٠).

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره (١/٥٩، ٦٠).

(٥) في ط، ج: إنما يجب.

قال: إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة وفي قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يقرأ الكهف قبل البقرة، ولا الحج قبل^(١) الكهف، ألا ترى إلى قول عائشة: ولا يضرك أبيه قرأت قبل. وقد كان النبي ﷺ يقرأ في الصلاة السورة في ركعة، ثم يقرأ في الركعة الأخرى بغير السورة التي تليها.

وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرهما أن يقرأ القرآن منكوساً^(٢). وقالوا: إنما ذلك منكوس القلب، وإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوساً فيبتدئ بأخرها إلى أولها، فإن ذلك حرام محذور.

ثم قال البخاري: حدثنا آدم، عن شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد قال: سمعت ابن مسعود يقول في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلاميذ^(٣). انفرد البخاري بإخراجه والمراد منه ذكر ترتيب هذه السور في مصحف ابن مسعود كالمصاحف العثمانية، وقوله: «من العتاق الأول» أي: من قديم ما نزل، وقوله: «وهن من تلاميذ» أي: من قديم ما قنيت وحفظت. والثالث في لغتهم: قديم المال والمتاع، والطارف حديثه وجديده، والله أعلم.

وحدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إسحاق: سمع البراء بن عازب يقول: تعلمت ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قبل أن يقدم النبي ﷺ^(٤). وهذا متفق عليه، وهو قطعة من حديث الهجرة، والمراد منه أن ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ مكة نزلت قبل الهجرة، والله أعلم.

ثم قال: حدثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن شقيق قال: قال عبد الله: لقد علمت النظائر التي^(٥) كان النبي ﷺ يقرأهن اثنين اثنين في كل ركعة، فقام عبد الله ودخل معه علقمة، وخرج علقمة فآلناه فقال: عشرون سورة من أول المفصل على تأليف ابن مسعود، آخروهن من الحواميم حم الدخان وعم يساءلون.

وهذا التأليف الذي عن ابن مسعود غريب مخالف لتأليف عثمان، رضى الله عنه، فإن المفصل في مصحف عثمان، رضى الله عنه، من سورة الحجرات إلى آخره وسورة الدخان، لا تدخل فيه بوجه، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي، عن عثمان بن عبد الله ابن أوس الثقفي عن جده أوس بن حذيفة قال: كنت في الوفد الذين أتوا النبي ﷺ فذكر حديثاً فيه: أن رسول الله ﷺ كان يسمر معهم بعد العشاء فمكث عنا ليلة لم يأتنا، حتى طال ذلك علينا بعد العشاء. قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال: «طراً على حزب من القرآن، فأردت ألا أخرج حتى أفضيه». قال: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟

(٢) في ج: «مقلوباً».

(١) في ط: ج: «بعده».

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٩٩٤).

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٩٩٥).

(٥) في ط: «الذي».

قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمسن سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم^(١).

ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الطائفي به^(٢)، وهذا إسناد حسن.

فصل

فأما نقط المصحف وشكله، فيقال: إن أول من أمر به عبد الملك بن مروان، فتصدى لذلك الحجاج وهو بواسط، فأمر الحسن البصرى ويحيى بن يعمر فعلا ذلك، ويقال: إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى، وذكروا أنه كان لمحمد بن سيرين مصحف قد نقطه له يحيى بن يعمر^(٣)، والله أعلم.

وأما كتابة الاعشار على الحواشى فينب إلى الحجاج أيضا، وقيل: بل أول من فعله المأمون، وحكى أبو عمرو الدانى عن ابن مسعود أنه كره التعشير فى المصحف، وكان يحكه^(٤)، وكره مجاهد ذلك أيضا.

وقال مالك: لا بأس به بالخبر، فأما بالألوان المصبغة فلا. وأكره تعداد آى السور فى أولها فى المصاحف الأمهات، فأما ما يتعلم فيه الغلمان فلا أرى به بأسا.

وقال قتادة: بدؤوا فنقطوا، ثم خمسوا، ثم عشروا. وقال يحيى بن أبى كثير: أول ما أحدثوا النقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، أحدثوا نقطا عند آخر الآى، ثم أحدثوا الفواتح والحواش.

ورأى إبراهيم النخعى فاتحة سورة كذا، فأمر بمحوها وقال: قال ابن مسعود: لا تخطروا بكتاب الله ما ليس فيه. قال أبو عمرو الدانى: ثم قد أطبق المسلمون فى ذلك فى سائر الآفاق على جواز ذلك فى الأمهات وغيرها.

ثم قال البخارى، رحمه الله:

كان جبريل يعرض القرآن على النبى ﷺ

قال مسروق عن عائشة، عن فاطمة، رضى الله عنها، أسر إلى رسول الله ﷺ: أن جبريل كان يعارضنى بالقرآن كل سنة وأنه عارضنى العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي. هكذا ذكره معلقا وقد أسنده فى موضع آخر^(٥).

ثم قال: حدثنا يحيى بن قزعة، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن الزهرى، عن عبد الله بن عبيد الله،

(١) المسند (٩/٤).

(٢) سنن أبى داود برقم (١٣٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٤٥).

(٣) رواه ابن أبى داود فى المصاحف (ص ١٦٠).

(٤) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص ٢٤٠).

(٥) صحيح البخارى (٤٣/٩) فتح.

عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسخ يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وهذا الحديث متفق عليه^(١)، وقد تقدم الكلام عليه في أول الصحيح وما فيه من الحكم والفوائد، والله أعلم.

ثم قال: حدثنا خالد بن يزيد، حدثنا أبو بكر، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه، وكان يعتكف كل عام عشرا فاعتكف عشرين في العام الذي قبض.

ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من غير وجه عن أبي بكر - وهو ابن عياش - عن أبي حصين، واسمه عثمان بن عاصم، به^(٢). والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة: مقابلته على ما أوحاه إليه عن الله تعالى، ليقى ما بقى، ويذهب ما نسخ توكيداً، أو استثنائاً وحفظاً؛ ولهذا عرضه في السنة الأخيرة من عمره، عليه السلام، على جبريل مرتين، وعارضه به جبريل كذلك؛ ولهذا فهم، عليه السلام، اقتراب أجله وعثمان، رضى الله عنه، جمع المصحف الإمام على العرصة الأخيرة، وخص بذلك رمضان من بين الشهور؛ لأن ابتداء الإحياء كان فيه؛ ولهذا يستحب دراسة القرآن وتكراره فيه، ومن ثم اجتهاد الأئمة فيه في تلاوة القرآن، كما تقدم ذكرنا لذلك.

القراء من أصحاب النبي ﷺ

حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن عمرو، عن إبراهيم، عن مسروق: ذكر عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود، فقال: لا أزال أحبه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب»، رضى الله عنهم^(٣).

وقد أخرجه البخاري في المناقب في غير موضع، ومسلم والنسائي من حديث شعبة، عن عمرو ابن مرة به^(٤).

وأخرجاه والترمذي والنسائي - أيضاً - من حديث الأعمش عن أبي وائل، عن مسروق به^(٥). فهؤلاء الأربعة اثنان من المهاجرين الأولين عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة، وقد كان سالم هذا من سادات المسلمين وكان يؤم الناس قبل مقدم النبي ﷺ في المدينة، واثنان من الأنصار معاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وهما سيدان كيران، رضى الله عنهم أجمعين.

ثم قال: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا شقيق بن سلمة قال: خطبنا

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩٩٧) وصحيح مسلم برقم (٢٣٠٨).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٩٩٨) وسنن أبي داود برقم (٢٤٦٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٩٩٢) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٦٩).

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٩٩٩).

(٤) صحيح البخاري برقم (٣٧٥٨، ٣٨٠٦) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٩٩٦).

(٥) صحيح البخاري برقم (٣٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٦٤) وسنن الترمذي برقم (٣٨١٠) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٩٩٧).

عبد الله فقال: والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أنى من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم. قال شقيق: فجلست في الخلق أسمع ما يقولون، فما سمعت راداً يقول غير ذلك^(١).

حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كنا بحمص، فقرأ ابن مسعود سورة يوسف فقال رجل: ما هكذا أنزلت، فقال: قرأت على رسول الله ﷺ فقال: «أحسنت» ووجد منه ربح الخمر، فقال: أتجترئ أن تكذب بكتاب الله وتشرب الخمر؟! فجلده الحد^(٢).

حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثنا مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت^(٣) سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني ببلغه الإبل لركبت إليه^(٤).

وهذا كله حق وصدق، وهو من إخبار الرجل بما يعلم عن نفسه ما قد يحمله غيره، فيجوز ذلك للحاجة، كما قال تعالى إخباراً عن يوسف لما قال لصاحب مصر: «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليم» [يوسف: ٥٥]، ويكفيه مدحا وثناء قول رسول الله ﷺ: «استقرئوا القرآن من أربعة»، فبدأ به.

وقال أبو عبيد: حدثنا مصعب بن المقدم عن سفيان عن الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، عن عمر عن النبي ﷺ قال: «من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه على حرف ابن أم عبد»^(٥). وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي معاوية، عن الأعمش به مطولاً، وفيه قصة^(٦)، وأخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي معاوية وصححه الدارقطني^(٧)، وقد ذكرته في مسند عمر^(٨)، وفي مسند الإمام أحمد - أيضاً - عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ومن أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^(٩)، وابن أم عبد هو عبد الله بن مسعود، وكان يعرف بذلك.

ثم قال البخاري: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا همام، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن

(١) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٠).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٠١).

(٣) في ج: «ما نزلت».

(٤) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٢).

(٥) فضائل القرآن (ص ٢٢٥).

(٦) المسند (١/ ٢٥ - ٢٦).

(٧) سنن الترمذي برقم (١٦٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٢٥٦).

(٨) مسند عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - للمؤلف (ص ١٧١ - ١٧٢) وقال: «وهذا الحديث لا يشك أنه محفوظ، وهذا للاضطراب لا يضر صحته، والله أعلم».

(٩) المسند (٢/ ٤٤٦).

جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. ورواه مسلم من حديث همام^(١).

ثم قال البخاري: تابعه الفضل، عن حسين بن واقد، عن ثمامة، عن أنس^(٢).

حدثنا معلى بن أسد، حدثنا عبد الله بن المثنى قال: حدثني ثابت البناني وثمامة عن أنس بن مالك قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. قال: ونحن ورثناه^(٣).

فهذا الحديث ظاهره أنه لم يجمع القرآن من الصحابة سوى هؤلاء الأربعة فقط، وليس هذا هكذا، بل الذي لاشك فيه أنه جمعه غير واحد من المهاجرين أيضاً، ولعل مراده: لم يجمع القرآن من الأنصار؛ ولهذا ذكر الأربعة من الأنصار، وهم أبي بن كعب في الرواية الأولى المتفق عليها وفي الثانية من أفراد البخاري: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، وكلهم مشهورون إلا أبا زيد هذا، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، وقد اختلف في اسمه فقال الواقدي: اسمه قيس بن السكن بن قيس بن زعواء بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار^(٤).

وقال ابن محير: اسمه سعد بن عبيد بن النعمان بن قيس بن عمرو بن زيد بن أمية من الأوس. وقيل: هما اثنان جمعا القرآن، حكاه أبو عمر بن عبد البر، وهذا بعيد وقول الواقدي أصح لأنه خزرجي؛ لأن أنساً قال: ونحن ورثناه، وهم من الخزرج، وفي بعض النسخ^(٥): وكان أحد عمومي. وقال قتادة عن أنس: افتخر الحبان الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة حنظلة بن أبي عامر، ومنا الذي حمته الدبر عاصم بن ثابت، ومنا الذي اهتز لموته العرش سعد بن معاذ، ومنا من أجزيت شهادته بشهادة رجلين خزيمية بن ثابت.

فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد.

فهذا كله يدل على صحة قول الواقدي، وقد شهد أبو زيد هذا بدرا، فيما ذكره غير واحد. وقال موسى بن عقبة عن الزهري: قتل أبو زيد قيس بن السكن يوم جسر^(٦) أبي عبيدة على رأس خمس عشرة^(٧) من الهجرة، والدليل على أن^(٨) من المهاجرين من جمع القرآن أن الصديق، رضي الله عنه، قدمه رسول الله ﷺ في مرضه^(٩) إماماً على المهاجرين والأنصار، مع أنه ﷺ قال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله»^(١٠)، فلولا أنه كان أقرؤهم لكتاب الله لما قدمه عليهم. هذا مضمون ما قرره

(١) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٦٥).

(٢) في ج: «أنس بن مالك».

(٣) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٤).

(٤) انظر: الإصابة (٣/ ٢٤).

(٥) في ط: «الانفاضة».

(٦) في ط: «الجيرة».

(٧) في ج: «ط: ازمته».

(٨) رواه مسلم في صحيحه برقم (٦٧٢) من حديث أبي مسعود الأنصاري.

(٨) في ط: «الزمته».

(٧) في ط: «عشرة سنة».

الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وهذا التقرير لا يُدفع ولاشك^(١) فيه، وقد جمع الحافظ ابن السمعاني في ذلك جزءاً، وقد بسطت تقرير ذلك في كتاب مسند الشيخين، رضى الله عنهما. ومنهم عثمان بن عفان وقد قرأه في ركعة - كما سنذكره - وعلى بن أبي طالب يقال: إنه جمعه على ترتيب ما أنزل، وقد قدمنا هذا. ومنهم عبد الله بن مسعود، وقد تقدم عنه أنه قال: ما من آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت^(٢)؟ وفيم نزلت؟ ولو علمت أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه المطى لذهبت إليه. ومنهم سالم مولى أبي حذيفة، كان من السادات النجباء والأئمة الاتقياء وقد قتل يوم اليمامة شهيداً. ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله^(٣) ﷺ وترجمان القرآن، وقد تقدم عن مجاهد أنه قال: قرأت القرآن على ابن عباس مرتين، أفقه عند كل آية وأسأله عنها. ومنهم عبد الله بن عمرو، كما رواه النسائي وابن ماجه من حديث ابن جريج عن عبد الله بن أبي مليكة، عن يحيى بن حكيم بن صفوان، عن عبد الله بن عمرو قال: جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «اقرأ في شهر». وذكر تمام الحديث^(٤).

ثم قال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا يحيى، عن سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: قال عمر: على أقضانا، وأبى أقرانا، وإنا لنُدع من لحن أبى، وأبى يقول: أخذته من في رسول الله ﷺ، فلا أتركه لشرء قال الله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: 1-6]^(٥).

وهذا يدل على أن الرجل الكبير قد يقول الشرء يظنه صواباً وهو خطأ في نفس الأمر؛ ولهذا قال الإمام مالك: ما من أحد إلا يؤخذ من قوله ويرد إلا قول صاحب هذا القبر، أى: فكله مقبول، صلوات الله وسلامه عليه. ثم ذكر البخاري فضل فاتحة الكتاب وغيرها، وسنذكر فضل كل سورة عندها ليكون ذلك أنسب. ثم قال:

نزول السكينة والملائكة عند القراءة

وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أسيد بن الحضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت^(٦)، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: «اقرأ يا بن حضير، اقرأ يا بن حضير». قال: فأشفتت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً، فرفعت رأسى وانصرفت إليه، فرفعت رأسى إلى السماء فإذا مثل الظنن، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها قال: «أو تدري^(٧) ما ذلك؟». قال: لا، قال: «الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت

(١) في ط: «ولا يشك».

(٢) في ط: «نزلت».

(٣) في ط: «الرسول».

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (٦٤-٨) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٤٦).

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٥).

(٦) في ط: «تدري».

(٧) في ج، ط: «فجالت الفرس».

ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم». قال ابن الهاد: وحدثني هذا الحديث عبد الله بن خباب عن أبي سعيد الخدري عن أسيد بن حضير^(١).

هكذا أورد البخاري هذا الحديث معلقاً، وفيه انقطاع في الرواية الأولى، فإن محمد بن إبراهيم ابن الحارث التيمي المدني تابعي صغير لم يدرك أسيدا لأنه مات سنة عشرين، وصلى عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما. ثم فيه غرابة من حيث إنه قال: وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد ولم أره بسند متصل عن الليث بذلك، إلا ما ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر في الأطراف أن يحيى بن عبد الله بن بكير رواه عن الليث كذلك^(٢).

وقد رواه الإمام أبو عبيد في فضائل القرآن فقال: حدثنا عبد الله بن صالح ويحيى بن بكير، عن الليث، عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أسيد ابن حضير، فذكر الحديث إلى آخره، ثم قال: [قال]^(٣) ابن الهاد: وحدثني عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، عن أسيد بن حضير بهذا^(٤).

وقد رواه النسائي في فضائل القرآن، عن محمد بن عبد الله بن [عبد]^(٥) الحكم عن شعيب بن الليث، وعن علي بن محمد بن علي، عن داود بن منصور، كلاهما عن الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن يزيد بن عبد الله، وهو ابن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، عن أسيد، به^(٦). ورواه يحيى بن بكير، عن الليث كذلك أيضاً، فجمع بين الإسنادين. ورواه في المناقب عن أحمد بن سعيد الرباطي، عن يعقوب بن إبراهيم، عن أبيه، عن يزيد بن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد، أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مريده، الحديث. ولم يقل: عن أسيد، ولكن ظاهره أنه عنه، والله أعلم^(٧).

وقال أبو عبيد: حدثني عبد الله بن صالح، عن الليث، عن ابن شهاب، عن ابن كعب بن مالك، عن أسيد بن حضير: أنه كان على ظهر بيته يقرأ القرآن وهو حسن الصوت، ثم ذكر مثل هذا الحديث أو نحوه^(٨):

حدثنا قبيصة، عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أسيد ابن حضير قال: قلت: يا رسول الله، بينما أنا أقرأ البارحة بسورة، فلما انتهيت إلى آخرها سمعت

(١) صحيح البخاري برقم (٥٠١٨).

(٢) انظر: تحفة الأشراف لنعزي (١/٧٢).

(٣) زيادة من ط.

(٤) فضائل القرآن (ص ٢٦).

(٥) زيادة من ط.

(٦) سنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٧٤).

(٧) سنن النسائي الكبرى برقم (٨٢٤٤).

(٨) فضائل القرآن (ص ٢٧).

وجبة من خلقي، حتى ظننت أن فرسى تطلق، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أبا عتيك» [مرتين]^(١) قال: فالتفت إلى أمثال المصاييح ملء بين السماء والأرض، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أبا عتيك». فقال: والله ما استطعت أن أمضى فقال: «تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن، أما إنك لو مضيت لرأيت الأعاجيب»^(٢).

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق سمع البراء يقول: بينما رجل يقرأ سورة الكهف ليلة إذ رأى دابته تركض، أو قال: فرسه يركض، فنظر فإذا مثل الضباية أو مثل الغمامة، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «تلك السكينة نزلت للقرآن، أو نزلت على القرآن»^(٣). وقد أخرجه صاحبنا الصحيح من حديث شعبة^(٤). والظاهر أن هذا هو أسيد بن الحضير، رضى الله عنه، فهذا ما يتعلق بصناعة الإسناد، وهذا من أغرب تعليقات البخارى، رحمه الله، ثم سياق ظاهر فيما ترجم عليه من نزول السكينة والملائكة عند القراءة.

وقد اتفق نحو هذا الذى وقع لأسيد بن الحضير لثابت بن قيس بن شماس كما قال أبو عبيد:

حدثنا عباد بن عباد عن جرير بن حازم، عن عمه جرير بن زيد^(٥)، أن أشياخ أهل المدينة حدثوه: أن رسول الله ﷺ قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصاييح؟ قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: فسئل ثابت فقال: قرأت سورة البقرة^(٦).

وفى الحديث المشهور الصحيح: «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» رواه مسلم عن أبي هريرة^(٧).

ولهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وجاء فى بعض التناسير: أن الملائكة تشهده. وقد جاء فى الصحيحين عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر، فيعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»^(٨).

(١) زيادة من ط.

(٢) فضائل القرآن (ص ٢٢٧).

(٣) مسند الطيالسي برقم (٧١٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٦١٤) وصحيح مسلم برقم (٧٩٥).

(٥) فى ط، م: يزيد.

(٦) فضائل القرآن (ص ٢٧).

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٦٩٩).

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٦٣٢).

من قال: لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين

حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا سفيان، عن عبد العزيز بن رفيع قال: دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس، فقال له شداد بن معقل: أترك النبي ﷺ من شيء؟ قال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. قال: ودخلنا على محمد بن الحنفية فآلناه فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين.

تفرد به البخاري^(١)، ومعناه: أنه، عليه السلام، ما ترك مالا ولا شيئا يورث عنه، كما قال عمرو ابن الحارث أخو جويرية بنت الحارث: ما ترك رسول الله ﷺ دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا^(٢). وفي حديث أبي الدرداء: «إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(٣). ولهذا قال ابن عباس: وإنما ترك ما بين الدفتين يعني: القرآن، والسنة مفسرة له ومبينة وموضحة له، فهي تابعة له، والمقصود الأعظم كتاب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢]. فالأنبياء، عليهم السلام، لم يخلقوا للدنيا يجمعونها ويورثونها، إنما خلقوا للآخرة يدعون إليها ويرغبون فيها. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة»^(٤)، وكان أول من أظهر هذه المحاسن من هذا الوجه أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، لما ستل عن ميراث النبي ﷺ، فأخبر عنه بذلك، ووافقه على نقله عنه، عليه السلام، غير واحد من الصحابة؛ منهم عمر وعثمان وعلي والعباس وظلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو هريرة وعائشة وغيرهم، وهذا ابن عباس يقول - أيضا - عنه عليه السلام، رضي الله عنهم أجمعين.

فضل القرآن على سائر الكلام

حدثنا هُدبة بن خالد أبو خالد، حدثنا همام، حدثنا قتادة، حدثنا أنس بن مالك، عن أبي موسى، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «مثل الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، طعمها طيب وريحها طيب. والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة، طعمها طيب ولا ریح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الخنثلة طعمها مر ولا ریح لها»^(٥). وهكذا رواه في مواضع أخر مع بقية الجماعة من طرق عن قتادة به^(٦).

ووجه مناسبة الباب لهذا الحديث: أن طيب الرائحة دار مع القرآن وجودا وعدما، فدل على شرفه على ما سواه من الكلام الصادر من البر والفاجر. ثم قال: حدثنا مُدَد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني عبد الله بن دينار، قال: سمعت ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إنما أجلكم في أجل من خلا

(١) صحيح البخاري برقم (١٩-٥٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٢٧٣٩، ٤٤٦٦).

(٣) رواه أبو داود في السنن برقم (٣٦٤٦) وابن ماجه في السنن برقم (٢٢٢) وابن حبان في صحيحه برقم (٨٠) «موارد».

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٠٩٣) ومسلم في صحيحه برقم (١٧٥٨).

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٢٠).

(٦) صحيح البخاري برقم (٥٤٢٧، ٥٠٥٩) وصحيح مسلم برقم (٧٩٧) وسنن أبي داود برقم (٤٨٢) وسنن الترمذي برقم (٢٨٦٥)

وسنن النسائي (١٢٤/٨، ١٢٥) وسنن ابن ماجه برقم (٢١٤).

من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا، فقال: من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود فقال: من يعمل لى من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين، قالوا: نحن أكثر عملا وأقل عطاء! قال: هل ظلمتكم من حقكم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلى أوتيه من شئت^(١).

تفرد به من هذا الوجه، ومناسيته للترجمة: أن هذه الأمة مع قصر مدتها فضلت الأمم الماضية مع طول مدتها، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفى المسند والسنن عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله^(٢)». وإنما فازوا بهذا بركة الكتاب العظيم الذى شرفه الله تعالى على كل كتاب أنزله، جعله مهيمنا عليه، وناسخا له، وناسخا له؛ لأن كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملة واحدة، وهذا القرآن نزل منجما بحسب الوقائع لشدة الاعتناء به وبمن أنزله عليه، فكل مرة كنتزول كتاب من الكتب المتقدمة، وأعظم الأمم المتقدمة هم اليهود والنصارى، فاليهود استعملهم الله من لدن موسى إلى زمان عيسى، والنصارى من ثم إلى أن بعث محمد ﷺ، ثم استعمل أمته إلى قيام الساعة، وهو المشبه بآخر النهار، وأعطى الله المتقدمين قيراطا قيراطا، وأعطى هؤلاء قيراطين قيراطين، ضعفى ما أعطى أولئك، فقالوا: أى ربنا، ما لنا أكثر عملا وأقل أجرا؟ فقال: هل ظلمتكم شيئا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلى أى: الزائد على ما أعطيتكم أوتيه من أشياء كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨، ٢٩].

الوصايا بكتاب الله

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا مالك بن مغول، حدثنا طلحة بن مصرف قال: سألت عبد الله ابن أبي أوفى: أوصى النبي ﷺ؟ قال: لا. فقلت: كيف كتب على الناس الوصية، أمروا بها ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله، عز وجل^(٣).

وقد رواه فى مواضع أخر مع بقية الجماعة، إلا أبا داود من طرق عن مالك بن مغول به^(٤)، وهذا نظير ما تقدم عن ابن عباس: «ما ترك إلا ما بين الدفتين»، وذلك أن الناس كتب عليهم الوصية فى أموالهم كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. وأما هو ﷺ فلم يترك شيئا يورث عنه، وإنما ترك ماله صدقة جارية من

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٢١).

(٢) المسند (٣/٥) وسنن الترمذى برقم (٣٠٠١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٨٧، ٤٢٨٨) وقال الترمذى: «حديث حسن».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٢).

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٧٤٠، ٤٤٦٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٣٤) وسنن الترمذى برقم (٢١١٩) وسنن النسائى (٦/٢٤٠).

وسنن ابن ماجه برقم (٢٦٩٦).

بعده، فلم يحتج إلى وصية في ذلك ولم يوصى إلى خليفة يكون بعده على التنصيب؛ لأن الأمر كان ظاهراً من إشارته وإيمانه إلى الصديق؛ ولهذا لما هم بالوصية إلى أبي بكر ثم عدل عن ذلك فقال: «يا أيُّ الله والمؤمنون إلا أبا بكر»^(١)، وكان كذلك، وإنما أوصى الناس باتباع كتاب الله تعالى.

من لم يتغنَّ بالقرآن وقول الله تعالى:

﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، حدثنا عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لم يَأْذَنَ اللهُ لشيء، ما أذن لنبى أن يتغنَّى بالقرآن»، وقال صاحب له: يريد يجهر به فرد من هذا الوجه. ثم رواه عن علي بن عبد الله بن المدينى، عن سفيان بن عيينة، عن الزهرى به^(٢). قال سفيان: تفسيره: يستغنى به، وقد أخرجه مسلم والنسائى من حديث سفيان بن عيينة^(٣)، ومعناه: أن الله ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبى يجهر بقراءته ويحسها، وذلك أنه يجتمع فى قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية فى ذلك.

وهو، سبحانه وتعالى، يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم، كما قالت عائشة، رضى الله عنها: سبحان الله الذى وسع سمعه الأصوات^(٤). ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الأنبياء: ٦١]، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ كما دل عليه هذا الحديث العظيم، ومنهم من فسر الأذن ههنا بالأمر، والأول أولى لقوله: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبى أن يتغنَّى بالقرآن» أى: يجهر به، والأذن: الاستماع؛ لدلالة السياق عليه، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ. وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ. وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ. وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ. وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ - ٥] أى: وحق لها أن تستمع أمره وتطيعه، فالأذن هو الاستماع؛ ولهذا جاء فى حديث رواه ابن ماجه بسند جيد عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أذن أذن إلى الرجل»^(٥) الحسن الصوت بالقرآن [يجهر به]^(٦) من صاحب القينة إلى قيته^(٧).

وقال سفيان بن عيينة: إن المراد بالتغننى: يستغنى به، فإن أراد: أنه يستغنى عن الدنيا، وهو الظاهر من كلامه الذى تابعه عليه أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره، فخلافاً للظاهر من مراد الحديث؛ لأنه قد فره بعض رواه بالجهر، وهو تحسين القراءة والتحزين بها^(٨).

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢١٧) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٢٨٧) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٣)، (٥٠٢٤).

(٣) صحيح مسلم برقم (٧٩٢) وسنن النسائى (٢/ ١٨٠).

(٤) رواه النسائى فى السنن (٦/ ١٦٨) ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٣٨٥) معلقاً.

(٥) فى هذا: جيد: «أذن الرجل» (٦) زيادة من ابن ماجه.

(٧) سنن ابن ماجه برقم (١٢٤٠).

(٨) نقل الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ٩) عن ابن الجوزى أربعة أقوال فى معنى يتغننى: تحسين الصوت، الاستغناء، التحزين كما قال الشافعى، الشاغل به. قال: وحكى ابن الأبارى قولاً خامساً وهو التلذذ والاستحلاء.

قال حرملة: سمعت ابن عيينة يقول: معناه: يستغنى به، فقال لى الشافعى: ليس هو هكذا، ولو كان هكذا لكان يتغانى به، وإنما هو يتحزن ويترنم به، ثم قال حرملة: وسمعت ابن وهب يقول: يترنم به، وهكذا نقل المزنى والربيع عن الشافعى، رحمه الله.

وعلى هذا فتصدير البخارى الباب بقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فيه نظر؛ لأن هذه الآية الكريمة ذكرت ردا على الذين سألوا عن آيات تدل على صدقه، حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [العنكبوت: ٥٠، ٥١]. ومعنى ذلك: أو لم يكفهم آية دالة على صدقك إنزالنا القرآن عليك وأنت رجل أمى ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْتَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] أى: وقد جئت فيه بخبر الأولين والآخرين فأين هذا من التغنى بالقرآن وهو تحسين الصوت به أو الاستغناء به عما عداه من أمور الدنيا، فعلى كل تقدير تصدير الباب بهذه الآية الكريمة فيه نظر^(١).

فصل

فى إيراد أحاديث فى معنى الباب وذكر

أحكام التلاوة بالأصوات

قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن قباث بن رزين، عن على بن رباح اللخمي، عن عتبة بن عامر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما ونحن فى المسجد نتدارس القرآن، فقال: «تعلموا كتاب الله واقتنوه». قال: وحسبت أنه قال: «وتغنوا به»، فوالذى نفسى بيده، لهو أشد تغلثا من المخاض من العقل^(٢).

وحدثنا عبد الله بن صالح، عن موسى بن على، عن أبيه، عن عتبة بن عامر عن رسول الله ﷺ مثل ذلك إلا أنه قال: «واقتنوه وتغنوا به»^(٣) ولم يشك، وهكذا رواه أحمد والنسائي فى فضائل

(١) قال الخفاف ابن حجر فى الفتح (٦٨/٩): «أشار بهذه الآية إلى ترجيح تفسير ابن عيينة: يستغنى به، عن سبائى فى هذا الباب عنه، وأخرجه أبو داود عن ابن عيينة ورواه جميعاً، وقد بين إسحاق بن راهويه عن ابن عيينة أنه استغناء خاص، وكذا قال أحمد عن وكيع يستغنى به عن أخبار الأمم الماضية، وقد أخرج الطبري وغيره من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال: جاء ناس من المسلمين يكتب وقد كتبوا بها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي ﷺ: «كفى بكم قوماً صلواتاً أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزل: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾. وقد خفى وجه مناسبة تلاوة هذه الآية على كثير من الناس كإبن كثير، فعلى أن يكون لذكرها وجه، على أن ابن بطال مع تقدمه قد أشار إلى المناسبة فقال: قال أهل التأويل فى هذه الآية، فذكر أثر يحيى بن جعدة مختصراً قال: فلما رد بالآية. الاستغناء عن أخبار الأمم الماضية، وليس المراد الاستغناء الذى هو ضد الفقر، قال: ورتب البخارى الترجمة بالآية يذن على أنه يذهب إلى ذلك. وقال ابن النجاشي: يفهم من الترجمة: أن المراد بالتغنى الاستغناء؛ لكونه أتبعه الآية التى تضمن الإنكار على من لم يستغن بالقرآن على غيره، فجعله على الاكتفاء به وعدم الافتقار إلى غيره، رحمه الله على صد الفقر من جملة ذلك.

(٢) فضائل القرآن (ص ٢٩).

(٣) فضائل القرآن (ص ٢٩).

القرآن، من حديث موسى بن علي، عن أبيه به^(١)، ومن حديث عبد الله بن المبارك، عن قباث بن رزين، عن علي بن رباح، عن عقبه، وفي بعض ألفاظه: خرج علينا ونحن نقرأ القرآن فلم علينا، وذكر الحديث. ففيه دلالة على السلام على القارئ.

ثم قال أبو عبيد: حدثنا أبو اليمان، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن المهاصر بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن، لا توسدوا القرآن، واتلوه حتى تلاوته آتاء الليل والنهار، وتغنوه واقتنوه، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون»^(٢) وهذا مرسل.

ثم قال أبو عبيد: قوله: «تغنوه»؛ يعني: اجعلوه غناءكم من الفقراء، ولا تعدوا الإقلال منه فقرا. وقوله: «واقتنوه»، يقول: اقتنوه، كما تقتنون الأموال اجعلوه مالكم.

وقال أبو عبيد: حدثني هشام بن عمار، عن يحيى بن حمزة، عن الأوزاعي، حدثني إسماعيل ابن عبيد الله بن أبي المهاجر، عن فضالة بن عبيد، عن النبي ﷺ قال: «الله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القبنة إلى قبنته»^(٣).

قال أبو عبيد: هذا الحديث بعضهم يزيد في إسناده يقول: عن إسماعيل بن عبيد الله عن مولى فضالة عن فضالة، وهكذا رواه ابن ماجه، عن راشد بن سعيد بن أبي راشد، عن الوليد، عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبيد الله عن ميرة مولى فضالة عن فضالة عن النبي ﷺ: «الله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن [يجهر به]»^(٤) من صاحب القبنة إلى قبنته»^(٥). قال أبو عبيد: يعني: الاستماع. وقوله في الحديث الآخر: «ما أذن الله لشيء» أي: ما استمع.

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا محمد بن حصيد، حدثنا سلمة بن الفضل، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن، عن ابن أبي مليكة، حدثنا القاسم بن محمد، حدثنا السائب قال: قال لي سعد: يا ابن أخي، هل قرأت القرآن؟ قلت: نعم. قال: غن به، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «غنوا بالقرآن، ليس منا من لم يغن بالقرآن، وابكوا، فإن لم تقدرُوا على البكاء فتابكوا»^(٦).

وقد روى أبو داود من حديث الليث وعمرو بن دينار كلاهما عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عبيد الله بن أبي نهيك، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٧).

ورواه ابن ماجه من حديث ابن أبي مليكة، عن عبد الرحمن بن السائب، عن سعد بن أبي

(١) المسند (١٤٦/٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (٣٤-٨).

(٢) فضائل القرآن (ص ٢٩).

(٣) فضائل القرآن (ص ٧٧، ٧٨).

(٤) زيادة من ابن ماجه.

(٥) سنن ابن ماجه برقم (١٣٤٠).

(٦) وفي إسناده محمد بن حميد الرازي وهو متروك.

(٧) سنن أبي داود برقم (١٤٦٩، ١٤٧٠).

وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل بحرف، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتابكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا»^(١).

وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سعيد^(٢) بن حسان المخزومي، عن ابن أبي مليكة، عن عبد الله بن أبي نهيك، عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٣). [قال وكيع: يعنى: يستغنى به]^(٤).

ورواه^(٥) أيضا عن الحجاج وأبي النضر، كلاهما عن الليث بن سعد، وعن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، كلاهما عن عبد الله بن أبي مليكة به^(٦). وفي هذا الحديث كلام طويل يتعلق بسنده ليس هذا موضعه، والله أعلم.

وقال أبو داود: حدثنا عبد الأعلى بن حماد، حدثنا عبد الجبار بن الورد، سمعت ابن أبي مليكة، يقول عبيد الله بن أبي يزيد: مر بنا أبو لبابة فأتبعناه حتى دخل بيته فدخلنا عليه، فإذا رجل رث البيت، رث الهيئة، فانتسبنا له، فقال: تجار كسبة، فسمعت يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرايت إذا لم يكن حسن الصوت قال: يحسنه ما استطاع. تفرد به أبو داود^(٧).

فقد فهم من هذا أن السلف، رضى الله عنهم، إنما فهموا من التغنى بالقرآن: إنما هو تحسين الصوت به، وتحسينه، كما قاله الأئمة، رحمهم الله، ويدل على ذلك - أيضا - ما رواه أبو داود حيث قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن طلحة، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(٨).

وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث شعبة، عن طلحة وهو ابن مصرف به^(٩).

وأخرجه النسائي من طرق آخر عن طلحة^(١٠)، وهذا إسناد جيد.

وقد وثق النسائي، وابن حبان عبد الرحمن بن عوسجة هذا، ونقل الأزدي عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال: سألت عنه بالمدينة، فلم أرهم يحملونه^(١١).

(١) سنن ابن ماجه برقم (١٣٣٧) وقال البيهقي في المزيان (٤٣٤/١): «هذا إسناد فيه أبو رافع وأسمه إسحاق بن رافع. ضعيف متروك».

(٢) في ط، م: «سفيان».

(٣) المسند (١٧٢/٥).

(٤) في ط: «ورواه أحمد».

(٥) زيادة من ج - ط.

(٦) المسند (١٧٥/١، ١٧٩).

(٧) سنن أبي داود برقم (١٤٧١).

(٨) سنن أبي داود برقم (١٤٦٨).

(٩) سنن النسائي (١٧٩/٢) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٤٢).

(١٠) سنن النسائي (١٧٩/٢).

(١١) وانظر: تهذيب الكمال لشمس (٣٢٢/١٧) وابن حجر - رحمه الله - اختار توثيقه في التقريب.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة قال: نهاني أيوب أن أحدث بهذا الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم». قال أبو عبيد: وإنما كره أيوب فيما نرى، أن يتأول الناس بهذا الحديث الرخصة من رسول الله ﷺ في الألحان المتدعة، فلماذا أنهى أن يحدث به^(١).

قلت: ثم إن شعبة روى الحديث متوكلاً على الله، كما روى له، ولو ترك كل حديث يتأول مبطل لترك من السنة شيء كثير، بل قد نظرنا إلى تأويل آيات كثيرة وحملوها على غير محاملها الشرعية المرادة، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريه وتحزينه والتخشع به، كما رواه الحافظ الكبير بقى بن مخلد، حيث قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، حدثنا طلحة بن يحيى ابن طلحة، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو رأيتني وأنا أستمع قراءتك البارحة». قلت: أما والله لو علمت أنك تستمع قراءتي خبرتها لك تحبيراً. ورواه مسلم من حديث طلحة به وزاد: «لقد أوتيت زمماراً من زماعير آل داود»^(٢). وسيأتي هذا في باب حيث يذكره البخاري، والغرض أن أبا موسى قال: لو أعلم أنك تستمع لخبيرته لك تحبيراً، فدل على جواز تعاطي ذلك وتكلفه، وقد كان أبو موسى كما قال، عليه السلام، قد أعطى صوتاً حسناً كما سنذكره إن شاء الله، مع خشية تامة ورقة أهل اليمن الموصوفة، فدل على أن هذا من الأمور الشرعية.

قال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح، عن الميث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة قال: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده^(٣).

وقال أبو عبيد: وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا سليمان التيمي، أنبأ عنه، حدثنا أبو عثمان النهدي قال: كان أبو موسى يصلي بنا، فلو قلت: إنى لم أسمع صوت صنع قط، ولا يربط قط، ولا شيئاً قط أحسن من صوته^(٤).

وقال ابن ماجه: حدثنا العباس بن عبد الرحمن^(٥) الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني حنظلة بن أبي سفيان أنه سمع عبد الرحمن بن سابط الجمحي يحدث عن عائشة قالت: أبطأت على رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جئت فقال: «أين كنت؟». قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام فقامت معه حتى أستمع له، ثم التفت إليّ فقال: «هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمي مثل هذا»^(٦). إسناده جيد.

وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما

(١) فضائل القرآن (ص ٨١).

(٢) صحيح مسلم برقم (٧٩٣).

(٣) فضائل القرآن (ص ٧٩).

(٤) فضائل القرآن (ص ٧٩). وقال الحافظ ابن حجر: «سنده صحيح».

(٥) في ج: عثمان.

(٦) سنن ابن ماجه برقم (١٣٣٨).

سمعت أحدا أحسن صوتاً أو قال: قراءة منه. وفي بعض ألفاظه: فلما سمعته قرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، خلت أن فزادى قد انصدع^(١). وكان جبير لما سمع هذا بعد مشركاً على دين قومه، وإنما قدم في فداء الأسارى بعد بدر، وناهيك بمن تؤثر قراءته في المشرك المصّر على الكفر! وكان هذا سبب هدايته ولهذا كان أحسن القراءة ما كان عن خشوع القلب، كما قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن ليث، عن طاوس قال: أحسن الناس صوتاً بالقرآن أنحاشهم لله^(٢).

حدثنا قبيصة، عن سفيان، عن ابن جريج، عن ابن طاوس، عن أبيه، وعن الحسن بن مسلم، عن طاوس قال: مثل رسول الله ﷺ: أي الناس أحسن صوتاً بالقرآن؟ فقال: «الذي إذا سمعته رأته يخشى الله»^(٣).

وقد روى هذا متصلاً من وجه آخر، فقال ابن ماجه: حدثنا بشر بن معاذ الضرير، حدثنا عبد الله بن جعفر المدني، حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ حسبتموه يخشى الله»^(٤)، ولكن عبد الله بن جعفر هذا، وهو والد علي بن المدني، وشيخه ضعيفان، والله أعلم.

والغرض أن المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه وإحشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنعمة المحدثه المركبة على الأوزان والأوضاع الملهمه والقانون الموسيقي، فالقرآن ينزه عن هذا ويجعل ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك، كما قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله:

حدثنا نعيم بن حماد، عن بَقِيَّةِ بن الوليد، عن حصين بن مالك الغزاري: سمعت شيخاً يكنى أبا محمد يحدث عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابيين، ويجيء قوم من بعدى يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم»^(٥).

حدثنا يزيد، عن شريك، عن أبي اليقظان عثمان بن عمير، عن زاذان أبي عمرو، عن عليم قال: كنا على سطح ومعنا رجل من أصحاب النبي ﷺ. قال يزيد: لا أعلمه إلا قال: عابس الغفاري، فرأى الناس يخرجون في الطاعون فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يفرون من الطاعون، فقال: يا طاعون خذني، فقالوا: تمنى الموت وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يتمنن أحدكم الموت»؟ فقال: إني أبادر خصلاً سمعت رسول الله ﷺ يتخوفهن على أمته: «بيع الحكم، والاستخفاف بالدم، وقطيعة الرحم، وقوم يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليس بأقنهم ولا أفضلهم إلا ليغنيهم

(١) صحيح البخاري برقم (٧٦٥، ٤٨٥٤) وصحيح مسلم برقم (٤٦٣).

(٢) فضائل القرآن (ص ٨٠).

(٣) سنن ابن ماجه برقم (١٣٣٩).

(٤) فضائل القرآن (ص ٨٠) وقال الذهبي في ترجمة حصين بن مالك في التيزان (١/٥٥٣): انفرد عنه بقية، ليس يعتمد، والخبر

[به] ^(١) غناء» وذكر خصلتين أخريين ^(٢).

وحدثنا إبراهيم بن يعقوب، عن ليث بن أبي سليم، عن عثمان بن عمير، عن زاذان، عن عابس الغفاري، عن النبي ﷺ مثل ذلك أو نحوه. وحدثنا يعقوب بن إبراهيم، عن الأعمش، عن رجل، عن أنس بن مالك: أنه سمع رجلا يقرأ القرآن بهذه الألحان التي أحدث الناس، فأنكر ذلك ونهى عنه ^(٣).

هذه طرق حسنة في باب الترهيب، وهذا يدل على أنه محذور كبير، وهو قراءة القرآن بالألحان التي يسلك بها مذاهب الغناء، وقد نص الأئمة، رحمهم الله، على النهي عنه، فأما إن خرج به إلى التعميط الفاحش الذي يزيد بسببه حرفا أو يتقص حرفا، فقد اتفق العلماء على تحريمه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا روح، حدثنا عبيد الله بن الأحنس، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن» ^(٤).

ثم قال: وإنما ذكرناه لأنهم اختلفوا على ابن أبي مليكة فيه، فرواه ابن عبد الجبار بن الورد عنه عن أبي لبابة، ورواه عمرو بن دينار والليث عنه عن أبي نهيك عن سعد، ورواه عمس بن سفيان عنه، عن عائشة ^(٥)، ورواه نافع مولى ابن عمر عنه، عن ابن الزبير ^(٦).

اغتياب صاحب القرآن

حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، حدثني سالم بن عبد الله: أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا في ^(٧) اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب فقام به آتاء الليل، ورجل أعطاه الله مالا فهو يتصدق به آتاء الليل والنهار» ^(٨).

انفرد به البخاري من هذا الوجه، وانفقا على إخراجهم من رواية سفيان عن الزهري ^(٩)، ثم قال البخاري: حدثنا علي بن إبراهيم، حدثنا روح، حدثنا شعيب، عن سليمان: سمعت ذكوان، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آتاء الليل وآتاء النهار، فسمعه جاره له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق»، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل ^(١٠).

ومضمون هذين الحديثين: أن صاحب القرآن في غبطة وهو حسن الخال، فينبغي أن يكون شديد

(١) زيادة من ط.

(٢) فضائل القرآن (ص ٨١) والخصلتين هما: إمرة السفهاء، وكثرة الشرط.

(٣) فضائل القرآن (ص ٨١).

(٤) مسند البزار برقم (٢٣٣٢) كشف الأستار.

(٥) رواه البزار في مسنده برقم (٢٣٣٤) كشف الأستار والحاكم في المستدرک (١/ ٥٧٠) وقال إسناده شاذ.

(٦) رواه البزار في مسنده برقم (٢٣٣٥) كشف الأستار.

(٧) في ج، ط: اعلى.

(٨) صحيح البخاري برقم (٥٠٢٥).

(٩) صحيح البخاري برقم (٧٥٢٩) وصحيح مسلم برقم (٨١٥).

(١٠) صحيح البخاري برقم (٥٠٢٦).

الاجتباب بما هو فيه، ويستحب تغيظه بذلك، يقال: غبظه يغبظه غبطاً: إذا تمنى ما هو فيه من النعمة، وهذا بخلاف الحسد المذموم وهو تمنى زوال نعمة المحسود عنه، سواء حصلت لذلك الحاسد أو لا وهذا مذموم شرعاً، مهلك، وهو أول معاصي إبليس حين حسد آدم، عليه السلام، على ما منحه الله تعالى من الكرامة والاحترام والإعظام. والحسد الشرعي المدحوح هو تمنى مثل حال ذلك الذي هو على حالة سارة؛ ولهذا قال عليه السلام: «لا حسد إلا في اثنتين»، فذكر النعمة القاصرة وهي تلاوة القرآن آتاء الليل والنهار، والنعمة المتعدية وهي إنفاق المال بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورًا﴾ [فاطر: ٢٩]، وقد روى نحو هذا من وجه آخر، فقال عبد الله بن الإمام أحمد: وجدت في كتاب أبي بخط يده: كتب إلى أبو توبة الربيع بن نافع، فكان في كتابه: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة، عن يزيد بن الأختس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنافس بينكم إلا في اثنتين: رجل أعطاه الله القرآن فهو يقوم به آتاء الليل والنهار، ويتبع ما فيه، فيقول رجل: لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلانا فأقوم^(١) كما يقوم به، ورجل أعطاه الله مالا فهو ينفقه ويتصدق، فيقول رجل: لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلانا فأتصدق به^(٢)». وقريب من هذا ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نعيم، حدثنا عبادة بن مسلم، حدثني يونس بن خباب، عن أبي سعيد البختري الطائي، عن أبي كبشة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، فأما الثلاث التي أقسم عليهن: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزاء، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقراً، وأما الذي أحدثكم حديثاً فاحفظوه، فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلماً فهو يتقى فيه ربه ويصل رحمه، ويعمل لله فيه حقه». قال: «فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا فهو يقول: لو كان لي مال عملت بعمل فلان» قال: «فأجرهما سواء». وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً فهو يخط في ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقه، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً فهو يقول: لو كان لي مال لعلت بعمل فلان». قال: «هي نيته فوزرهما فيه سواء»^(٣).

وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبي كبشة الأنثاري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلماً فهو يعمل به في ماله ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فهما في الأجر سواء»، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً فهو يخط في ماله بغير حقه، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علماً فهو يقول: لو كان لي مثل

(١) في ط، م: «يقوم به».

(٢) المسند (١٠٥/٢).

(٣) المسند (٢٣١/٤).

هذا عملت فيه مثل الذى يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فيهما فى الوزر سواء». إسناده صحيح^(١).

خيركم من تعلم القرآن وعلمه

حدثنا حجاج بن منهل، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد، سمعت سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن، عن عثمان بن عفان، عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وأقرأ أبو عبد الرحمن فى إمرة عثمان، رضى الله عنه، حتى كان الحجاج قال: وذلك الذى أقعدنى مقعدى هذا^(٢).

وقد أخرج الجماعة هذا الحديث سوى مسلم من رواية شعبة عن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن وهو عبد الله بن حبيب السلمى - رحمه الله^(٣).

وحدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن أبي عبد الرحمن السلمى، عن عثمان ابن عفان قال: قال النبي ﷺ: «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه»^(٤).

وهكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من طرق عن سفيان، عن علقمة، عن أبي عبد الرحمن، من غير ذكر سعد بن عبيدة^(٥)، كما رواه شعبة ولم يختلف عليه فيه، وهذا المقام مما حكم لسفيان الثورى فيه على شعبة، وخطأ بندار يحيى بن سعيد فى روايته ذلك عن سفيان، عن علقمة، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن وقال: رواه الجماعة من أصحاب سفيان عنه، بإسقاط سعد بن عبيدة، ورواية سفيان أصح فى هذا المقام المتعلق بصناعة الإسناد، وفى ذكره طول لولا الملافة لذكرناه، وفيما ذكر كفاية وإرشاد إلى ما ترك، والله أعلم.

والغرض أنه، عليه الصلاة والسلام، قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وهذه من صفات المؤمنين المتبعين للرسول، وهم الكمل فى أنفسهم، المكملون لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدى، وهذا بخلاف صفة الكفار الجبارين الذين لا يتفكرون، ولا يتركون أحدا من أمكنهم أن ينتفع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [التحل: ٨٨]، وكما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَهُمْ يُنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَشْرُونَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، فى أصح قولى^(٦) المفسرين فى هذا، وهو أنهم ينهون الناس عن اتباع القرآن مع نأيهم وبعدهم عنه، فجمعوا بين التكذيب والصد، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتٍ لِّلَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]، فهذا شأن^(٧) الكفار، كما أن شأن خيار الأبرار أن يكمل فى نفسه وأن يسعى فى تكميل غيره كما قال عليه السلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وكما قال [الله]^(٨) تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ

(١) المسد (٤/ ٢٣٠).

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٧).

(٣) سنن أبي داود برقم (١٤٥٢) وسنن الترمذى برقم (٢٩٠٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٣٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١١).

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٨).

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٣٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢).

(٦) فى جسد القول. (٧) فى ط، جسد: شأن شرار. (٨) زيادة من ط.

دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾، فجمع بين الدعوة إلى الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، مما يُبتغى به وجه الله، وعمل هو في نفسه صالحًا، وقال قولًا صالحًا، فلا أحد أحسن حالًا من هذا. وقد كان أبو عبد الرحمن السلمي الكوفي - أحد أئمة الإسلام ومشايخهم - من رغب في هذا المقام، فقعد يعلم الناس في (١) إمارة عثمان إلى أيام الحجاج قالوا: وكان مقدار ذلك الذي مكث فيه يعلم القرآن سبعين سنة، رحمه الله، وآتاه الله ما طلبه ودأبه. آمين.

قال (٢) البخارى، رحمه الله: حدثنا عمرو بن عون، حدثنا حماد عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: أتت النبي ﷺ امرأة فقالت: إنها قد وهبت نفسها لله ورسوله، فقال: «ما لى فى النساء من حاجة». فقال رجل: زوجنيها قال: «أعطيها ثوباً»، قال: لا أجد، قال: «أعطيها ولو خاتماً من حديد»، فاعتل له، فقال (٣): «ما معك من القرآن». قال: كذا وكذا. فقال: «قد زوجتكها بما معك من القرآن» (٤).

وهذا الحديث متفق على إخرجه من طرق عديدة، والغرض منه أن الذى قصده البخارى أن هذا الرجل تعلم (٥) الذى تعلمه من القرآن، وأمره النبي ﷺ أن يعلمه تلك المرأة، ويكون ذلك صداقاً لها على ذلك، وهذا فيه نزاع بين العلماء، وهل يجوز أن يجعل مثل هذا صداقاً؟ أو هل يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؟ وهل هذا كان خاصاً بذلك الرجل؟ وما معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «زوجتكها بما معك من القرآن»؟ أيسبب ما معك من القرآن؟ كما قاله أحمد بن حنبل: نكركم بذلك أو بعوض ما معك، وهذا أقوى، لهذا فى صحيح مسلم: «فعلمها» (٦)، وهذا هو الذى أراد به البخارى هنا وتحرير باقى الخلاف المذكور فى كتاب النكاح والإجارة، والله المستعان.

القراءة عن ظهر قلب

إنما أفرد البخارى فى هذه الترجمة (٧) حديث أبي حازم عن سهل بن سعد، الحديث الذى تقدم الآن، وفيه أنه، عليه السلام، قال لرجل: «فما معك من القرآن؟». قال: معى سورة كذا وكذا، لسور عددها. قال: «أتقرؤهن» (٨) عن ظهر قلبك؟. قال: نعم. قال: «أذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن» (٩).

وهذه الترجمة من البخارى، رحمه الله، مشعرة بأن قراءة القرآن عن ظهر قلب أفضل. والله أعلم. ولكن الذى صرح به كثيرون من العلماء أن قراءة القرآن من المصحف أفضل؛ لأنه يشمل على التلاوة والنظر فى المصحف وهو عبادة، كما صرح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضى على الرجل يوم لا ينظر فى مصحفه، واستدلوا على فضيلة التلاوة فى المصحف بما رواه الإمام العلم (١٠)

(٣) زيادة من حد

(٢) فى حد: منه قال .

(١) فى حد: من .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٠٢٩).

(٧) من حد: هذا الوجه.

(٦) فى حد: فعلمها.

(٥) فى حد: فعلمها.

(٨) فى حد: أتقرؤهن.

(٩) صحيح البخارى برقم (٥٠٣٠).

(١٠) فى حد: العالم.

أبو عبيد في كتاب^(١) فضائل القرآن حيث قال:

حدثنا نعيم بن حماد، عن بقة بن الوليد، عن معاوية بن يحيى، عن سليم بن مسلم، عن عبد الله بن عبد الرحمن، عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «فضل قراءة القرآن نظراً على من يقرأه ظهراً، كفضل الفريضة على النافلة»^(٢) وهذا الإسناد ضعيف^(٣)، فإن معاوية بن يحيى هو الصدفي أو الأظربلسي، وأيهما كان فهو ضعيف.

وقال الثوري عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال: أديعوا النظر في المصحف^(٤).

وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يونس بن ماهك، عن ابن عباس، عن عمر: أنه كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ فيه^(٥).

وقال حماد أيضاً: عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ابن مسعود: أنه كان إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف، فقرأوا، وفسر لهم^(٦). إسناده صحيح.

وقال حماد بن سلمة: عن حجاج بن أرطاة، عن ثوير بن أبي فاختة، عن ابن عمر قال: إذا رجع أحدكم من سوقه فليشر المصحف وليقرأ^(٧). وقال الأعمش عن خبيثة: دخلت على ابن عمر وهو يقرأ في المصحف فقال: هذا جزئي الذي أقرأ به الليلة^(٨).

فهذه الآثار تدل على أن هذا أمر مطلوب لئلا يعطل المصحف فلا يقرأ منه، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيتذكر منه، أو تحريف كلمة أو آية أو تقديم أو تأخير، فالاستنبات أولى، والرجوع إلى المصحف أثبت من أفواه الرجال، فأما تلقين القرآن فمن فم الملقن أحسن؛ لأن الكتابة لا تدل على كمال الأداء، كما أن المشاهد من كثير ممن يحفظ من الكتابة فقط يكثر تصحيحه وغلطه، وإذا أدى الحال إلى هذا منع منه إذا وجد شيخاً يوقفه على لفظ^(٩) القرآن، فأما عند العجز عمن يلقن فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فيجوز عند الضرورة ما لا يجوز عند الرفاهية، فإذا قرأ في المصحف - والحالة هذه - فلا حرج عليه، ولو فرض أنه قد يحرف بعض الكلمات عن لفظها على لفته ولفظه، فقد قال الإمام أبو عبيد:

حدثني هشام بن إسماعيل الدمشقي، عن محمد بن شعيب، عن الأوزاعي: أن رجلاً صحبهم في سفر قال: فحدثنا حديثاً ما أعلمه إلا رفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا قرأ فحرف أو أخطأ كتبه الملك كما أنزل»^(١٠).

(١) في ط: «كتابه».

(٢) فضائل القرآن (ص ٤٦).

(٣) في ط: «وهذا الإسناد فيه ضعف».

(٤) فضائل القرآن (ص ٤٦) وقال ابن حجر: «إسناده صحيح».

(٥) فضائل القرآن (ص ٤٦).

(٦) فضائل القرآن (ص ٤٧).

(٧) فضائل القرآن (ص ٤٦).

(٨) فضائل القرآن (ص ٤٧).

(٩) فضائل القرآن (ص ٤٧)

(١٠) في ط: «اتفاظه».

وحدثنا حفص بن غياث، عن الشيباني^(١)، عن بكير^(٢) بن الأحنس قال: كان يقال: إذا قرأ الأعجمي والذي لا يقيم القرآن كتبه الملك كما أنزل. وقال بعض العلماء: المدار في هذه المسألة على الخشوع في القراءة، فإن كان الخشوع عند القراءة على ظهر القلب فهو أفضل، وإن كان عند النظر في المصحف^(٣) فهو أفضل فإن استويا فالقراءة نظراً أولى؛ لأنها أثبت وتمتاز بالنظر في المصحف قال الشيخ أبو زكريا النووي^(٤)، رحمه الله، في التبيان: والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل.

تنبيه:

إن كان البخاري، رحمه الله، أراد بذكر^(٥) حديث سهل للدلالة على أن تلاوة القرآن عن ظهر قلب أفضل منها في المصحف، ففيه نظر؛ لأنها قضية عين، فيحتمل أن ذلك الرجل كان لا يحسن الكتابة ويعلم ذلك رسول الله ﷺ منه، فلا يدل على أن التلاوة عن ظهر قلب أفضل مطلقاً في حق من يحسن ومن لا يحسن، إذ لو دل هذا لمكان ذكر حال رسول الله ﷺ وتلاوته عن ظهر قلب - لأنه أُمي لا يدري الكتابة - أولى من ذكر هذا الحديث بمفرده.

الثاني: أن سياق الحديث إنما هو لأجل استنبات أنه يحفظ تلك السور عن ظهر قلب؛ ليتمكن تعليمها لزوجته، وليس المراد ههنا: أن هذا أفضل من التلاوة نظراً، ولا عدمه^(٦)، والله سبحانه وتعالى أعلم.

استذكار القرآن وتعاهده

حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أسكها، وإن أطلقها ذهبت» هكذا رواه مسلم والنسائي من حديث مالك [به]^(٧). وقال الإمام أحمد^(٨): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا^(٩) معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القرآن إذا عاهد عليه صاحبه فقرأه بالليل والنهار، كمثل رجل له إبل، فإن عقلها حفظها، وإن أطلق عقالها ذهبت، فكذلك صاحب القرآن». أخرجه، قاله^(١٠) ابن الجوزي في جامع المسانيد، وإنما هو من أفراد مسلم من حديث عبد الرزاق به^(١١)، وحدثنا محمد بن عرعر، حدثنا شعبة، عن منصور، عن أبي وائل،

(١) في حد: النسائي.

(٢) في حد: بكير.

(٣) في حد: المصحف أكثر.

(٤) في حد: النووي.

(٥) في حد: بذكره.

(٦) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧٨/٩) بعد أن ذكر كلام الحافظ ابن كثير هنا: «ولا يرد على البخاري شيء مما ذكره لأن المراد بقوله: «بأب» القراءة عن ظهر قلب، مشروعيها أو استحبابها، وأحدث مطابق لا ترجم به، ولم يتعرض لكونها أفضل من القراءة نظراً، وقد صرح كثير من العلماء أن القراءة من المصحف نظراً أفضل من القراءة عن ظهر قلب».

(٧) صحيح البخاري برقم (٥٠٣١) وصحيح مسلم برقم (٧٨٩) وسنن النسائي (١٥٤/٢).

(٨) المسند (٣٥/٢).

(٩) في حد: قال.

(١٠) في حد: أخرجه.

(١١) صحيح مسلم برقم (٧٨٩).

عن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل نسي، واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم»^(١).

تابعه بشر. هو ابن محمد السخيتاني، عن ابن المبارك، عن شعبة.

وقد رواه الترمذي عن محمود بن غيلان، عن أبي داود الضيالي، عن شعبة به^(٢)، وقال: حسن صحيح. وأخرجه النسائي من رواية شعبة^(٣).

وحدثنا عثمان، حدثنا جرير، عن منصور مثله. وتابعه ابن جريج عن عبدة، عن شقيق: سمعت عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ^(٤)، وهكذا أسنده مسلم من حديث ابن جريج به^(٥)، ورواه النسائي في اليوم والليلة من حديث محمد بن جحادة، عن عبدة^(٦) وهو ابن أبي ثبابة به^(٧). وهكذا رواه مسلم عن عثمان وزهير بن حرب وإسحاق بن إبراهيم عن جرير به^(٨)، وسنأتي رواية البخاري له عن أبي نعيم، عن سفيان الثوري، عن منصور به، والنسائي من رواية ابن عيينة عن منصور به، فقد رواه هؤلاء عن منصور به مرفوعاً في رواية هؤلاء كلهم^(٩)، وقد رواه النسائي عن قتيبة، عن حماد بن زيد، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله موقوفاً^(١٠)، وهذا غريب وفي مسند أبي يعلى^(١١)، فإنما هو نسي بالتخفيف^(١٢).

حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة، عن بريد، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تفصيلاً من الإبل في عقلها». وهكذا رواه مسلم عن أبي كريب محمد بن العلاء وعبد الله بن براء^(١٣) الأشعري. كلاهما عن أبي أسامة حماد ابن أسامة به^(١٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق. حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا موسى بن علي:

(١) صحيح البخاري برقم (٥٠٣٢).

(٢) سنن الترمذي برقم (٤٩٢٢).

(٣) سنن النسائي (١٥٤/٢).

(٤) صحيح البخاري (٧٩/٩) «فتح».

(٥) صحيح مسلم برقم (٧٩٠).

(٦) في ج: «عبدة».

(٧) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٥٦٠).

(٨) صحيح مسلم برقم (٧٩٠).

(٩) صحيح البخاري برقم (٥٠٣٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٤٢).

(١٠) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٥٦٤).

(١١) مسند أبي يعلى (٦٩/٩).

(١٢) قال القرطبي: معنى التثقل: أنه عقيب بوقوع النسيان عليه التفريط في معاهدته واستدراكه. ومعنى التخفيف: أن الرجل ترك غير ملتفت إليه، وهو كقولته تعالى: «تسألونهم» [التوبة: ١٧٧] أي: تركهم في العذاب أو تركهم من الرحمة.

(١٣) في ج: «بردة».

(١٤) صحيح البخاري برقم (٥٠٣٣) وصحيح مسلم برقم (٧٩١).

سمعت أبي يقول: سمعت عقبة بن عامر يقول: [قال رسول الله ﷺ] (١): «تعلموا كتاب الله، وتعاهدوه وتغنوا به، فوالذي نفسى بيده، لهو أشد تغلثنا من المخاض في العقل» (٢).

ومضمون هذه الأحاديث الترغيب في كثرة تلاوة القرآن واستذكاره وتعاهده؛ لئلا يعرض حافظه للنسيان (٣)، فإن ذلك خطر كبير، نسأل الله العافية منه، فإنه قال الإمام أحمد:

حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عباد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا ويؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه عن ذلك الغل إلا العدل، وما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم القيامة يلقاه وهو أجذم» (٤).

هكذا رواه جرير بن عبد الحميد، ومحمد بن فضيل، عن يزيد بن أبي زياد، كما رواه خالد بن عبد الله (٥). وقد أخرجه أبو داود عن محمد بن العلاء عن ابن إدريس، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن سعد بن عباد عن النبي ﷺ بقصة نسيان القرآن، ولم يذكر الرجل الميهم (٦).

وكذا رواه أبو بكر بن عياش، عن يزيد بن أبي زياد، وقد رواه شعبة عن يزيد فوهم في إسناده، ورواه وكيع عن أصحابه، عن يزيد، عن عيسى بن فائد، عن النبي ﷺ مرسلاً. وقد رواه الإمام أحمد في مسنده عن عباد بن الصامت فقال:

حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن عباد بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه منها إلا عدله، وما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم» (٧).

وكذا رواه أبو عوانة، عن يزيد بن أبي زياد، ففيه اختلاف، لكن هذا في باب التهيب مقبول - والله أعلم - لاسيما إذا كان له شاهد من وجه آخر، كما قال أبو عبيد.

حدثنا حجاج، عن ابن جريج قال: حدثت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت على أجور أمتي حتى القذاة والبعرة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت على ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أكبر من آية أو سورة من كتاب الله أوتيتها رجل فنسيها». قال ابن جريج: وحدثت عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكبر ذنب توافي به أمتي يوم القيامة سورة من كتاب الله أوتيتها رجل فنسيها» (٨).

(١) زيادة من ط، والمسنود.

(٢) المسند (٤/١٤٦).

(٣) في ط: «إلى النسيان».

(٤) المسند (٥/٣٨٥).

(٥) رواه أبو عبيد في الفضائل (ص ١٠٣) من طريق جرير، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٤٧٨) من طريق ابن فضيل.

(٦) سنن أبي داود برقم (١٤٧٤).

(٧) المسند (٥/٣٢٣).

(٨) فضائل القرآن (ص ١٠٣).

وقد روى أبو داود والترمذى وأبو يعلى والبخاري وغيرهم من حديث ابن أبي رواد، عن ابن جريج، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت على أجور أمتى حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت على ذنوب أمتى، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيتها رجل ثم نسيها»^(١).

قال الترمذى: غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وذاكرت به البخارى فاستغربه، وحكى البخارى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى أنه أنكر سماع المطلب من أنس بن مالك.

قلت: وقد رواه محمد بن يزيد الأدمى^(٢)، عن ابن أبي رواد، عن ابن جريج عن الزهرى، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ به. والله أعلم.

وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦]، وهذا الذى قاله هذا - وإن لم يكن هو المراد جميعه - فهو بعضه، فإن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعرضه للبيان وعدم الاعتناء به فيه تهاون كثير وتفريط شديد، نعوذ بالله منه؛ ولهذا قال عليه السلام: «تعاهدوا القرآن»، وفى لفظ: «استذكروا القرآن»، فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم».

التَّفَصُّى: التخلص يقال: تَفَصَّى فلان من البلية: إذا تخلص منها، ومنه: تفصى النوى من الثمرة: إذا تخلص منها، أى: إن القرآن أشد تفلتاً من الصدور من النعم إذا أرسلت من غير عقاب.

وقال أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: قال عبد الله - يعنى ابن مسعود -: إني لامقت القارئ أن أراه سميماً نسياً للقرآن^(٣).

حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد العزيز بن أبي رواد قال: سمعت الضحاک بن مزاحم يقول: ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب يحدثه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب^(٤).

ولهذا قال إسحاق بن راهويه وغيره: يكره لرجل أن يمر عليه أربعون يوماً لا يقرأ فيها القرآن، كما أنه يكره له أن يقرأ فى أقل من ثلاثة أيام، كما سيأتى هذا، حيث يذكره البخارى بعد هذا، وكان الالئق أن يتبعه هذا الباب، ولكن ذكر بعد هذا قوله:

القراءة على الدابة

حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، أخبرنى أبو إياس قال: سمعت عبد الله بن مغفل، رضى الله عنه،

(١) سنن أبي داود برقم (٤٦١) وسنن الترمذى برقم (٢٩١٦) ومسنن أبي يعلى (٧/٢٥٣).

(٢) فى ج: «الأدمى».

(٣) فضائل القرآن (ص ١٠٤) وفيه انقطاع بين النسخ وابن مسعود.

(٤) فضائل القرآن (ص ١٠٤).

قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحلته سورة الفتح (١).

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة سوى ابن ماجة من طرق، عن شعبة، عن أبي إياس، وهو معاوية بن قرة به (٢)، وهذا - أيضا - له تعلق بما تقدم من تعاهد القرآن وتلاوته سفرا وحضرا، ولا يكره ذلك عند أكثر العلماء إذا لم يتله القارئ في الطريق، وقد نقله ابن أبي داود عن أبي الذرداء أنه كان يقرأ في الطريق، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه أذن في ذلك، وعن الإمام مالك أنه كره ذلك، كما قال ابن أبي داود: وحدثني أبو الربيع، أخبرنا ابن وهب [قال] (٣): سألت مالكا عن الرجل يصلى في آخر الليل، فيخرج إلى المسجد، وقد بقى من السورة التي كان يقرأ فيها شيء، فقال: ما أعلم القراءة تكون في الطريق.

وقال الشعبي: تكره قراءة القرآن في ثلاثة مواطن: في الحمام، وفي الحشوش، وفي الرحى وهي تدور. وخالفه في القراءة في الحمام كثير من السلف: أنها لا تكره، وهو مذهب مالك والشافعي وإبراهيم النخعي وغيرهم، وروى ابن أبي داود عن علي بن أبي طالب: أنه كره ذلك، ونقله ابن المنذر عن أبي وائل شقيق بن سلمة، والشعبي والحسن البصري ومكحول وقبيصة بن ذؤيب، وهو رواية عن إبراهيم النخعي، ومحكى عن أبي حنيفة، رحمهم الله، أن القراءة في الحمام تكره وأما القراءة في الحشوش فكراهتها ظاهرة، ولو قيل بتحريم ذلك صيانة لشرف القرآن لكان مذهبنا، وأما القراءة في بيت الرحى وهي تدور فلثلا يعنوا غير القرآن عليه، والحق يعنوا ولا يعلى، والله أعلم.

تعليم الصبيان القرآن

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: إن الذي تدعونه المنفصل هو المحكم، قال: وقال ابن عباس: توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم (٤).

حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جمعت المحكم في عهد النبي ﷺ فقلت له: وما المحكم؟ قال: «المنفصل» (٥).

اتفرد بإخراجه البخاري، وفيه دلالة على جواز تعلم الصبيان القرآن؛ لأن ابن عباس أخبر عن سنة حين موت الرسول ﷺ، وقد كان جمع المنفصل، وهو من الحجرات، كما تقدم ذلك، وعمره آنذاك عشر سنين. وقد روى البخاري أنه قال: توفي رسول الله ﷺ وأنا مختون (٦). وكانوا لا يختنون الغلام حتى يحتلم، فيحتمل أنه يجوز في هذه الرواية بذكر العشر، وترك ما زاد عليها من

(١) صحيح البخاري برقم (٥٠٣٤).

(٢) صحيح مسلم برقم (٧٩٤) وسنن أبي داود برقم (١٤٦٧) والشمائل لترمذي برقم (٣٠٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (٦٢ - ٨).

(٣) زيادة من ط.

(٤) صحيح البخاري برقم (٥٠٣٥).

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٣٦).

(٦) صحيح البخاري برقم (٦٢٩٩).

الكر، والله أعلم.

وعلى كل تقدير، ففيه دلالة على جواز تعليمهم القرآن في الصبا، وهو ظاهر، بل قد يكون مستحبا أو واجبا؛ لأن الصبي إذا تعلم القرآن بلغ وهو يعرف ما يصلح به، وحفظه في الصغر أولى من حفظه كبيرا، وأشد علقا بخاطره وأرسخ وأثبت، كما هو المعهود من حال الناس، وقد استحب بعض السلف أن يترك الصبي في ابتداء عمره قليلا للعب، ثم توفر همة على القراءة، لئلا يلزم أولا بالقراءة فيملها ويعدل عنها إلى اللعب، وكره بعضهم تعليمهم القرآن وهو لا يعقل ما يقال له، ولكن يترك حتى إذا عقل وميز علم قليلا قليلا، بحسب همة ونهمة وحفظه وجودة ذهنه، واستحب عمر ابن الخطاب، رضى الله عنه، أن يلقن خمس آيات خمس آيات، روي عنه بسند جيد^(١).

نسيان القرآن

وهل يقول: نسيت آية كذا وكذا، وقول الله تعالى:

﴿مَنْ قَرَأَ فَلَا يَنْسَى. إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦، ٧]

حدثنا الربيع بن يحيى، حدثنا زائدة، حدثنا هشام، عن عروة، عن عائشة قالت: لقد سمع النبي ﷺ رجلا يقرأ في المسجد فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا من سورة كذا».

وحدثني محمد بن عبيد بن ميمون، حدثنا عيسى بن يونس، عن هشام وقال: أسقطتني من سورة كذا وكذا. انفرد به أيضا. تابعه علي بن مسهر وعبد بن هشام^(٢).

وقد أسندهما البخاري في موضع آخر، ومسلم معه في عبدة^(٣).

وحدثنا أحمد بن أبي رجاء، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلا يقرأ في سورة بالنيل فقال: «يرحمه الله، فقد أذكرني آية كذا وكذا كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا». ورواه مسلم من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة^(٤).

الحديث الثاني: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن منصور، عن أبي واثن، عن عبد الله، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نسي» ورواه مسلم والنسائي. من حديث منصور به^(٥). وقد تقدم، وفي مسند أبي يعلى: «فإنما هو نسي»، بالتخفيف، هذا لفظه.

وفي هذا الحديث - والذي قبله - دليل على أن حصول النسيان للشخص ليس بنقص له إذا كان

(١) مسند الغزالي للمؤلف (١/ ١٧٠).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٧-٥٠).

(٣) صحيح البخاري برقم (٦٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٧٨٨).

(٤) في ج. ط: «قد».

(٥) صحيح البخاري برقم (٣٨-٥٠) وصحيح مسلم برقم (٧٨٨).

(٦) صحيح البخاري برقم (٣٩-٥٠) وصحيح مسلم برقم (٧٩٠) وسنن النسائي الكبرى برقم (٤٢-٨٠).

بعد الاجتهاد والحرص، وفي حديث ابن مسعود أدب في التعبير عن حصول ذلك، فلا يقول: نسيت آية كذا، فإن النسيان ليس من فعل العبد، وقد يصدر عنه أسبابه من التماسي والتغافل والتهاون المفضى إلى ذلك، فأما النسيان نفسه فليس بفعله؛ ولهذا قال: «بل هو نسي»، مبنى لما لم يسم فاعله، وأدب - أيضا - في ترك إضافة ذلك إلى الله تعالى، وقد أسند النسيان إلى العبد في قوله: «وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ» [الكهف: ٢٤] وهو، والله أعلم، من باب المجاز السائغ بذكر المسبب وإرادة السبب؛ لأن النسيان إنما يكون عن سبب قد يكون ذنبا، كما تقدم عن الضحاك بن مزاحم، فأمر الله تعالى بذكره ليذهب الشيطان عن القلب كما يذهب عند النداء بالأذان، والحسنة تذهب السيئة، فإذا زال السبب للنسيان انزاح، فحصل الذكر لشيء بسبب ذكر الله تعالى، والله أعلم.

من لم ير بأساً أن يقول:

سورة البقرة، وسورة كذا وكذا

حدثنا عمر بن حفص بن غياث^(١)، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثني إبراهيم، عن علقمة وعبد الرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلة كفتاه»^(٢).

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة من حديث عبد الرحمن بن يزيد وصاحبنا الصحيح والنسائي وابن ماجه من حديث علقمة، كلاهما عن أبي مسعود عقبه بن عامر الأنصاري البكري^(٣).

الحديث الثاني: ما رواه من حديث الزهري، عن عروة، عن المسور وعبد الرحمن بن عبد القاري، كلاهما عن عمر قال: سمعت هشام بن حكيم ابن حزام^(٤) يقرأ سورة الفرقان... وذكر الحديث بطوله، كما تقدم، وكما سيأتي^(٥).

الحديث الثالث: ما رواه من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: سمع رسول الله ﷺ قارنا يقرأ من الليل في المسجد، فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية، كنت أسقطهن من سورة كذا وكذا»^(٦).

وهكذا في الصحيحين عن ابن مسعود: أنه كان يرمي الجمرة من الوادي ويقول: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة^(٧). وكره بعض السلف ذلك، ولم يروا إلا أن يقال: السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، كما تقدم من رواية يزيد الفارسي عن ابن عباس، عن عثمان أنه قال: إذا نزل شيء من

(١) في ج: «عنا».

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٤٠).

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٠٠٨، ٥٠٥١، ٥٠٠٨) وصحيح مسلم برقم (٨٠٧، ٨٠٨) وسنن أبي داود برقم (١٣٩٧) وسنن الترمذي برقم (٢٨٨١) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠١٨، ٨٠١٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٦٨، ١٣٦٩).

(٤) زيادة من ط، ج.

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٤١).

(٦) صحيح البخاري برقم (٥٠٤٢).

(٧) صحيح البخاري برقم (١٧٤٧) وصحيح مسلم برقم (١٢٩٦).

القرآن يقول رسول الله ﷺ: «اجعلوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، ولا شك أن هذا انحوط وأولى، ولكن قد صححت الأحاديث بالرخصة في الآخر، وعليه عمل الناس اليوم في ترجمة السور في مصاحفهم، وبالله التوفيق.

الترتيل في القراءة

وقول الله ^(١) عز وجل: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وقوله: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَانَهُ لِنُقَرِّأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْتَبٍ﴾ [الإسراء: ٦٠٦] أن يهذ كهذ الشعر، يفرق: يفصل، قال ابن عباس: ﴿فَرَقَانَهُ﴾: فصلناه.

حدثنا أبو النعمان، حدثنا مهدي بن ... حدثنا واصل [وهو ابن حيان الأحذب] ^(٢)، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: غدونا على عبد الله. فقال رجل: قرأت المفضل البارحة، فقال: هذا كهذ الشعر، إنا قد سمعنا القراءة، وإني لأحفظ القراءات التي كان يقرأ بهن النبي ﷺ ثمان عشرة سورة من المفضل، وسورتين من آل حم ^(٣).

ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن مهدي بن ميمون، عن واصل - وهو ابن حيان الأحذب - عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن ابن مسعود به ^(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن زياد بن نعيم، عن مسلم بن مخراق، عن عائشة أنه ذكر لها أن ناسا يقرؤون القرآن في الليل مرة أو مرتين، فقالت: أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنت أقوم مع النبي ﷺ ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها تخوف إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورغب إليه ^(٥).

الحديث الثاني: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦]: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه. وذكر تمام الحديث كما سيأتي، وهو متفق عليه، وفيه والذي قبله دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها من غير هذرمة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكير، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن ^(٦) سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها» ^(٧).

(٢) زيادة من ج.

(١) في ج. ط: وقوله.

(٣) صحيح البخاري برقم (٥٠٤٣).

(٤) صحيح مسلم برقم (٨٢٢).

(٥) المسند (٩٢/٦).

(٦) في ط: معن.

(٧) المسند (١٩٢/٢).

وقال أبو عبيد: حدثنا جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم قال: قرأ علقمة على عبد الله، فكانه عجل، فقال عبد الله: فذاك أبي وأمي، رتل فإنه زين القرآن. قال: وكان علقمة حسن الصوت بالقرآن^(١).

وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة وإنني أقرأ القرآن في ثلاث فقال: لأن أقرأ البقرة^(٢) في ليلة فأدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ كما تقول^(٣).

وحدثنا حجاج، عن شعبة وحماد بن سلمة، عن أبي جمرة، عن ابن عباس نحو ذلك، إلا أن في حديث حماد: أحب إلي من أن أقرأ القرآن أجمع هذمة^(٤).
ثم قال البخاري، رحمه الله:

مد التراءة

حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا جرير بن حازم الأزدي، حدثنا قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ فقال: كان يمد مداً^(٥).

وهكذا رواه أهل السنن، من حديث جرير بن حازم به^(٦)، وحدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة قال: سئل أنس بن مالك: كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مداً، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم. انفرد به البخاري من هذا الوجه^(٧)، وفي معناه الحديث الذي رواه الإمام أبو عبيد: حدثنا أحمد بن عثمان، عن عبد الله بن المبارك، عن الثليث بن سعد، عن ابن أبي مليكة، عن يعلى بن مملوك، عن أم سلمة: أنها نعت قراءة رسول الله ﷺ قراءة مفسرة حرفاً حرفاً^(٨).

وهكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل، عن يحيى بن إسحاق، وأبو داود عن يزيد بن خالد الرملي، والترمذي والنسائي، كلاهما عن قتيبة، كلهم عن الثليث بن سعد به^(٩). وقال الترمذي: حسن صحيح.

ثم قال أبو عبيد: وحدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته؛ بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وهكذا.

(١) فضائل القرآن (ص ٧٤).

(٢) في ج: القرآن.

(٣) (٤) فضائل القرآن (ص ٧٤).

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٤٥).

(٦) سنن أبي داود برقم (١٤٦٥) وسنن النسائي (١٧٩/٢) وشمائل الترمذي برقم (٣٠٨) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٥٣).

(٧) صحيح البخاري برقم (٥٠٤٦).

(٨) فضائل القرآن (ص ٧٤).

(٩) المسند (٦/٣) وسنن أبي داود برقم (١٤٦٦) وسنن النسائي (١٨١/٢) وسنن الترمذي برقم (٢٩٢٣).

رواه أبو داود والترمذى من حديث ابن جريج^(١)، وقال الترمذى: غريب وليس إسناده متصل،
يعنى: أن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة لم يسمعه من أم سلمة، وإنما رواه عن يعلى بن مملك،
كما تقدم، والله أعلم.

الترجيع

حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة، حدثنا أبو إياس قال: سمعت عبد الله بن مغفل قال:
رأيت النبي ﷺ وهو على ناقته - أو جملة - وهي تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح قراءة لينة وهو
يرجع^(٢).

وقد تقدم هذا الحديث في القراءة على الدابة وأنه من المنفق عليه، وفيه أن ذلك كان يوم الفتح،
وأما الترجيع: فهو التردد في الصوت كما جاء - أيضا - في البخارى أنه جعل يقول: (آ آ)، وكان
ذلك صدر من حركة الدابة تحته، فدل على جواز التلاوة عليها، وإن أفضى إلى ذلك ولا يكون ذلك
من باب الزيادة في الحروف، بل ذلك مغتفر للحاجة، كما يصل على الدابة حيث توجهت به، مع
إمكان تأخير ذلك الصلاة إلى القبلة، والله أعلم.

حسن الصوت بالقراءة

حدثنا محمد بن خلف أبو بكر، حدثنا أبو يحيى الحماني، حدثنا يزيد بن عبد الله بن أبي بردة،
عن جده أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا موسى، لقد أوتيت
مزمارة من مزابير آل داود»^(٣)، وهذا رواه الترمذى عن موسى بن عبد الرحمن الكندي، عن أبي
يحيى الحماني^(٤) - واسمه عبد الحميد بن عبد الرحمن - وقال: حسن صحيح. وقد رواه مسلم من
حديث طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبي بردة، عن أبي موسى^(٥)، وفيه قصة، وقد تقدم الكلام
على تحسين الصوت عند قول البخارى: من لم يتغن بالقرآن، وذكرنا هنا أحكاما كافية عن إعادتها
ههنا، والله أعلم.

من أحب أن يسمع القرآن من غيره

حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم بن عبيدة، عن عبد
الله قال: قال لى النبي ﷺ: «اقرأ على القرآن». قلت: عليك أقرأ وعليك أنزل؟! قال: «إني أحب
أن أسمعه من غيري».

وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه، من طرق عن الأعمش^(٦)، وله طرق يطول ذكرها وبسطها، وقد

(١) فضائل القرآن (ص ٧٥) وسنن أبي داود برقم (١ - ٤) وسنن الترمذى برقم (٢٩٢٧).

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧ - ٥٠).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨ - ٥٠).

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٨٥٥).

(٥) صحيح مسلم برقم (٧٩٣).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٤٩) وصحيح مسلم برقم (٨٠٠) وسنن أبي داود برقم (٣٦٦٨) وسنن النسائي الكبرى برقم (٧٥ - ٨٠).

وسنن الترمذى برقم (٣٠٢٥).

تقدم فيما رواه مسلم من حديث طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبي بردة، عن أبي موسى: أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا موسى، لو رأيتي وأنا أستمع لقراءتك البارحة». فقال: أما والله لو أعلم أنك تسمع قراءتي لحببته لك تحبيراً.

وقال الزهري، عن أبي سلمة: كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى. فيقرأ عنده.

وقال أبو عثمان النهدي: كان أبو موسى يصلي بنا، فلو قلت: إني لم أسمع صوت صنج قط ولا يربط قط، ولا شيئاً قط أحسن من صوته.

قول المقرئ للقارئ: حسبك

حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ علي». فقلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «نعم»، فقرأت عليه سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حسبك الآن» [فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان] (١) (٢).

أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه، من رواية الأعمش به (٣)، ووجه الدلالة ظاهر، وكذا الحديث الآخر: «اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا».

في كم يقرأ القرآن

وقول الله تعالى: ﴿فَأَقْرءُوا مَا تيسر منه﴾ [الزمل: ٢٠]

حدثنا علي، حدثنا سفيان، قال: قال لي ابن شبرمة: نظرت كم يكف الرجل من القرآن فلم أجد سورة أقل من ثلاث آيات. فقلت: لا ينبغي لأحد أن يقرأ أقل من ثلاث آيات. قال سفيان: أخبرنا منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن يزيد، أخيرة علقمة عن أبي معود، فلقيته وهو يطوف بالبيت، فذكر النبي ﷺ أن من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه (٤).

وقد تقدم أن هذا الحديث متفق عليه، وقد جمع البخاري فيما بين عبد الرحمن بن يزيد وعلقمة عن أبي معود وهو صحيح؛ لأن عبد الرحمن سمعه أولاً من علقمة، ثم لقي أبا معود وهو يطوف فسمعه منه، وعلى هذا هو ابن المديني وشيخه هو سفيان بن عيينة، وما قاله عبد الله بن شبرمة - فقيه الكوفة في زمانه - استنباط حسن، وقد جاء في حديث في السنن: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب وثلاث آيات» (٥)، ولكن هذا الحديث - أعنى حديث أبي معود - أصح وأشهر وأخص. ولكن وجه مناسبه

(١) زيادة من ط.

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٥٠).

(٣) صحيح مسلم برقم (٨٠٠) وسنن أبي داود برقم (٣٦٦٨) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٧٨) والسنن للترمذي برقم (٣٠٦).

(٤) صحيح البخاري برقم (٥٠٥١).

(٥) كذا قال الحفاظ ابن كثير. ولم أقع عليه في السنن الأربعة، وقد رواه ابن عدي في الكامل (٢٩/٥) من طريق عمر بن يزيد المدائني عن عطاء عن ابن عمر. رضي الله عنه. مرفوعاً بلفظ: «لا تجزئ في المكتوبة إلا بفاتحة الكتاب وثلاث آيات فصاعداً». والمدائني منكر الحديث كما قال ابن عدي.

للترجمة التي ذكرها البخاري فيه نظر، والله أعلم^(١).

والحديث الثاني أظهر في المناسبة وهو قوله: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن مغيرة، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كتته فيألفها عن بعلها فتقول: نعم الرجل من رجل لم يظأ لنا فراشا، ولم يفتش لنا كنفا منذ أتينا، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ، فقال: «القتنى به»، فلقته بعد، فقال: «كيف تصوم؟». قلت: كل يوم. قال: «وكيف تختم؟». قال: كل ليلة. قال: «صم كل شهر ثلاثة»، وقرأ القرآن في كل شهر: قال: قلت: إني أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم ثلاثة أيام في الجمعة». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «أفطر يومين وصوم يوما». قلت: أطيق أكثر من ذلك. قال: «صم أفضل الصوم صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، وقرأ في كل سبع ليال مرة»، فلبتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ! وذلك أني كبرت وضعفت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار والذي يقرأ يعرضه بالنهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياما وأحصى وصام مثلهن، كراهية أن يترك شيئا فارق عليه النبي ﷺ. وقال بعضهم: في ثلاث وفي خمس وأكثرهم على سبع^(٢).

وقد رواه في الصوم، والنسائي - أيضا - عن بُنْدَارٍ عن عُنْدَرٍ، عن شعبة، عن مغيرة، والنسائي من حديث حصين، كلاهما عن مجاهد به^(٣).

ثم روى البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يحيى بن أبي كثير، عن محمد بن عبد الرحمن - مولى بني زهرة^(٤) - عن أبي سلمة: قال: وأحسبني قال: سمعت أنا من أبي سلمة، عن عبد الله بن عمرو قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ القرآن في شهر». قلت: إني أجد قوة. قال: «فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك»^(٥). فهذا السياق ظاهره يقتضي المنع من قراءة القرآن في أقل من سبع، وهكذا الحديث الذي رواه أبو عبيد:

حدثنا حمجاج وعمر بن طارق ويحيى بن بكير، كلهم عن ابن لهيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن قيس بن أبي صعصعة؛ أنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ فقال: «في كل خمس عشرة». قال: إني أجد في أقوى من ذلك، قال: «ففي كل جمعة»^(٦).

وحدثنا حمجاج عن شعبة، عن محمد بن ذكوان - رجل من أهل الكوفة - قال: سمعت عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يقول: كان عبد الله بن مسعود يقرأ القرآن في غير رمضان من

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٩٥/٩): «وقد خفيت مناسبة حديث أبي مسعود بالترجمة على ابن كثير، والذي يظهر أنها من جهة أن الآية الترجمة بها تناسب ما استدل به ابن عبيدة من حديث أبي مسعود، والجامع بينهما أن كلا من الآية والحديث يدل على الاكتفاء بخلاف ما قال ابن شبرمة».

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٢-٥٠).

(٣) صحيح البخاري برقم (١٩٧٨) وسنن النسائي (٢٠٩/٤، ٢١٠).

(٤) في ط: «أبي هريرة».

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٥٣) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) وسنن أبي داود برقم (١٣٨٨) لكنه عند أبي داود من طريق أبان العطار عن يحيى بن أبي كثير عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة، والله أعلم.

(٦) فضائل القرآن (ص ٨٧).

الجمعة إلى الجمعة^(١).

وعن حجاج، عن شعبة، عن أيوب: سمعت أبا قلابة، عن أبي المهلب قال: كان أبي بن كعب يختم القرآن في كل ثمان.

وحدثنا علي بن عاصم، عن خالد، عن أبي قلابة قال: كان أبي بن كعب يختم القرآن في كل ثمان.

وكان نعيم الداري يختمه في كل سبع، وحدثنا هُشَيْم، عن الأعمش، عن إبراهيم: أنه كان يختم القرآن في كل سبع^(٢).

وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم قال: كان الأسود يختم القرآن في كل ست، وكان علقمة يختمه في كل خمس^(٣).

فلو تركنا ومجرد هذا لكان الأمر في ذلك جلياً، ولكن دلت أحاديث أخرجهما^(٤) على جواز قراءته فيما دون ذلك، كما رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا حبان ابن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصاري: أنه قال: يا رسول الله، اقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: «نعم». قال: فكان يقرؤه حتى توفي^(٥).

وهذا إسناد جيد قوي حسن، فإن حسن بن موسى الأشيب ثقة متفق على جلالة روى له الجماعة وابن لهيعة، إنما يخشى من تديسه وسوء حفظه، وقد صرح ههنا بالسماع، وهو من الأئمة العلماء بالديار المصرية في زمانه، وشيخه حبان بن واسع بن حبان وأبوه، كلاهما من رجال مسلم، والصحابي لم يخرج له أحد من أهل الكتب الستة، وهذا على شرط كثير منهم، والله أعلم.

وقد رواه أبو عبيد، رحمه الله، عن ابن كثير^(٦)، عن ابن لهيعة، عن حبان بن واسع، عن أبيه، عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال: يا رسول الله، اقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: «نعم، إن استطعت». قال: فكان يقرؤه كذلك حتى توفي^(٧).

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث». وهكذا أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث قتادة به^(٨). وقال الترمذي: حسن صحيح.

حديث آخر: قال أبو عبيد: حدثنا يوسف بن المغرق، عن الطيب بن سليمان، حدثنا عمرة بنت

(١) فضائل القرآن (ص ٨٧).

(٢) (٣) فضائل القرآن (ص ٨٨).

(٤) في ط: «أخر».

(٥) لم أقع عليه في الطبع من المسند، وقد ذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند (٢/٢٦٥).

(٦) في ط: «بكير».

(٧) فضائل القرآن (ص ٨٨).

(٨) فضائل القرآن (ص ٨٩) والمسند (٢/١٨٩، ١٦٥) وسنن أبي داود برقمه (١٣٩٤) وسنن الترمذي برقمه (٢٩٤٩) وسنن الصائبي الكبرى برقم (٨٠٦٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٤٧).

عبد الرحمن: أنها سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ لا يختم القرآن في أقل من ثلاث^(١).
هذا حديث غريب وفيه ضعف، فإن الطيب بن سليمان هذا بصرى، ضعفه الدارقطني، وليس
هو بذلك المشهور، والله أعلم.

وقد كره غير واحد من السلف قراءة القرآن في أقل من ثلاث، كما هو مذهب أبي عبيد وإسحاق
وابن راهويه وغيرهما من الخلف - أيضا - قال أبو عبيد: حدثنا يزيد، عن هشام بن حان، عن
حفصة، عن أبي العالية، عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث^(٢).
صحيح.

وحدثنا يزيد، عن سفيان، عن علي بن بديعة، عن أبي عبيدة قال: [قال]^(٣) عبد الله: من قرأ
القرآن في أقل من ثلاث فهو راجز. وحدثنا حجاج، عن شعبة، عن علي بن بديعة، عن أبي عبيدة،
عن عبد الله مثله سواء^(٤).

وحدثنا حجاج، عن شعبة، عن محمد بن ذكوان، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن
أبيه؛ أنه كان يقرأ القرآن في رمضان في ثلاث^(٥). إسناده صحيح.

وفي المسند عن عبد الرحمن بن شبل مرفوعا: «اقرأوا القرآن، ولا تغفلوا فيه، ولا تحفوا عنه،
ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به»^(٦).

فقوله: «لا تغفلوا فيه» أي: لا تبالفوا في تلاوته بسرعة في أقصر مدة، فإن ذلك ينافي التدبر
غالبًا؛ ولهذا قبله بقوله: «ولا تحفوا عنه» أي: لا تركوا تلاوته.

فصل

وقد ترخص جماعة^(٧) من السلف في تلاوة القرآن في أقل من ذلك؛ منهم أمير المؤمنين عثمان
ابن عفان، رضى الله عنه.

قال أبو عبيد: حدثنا حجاج، عن ابن جريح، أخبرني ابن خصيفة، عن السائب بن يزيد: أن
رجلا سأل عبد الرحمن بن عثمان التيمي عن صلاة طلحة بن عبيد^(٨) فقال: إن شئت أخبرتك عن
صلاة عثمان، رضى الله عنه، فقال: نعم. قال: قلت: لأعطين المنيأة على الحجر، فقامت، فلما
قامت إذا أنا برجل مقنع يزحمي، فنظرت فإذا عثمان بن عفان، فتأخرت عنه، فصلى فإذا هو يسجد
سجود القرآن، حتى إذا قلت: هذه هوادى الفجر، أوتر بركعة لم يصل غيرها^(٩). وهذا إسناد

(١) فضائل القرآن (ص ٨٨، ٨٩).

(٢) فضائل القرآن (ص ٨٩).

(٣) زيادة من ط.

(٤) فضائل القرآن (ص ٨٩).

(٥) فضائل القرآن (ص ٩٠).

(٦) المسند (٣/٢٢٨) من طريق ريد بن سلام عن جده عن أبي راشد عن عبد الرحمن بن شبل به مرفوعا، وقال الخافظ بن حجر:
إسناده قوى.

(٨) في ط: «عبيد الله».

(٧) في ط: «جماعات».

(٩) فضائل القرآن (ص ٩٠).

صحيح.

قال^(١): وحدثنا هُثَيْمٌ، عن منصور، عن ابن سيرين قال: قالت نائلة بنت الفرافصة الكلبية حيث دخلوا على عثمان ليقتلوه: إن يقتلوه أو يدعوه، فقد كان يحيى الليل كله بركعة يجمع فيها القرآن. وهذا حسن أيضاً^(٢).

وقال - أيضاً - : حدثنا أبو معاوية، عن عاصم بن سليمان، عن ابن سيرين: إن تميم الداري قرأ القرآن في ركعة^(٣).

حدثنا حجاج بن شعبة، عن حماد، عن سعيد بن جبيرة: أنه قال: قرأت القرآن في ركعة في البيت - يعني الكعبة^(٤).

وحدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة أنه قرأ القرآن في ليلة، طاف بالبيت أسبوعاً، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالطول، ثم طاف بالبيت أسبوعاً، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالثنتين، ثم طاف أسبوعاً، ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بالثلاثي، ثم طاف بالبيت أسبوعاً ثم أتى المقام فصلى عنده فقرأ بقية القرآن^(٥).

وهذه كلها أسانيد صحيحة، ومن أغرب ما ههنا: ما رواه أبو عبيد: حدثنا سعيد بن عفير، عن بكر بن مضر، أن سليم بن عتر التجيبي كان يختم القرآن في ليلة ثلاث مرات، ويجمع ثلاث مرات. قال: فلما مات قالت امرأته: رحمك الله، إن كنت لترضى ربك وترضى أهلك، قالوا: وكيف ذلك؟ قالت: كان يقوم من الليل فيختم القرآن، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم ثم يلم بأهله، ثم يغتسل، ويعود فيقرأ حتى يختم، ثم يلم بأهله ثم يغتسل، ويخرج إلى صلاة الصبح^(٦).

قلت: كان سليم بن عتر تابعياً جليلاً ثقة نبيلاً، وكان قاضياً بمصر أيام معاوية وقاصها، ثم قال أبو حاتم: روى عن أبي الدرداء، وعنه ابن زحر، ثم قال: حدثني محمد بن عوف، عن أبي صالح كاتب الليث، حدثني حرمله بن عمران، عن كعب بن علقمة قال: كان سليم بن عتر من خير التابعين^(٧).

وذكره ابن يونس في تاريخ مصر.

وقد روى ابن أبي داود عن مجاهد أنه كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء.

وعن منصور قال: كان على الأزدي يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء كل ليلة من رمضان.

وعن إبراهيم بن سعد قال: كان أبي يحتبى فما يحل حبوته حتى يختم القرآن.

قلت: وروى عن منصور بن زاذان: أنه كان يختم فيما بين الظهر والعصر، ويختم أخرى فيما

(١) في ط: ثم قال.

(٢) فضائل القرآن (ص ٩١).

(٣) الجرح والتعديل (٤/٢١١، ٢١٢).

بين المغرب والعشاء، وكانوا يؤخرونها قليلاً.

وعن الإمام الشافعي، رحمه الله: أنه كان يختم في اليوم واللييلة من شهر رمضان ختمتين، وفي غيره ختمة.

وعن أبي عبد الله البخاري - صاحب الصحيح -: أنه كان يختم في اللييلة ويومها من رمضان ختمة.

ومن غريب هذا وبديعه ما ذكره الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى الصوفي قال: سمعت الشيخ أبا عثمان المغربي يقول: كان ابن الكاتب يختم بالنهار أربع ختمات، وبالليل أربع ختمات.

وهذا نادر جداً. فهذا وأمثاله من الصحيح عن السلف محمول إما على أنه ما بلغهم في ذلك حديث مما تقدم، أو أنهم كانوا يفهمون ويتفكرون فيما يقرؤونه مع هذه السرعة، والله أعلم.

قال الشيخ أبو زكريا النووي في كتابه التبيان بعد ذكر طرف مما تقدم: (والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصود له، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذمة)^(١).

ثم قال البخاري، رحمه الله:

البكاء عند القراءة

وأورد فيه من رواية الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ». قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري». قال: فقراءت النساء، حتى إذا بلغت: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» [النساء: ٤١]، قال لي: «كفّ أو أمك»، فرأيت عيناه تدرقان^(٢).

وهذا من المتفق عليه كما تقدم، وكما سيأتي إن شاء الله.

من راعى بقراءة القرآن

أو تأكل به أو فجر به

حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سفيان، حدثنا الأعمش، عن خيثمة، عن سويد بن غفلة، قال^(٣) علي، رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة»^(٤).

(١) التبيان (ص ٧٦).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٥٠٥).

(٣) في ط: «عن».

(٤) صحيح البخاري برقم (٥٠٥٧).

وقد روى في موضعين آخرين، ومسلم وأبو داود والنسائي، من طرق عن الأعمش به^(١): حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا مالك، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في النصل^(٢) فلا يرى شيئاً، وينظر في القدح فلا يرى شيئاً، وينظر في الريش فلا يرى شيئاً، ويتمارى في الفوق^(٣)».

ورواه في موضع آخر، ومسلم - أيضاً - والنسائي من طرق عن الزهري، عن أبي سلمة به^(٤).

حدثنا مُدَّد بن مرهد، حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبي موسى، رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالثمرة طعمها طيب ولا ربح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث وريحها مر^(٥)».

ورواه في موضع آخر مع بقية الجماعة من طرق، عن قتادة به^(٦).

ومضمون هذه الأحاديث التحذير من المراءاة بتلاوة القرآن التي هي من أعظم القرب، كما جاء في الحديث: «واعلم أنك لن تقرب إلى الله بأعظم مما خرج منه^(٧)» يعنى: القرآن.

والمذكورون في حديث على وأبي سعيد هم الخوارج، وهم الذين لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وقد قال في الرواية الأخرى: «يحقر أحدكم قراءته مع قراءتهم، وصلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم». ومع هذا أمر بقتلهم لأنهم مراؤون في أعمالهم في نفس الأمر، وإن كان بعضهم قد لا يقصد ذلك، إلا أنهم أسوأ أعمالهم على اعتقاد غير صالح، فكانوا في ذلك كالمذمومين في قوله: «أَفَمَنْ أَسَّسَ بِنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بِنْيَانَهُ عَلَى شِقَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» [التوبة: ١٠٩]، وقد اختلف العلماء في تكفير الخوارج وتضييقهم ورد روايتهم، كما سيأتى [تفصيله]^(٨) في موضعه إن شاء الله.

(١) صحيح البخارى برقم (٣٦١١ - ٦٩٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٦) وسنن أبي داود برقم (٤٧٦٧) وسنن النسائي (١١٩/٧).

(٢) في ط: «السهم».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٨).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٦١ - ٦٩٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٥٦٠).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٠٥٩).

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٤٢٧)، (٧٥٦٠) وصحيح مسلم برقم (٧٩٧) وسنن أبي داود برقم (٤٨٣٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨٦٥) وسنن النسائي (١٢٤/٨) وسنن ابن ماجه برقم (٢١٤).

(٧) رواه أحمد في المسند (٢٦٨/٥) والترمذى في السنن برقم (٢٩١١) من طريق ليث بن أبي سليم عن زيد بن أرقط عن أبي امامة به مرفوعاً، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٨) زيادة من ط.

والمنافق المشبه بالريحانة التي لها الريح ظاهر وطعمها مر هو المرائي بتلاوته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالِي يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

ثم قال البخاري:

اقرأوا القرآن ما انتلقت عليه قلوبكم

حدثنا أبو النعمان محمد بن الفضل عارم، حدثنا حماد بن زيد، عن أبي عمران الجوني، عن جندب بن عبد الله، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اقرأوا القرآن ما انتلقت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا [عنه]»^(١)،^(٢).

حدثنا عمرو بن علي بن بحر الفلاس، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سلام بن أبي مطيع، عن أبي عمران الجوني، عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن ما انتلقت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا [عنه]»^(٣)،^(٤).

تابعه الحارث بن عبيد وسعيد بن زيد، عن أبي عمران، ولم يرفعه حماد بن سلمة وأبان.

وقال غندر: عن شعبة، عن أبي عمران قال: سمعت جندبا. قوله: وقال ابن عون، عن أبي عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله. وجندب أصح وأكثر^(٥)،^(٦).

وقد رواه في موضع آخر، ومسلم كلاهما عن إسحاق بن منصور، عن عبد الصمد، عن همام، عن أبي عمران به^(٧)، ومسلم - أيضا - عن يحيى بن يحيى، عن الحارث بن عبيد أبي قدامة، عن أبي عمران به، ورواه مسلم - أيضا - عن أحمد بن سعيد، عن حبان بن هلال، عن أبان العطار، عن أبي عمران به مرفوعا^(٨).

وقد حكى البخاري: أن أبان وحماد بن سلمة لم يرفعا، فالله أعلم.

ورواه النائي والطبراني من حديث مسلم بن إبراهيم، عن هارون بن موسى الأعور النحوي، عن أبي عمران به.

(١) زيادة من ط والبخاري.

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٦٠).

(٣) زيادة من البخاري.

(٤) صحيح البخاري برقم (٥٠٦١).

(٥) في النسخ: «أكثر وأصح» والتصويب من البخاري.

(٦) قال الحافظ ابن حجر: «أصح سندا وأكثر طرقا وهو كما قال، فإن الجرم الضمير رواه عن أبي عمران عن جندب إلا أنهم اختلفوا عليه في رفعه ووقفه، والذين رفعوه ثقات حفاظ فالحكم لهم، وأما رواية ابن عون فشافة له يتابع عليها».

(٧) صحيح البخاري برقم (٧٣٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٧).

(٨) صحيح مسلم برقم (٢٦٦٧).

ورواه النسائي - أيضا - من طرق عن سفيان، عن حجاج بن فرافصة، عن أبي عمران به مرفوعاً^(١)، وفي رواية عن هارون بن زيد بن أبي الزرقاء، عن أبيه، عن سفيان عن حجاج، عن أبي عمران، عن جندب موقوفاً، ورواه محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن إسحاق الأزرق، عن عبد الله بن عون، عن أبي عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن عمر قوله.

قال أبو بكر بن أبي داود: لم يخطئ ابن عون في حديث قط إلا في هذا، والصواب عن جندب. [ورواه الطبراني عن علي بن عبد العزيز عن مسلم بن إبراهيم وسعيد بن منصور قالاً: حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبي عمران، عن جندب مرفوعاً]^(٢)^(٣).

فهذا مما تيسر من ذكر طرق هذا الحديث على سبيل الاختصار، والصحيح منها ما أرشد إليه شيخ هذه الصناعة^(٤) أبو عبد الله البخاري، رحمه الله، من أن الأكثر والأصح: أنه عن جندب بن عبد الله مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ.

ومعنى الحديث أنه، عليه السلام، أرشد وحض أمته على تلاوة القرآن إذا كانت القلوب مجتمعة على تلاوته، متفكرة فيه، متدبرة له، لا في حال شغلها وملالها، فإنه لا يحصل المقصود من التلاوة بذلك كما ثبت في الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام: «اكثرُوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا»^(٥)، وقال: «أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قل»، وفي اللفظ الآخر: «أحب الأعمال إلى الله أدومها [وإن قل]»^(٦)^(٧).

ثم قال البخاري: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال ابن سيرة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - أنه سمع رجلاً يقرأ آية سمع النبي ﷺ خلفها، فأخذت بيده فانطلقت إلى النبي ﷺ فقال: «كلاكما محسن فاقرأ» أكبر علمي قال: «فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم الله عز وجل».

وأخرجه النسائي من رواية شعبة به^(٨)، وهذا في معنى الحديث الذي تقدمه، وأنه ينهى عن الاختلاف في القراءة والمنازعة في ذلك والمراء فيه كما تقدم النهي عن ذلك، والله أعلم.

وقريب من هذا ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا أبو محمد سعيد بن محمد الجرمي، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، عن الأعمش، عن عاصم، عن زر بن حبيش قال: قال عبد الله ابن مسعود: تمارينا في سورة من القرآن فقلنا: خمس وثلاثون آية، ست وثلاثون آية قال: فانطلقنا

(١) سنن النسائي الكبير برقم (٨٠٩٦).

(٢) زيادة من ط.

(٣) للمعجم الكبير (١٦٣/٢).

(٤) في ط: «البضاعة».

(٥) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٣) ومسلم في صحيحه برقم (٧٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) زيادة من ط م.

(٧) رواه مسلم في صحيحه برقم (٧٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٨) صحيح البخاري برقم (٥٠٦٢) وسنن النسائي الكبير برقم (٨٠٩٥).

إلى رسول الله ﷺ فوجدنا علياً بناصية فقلنا له: اختلفنا في القراءة، فاحمر وجه رسول الله ﷺ، فقال علي: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرؤوا كما قد علمتم^(١).

وهذا آخر ما أورده البخاري، رحمه الله، في كتاب^(٢) فضائل القرآن، جل منزله، وتعالى قائله، والله الحمد والمنة.

كتاب الجامع

لأحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن

وفضائله وفضل أهله

فصل

قال أحمد: حدثنا معاوية بن هشام، حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال نبي الله عليه الصلاة والسلام^(٣): «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه»^(٤).

وقال أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حيوة، حدثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني؛ أن الوليد بن قيس التجيبي حدثه أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف من بعد الستين سنة، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدوا تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر».

قال بشير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافر به، والفاجر يتكلم به، والمؤمن يؤمن به^(٥).

وقال أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا الليث، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن أبي الخطاب، عن أبي سعيد أنه قال: إن رسول الله ﷺ عام تبوك خطب الناس وهو مسند ظهره إلى نخلة فقال: «ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلاً فاجراً جريئاً يقرأ كتاب الله، لا يرعوى إلى شيء منه»^(٦).

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عمر بن هياج الكوفي، حدثنا الحسين بن عبد الأول، حدثنا محمد بن الحسن الهمداني، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من شغله قراءة القرآن عن دعائي أعطيه أفضل ثواب السائلين».

(١) روائد السند (١/١٠٥، ١٠٦).

(٢) في ط: «كتابه».

(٣) في ط: «كتاب».

(٤) السند (٣/٤٠).

(٥) السند (٣/٣٨).

(٦) السند (٣/٣٧، ٥٨).

وقال رسول الله ﷺ: «إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»، ثم قال: تفرد به محمد بن الحسن ولم يتابع عليه^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الخداد، حدثني عبد الرحمن بن بُدَيْل بن ميسرة، حدثني أبي، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أهليين من الناس». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»^(٢).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن علي بن شعيب السمار، حدثنا خالد بن خدّاش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه: كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده فدعا لهم^(٣).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا محمد بن عباد المكي، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن شريك، عن الأعمش، عن يزيد بن أبان، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه»^(٤).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سلعة بن شبيب، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا عبد الله بن المحرز، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن»^(٥). ابن المحرز ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بكر بن سواده، عن وفاة الخولاني، عن أنس بن مالك قال: بينما نحن نقرأ فينا العربى والعجمى والأسود والأبيض، إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أنتم فى خير تقرؤون كتاب الله وفيكم رسول الله ﷺ وسيأتى على الناس زمان يتقفون كما يتقف القدح، يتعجلون أجورهم ولا يتأجلونها»^(٦).

وقد رواه الإمام أحمد - أيضا - عن حسن، عن ابن لهيعة، عن بكر، عن وفاة، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ فذكره^(٧).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الله بن الجهم، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن عبد ربه بن عبد الله، عن عمرو بن نيهان، عن الحسن، عن أنس، أن النبي ﷺ قال: «إن البيت الذى يقرأ فيه القرآن يكثر خيره، والبيت الذى لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره»^(٨).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الفضل بن الصباح، حدثنا أبو عبيدة، عن محتسب، حدثني يزيد

(١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٩٢٦) من طريق محمد بن الحسن الهمدانى به، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب». (٢) المسند (١٢٨/٣).

(٣) المعجم الكبير (٢٤٢/١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٧٢/٧): «رجالہ ثقاة».

(٤) المعجم الكبير (٢٥٥/١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٥٨/٧): «رواه أبو يعلى وفيه يزيد بن أبان الرقاشى وهو ضعيف».

(٥) مسند البزار برقم (٢٣٣) «كشف الاستار».

(٦) المسند (١٤٦/٣).

(٧) المسند (٣٣٨/٥).

(٨) مسند البزار برقم (٢٣٢١) «كشف الاستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٧١/٧): «فيه عمر بن نيهان ضعيف».

الرقاشي، عن أنس قال: قعد أبو موسى في بيت واجتمع إليه ناس، فانشأ يقرأ عليهم القرآن، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أفتستطيع أن تقعدني حيث لا يراني منهم أحد؟». قال: نعم. قال: فخرج رسول الله ﷺ فاقعده الرجل حيث لا يراه منهم أحد، فسمع قراءة أبي موسى فقال: «إنه ليقرأ على زممار من زمائر داود، عليه السلام»^(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا مصعب بن سلام، حدثنا جعفر - هو ابن محمد بن علي بن الحسين - عن أبيه، عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» ثم يرفع صوته وتحمر وجته، ويشد غضبه إذا ذكر الساعة، كأنه منذر جيش. قال: ثم يقول: «أتتكم الساعة هكذا - وأشار بأصبعه السبابة والوسطى - صبحتكم الساعة ومستكم، من ترك مالا فلاهله، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإلى وعلى»^(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب - يعني ابن عطاء - أنبأنا أسامة بن زيد اللثبي، عن محمد ابن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فإذا قوم يقرؤون القرآن فقال: «اقرأوا القرآن وابتغوا به وجه الله - عز وجل - من قبل أن يأتي بقوم يقيمونه إقامة القدرح، يتعجلونه ولا يتأجلونه»^(٣).

قال أحمد - أيضا - : حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، حدثنا حميد الأعرج، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا المعجمي والأعرابي قال: فاستمع فقال: «اقرأوا فكل حسن، وسيأتي قوم يقيمونه كما يقام القدرح، يتعجلونه ولا يتأجلونه»^(٤).

وقال أبو بكر البزار: حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن المعلبي الكندي، عن عبد الله بن مسعود قال: إن هذا القرآن شافع مشفع، من اتبعه قاده إلى الجنة، ومن تركه أو أعرض عنه - أو كلمة نحوها - زج في قفاه إلى النار^(٥). وحدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الله بن الأجلح، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ بنحوه^(٦).

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أحمد بن عبد العزيز بن مروان أبو صخر، حدثني بكر بن يونس، عن موسى بن علي، عن أبيه، عن يحيى بن أبي كثير اليمامي، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ألف آية كتب الله له قنطارا، والقنطار مائة رطل، والرطل اثنتا عشرة أوقية،

(١) مسند أبي يعلى (٧/ ١٣٣ - ١٣٥) وفيه يزيد الرقاشي ضعيف.

(٢) المسند (٣/ ٣١٠).

(٣) المسند (٣/ ٣٥٧).

(٤) المسند (٣/ ٣٩٧).

(٥) مسند البزار برقم (١٢١) «كشف الاستار».

(٦) مسند البزار برقم (١٢٢) «كشف الاستار».

والوقية ستة دنائير، والدينار أربعة وعشرون قيراطا، والقيراط مثل أحد، ومن قرأ ثلاثمائة آية قال الله ملائكته: نصب عبدى لى، أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت له، ومن بلغه عن الله فضيلة فعمل بها إيمانا به ورجاء ثوابه، أعطاه الله ذلك وإن لم يكن ذلك كذلك»^(١).

وقال أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل الذى ليس فى جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»^(٢).
قال الزار: لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه.

وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدثنى أبى قال: وجدت فى كتاب أبى بخطه عن عمران بن أبى عمران، عن معيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة، وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]»^(٣).

وقال الطبرانى: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، حدثنا أبى، حدثنا ابن لهيعة، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزن به»^(٤).

وقال - أيضا - : حدثنا أبو يزيد القراطيسى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبدة بن سليمان، عن معيد أبى سعد البقال، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحسنوا الأصوات بالقرآن»^(٥).

وروى - أيضا - بسنده إلى الضحاك عن ابن عباس مرفوعا: «أشرف أمتى حملة القرآن»^(٦).

وقال الطبرانى: حدثنا معاذ بن المننى، حدثنا إبراهيم بن أبى سويد الذارع^(٧)، حدثنا صالح المري، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال: سألت رجلا رسول الله ﷺ فقال: أى الأعمال أحب إلى الله؟ فقال: «الحال المرتحل». قال: يا رسول الله، ما الحال المرتحل؟ قال: «صاحب القرآن يضرب فى أوله حتى يبلغ آخره، وفى آخره حتى يبلغ أوله»^(٨).

(١) معجم الشيوخ لأبى يعلى (٧٤) وإسناده ضعيف لعلتين: العلة الأولى - ضعف بكر بن بوس، والعلة الثانية: الانقطاع بين يحيى ابن أبى كثير وجابر.

(٢) المسند (٢٢٣/١).

(٣) المعجم الكبير (٤٨/١٢) وقال الهيثمى فى الجمع (١٦٩/١): «فيه أبو شيبة وهو ضعيف جدا».

(٤) المعجم الكبير (٧/١١).

(٥) المعجم الكبير (١٨/١٢) وأبو سعد البقال ضعيف - والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٦) المعجم الكبير (١٢٥/١٢) من طريق سعد الجرجانى عن نهشل - وكلاهما ضعيف - عن الضحاك به.

(٧) فى ط: «الزورع».

(٨) المعجم الكبير (١٦٨/١٢) ورواه الحاكم فى المستدرک (٥٦٨/١) من طريق صالح المري به. وقال: «تفرد به صالح المري، وهو من وهاد أهل البصرة». ونعقبه الذهبي فقال: «صالح متروك».

ذكر الدعاء المأثور

لحفظ القرآن وطرد النسيان

قال [الحافظ]^(١) أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن إبراهيم القرشي، حدثني أبو صالح وعكرمة، عن ابن عباس قال: قال علي بن أبي طالب: يا رسول الله، القرآن يتفلت من صدري، فقال النبي ﷺ: «أعلمك كلمات يضعك الله بهن وينفع من علمته». قال: قال: نعم بأبي وأمي، قال: «صل ليلة الجمعة أربع ركعات تقرأ في الأولى بفاتحة الكتاب ويس، وفي الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفي الثالثة بفاتحة الكتاب والم تنزيل السجدة، وفي الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله واثن عليه، وصل على النبيين، واستغفر للمؤمنين، ثم قل: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبدا ما أبقيتني، وارحمي من أن أتكلف ما لا يعينني، وارزقي حسن النظر فيما يرضيك عنى، اللهم بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حفظ^(٢) كتابك كما علمتني، وارزقي أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عنى، وأسألك أن تنور بالكتاب بصري، وتطلق به لساني، وتفرج به عن قلبي، وتشرح به صدري، وتعمل به بدني، وتقويني على ذلك وتعيني على ذلك^(٣)، فإنه لا يعينني على الخير غيرك، ولا يوفق له إلا أنت، فافعل ذلك ثلاث جمع أو خمسا أو سبعا تحفظه بإذن الله وما أخطأ مؤمنا قط». فأتى النبي ﷺ بعد ذلك بسبع فأخبره بحفظ القرآن والحديث، فقال النبي ﷺ: «مؤمن ورب الكعبة»، علم أبو الحسن^(٤)، علم أبو الحسن^(٥)، هذا سياق الطبراني^(٦).

وقال أبو عيسى الترمذي في كتاب الدعوات: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن جريج، عن عطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه علي بن أبي طالب فقال: بأبي أنت وأمي، نقلت هذا القرآن من صدري فما أجدني أقدر عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا الحسن، أفلا أعلمك كلمات يضعك الله بهن، وينفع بهن من علمته، ويثبت ما تعلمت في صدرك؟» قال: أجل يا رسول الله، فعلمني، قال: «إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة، والدعاء فيها مستجاب، وقد قال أخي يعقوب بن إبراهيم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨]، يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، فإن لم تستطع فقم في وسطها، فإن لم تستطع فقم في أولها فصل أربع ركعات، تقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس، وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفي الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب والم تنزيل السجدة، وفي الركعة

(١) زيادة من ط.

(٢) في المعجم الكبير: «عليه».

(٣، ٤) في المعجم الكبير: «أبا حسن».

(٦) المعجم الكبير (٣٦٧/١١) ورواه من طريق ابن الجوزي في المضعفات (١٣٨/٢) وقال: «هذا حديث لا يصح، ومحمد بن إبراهيم مجروح، وأبو صالح لا نعلمه إلا إسحاق بن يحيى وهو متروك».

الرابعة بفتحمة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من الشهد، فاحمد الله وأحسن الثناء على الله، وصل على وأحسن وعلى سائر النبيين، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وإخوانك الذين سبقوك بالإيمان، ثم قل في آخر ذلك: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبدا ما أبقيتني، وارحمني أن أتكلف ما لا يعينني، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني، وارزقني أن أتلوه على النحر الذي يرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك، أن تنور بكتابك بصري، وأن تطلق به لساني، وأن تفرج به عن قلبي، وأن تشرح به صدري، وأن تغسل به بدني، فإنه لا يعينني على الحق غيرك ولا يؤتبه إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، يا أبا الحسن، تفعل ذلك ثلاث جمع أو خمسا أو سبعا تحب بإذن الله تعالى، والذي بعثني بالحق ما أخطأ مزمنا قط. قال ابن عباس: فوالله ما لبث على إلا خمسا أو سبعا حتى جاء أعلی^(١) رسول الله ﷺ في مثل ذلك المجلس، فقال: يا رسول الله، والله إنني كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات أو نحوهن، فإذا قرأتهن على نفسي تفلتت وأنا أتعلم اليوم أربعين آية أو نحوها، فإذا قرأتها على نفسي فكأنما كتاب الله بين عيني، ولقد كنت أسمع الحديث، فإذا رددته تفلتت، وأنا اليوم أسمع الأحاديث، فإذا تحدثت بها لم أخرم منها حرفا، فقال له رسول الله ﷺ عند ذلك: «مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن».

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم. كذا قال، وقد تقدم من غير طريقه. ورواه الحاكم في مستدرکه من طريق الوليد، ثم قال: علي شرط الشيخين حيث صرح الوليد بالسمع من ابن جريج، فالله أعلم - فإنه في المتن غرابة بل نكارة^(٢)، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا العمري، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القرآن مثل الإبل المعقلة إن تعاهدها صاحبها أمكها، وإن تركها ذهبت».

ورواه - أيضا - عن محمد بن عبيد ويحيى بن سعيد، عن عبيد الله العمري به^(٣).

ورواه - أيضا - عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعا نحوه^(٤).

وقال البيهقي: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا حميد بن حماد بن أبي الخوار، حدثنا مسعر، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أحسن قراءة؟ قال: «من إذا سمعته يقرأ رؤيت أنه يخشى الله، عز وجل»^(٥).

(١) زيادة من الترمذي.

(٢) سنن الترمذي برقم (٣٥٧٠) والمستدرک (٣١٦/١، ٣١٧) وأعل ثلاث علل: الأولى: عمدة ابن جريج. الثانية: تدليس بغيره فإنه يدلس تدليس النسوية. الثالثة: سليمان الدمشقي نكتم فيه من جهة حفظه.

(٣) المسند (٢٣/٢)، (١٧/٢ - ٣٠).

(٤) المسند (٣٥/٢).

(٥) مسند البيهقي برقم (٢٣٣٦) كشف الاستار وفيه حماد بن حميد ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(١).

وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حبي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى أقرأ القرآن فلا أجد قلبى يعقل عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن قلبك حتى الإيمان، وإن العبد يعطى الإيمان قبل القرآن»^(٢).

وبهذا الإسناد: أن رجلا جاء بابن له فقال: يا رسول الله، إن ابني هذا يقرأ المصحف بالنهار ويبيت بالليل، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقم أن ابنك يظل ذاكرا ويبيت سالما»^(٣).

وقال أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن حبي، عن أبي عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو، أن النبي ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أرى رب، منعتك الطعام والشهوات بالنهار فشغعتني فيه، ويقول القرآن: منعتك النوم بالليل فشغعتني فيه»، قال: «فيشفعان»^(٤).

وقال أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أكثر منافقنى أمى قراؤها»^(٥).

وقال أحمد: حدثنا وكيع، حدثني همام، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفته».

ورواه - أيضا - عن عذرة، عن شعبة، عن قتادة به^(٦). وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمد بن إسحاق بن راهويه، حدثنا أبي، حدثنا عيسى بن يونس، ويحيى بن أبي الخجاج التميمي، عن إسماعيل بن رافع، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فكأنما استدرجت النوبة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه، ومن قرأ القرآن فرأى أن أحدا أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم ما صغر الله، وصغر ما عظم الله، وليس ينبغي لحامل القرآن أن يسئمه فيمن يسئمه، أو يغضب فيمن يغضب، أو يحسد فيمن يحسد، ولكن يعفو ويصفح، لفضل القرآن»^(٧).

(١) المسند (٢/١٩٢).

(٢) فى مسند أحمد: «رسول الله».

(٣) المسند (٢/١٧٢).

(٤) المسند (٢/١٧٣).

(٥) المسند (٢/١٧٤).

(٦) المسند (٢/١٧٥).

(٧) المسند (٢/١٦٤ - ١٩٣، ١٩٥).

(٨) قال الهيثمى فى المجمع (٧/١٥٩): «فيه إسماعيل بن رافع وهو متروك».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا عباد بن ميسرة، عن الحسن، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»^(١).

وقال البزار: حدثنا محمد بن حرب، حدثنا يحيى بن المتوكل، حدثنا عتبة بن مهران عن الزهري، عن سعيد وأبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «مراء في القرآن كفر». ثم قال: عتبة: هذا ليس بالقوي. وعنده فيه إسناد آخر^(٢).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو بكر، حدثنا ابن إدريس، حدثنا المقبري، عن جده، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»^(٣)،^(٤).

وقال الطبراني: حدثنا موسى بن حازم الأصهباني، حدثنا محمد بن بكر الحضرمي، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن الحارث الذماري، عن القاسم أبي عبد الرحمن، عن فضالة بن عبيد، وتميم الداري، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ عشر آيات في ليلة كتبت له قنطار، والقنطار خير من الدنيا وما فيها، فإذا كان يوم القيامة يقول ربك، عز وجل: اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينتهي إلى آخر آية معه، يقول ربك: اقبض، فيقول العبد بيده: يا رب أنت أعلم. فيقول: بهذه الخلد وبهذه النعيم»^(٥).

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة معمر بن عمران بن حطان قال: قال: دخلت مع أبي علي أم الدرداء، رضى الله عنها، فسألها أبي: ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأ؟ قالت: حدثني عائشة قالت: جعلت درج الجنة على عدد آي القرآن، فمن قرأ^(٦) ثلث القرآن ثم دخل الجنة كان على الثلث من درجها، ومن قرأ نصف القرآن كان على النصف من درجها، ومن قرأ كله كان في عليين، لم يكن فوقه إلا نبي أو صديق أو شهيد^(٧).

وقال الطبراني: حدثنا مسعدة^(٨) بن سعد العطار المكي، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم مولى جميع بن حارثة الأنصاري، حدثنا عبد الله بن ماهان الأزدي، حدثني فائد مولى عبيد الله بن أبي رافع، حدثني سكين بنت الحسين بن علي، عن أبيها قال: قال رسول الله ﷺ: «حملة القرآن عرفاء أهل الجنة يوم القيامة»^(٩).

وروى الطبراني من حديث بقة، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن المهاصر بن حبيب، عن عبيدة

(١) المسند (٢/٣٤٦).

(٢) ورواه أبو نعيم في الحلية (٥/١٩٢) من طريق محمد بن حرب الواسطي به، وقال: «غريب من حديث مكحول، لم نكتبه إلا من حديث ابن حرب».

(٣) في ط: «غرائبه».

(٤) مسند أبي يعلى (١١/٢٣٦) وقال الهيثمي في المجمع (٧/١٦٣): «فيه عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد الغبيري وهو متروك».

(٥) المعجم الكبير (٢/٥٠).

(٦) في ط: «من».

(٧) تاريخ دمشق (١٧/١٠ المخطوط).

(٨) في ط: «سورة».

(٩) المعجم الكبير (٣/١٣٢) وقال الهيثمي في المجمع (٧/١٦٦): «فيه إسحاق المدني وهو ضعيف».

الملكي، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «يا أهل القرآن، لا توسدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته من آتاء الليل والنهار، وتغنوه وتفقنوه، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون، ولا تستعجلوا ثوابه، فإن له ثوابين»^(١)،^(٢).

وفي حديث عقبة بن عامر نحوه، كما تقدم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن مشرح، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن القرآن جعل في إهاب ثم ألقى في النار ما احترق»^(٣).

تفرد به. قيل: معناه: أن الجسد الذي يقرأ القرآن [لا تحترق النار]^(٤).

وفي سنن ابن ماجه من طريق المغيرة بن نهيك، عن عقبة بن عامر مرفوعاً: «من تعلم القرآن^(٥) ثم تركه فقد عصاني»^(٦).

وفي حديث رواه أبو يعلى من طريق ليث، عن مجاهد، عن أبي سعيد مرفوعاً: «عليك بتقوى الله، فإنها رأس كل خير، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء، واخزن لسانك إلا من خير. فإنك بذلك تغلب الشيطان»^(٧).

وهكذا أذكر آثاراً مروية عن ابن أم عبد^(٨) أحد قراء القرآن من الصحابة المأمور بالتلاوة على نحوهم^(٩).

روى الطبراني، عن الدبري، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق، قال ابن مسعود: كل آية في كتاب الله خير مما في السماء والأرض^(١٠).

ومن طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن مرة قال ابن مسعود: من أراد العلم فليتبوأ من القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين^(١١).

ومن طريق سفيان وشعبة، عن ساعد^(١٢) بن كهيل، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: إن هذا القرآن ليس فيه حرف إلا له حد، ولكل حد مطلع^(١٣).

ومن حديث الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد^(١٤)، عن ميار أبي الحكم، عن ابن مسعود أنه قال: أعربوا هذا القرآن فإنه عربي، وسيجيء قوم يتفقونه وليسوا بخياركم^(١٥).

(١) في ط: «ثواباً».

(٢) قال الهيثمي في المجمع (٢/٢٥٢): رواه الطبراني في الكبير وفيه أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف.

(٣) المسند (٤/١٥١).

(٤) زيادة من ط.

(٥) في سنن ابن ماجه: «الرمي».

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٢٨١٤).

(٧) مسند أبي يعلى (٢/٢٨٤) وليث بن أبي سليم ضعيف.

(٨) في ط: «عن ابن أم عبد الله بن مسعود». (٩) في ط: «حرفهم».

(١٠) المجمع الكبير (٩/١٤٥).

(١١) المجمع الكبير (٩/١٤٦).

(١٢) في ط: «سلمة».

(١٣) المجمع الكبير (٩/١٤٦).

(١٤) في ط: «إسماعيل بن خالد». (١٥) المجمع الكبير (٩/١٥٠).

والثوري، عن عاصم، عن زرّ، عن ابن مسعود قال: أديبوا النظر في المصحف، وإذا اختلفتم في ياء أو تاء فاجعلوها ياء، ذكروا القرآن فإنه مذكّر^(١).

وقال عبد الرزاق، عن إسرائيل، عن عبد العزيز بن رفيع، عن شدّاد^(٢) بن معقل، سمعت ابن مسعود يقول: أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما يبقى من دينكم الصلاة، ولْيُصَلِّنَ قَوْمٌ لَا خَلَاقَ لَهُمْ، وَلِيَنْزِعَنَّ قَوْمٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، ألسنا نقرأ القرآن وقد اثبتناه في مصاحفتنا؟ قال: يُسْرَى عَلَى الْقُرْآنِ لَيْلًا فَيَذْهَبُ بِهِ مِنْ أَجْوَافِ الرِّجَالِ فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ شَيْءٌ - وفي رواية: لا يبقى في مصحف منه شيء - ويصبح الناس فقراء كاليهائم. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَلَيْسَ شَيْئًا نَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦]^(٣).

وقال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثني شعبة، عن علي بن بذيمة^(٤)، عن أبي عبيدة بن عبد الله، عن أبيه قال: من قرأ القرآن في أقل من ثلاث فهو راجز^(٥). قال هشام عن الحسن: إنه بلغه عن ابن مسعود مثل ذلك.

ومن طريق الأعمش، عن أبي وائل قال: كان عبد الله بن مسعود يقل الصوم، فيقال له في ذلك، فيقول: إني إذا صُمتُ ضَعُفْتُ عَنِ الْقِرَاءَةِ وَالصَّلَاةِ، وَالْقِرَاءَةُ وَالصَّلَاةُ أَحَبُّ إِلَيَّ^(٦).

مقدمة مفيدة

قال أبو بكر بن الأنباري: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، عن حجاج بن منهال، عن همام، عن قتادة قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والثور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والحديد، والرحمن، والمجادلة، والخشر، والممتحنة، والصف، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، ويا أيها النبي لم تحرم، وإلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله. هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر القرآن نزل بمكة.

فأما عدد آيات القرآن فستة آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال، فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: ومائتان وتسع عشرة، وقيل: ومائتان وخمسة وعشرون آية، وست وعشرون آية، وقيل: ومائتا آية، وست وثلاثون آية. حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتاب البيان^(٧).

وأما كلماته، فقال الفضل بن شاذان، عن عطاء بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة.

وأما حروفه، فقال عبد الله بن كثير، عن مجاهد: هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثمائة ألف

(١) المعجم الكبير (١٥٢/٩).

(٢) في ط: مفقود.

(٣) المعجم الكبير (١٥٢/٩) والنصف لعبد الرزاق (٥٩٨٠).

(٤) في ط: علي بن زيد.

(٥) المعجم الكبير (١٥٤/٩).

(٦) المعجم الكبير (١٩٥/٩).

(٧) تفسير القرطبي (٦٥/١).

حرفٍ وواحدٌ وعشرون ألفَ حَرْفٍ ومائةٌ وثمانونَ حرفاً.

وقال الفضل، عن عطاء بن يسار: ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً.

وقال سلام أبو محمد الحمانى: إن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتّاب فقال: أخبروني عن القرآن كلُّه كم من حرف هو؟ قال: فحسبناه فأجمعوا أنه ثلاثمائة ألف حَرْفٍ وأربعون ألفاً وسبعمائة وأربعون حرفاً. قال: فأخبروني عن نصفه. فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: ١٩]، وتلكه الأول عند رأس مائة آية من براءة، والثاني علي رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء، والثالث إلى آخره. وسبَّعه الأول إلى الدال من قوله: ﴿فَمَنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: ٥٥]. والسبَّع الثاني إلى الباء من قوله في الاعراف: ﴿حَبِطَتْ﴾ [الاعراف: ١٤٧]، والثالث إلى الالف الثانية من: ﴿أَكَلَهَا﴾ في الرعد [الرعد: ٣٥]، والرابع إلى الالف من قوله في الحج: ﴿جَعَلْنَا مَنَسْكَ﴾ [الحج: ٦٧]، والخامس إلى الهاء من قوله في الاحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ [الاحزاب: ٣٦]، والسادس إلى الواو من قوله في الفتح: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءَ﴾ [الفتح: ٦]، والسابع إلى آخر القرآن. قال سلام أبو محمد: عملنا ذلك في أربعة أشهر.

قالوا: وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربع القرآن، فالأول إلى آخر الأنعام، والثاني إلى ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: ١٩]، والثالث إلى آخر الزمر، والرابع إلى آخر القرآن. وقد ذكر الشيخ أبو عمرو الداني في كتابه البيان خلافاً في هذا كله، والله أعلم^(١).

وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات في المدارس وغيرها، وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن، والحديث في مسند أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه وغيرهما^(٢) عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته: كيف يُحزَّبون القرآن؟ قالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وأحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزب الفصل من قاف حتى يختم^(٣).

قال القرطبي: أجمعوا أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية؟ وأجمعوا أن فيه معلوماً من الأعجمية كإبراهيم ونوح، ولوط، واختلفوا: هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية؟ فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالوا: ما وقع فيه ما يوافق الأعجمية، فهو من باب ما توافقت فيه اللغات^(٤).

فصل

واختلفوا^(٥) في معنى السورة: مِمَّ هي مشتقة؟ فقيل: من الإبانة والارتفاع. قال النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورةً ترى كل ملكٍ دونها يتذبذب^(٦)

فكان القارئ يتنقل بها من منزلة إلى منزلة. وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلد. وقيل: سميت

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/٦٤).

(٢) في ط: «غيرهما».

(٣) المسند (٩/٤) وسنن أبي داود برقم (١٣٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٨).

(٤) تفسير القرطبي (١/٦٨).

(٥) في ط: «واختلف».

(٦) البيت في تفسير الطبري (١/٥٠٥).

سُورَةٌ لكونها قطعةً من القرآن وجزءاً منه، مأخوذةً من أسرار الإناء وهو البقية، وعلى هذا فيكون أصلها مهموراً، وإنما خففت فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما قبلها، وقيل: لتماها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سُورَةً.

قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما سُمي سورُ البلد لإحاطته بمنزله ودوره، والله أعلم.

وجمع السورة سورٌ بفتح الواو، وقد تُجمع^(١) على سورَات وسورَات. وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله، أي: هي بائنة من أختها. قال^(٢) الله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، وقال النابغة:

تَوَهَّمْتُ آيَاتِ لَهَا فَمَرَّفْتُهَا
لِسِتَّةِ أَعْوَامٍ وَذَا الْعَامِ سَابِعٍ^(٣)

وقيل: لأنها جماعةٌ حروفٍ من القرآن وطائفةٌ منه، كما يقال: خرج القوم بأيّتهم، أي: بجماعتهم. قال الشاعر^(٤):

خَرَجْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ لَا حَىَّ مِثْلُنَا
بِآيَتِنَا نُرْجِي اللَّقَاحَ الْمُطَافِلَا

وقيل: سُميت آيةٌ لأنها عَجَبٌ يَعْجِزُ الْبَشَرَ عَنِ التَّكَلُّمِ بِمِثْلِهَا. قال سيويه: وأصلها آيةٌ مثل أكمةٍ وشجرةٍ، تحرَّكت الياءُ وافتتح ما قبلها فقلبت الفاء فصارت آيةً، بهمزةً بعدها مدة. وقال الكسائي: آيةٌ على وزن آمنة، فقلبت الفاء، ثم حُذفت لالتباسها. وقال الفراء: أصلها آيةٌ - بتشديد الياء - فقلبت الأولى الفاء، كراهيةً التشديد فصارت آيةً، وجمعها: آيٌ وآيائٌ وآياتٌ.

وأما الكلمة فهي اللفظ الواحد، وقد تكون على حرفين مثل: ما ولا وله ولك، وقد يكون أكثر. وأكثر ما يكون^(٥) عشرة أحرف: ﴿لَيْسْتَ خَلْقِنَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، و ﴿أَنْزَلْنَا مَكُّوْهَا﴾ [هود: ٢٨]، ﴿فَأَسْقِنَا كَمُوْهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقد تكون الكلمة آيةً، مثل: والفجر، والضحى، والعصر، وكذلك: الم، وطه، ويس، وحم - في قول الكوفيين - و ﴿حَمَّ . عَمَّقْ﴾ عندهم كلمتان. وغيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول: هي فواتح السور. وقال أبو عمرو الداني: لا أعلم كلمةً هي وحدها آيةٌ إلا قوله: ﴿مُدَّهَاتَانِ﴾ في سورة الرحمن [الرحمن: ٦٤].

آخر المقدمة

(١) في ط: «يجع». (٢) في ط: «ومنه قول».

(٣) البيت في تفسير القرطبي (١/٦٦).

(٤) البيت لبرج بن مسهر الطائي، وهو في تفسير القرطبي (١/٦٦).

(٥) في ط: «تكون».

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

يقال لها: الفاتحة، أى فاتحة الكتاب خطأ، وبها تفتح^(١) القراءة فى الصلاة^(٢)، ويقال لها أيضا: أم الكتاب عند الجمهور، وكره أنس، والحسن وابن سيرين كرها تسميتها بذلك، قال الحسن وابن سيرين: إنما ذلك اللوح المحفوظ، وقال الحسن: الآيات المحكمات: هن أم الكتاب، ولذا كرها^(٣) - أيضا - أن يقال لها أم القرآن، وقد ثبت فى [الحديث]^(٤) الصحيح عند الترمذى وصححه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم»، ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة؛ لقوله عليه السلام^(٥) عن ربه: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدنى عبدى» الحديث. فسميت الفاتحة: صلاة؛ لأنها شرط فيها. ويقال لها: الشفاء، لما رواه الدارمى عن أبى سعيد مرفوعا: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سم»^(٦). ويقال لها: الرقية، لحديث أبى سعيد فى الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله ﷺ: «وما يدريك أنها رقية؟». وروى الشعبي عن ابن عباس أنه سماها: أساس القرآن، قال: فأساسها^(٧) بسم الله الرحمن الرحيم، وسماها سفيان بن عيينة: الواقعة. وسماها يحيى بن أبى كثير: الكافية؛ لأنها تكفى عما عداها ولا يكفى ما سواها عنها، كما جاء فى بعض الأحاديث المرسل: «أم القرآن عوض من غيرها، وليس غيرها عوضا عنها»^(٨). ويقال لها: سورة الصلاة والكثر، ذكرهما الزمخشري فى كشافه.

وهى مكية، قاله^(٩) ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل: مدنية، قاله^(١٠) أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري. ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، والله أعلم^(١١). وحكى أبو الليث السمرقندى أن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة، وهو غريب جدا، نقله القرطبي عنه.

وهى سبع آيات بلا خلاف، [وقال عمرو بن عبيد: ثمان، وقال حسين الجعفى: ستة^(١٢)، وهذان شاذان]^(١٣). وإنما اختلفوا فى البسطة: هل هى آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول الجماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف، أو بعض آية أو لا تعد من أولها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء؟ على ثلاثة أقوال، سيأتى تقريره^(١٤) فى موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

(١) فى أ: «يفتح».

(٢) فى أ: «الصلوات».

(٣) فى أ: «يفتح».

(٤) فى أ: «اسم».

(٥) فى أ: «ﷺ».

(٦) زيادة من أ.

(٧) فى أ: «وأساسها».

(٨) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (١٦٥/٢) من طريق مكحول عن عبادة بن مرسلا، ورواه الحاكم فى المستدرک (٢٣٨/١) من طريق الزهري عن محمود بن الربيع عن عبادة بن مرفوعا بهذا اللفظ، وهذا غير محفوظ. وقد جاء من طرق أخرى مرصولة ذكرها الفاضل محمد طرهونى فى كتابه «موسوعة فضائل القرآن» (١/ ٤٠ - ٤٣).

(٩) فى أ: «قال».

(١٠) فى ج: «والله تعالى أعلم».

(١١) فى أ: «قال».

(١٢) فى أ: «ست».

(١٣) فى أ: «تقريرها».

(١٤) زيادة من ج.

قالوا: وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً. قال البخاري في أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتب: أنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة^(١)، وقيل: إنما^(٢) سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله^(٣) إلى ما تضمنته. قال ابن جرير: والعرب تسمى كل جامع أمر^(٤) أو مقدم لأمر - إذا كانت له ترابع تتبعه هو لها إمام جامع - أمًا، فتقول^(٥) للجلدة التي تجمع الدماغ: أم الرأس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أمًا، واستشهد^(٦) بقول ذي الرمة:

على رأسه أم لنا نفتدى بها
جماع أمور ليس^(٧) نعصى لها أمرا^(٨)

يعنى: الرمح. قال: وسميت مكة: أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها، وقيل: لأن الأرض دحيت منها.

ويقال لها أيضاً: الفاتحة؛ لأنها تفتح بها القراءة، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام، وضح سميتها بالسيب الثاني، قالوا: لأنها تنهى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة، وإن كان للمثنى معنى آخر غير هذا، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله^(٩).

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أنا ابن أبي ذئب وهاشم بن هاشم عن ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال لأم القرآن: «هي أم القرآن، وهي السبع الثاني، وهي القرآن العظيم»^(١٠)،^(١١) ثم رواه عن إسماعيل بن عمر عن ابن أبي ذئب به، وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع الثاني»^(١٢).

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه في تفسيره: حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، ثنا محمد بن غالب بن حارث، ثنا إسحاق بن عبد الواحد الموصلي، ثنا المعافى بن عمران، عن عبد الحميد بن جعفر، عن نوح بن أبي بلال، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: الحمد لله رب العالمين سبع آيات: بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهي السبع الثاني والقرآن العظيم، وهي أم الكتاب^(١٣)،^(١٤).

(١) صحيح البخارى (١٥٥/٨) فتح.

(٢) فى أ: «أنها». (٣) فى أ: «إليها».

(٤) فى أ: «فتقول». (٥) فى أ: «أوستشهدوا».

(٦) فى أ، و: «لا».

(٧) فى أ: «العظيم الذى أوتيته».

(٨) فى أ: «الله تعالى».

(٩) المسند (٤٤٨/٢).

(١٠) تفسير الطبرى (١٠٧/١).

(١١) بعدها فى أ، ج: «وفاتحة الكتاب».

(١٢) ورواه الثعلبى فى تفسيره (١/ ١٨٨) من طريق محمد بن حسان عن المعافى بن عمران عن عبد الحميد به، ورواه البيهقى فى

السنن الكبرى (٤٥/٢) من طريق نوح بن أبى بلال عن المقبرى به.

وقد رواه الدارقطني - أيضا - عن أبي هريرة مرفوعا بنحوه^(١) أو مثله، وقال: كلهم ثقات^(٢).
ورواه البيهقي عن علي^(٣) وابن عباس^(٤) وأبي هريرة^(٥) أنهم فرروا قوله تعالى: ﴿مَبْعَأَيْنَ
النَّارِ﴾ [الحجر: ٨٧] بالفاتحة، وأن البسمة هي الآية السابعة منها، وسيأتي تمام هذا عند البسمة.
وقد روى الاعمش عن إبراهيم قال: قيل لابن مسعود: لم لم تكتب الفاتحة في مصحفك؟ قال:
لو كتبتها لكتبها في أول كل سورة. قال أبو بكر بن أبي داود: يعني حيث يقرأ في الصلاة، قال:
واكتفيت بحفظ المسلمين لها عن كتابتها.

وقد قيل: إن الفاتحة أول شيء نزل من القرآن، كما ورد في حديث رواه البيهقي في دلائل
النسبة^(٦) ونقله الباقلاني أحد أقوال ثلاثة هذا [أحدها]^(٧) وقيل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. كما في حديث
جابر في الصحيح^(٨). وقيل: ﴿قُرْأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] وهذا هو الصحيح، كما سيأتي
تقريره في موضعه، والله^(٩) المستعان.

ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

قال الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، رحمه الله، في مسنده: حدثنا يحيى بن سعيد، عن
شعبة، حدثني خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلّى، رضى الله
عنه، قال: كنت أصلى فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجه حتى صليت وأتيت، فقال: «ما منعك أن
تأتي؟». قال: قلت: يا رسول الله، إني كنت أصلى. قال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]»، ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في
القرآن قبل أن تخرج من المسجد». قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول
الله، إنك قلت: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن». قال: «نعم، الحمد لله رب العالمين هي: السبع
الثنائية والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وهكذا رواه البخاري عن مسدد، وعلي بن المديني، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان، به^(١٠).
ورواه في موضع آخر من التفسير، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه من طرق عن شعبة، به^(١١).
ورواه الواقدي عن محمد بن معاذ الأنصاري، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن
عاصم، عن أبي سعيد بن المعلّى، عن أبي بن كعب، فذكر نحوه.
وقد وقع في المرطأ للإمام مالك بن أنس، ما ينفي التشبه عليه، فإنه رواه مالك عن العلاء بن عبد

(١) في: انحوه.

(٢) سنن الدارقطني (٣١٢/١) من طريق أبي بكر الحنفي عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن مرفوعا، ثم قال أبو بكر الحنفي: ثم
لقيت نوحاً فحدثني عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة بمثله ولم يرفعه.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي برقم (٢٣٥٣) من طريق الثوري عن السدي عن عبد خير عن علي بن أبي طالب.

(٤) شعب الإيمان برقم (٢٣٥٦) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٥) شعب الإيمان برقم (٢٣٥٤).

(٦) دلائل النبوة للبيهقي (١٥٨/٢)، وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/٣) بعد أن أوردته من طريق البيهقي: «وهو
مرسل، وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول ما نزل».

(٧) زيادة من جد.

(٨) صحيح البخاري برقم (٤٩٢٣، ٤٩٢٦، ٤٩٥٤) وصحيح مسلم برقم (١٦٦).

(٩) في أ، و: «وبالله».

(١٠) المسند (٤٥٠/٣) وصحيح البخاري برقم (٥٠٠٦) وبرقم (٤٤٧٤).

(١١) صحيح البخاري برقم (٤٦٤٧، ٤٧٠٣) وسنن أبي داود برقم (١٤٥٨) وسنن النسائي (١٣٩/٢) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٨٥).

الرحمن بن يعقوب الحرقي: أن أبا سعيد مولى عامر بن كريز أخبرهم، أن رسول الله ﷺ نادى أبا ابن كعب، وهو يصلي في المسجد، فلما فرغ من صلاته لحقه، قال: فوضع النبي ﷺ يده على يدي، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد، ثم قال: «إني لأرجو ألا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل^(١) في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان^(٢) مثلها». قال أبي: فجعلت أبطئ في المشي رجاء ذلك، ثم قلت: يا رسول الله، ما السورة التي وعدتني؟ قال: «كيف تقرأ إذا افتتحت^(٣) الصلاة؟». قال: فقرأت عليه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى أتيت على^(٤) آخرها، فقال رسول الله ﷺ: «هي هذه السورة، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت^(٥)».

فأبو سعيد هذا ليس بأبي سعيد بن المعلّى، كما اعتقده ابن الأثير في جامع الأصول ومن تبعه^(٦)، فإن ابن المعلّى صحابي أنصاري، وهذا تابعي من موالى خزاعة، وذاك الحديث متصل صحيح، وهذا ظاهره أنه منقطع، إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبي بن كعب، فإن كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم، والله أعلم. على أنه قد روى عن أبي بن كعب من غير وجه كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ على أبي بن كعب، وهو يصلي، فقال: «يا أبا»، فالتفت ثم لم يجبه، ثم قال: أبي، فخفف. ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك أي رسول الله. قال: «وعليك السلام»، [قال]^(٧): «ما منعك أي أبي إذ^(٨) دعوتك أن تجيبني؟». قال: أي رسول الله، كنت في الصلاة، قال: «أو لست تجرد فيما أوحى الله إلي^(٩)»: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. قال: بلى يا رسول الله، لا أعود؟ قال: «أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان^(١٠) مثلها؟» قلت: نعم، أي رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو ألا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها». قال: فأخذ رسول الله ﷺ بيدي يحدثني، وأنا أبطأ^(١١)، مخافة أن يبلغ قبل أن يقضى الحديث، فلما دنونا من الباب قلت: أي رسول الله، ما السورة التي وعدتني^(١٢)؟ قال: «ما تقرأ في الصلاة؟». قال: فقرأت عليه أم القرآن، قال: «والذي نفس بيده، ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها؛ إنها السبع المثاني».

(٣) في ج: افتتحت.

(٢) في و: القرآن.

(١) في أ: «ما نزل».

(٤) في ج: إلى.

(٥) المطبأ (١/٨٣).

(٦) جامع الأصول (٨/٤٦٦).

(٧) زيادة من ج، والمستند.

(٨) في ج، ط: أن.

(٩) في هـ، أ: «أوحى إلي» والمثبت من ج، ط، و، والمستند.

(١١) في ج، ط: «أبطأ».

(١٠) في أ: «القرآن».

(١٢) في ج: «وعدتني بها».

ورواه الترمذى، عن قتيبة، عن الدركوردي، عن العلاء، عن (١) أبيه، عن أبي هريرة، فذكره (٢)، وعنده: إنها من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيه، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح.

وفى الباب، عن أنس بن مالك، ورواه عبد الله بن [الإمام] (٣) أحمد، عن إسماعيل بن أبي مَعْمَر، عن أبي أسامة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب، فذكره مطولاً بنحوه أو قريباً منه (٤).

وقد رواه الترمذى والنسائي جميعاً (٥)، عن أبي عمار حنين بن حريث، عن الفضل بن موسى، عن عبد الحميد بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبيدي»، هذا لفظ النسائي. وقال الترمذى: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا هاشم، يعني ابن البريد (٦)، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن ابن جابر، قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهرق الماء، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليّ. قال: فانطلق رسول الله ﷺ يمضي، وأنا خلفه حتى دخل رحله، ودخلت أنا المسجد، فجلست كثيراً حزناً، فخرج عليّ رسول الله ﷺ قد تطهر، فقال: «عليك (٧) السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله»، ثم قال: «ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بأخير سورة في القرآن؟». قلت: بلى، يا رسول الله. قال: «اقرأ: الحمد لله رب العالمين، حتى تختتمها» (٨).

هذا إسناده جيد، وابن عقيل يحتاج (٩) به الأئمة الكبار، وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابي، ذكر ابن الجوزي أنه هو العبدى، والله أعلم. ويقال: إنه عبد الله بن جابر الأنصارى البياضى، فيما ذكره الحافظ ابن عساکر (١٠).

واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض، كما هو المحكى عن كثير من العلماء، منهم: إسحاق بن راهويه، وأبو بكر بن العربي، وابن الحصار من المالكية. وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك؛ لأن الجميع كلام الله، ولثلا يومهم التفضيل نقص

(١) بداية المخطوطة ب.

(٢) المسند (٢/٤١٢، ٤١٣) وسنن الترمذى برقم (٢٨٧٨).

(٣) زيادة من ج، ط، أ.

(٤) زوائد المسند (٥/١١٤).

(٥) سنن الترمذى برقم (٣١٢٤) وسنن النسائي (٢/١٣٩).

(٦) في أ: «اليزيد».

(٧) المسند (٤/١٧٧).

(٨) في ط: «يحتج».

(٩) وهو الذى روجه الحافظ ابن حجر فى كتابه «تجليل النعمة» (ص ١٤٥).

المفضل عليه، وإن كان الجميع فاضلاً، نقله القُرطبي عن الأشعري، وأبي بكر الباقلاني، وأبي حاتم ابن حبان البستي، ويحيى بن يحيى، ورواية عن الإمام مالك [أيضاً] (١).

حديث آخر: قال البخاري في فضائل القرآن: حدثنا محمد بن المني، حدثنا وهب، حدثنا هشام، عن محمد، عن معبد، عن أبي سعيد الخدري، قال: كنا في مسير لنا، فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحى سليم، وإن نقرنا غيب، فهل منكم (٢) راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبئه برقية، فرقاه، فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع (٣) قلنا له: أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقى؟ قال: لا، ما رقيت إلا أيام الكتاب. قلنا: لا تُحدثوا شيئاً حتى نأتي، أو نسال رسول الله (٤) ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما كان يُدرية أنها رقية، أقسموا واضربوا لي بهم».

وقال أبو معمر: حدثنا عبد الوارث، حدثنا هشام، حدثنا محمد بن سيرين، حدثني معبد بن سيرين، عن أبي سعيد الخدري بهذا.

وهكذا رواه مسلم، وأبو داود من رواية هشام، وهو ابن حسان، عن ابن سيرين، به (٥). وفي بعض روايات مسلم لهذا الحديث: أن أبا سعيد هو الذي رقى ذلك السليم، يعني: اللديغ يسمونه بذلك تفاعلاً.

حديث آخر: روى مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه، من حديث أبي الأحوص سلام بن سليم، عن عمار بن رزيق (٦)، عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء، ما فتح قط. قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ، فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يوتيهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، ولن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته. وهذا لفظ النسائي (٧).

ولمسلم نحوه حديث آخر: قال مسلم: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، هو ابن راهويه، حدثنا سفيان بن عيينة، عن العلاء، يعني ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقي (٨) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم (٩) القرآن فهي خداج - ثلاثاً - غير تمام». لفيل [أبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام، قال: اقرأ بها في نفسك؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

(١) في ج: «رجعنا».

(٢) في ج: «معكم».

(٣) زيادة من ج: «أه» و.

(٤) في ط: «النبي».

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٧) وصحيح مسلم برقم (٢٢٠١).

(٦) في أ: «وزيق».

(٧) صحيح مسلم برقم (٨٠٦) وسنن النسائي (١٣٨/٢).

(٨) في ج: «ب: «بأم».

(٩) في أ: «الحرقي».

[الفاتحة: ٣]، قال الله: أثنى على عبدى، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال^(١): مجدنى عبدى - وقال مرة: «فوض إلى عبدى - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال: هذا بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، قال^(٢): هذا لعبدى ولعبدى ما سأل^٥.

وهكذا رواه النسائي، عن إسحاق بن راهويه^(٣). وقد رواه - أيضاً - عن قتبية، عن مالك، عن العلاء، عن أبى السائب مولى هشام بن زهرة، عن أبى هريرة، به^(٤)، وفى هذا السياق: «نصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل^٥.

وكذا رواه ابن إسحاق، عن العلاء، وقد رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن العلاء، عن أبى السائب هكذا^(٥).

ورواه - أيضاً - من حديث ابن أبى أوس، عن العلاء، عن أبيه وأبى السائب، كلاهما عن أبى هريرة^(٦).

وقال الترمذى: هذا حديث حسن، وسألت أبا زرعة عنه فقال: كلا الحديثين صحيح، من قال: عن العلاء، عن أبيه، وعن العلاء عن أبى السائب^(٧).

وقد روى هذا الحديث عبد الله ابن الإمام أحمد، من حديث العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن أبى بن كعب مطولاً^(٨).

قال^(٩) ابن جرير: حدثنا صالح بن مسمار المروزى، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا عنبسة بن سعيد، عن مطرف بن طريف، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، وله ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: حمدنى عبدى، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال: أثنى على عبدى. ثم قال: هذا لى وله ما بقى^(١٠).

وهذا غريب من هذا الوجه.

(١) فى ج، ط: «قال الله».

(٢) فى ج، ط، ب: «أثنى على عبدى».

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٩٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠١٣).

(٤) صحيح مسلم برقم (٣٩٥) وسنن النسائى (١٣٥/٢).

(٥) (٦، ٥) صحيح مسلم برقم (٣٩٥).

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٩٥٣).

(٨) لم أفع عنه فى المطبوع من السنن، وذكره أخاىظ ابن حجر فى أطراف السنن (١/٢٣٠).

(٩) فى ج، ط، ب: «وقال».

(١٠) تفسير الطبرى (٢٠١/١) ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٧/١) من طريق زيد بن الحباب به، وفى إسناده انقطاع، سعد بن إسحاق لم يسمع من جابر، وقد حاول الشيخ أحمد شاكر إثبات اتصاله فى حاشيته على الطبرى ولكن لا يسلّم له بما قال، والله أعلم.

ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة^(١) من وجوه:

أحدها: أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: بقراءتك، كما جاء مصرحاً به في الصحيح، عن ابن عباس^(٢)، وهكذا قال في هذا الحديث: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سألت»، ثم بين تفضيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظم^(٣) القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها، إذا أطلقت العبادة وأريد بها^(٤) جزء واحد منها وهو القراءة؛ كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، والمراد صلاة الفجر، كما جاء مصرحاً به في الصحيحين: من أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة، وهو اتفاق من العلماء.

ولكن اختلفوا في مسألة تذكرها في الوجه الثاني، وذلك أنه هل يتعين للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب، أم تجزئ من أو غيرها؟ على قولين مشهورين، فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم أنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزاء في الصلاة، واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبما ثبت في الصحيحين، من حديث أبي هريرة في قصة المسء صلواته^(٥): أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن»^(٦) قالوا: فأمره بقراءة ما تيسر، ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها، فدل على ما قلناه.

والقول الثاني: أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، ولا تجزئ الصلاة بدونها، وهو قول بقية الأئمة: مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء؛ واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِدَاجٌ» والخداج هو: الناقص كما فسره في الحديث: «غير تمام». واحتجوا - أيضاً - بما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري، عن محمد بن الربيع، عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(٧). وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن»^(٨). والاحاديث في هذا الباب كثيرة، ووجه المناظرة ههنا يطول ذكره، وقد أشرنا إلى ما أخذهم في ذلك، رحمهم الله.

ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم: أنه تجب قراءتها في كل ركعة. وقال آخرون: إنما تجب قراءتها في معظم الركعات، وقال الحسن وأكثر البصريين: إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من

(١) في ج، ط، ب، أ، و: «ما يختص بعلم الفاتحة».

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٤٩٠) وصحيح مسلم برقم (٤٤٦).

(٣) في ج، ط، ب: اعظمة.

(٤) في ج، ط، ب: «به».

(٥) في ج، ط: المسء. في صلواته.

(٦) صحيح البخارى برقم (٧٩٣) وصحيح مسلم برقم (٣٩٧).

(٧) صحيح البخارى برقم (٧٥٦) وصحيح مسلم برقم (٣٩٤).

(٨) صحيح ابن خزيمة برقم (٤٩٠) وصحيح ابن حبان برقم (٤٥٧) «مراد».

الصلوات، أخذ بمطلق الحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي: لا تتعين^(١) قراءتها، بل لو قرأ بغيرها أجزاء لقوله: ﴿فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، [كما تقدم]^(٢)، والله أعلم. وقد روى ابن ماجه من حديث أبي سفيان السعدي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد مرفوعاً: «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها»^(٣). وفي صحة هذا نظر، وموضع^(٤) تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبير، والله أعلم.

الوجه الثالث: هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها: أنه تجب عليه قراءتها، كما تجب على إمامه؛ لعموم الأحاديث المتقدمة.

والثاني: لا تجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة ولا غيرها، لا في الصلاة الجهرية ولا السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان له إمام فقرأه الإمام له قراءة» ولكن في إسناده ضعف^(٥). ورواه مالك، عن وهب بن كيسان، عن جابر من كلامه^(٦). وقد روى هذا الحديث من طرق، ولا يصح شيء منها عن النبي ﷺ، والله أعلم.

والقول الثالث: أنه تجب القراءة على المأموم في السرية، لما^(٧) تقدم، ولا تجب^(٨) في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به؛ فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» وذكر بقية الحديث^(٩).

وكذا رواه أهل السنن؛ أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «وإذا قرأ فأنصتوا»^(١٠). وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضاً، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي، رحمه الله، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل^(١١).

(١) في ج، ط: «لا يتعين».

(٢) زيادة من ج، ط.

(٣) سنن ابن ماجه برقم (٨٣٩) وقال البوصيري في الزوائد (٢٩١/١): «هذا إسناده ضعيف، أبو سفيان السعدي واسمه طريف بن شهاب، وقيل: ابن سعد، قال ابن عبد البر: أجمعوا على ضعفه. وأبو سفيان قد توبع، تابعه قتادة، فرواه عن أبي نضرة عن أبي سعيد مرفوعاً بلفظ: «أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر» أخرجه أبو داود في السنن برقم (٨١٨).

(٤) في ج، ط: «موضع».

(٥) رواه أحمد في المسند (٣٣٩/٣) وقد أطنب الإمام الزينبي في الكلام على طرق هذا الحديث في كتابه «نصب الراية» (١٤٦/٢) بما أضي عن ذكره هنا.

(٦) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٦٠/٢) من طريق مالك، وقال: «هذا هو الصحيح عن جابر من قوله: غير مرفوع».

(٧) في ج: «كما».

(٨) في ج، ط، ب: «ولا تجب ذلك».

(٩) صحيح مسلم برقم (٤١٤).

(١٠) سنن أبي داود برقم (٦٠٥) وسنن النسائي (١٤١/٢، ١٤٢) وسنن ابن ماجه برقم (٨١٦) قال أبو داود: «وهذه الزيادة: «وإذا قرأ فأنصتوا» ليست بمحفوظة، ألهم عندنا من أبي خالد». وقد صحح هذه الزيادة مسلم في صحيحه، وتعبه الدارقطني في التبع (ص ٢٣٩).

وانظر جواب أبي مسعود الدمشقي في: حاشية التبع، وللشيخ ناصر الألباني بحث حول هذه الزيادة في الأرواح (١٢١/٢) وهو حسن.

(١١) في ج: «أحمد».

والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد^(١) الجوهري، حدثنا غسان بن عبيد، عن أبي عمران الجوني، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرأت فاتحة الكتاب و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقد أمنت من كل شيء إلا الموت»^(٢).

الكلام على تفسير الاستعاذة^(٣)

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ. وَإِنَّا نَبْزِغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ النَّيْتِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ. وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨] وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلْقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاها إِلَّا ذُرٌّ عَظِيمٌ. وَإِنَّا نَبْزِغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦].

فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه، ليرده عنه طبعه الطيب الأصل^(٤) إلى المادة^(٥) والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يتغنى غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل؛ كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْنَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وقال: ﴿اتَّخِذُوهُ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِشَرِّ الظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقد أقسم للوالد آدم إنه لمن الناصحين، وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأَعْرَبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩] ؟

- قالت طائفة من القراء وغيرهم: نتعوذ بعد القراءة واعتمدوا على ظاهر سياق الآية، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة؛ ومن ذهب إلى ذلك حمزة فيما ذكره^(٦) ابن قلوبا عنه - وأبو حاتم السجستاني، حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي المغربي في كتابه «الكامل». وروى عن أبي هريرة - أيضا - وهو غريب.

(١) في ج: استعد.

(٢) مستد البزار برقم (٩٠ - ٣١) «كشف الأستار» وفيه غسان بن عبيد، قال ابن عدي: «الضعف على أحاديث بين».

(٣) في ط، أ: «الكلام على تفسير أحكام الاستعاذة»، وفي ج: «الكلام على تفسيرها». (٤) في ج: «الأصل».

(٥) في ج، أ، ط: «الولاية». (٦) في ج، ط: «وقال الله». (٧) في ج، ط: أيضا نقله.

[ونقله فخر الدين محمد بن عمر الرازي^(١) في تفسيره عن ابن سيرين في رواية عنه قال: وهو قول إبراهيم النخعي وداود بن علي الاصهاني الظاهري، وحكى القرطبي عن أبي بكر بن العربي عن المجموعة عن مالك، رحمه الله تعالى، أن القارئ يتعوذ بعد الفاتحة. واستغربه ابن العربي. وحكى قول ثالث وهو الاستعاذة أولاً وآخرها جمعاً بين الدليلين نقله فخر الدين^(٢) [٣].

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها، إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية عندهم: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت القراءة كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦] أي: إذا أردتم القيام. والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك؛ قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:

حدثنا محمد بن الحسن بن آتش^(٤)، حدثنا جعفر بن سليمان، عن علي بن علي الرافعي الشكري، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك». ويقول: «لا إله إلا الله» ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه».

وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان، عن علي بن علي، وهو الرافعي^(٥)، وقال الترمذي: هو أشهر حديث في هذا الباب.

وقد فسّر، الهمز بالموتة وهي الخنق، والنّخ بالكبر، والنّفث بالشعر. كما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عاصم العزّي، عن نافع ابن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة، قال: «الله أكبر كبيراً، ثلاثاً، الحمد لله كثيراً، ثلاثاً، سبحان الله بكرة وأصيلاً، ثلاثاً، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه».

قال عمرو: وهمزة الموتة، ونفخه الكبير، ونفثه الشعر^(٦). وقال ابن ماجه: حدثنا علي بن المنذر، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمى، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفثه».

قال: همزة الموتة، ونفثه الشعر، ونفخه الكبير^(٧).

(١) في و: «الدينوري».

(٢) تفسير القرطبي (١/٨٨).

(٣) زيادة من ط، أ، و.

(٤) في ج، ب، و: «ويقول: الله أكبر».

(٥) المسند (٣/٥٠) وسنن أبي داود برقم (٧٧٥) وسنن الترمذي برقم (٢٤٢) وسنن النسائي (٢/١٣٢) وسنن ابن ماجه برقم (٨٠٤).

(٦) سنن أبي داود برقم (٧٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٨٠٧) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٤٤٣) من طريق شعبة به.

(٧) سنن ابن ماجه برقم (٨٠٨) ورواه ابن خزيمة في صحيحه برقم (٤٧٢) من طريق محمد بن فضيل به. وقال البوصيري في الزوائد

(١/٢٨٥): «هذا إسناد ضعيف، عطاء بن السائب اختلط بأخوه، وسمع منه محمد بن الفضيل بعد الاختلاط».

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا شريك، عن يعلى بن عطاء، عن رجل حدثه: أنه سمع أبا أمامة الباهلي يقول: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبر ثلاثاً، ثم قال: «لا إله إلا الله»، ثلاث مرات، «وسبحان الله وبحمده»، ثلاث مرات. ثم قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»^(١).

وقال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده: حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان الكوفي، حدثنا علي بن هاشم بن البريد، عن يزيد بن زياد، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب، قال: تلاحي رجلان عند النبي ﷺ، فتمزج أنف أحدهما غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم شيئاً لو قاله ذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة، عن يوسف بن عيسى المروزي، عن الفضل بن موسى، عن يزيد بن زياد بن أبي الجعد^(٢)، به^(٣).

وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل، عن أبي سعيد، عن زائدة، وأبو داود عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، والترمذي، والنسائي في اليوم والليلة عن بندار، عن ابن مهدي، عن الثوري، والنسائي - أيضاً - من حديث زائدة بن قدامة، ثلاثهم عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل، قال: استب رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى خيل إلى أن أحدهما يتمزج أنفه من شدة غضبه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب» قال: ما هي يا رسول الله؟ قال: «يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم». قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى [ومحك]^(٤)، وجعل يزداد غضباً. وهذا لفظ أبي داود^(٥).

وقال الترمذي: مرسل، يعني أن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلتق معاذ بن جبل، فإنه مات قبل سنة عشرين.

قلت: وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أبي بن كعب، كما تقدم وبلغه عن معاذ ابن جبل، فإن هذه القصة شهدها غير واحد من الصحابة، رضى الله عنهم.

قال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عدي بن ثابت، قال: قال سليمان بن صرد: استب رجلان عند النبي ﷺ، ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد،

(١) المسند (٥/٢٥٣).

(٢) في أ: الجعدي.

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٢٢٣).

(٤) زيادة من ج، ط، ب وأبي داود، وفي أ، ر ومحل.

(٥) المسند (٥/٢٤٤) وسنن أبي داود برقم (٤٧٨٠) وسنن الترمذي برقم (٣٤٥٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٢٢٢، ١٠٢٢١).

لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ^(١)؟ قال: إنني لست بمجتون^(٢).

وقد رواه - أيضاً - مع مسلم، وأبي داود، والنسائي، من طرق متعددة، عن الأعمش، به^(٣). وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها ههنا، وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال، والله أعلم. وقد روى أن جبريل، عليه السلام، أول ما نزل بالقرآن على رسول الله ﷺ أمره بالاستعاذة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد، استعذ. قال: «أستعذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم»، ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها الله على محمد ﷺ، بلسان جبريل^(٤).

وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً، والله أعلم.

مسألة: وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمنتهمة يأثم تاركها، وحكى فخر الدين عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال: وقال ابن سيرين: إذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كفى في إسقاط الوجوب، واحتج فخر الدين لعطاء بظاهر الآية: ﴿فَأَسْتَعِذْ﴾، وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواظبة النبي ﷺ عليها، ولأنها تدرك شر الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب. وقال بعضهم: كانت واجبة على النبي ﷺ دون أمته، وحكى عن مالك أنه لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ لقيام شهر رمضان في أول ليلة منه.

مسألة: وقال الشافعي في الإملاء: يجهر بالتعوذ، وإن أسر فلا يضر، وقال في الأم بالتخفيف لانه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة، واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى: هل يستحب التعوذ فيها؟ على قولين، ورجح عدم الاستحباب، والله أعلم. فإذا قال المستعذ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة وزاد^(٥) بعضهم: أعوذ بالله السميع العليم، وقال آخرون: بل يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم، قاله الثوري والأوزاعي وحكى عن بعضهم أنه يقول: أستعذ بالله من الشيطان الرجيم لمطابقة أمر الآية وتحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور والأحاديث الصحيحة، كما تقدم، أولى بالاتباع من هذا، والله أعلم.

مسألة: ثم الاستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة وهو قول أبي حنيفة ومحمد. وقال أبو يوسف:

(١) في ج، ط: النبي.

(٢) صحيح البخاري برقم (٦١١٥).

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦١٠) وسنن أبي داود برقم (٤٧٨١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٢٢٤، ١٠٢٢٥).

(٤) تفسير الطبري (١/١١٣).

(٥) في أ: وقرأه.

بل للصلاة، فعلى هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ، ويتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد، والجمهور بعدها قبل القراءة.

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للقلب مما كان يعاطاه من اللغو والرفث، وتطيب له وتهيئ لتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطنى الذى لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذى خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات القرآن فى ثلاث من المثانى، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشرى يوم بدر، ومن قتله العدو البشرى كان شهيداً، ومن قتله العدو الباطنى كان طريداً، ومن غلبه العدو الظاهر كان مأجوراً، ومن قهره العدو الباطن كان مفتوناً أو موزوراً، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذى يراه ولا يراه الشيطان.

فصل: والاستعاذة هى الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذى شر، والعيادة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتن:

يا من الود به فيما أومله ومن أعود به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهضون عظما أنت جابره^(١)

فصل

معنى الاستعاذة

ومعنى أعود بالله من الشيطان الرجيم، أى: استجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرنى فى دينى أو دنيائى، أو يصدنى عن فعل ما أمرت به، أو يحثنى على فعل ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكف عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته^(٢) بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه، وهذا المعنى فى ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة، قوله فى الاعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الاعراف: ١٩٩]، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الاعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى فى سورة «قد أفلح المؤمنون»: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السِّيئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ. وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبُّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨]، وقال تعالى فى سورة «حم السجدة»: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا

(١) ذكر البيهقي حافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٢٧٥/١١) وقال: «وقد بلغنى عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله - أنه كان ينكر على المتن هذه المبالغة فى مخلوق ويقول: إنما يصلح هذا خطاب الله - سبحانه وتعالى - وأخبرنى العلامة شمس الدين ابن القيم - رحمه الله - أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: «دعما قلت هذين البيتين فى السجود أذعر الله بما نقصناه من الذل والخضوع».

(٢) فى ج: «مداراته».

السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالنَّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَإِنَّمَا يَنزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ قَامَتْحَدُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿فصلت: ٣٤ - [٣٦].

والشيطان في لغة العرب مشتق من شَطَنَ إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب؛ قال أمية بن أبي الصلت في ذكر ما أوتى سليمان، عليه^(١) السلام:

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاءَ عَمَّكَاهُ ثُمَّ يُلْقَى فِي السَّجْنِ وَالْأَغْلَالِ^(٢)
فقال: أيما شاطن، ولم يقل: أيما شائط.

وقال النابغة الذبياني - وهو: زياد بن عمرو بن معاوية بن جابر بن ضباب بن يربوع بن مرة بن سعد بن ذبيان -:

نَأَتْ بِعَادِ عَنكَ نَوَى شَطُونُ فَبَاتَتْ وَالْفَوَادُ بِهَا رَهِينٌ^(٣)
يقول: بعدت بها طريق بعيدة.

[وقال سيويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فَعَلَ فِعْلَ الشَّيْطَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ شَاطٍ لَقَالُوا: تشيطن^(٤)].

والشيطان^(٥) مشتق من البعد على^(٦) الصحيح؛ ولهذا يسمون كل ما^(٧) نورد من جنى وإنسى وحيوان شيطاناً، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفي مسند الإمام أحمد، عن أبي ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، تعود بالله من شياطين الإنس والجن»، فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم»^(٨).
وفي صحيح مسلم عن أبي ذر - أيضاً - قال: قال رسول الله ﷺ: «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود». فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر^(٩)؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان»^(١٠).

وقال ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، ركب برذوناً، فجعل يتختر به، فجعل لا يضربه فلا يزداد إلا يتخترأ، فنزل عنه، وقال: ما حملتموني^(١١) إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسى. إسناده^(١٢) صحيح^(١٣).

(١) في ج، ب: عليه الصلاة والسلام.

(٢) البيت في تفسير الطبري (١١٢/١) واللسان، مادة عمكاه ومادة شطن.

(٣) البيت في تفسير الطبري (١١٢/١).

(٤) زيادة من ج، ط.

(٥) في ج، ط، ب: «الشيطان».

(٦) في ج، ط، ب: «وهو».

(٨) السنن (١٧٨/٥).

(٩) في ج، ط، ب، أ، و: «من الأصفر».

(١٠) رواه الطبري في تفسيره (١١١/١).

(١١) في ب: «ما حملتمون».

(١٢) في ط، ب، أ، و: «إسناده».

(١٣) رواه الطبري في تفسيره (١١١/١).

والرَّجِيم: فعيل بمعنى مفعول، أى: إنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوَاكِبِ. وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ. لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصَابٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

[وقيل: رجيم بمعنى راجم؛ لأنه يرجم الناس بالوسواس والرباثة والأول أشهر]^(١).

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

انتح بها الصحابة كتاب الله، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا: هل هي آية متفردة في أول كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت في أولها، أو أنها بعض آية من أول كل سورة، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها، أو أنها [إنما]^(٢) كتبت للفصل، لا أنها^(٣) آية؟ على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً، وذلك مبسوط في غير هذا الموضع.

(وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.)

وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابورى فى مستدرکه أيضاً^(٤)، وروى مرسلًا عن سعيد بن جبیر. وفى صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ البسمة فى أول الفاتحة فى الصلاة وعدّها آية، لكنه من رواية عمر بن هارون البلخى، وفيه ضعف، عن ابن جریر، عن ابن أبى مليكة، عنها^(٥).

وروى له الدارقطنى متابعا، عن أبى هريرة مرفوعا^(٦). وروى مثله عن على وابن عباس وغيرهما^(٧).

ومن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعلى. ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبیر، ومكحول، والزهرى، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، فى رواية عنه، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله.

(٣) فى ١: «لأنها».

(٢) زيادة من ج، ط، ب.

(١) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) سنن أبى داود برقم (٧٨٨) والمستدرک (١٣١/١) من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس رضى الله عنه.

(٥) صحيح ابن خزيمة برقم (٤٩٣).

(٦) سنن الدارقطنى (٣٠٩/١)، (٣١٠) من ثلاث طرق كلها معمولة.

(٧) سنن الدارقطنى (٣٠٢/١) عن على بن أبى طالب، وطرفه كلها ضعيفة، و(٣٠٣/١) عن ابن عباس من طريقين ضعيفين، وسبأى كلام العلماء على الجهر بالبسمة وهذا مفرغ عليه.

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقال الشافعي في قول، في بعض طرق مذهبه: هي آية من الفاتحة وليست من غيرها، وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة، وهما غريبان .

(وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها) وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل .
وحكاه أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة، رحمهم الله^(١) .
هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا .

(فأما ما يتعلق بالجهر بها، فمضّر على هذا؛ فمن رأى أنها ليست منها فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من^(٢) أولها، وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلقوا؛ فذهب الشافعي، رحمه الله، إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً^(٣)، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، وحكاه ابن عبد البر، والبيهقي عن عمر وعلي، ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وهو غريب . ومن التابعين عن سعيد بن جبيرة، وعكرمة، وأبي قلابة، والزهري، وعلي بن الحسين، وابنه محمد، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وسالم، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وأبي وائل، وابن سيرين، ومحمد بن المنكدر، وعلي بن عبد الله بن عباس، وابنه محمد، وناقع مولى ابن عمر، وزيد بن أسلم، وعمر بن عبد العزيز، والأزرق بن قيس، وحبيب بن أبي ثابت، وأبي الشعثاء، ومكحول، وعبد الله بن معقل بن مقرن . زاد البيهقي: وعبد الله بن صفوان، ومحمد بن الحنفية . زاد ابن عبد البر: وعمرو بن دينار .

والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة، فيجهر بها كسائر أعضائها، وأيضاً فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما، والحاكم في مستدركه، عن أبي هريرة: أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة، وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ . وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم^(٤) .

وروى أبو داود والترمذي، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يفتح الصلاة بيسم الله الرحمن الرحيم . ثم قال الترمذي: وليس إسناده بذلك^(٥) .

وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: صحيح^(٦) . (وفي صحيح البخاري، عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة

(١) ولشيخ الإسلام ابن تيمية تفصيل في هذه المسألة، فراجعته في: الفتاوى (٢٢/٤٣٨ - ٤٤٣) .

(٢) في ج، ط، ب، أ، في: (٣) في ج، ط، ب، أ، و: «خلقاً وسلطاناً» .

(٤) سنن النسائي (٢/١٣٤) وصحيح ابن خزيمة برقم (٤٩٩) وصحيح ابن حبان برقم (٤٥٠) «مباردة» والمستدرک (١/٢٣٢) .

(٥) سنن الترمذي برقم (٢٤٥) .

(٦) المستدرک (١/٢٠٨) وفي إسناده عبد الله بن عمرو بن حسان، كذبه الدارقطني . وقال علي بن المديني: يصح الحديث؛ لذلك تعقب الذهبي الحاكم على تصحيحه فقال: «ابن حسان كذبه غير واحد، ومثل هذا لا يخفى على المعصف» - أي الحاكم .

رسول الله ﷺ فقال: كانت قراءته مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، بمد بسم الله، ومد الرحمن، ومد الرحيم^(١).

وفي مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرک الحاكم، عن أم سلمة، قالت^(٢): كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وقال الدارقطني: إسناده صحيح^(٣).

وروى الشافعي، رحمه الله، والحاكم في مستدرکه، عن أنس: أن معاوية صلى بالمدينة، فترك البسمة، فأنكر عليه من حضر من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرة الثانية بسمل^(٤).

وفي هذه الأحاديث، والآثار التي أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها، فأما المعارضات والروايات الغريبة، وتطبيقاتها، وتعليلها وتضعيفها، وتقريرها، فله موضع آخر.

وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسمة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبدالله ابن مغفل، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة، والثوري، وأحمد بن حنبل.

وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ البسمة بالكلية، لا جهرًا ولا سرا، واحتجوا بما في صحيح مسلم، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين^(٥). وبما في الصحيحين، عن أنس بن مالك، قال: صليت خلف النبي ﷺ، وأبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين. ولمسلم: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها^(٦). ونحوه في السنن عن عبد الله بن مغفل، رضى الله عنه^(٧).

فهذه مأخذ الأئمة، رحمهم الله، في هذه المسألة وهي قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسمة ومن أسر، والله الحمد والمنة^(٨).

فصل

في فضلها

قال الإمام العالم الحبر العابد أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم، رحمه الله، في تفسيره:

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦ - ٥).

(٢) في ج، ط، ب: وإنما قالت.

(٣) المسند (٣٠٢/١) وسنن أبي داود برقم (١٤٦٦) والمستدرک (١٣١/٢).

(٤) المستدرک (٢٣٣/١).

(٥) صحيح مسلم برقم (٤٩٨).

(٦) صحيح البخارى برقم (٧٤٣) وصحيح مسلم برقم (٣٩٩).

(٧) سنن الترمذى برقم (٢٤٤) وسنن النسائى (١٣٥/٢) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٥).

(٨) لشيخ الإسلام ابن تيمية كلام متين في هذه المسألة راجعه في: الفتاوى (٤١٠/٢٢ - ٤٢٧)، وانظر الكلام على أحاديث الباب موسعاً في: نصب الراية للزيلعي (٣٢٣/١ - ٣٦٢).

حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا زيد بن المبارك الصنعاني، حدثنا سلام بن وهب الجندی، حدثنا أبي، عن طاوس، عن ابن عباس؛ أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم. فقال: «هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر، إلا كما بين سواد العينين وبياضهما»^(١) من القرب.

وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه، عن سليمان بن أحمد، عن علي بن المبارك، عن زيد بن المبارك، به^(٢).

وقد روى الحافظ ابن مردويه من طريقين، عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن مَعْرٍ، عن عطية، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه، فقال المعلم: اكتب، قال^(٣): ما أكتب؟ قال: بسم الله، قال له عيسى: وما باسم الله؟ قال المعلم: ما أدرى^(٤). قال له عيسى: الباء بهاء الله، والسين سناؤه، والميم مملكته، والله إله الآلهة، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة».

وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن العلاء، الملقب: زبريق، عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن أبي مليكة، عن حدثه، عن ابن مردد، ومعر، عن عطية، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ، فذكره^(٥). وهذا غريب جداً، وقد يكون صحيحاً إلى من دون رسول الله ﷺ، ويكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات، والله أعلم.

وقد روى جُوَيْر^(٦)، عن الضحاك، نحوه من قبله.

وقد روى ابن مردويه، من حديث يزيد بن خالد، عن سليمان بن بريدة، وفي رواية عن عبد الكريم أبي^(٧) أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ^(٨) قال: «أنزلت على آية لم تنزل على نبي غير سليمان بن داود وغيري، وهي بسم الله الرحمن الرحيم»^(٩).

وروى بإسناده عن عبد الكبير^(١٠) بن المعافى بن عمران، عن أبيه، عن عمر بن ذر، عن عطاء ابن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله، قال: لما نزل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هرب الغيم إلى المشرق، وسكنت الرياح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بأذانها، ورجمت الشياطين من السماء،

(١) في ج: «سواد العين وبياضها».

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٢/١) ورواه الخطيب في تاريخه (٣١٣/٧)، والحاكم في المستدرک (٥٥٢/١) من طريق زيد بن المبارك به. وقال الذهبي في ترجمة سلام بن وهب في الميزان (١٨٢/٢): «أتى بخبر منكر، بل كذب، ثم ساق هذا الخبر».

(٣) في ج: «قال». (٤) في ج: «لا أدرى».

(٥) تفسير الطبري (١٢١/١) ورواه ابن عدى في الكامل (٣-٣/١) يمثل طريق الطبري وقال: «هذا حديث باطل الإسناد لا يرويه غير إسماعيل». أ. هـ. وانظر: حاشية الشيخ أحمد شاكر على تفسير الطبري.

(٦) في ج: «النبي».

(٧) في ج: «ابن».

(٨) ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره من طريق عبد الكريم بن أبي أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه به مرفوعاً، ورواه الدارقطني في السنن (٣١٠/١) من طريق عبد الكريم بن أبي أمية به، قال الحافظ ابن كثير: «هذا حديث غريب، وإسناده ضعيف» وسيأتي عند تفسير الآية: ٣٠ من سورة التل.

(١٠) في هـ: «عبد الكريم»، والتصويب من ج، ط، ب، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم.

وحلف الله تعالى بعزته وجلاله^(١) ألا يسمي اسمه على شيء إلا بآرك فيه^(٢).

وقال وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، ليجعل الله له من كل حرف منها جنة من كل واحد، ذكره ابن عطية والقرطبي^(٣) ووجهه ابن عطية ونظره بحديث: «فقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يتندرونها»^(٤) لقول الرجل: ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفا وغير ذلك^(٥).

وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عاصم، قال: سمعت أبا تيمة يحدث، عن رديف النبي ﷺ قال: عثر بالنبي ﷺ، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي ﷺ: «لا تقل تعس الشيطان. فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاطم، وقال: بقوتى صرعته، وإذا قلت: باسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب».

هكذا وقع في رواية الإمام أحمد^(٦)، وقد روى^(٧) النسائي في اليوم والليلة، وابن مردويه في تفسيره، من حديث خالد الخذاء، عن أبي تيمة وهو الهجيمي، عن أبي المليح بن أسامة بن عمير، عن أبيه، قال: كنت رديف النبي ﷺ، فذكره، وقال: «لا تقل هكذا، فإنه يتعاطم حتى يكون كالبيت، ولكن قل: بسم الله، فإنه يصغر حتى يكون كالذباب»^(٨).

فهذا من تأثير بركة باسم الله؛ ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول. فتستحب في أول الخطبة لما جاء: «كل أمر^(٩) لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم، فهو أجزم»^(١٠)، وتستحب البسطة عند دخول الخلاء ولما ورد من الحديث في ذلك^(١١) [١٢]، وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد والسنن، من رواية أبي هريرة، وسعيد بن زيد، وأبي سعيد مرفوعاً: «لا وضوء لمن لم

(١) في ج: «وبجلاله».

(٢) وعزوه السيوطي في الدر المنثور (٢٦/١) للتلخيص في تفسيره.

(٣) المعجم الوجيز لابن عطية (٥٤/١).

(٤) الحديث رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٩٩) من حديث رفاعة بن رافع رضى الله عنه.

(٥) زيادة من ط، ب، أ، و.

(٦) المسند (٥٩/٥).

(٧) في ج، ط، ب: «رواه».

(٨) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٣٨٩) ورواه من طريق ابن المبارك عن خالد الخذاء، عن أبي تيمة، عن أبي المليح، عن ردف رسول الله ﷺ، وقال النسائي: «وهو الصواب».

(٩) في و: «خطبة».

(١٠) رواه بهذا اللفظ الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع» (١٢٨/٢) من طريق بشر بن إسماعيل، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، وللشيخ أحمد الفعازي رسالة سماها: «الاستعاذة والحسيلة من صحح حديث البسطة» بين فيها ضعف هذا الحديث، بعد أن جمع طرقه، وهي رسالة قيمة فنتراجع.

(١١) جاء من حديث علي، وأنس، رضى الله عنهما، أما حديث علي، فقد رواه الثرمذى من السنن برقم (٦٠٦) من طريق خلاد الصفار عن الحكم، عن أبي إسحاق، عن أبي جحيفة، عن علي، رضى الله عنه، مرفوعاً بلفظ: «ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحدهم خلاء» أن يقول: بسم الله. وأما حديث أنس، فيرويه العمري عن عبد العزيز بن المختار بن صهيب عن أنس مرفوعاً بلفظ: «إذا دخلتم الخلاء فقولوا: بسم الله، أعوذ بالله من الخس والخباث» والحديث في الصحيحين من دون هذه الزيادة.

(١٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

يذكر اسم الله عليه^(١)، وهو حديث حسن. ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا، ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً، وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة، وأوجبها آخرون عند الذكر، ومطلقاً في قول بعضهم، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله، وقد ذكر الرازي في تفسيره في فضل البسملة أحاديث منها: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أتيت أهلك فسم الله؛ فإنه إن وجد لك ولد كتب لك بعدد أنفاسه وأنفاس ذريته حسنات». وهذا لا أصل له، ولا رأيه في شيء من الكتب المعتمد عليها ولا غيرها.

وهكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبة عمر بن أبي سلمة: «قل: باسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»^(٢). ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه، وكذلك تستحب عند الجماع لما في الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً»^(٣).

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بالباء في قولك: باسم الله، هل هو اسم أو فعل متقاربان وكل قد ورد به القرآن؛ أما من قدره باسم، فتقديره: باسم الله ابتدائي، فلقوله تعالى: «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» [هود: ٤١]، ومن قدره بالفعل [أمرأ وخبرأ نحو: ابدأ بيسم الله أو ابتدأت بيسم الله]^(٤)، فلقوله: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» [المعلق: ١]، وكلاهما صحيح، فإن الفعل لا يند له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله، إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً أو قراءة أو وضوءاً أو صلاة، فالمشروع ذكر [اسم]^(٥) الله في الشروع في ذلك كله، تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل، والله أعلم؛ ولهذا روى ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: إن أول ما نزل به جبريل على محمد^(٦) ﷺ قال: يا محمد قل: أستعبد بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». قال: قال له جبريل: قل: باسم الله يا محمد، يقول: اقرأ بذكر الله ربك، وقم، واقعد بذكر الله. [هذا]^(٧) لفظ ابن جرير^(٨).

وأما مسألة الاسم: هل هو المسمى أو غيره؟ ففيها للناس ثلاثة أقوال:

[أحدها: أن الاسم هو المسمى، وهو قول أبي عبيدة وسيبويه، واختاره الباقلاني وابن فورك، وقال فخر الدين الرازي - وهو محمد بن عمر المعروف بابن خطيب الري - في مقدمات تفسيره:

(١) أما حديث أبي هريرة، فرواه أحمد في المستد (٤١٨/٢) وأبو داود في السنن برقم (١٠٩) وابن ماجه في السنن برقم (٣٩٩).
وأما حديث سعيد بن زيد، فرواه الترمذي في السنن برقم (٢٥)، وأما حديث أبي سعيد، فرواه أحمد في المستد (٤١٣) وابن ماجه في السنن برقم (٣٩٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٠٢٢) وهو في صحيح البخاري برقم (٥٣٧٦).

(٣) صحيح البخاري برقم (١٤١) وصحيح مسلم برقم (١٤٣٤). (٤) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٥) في ج: اعطى رسوله.

(٦) زيادة من ج، ط، ب.

(٧) زيادة من ج. (٨) تفسير الطبري (١١٧/١) وفي إسناده ضعفاً وانقطاعاً تقدم بيانه.

قالت الحشوية والكرامية والأشعرية: الاسم نفس المسمى وغير التسمية، وقالت المعتزلة: الاسم غير المسمى ونفس التسمية، والمختار عندنا: أن الاسم غير المسمى وغير التسمية، ثم نقول: إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات مقطعة وحروف مؤلفة، فالعلم الضروري حاصل أنه غير المسمى وإن كان المراد بالاسم ذات المسمى، فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات وهو عبث، فثبت أن الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يعجز مجرى العبث.

ثم شرع يستدل على مغايرة الاسم للمسمى، بأنه قد يكون الاسم موجوداً والمسمى مفقوداً كلفظة المعلوم وبأنه قد يكون للشئ أسماء متعددة كالمترادفة وقد يكون الاسم واحداً والمسميات متعددة كالمشترك، وذلك دال على تغاير الاسم والمسمى، وأيضاً فالاسم لفظ وهو عرض والمسمى قد يكون ذاتاً ممكنة أو واجبة بذاتها، وأيضاً فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد اللفظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك، ولا يقوله عاقل، وأيضاً فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال النبي ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا»^(١)، فهذه أسماء كثيرة والمسمى واحد وهو الله تعالى، وأيضاً فقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أضافها إليه، كما قال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦]، ونحو ذلك. والإضافة تقتضي المغايرة وقوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: فادعوا الله بأسمائه، وذلك دليل على أنها غيره، واحتج من قال: الاسم هو المسمى، بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨] والتبارك هو الله. والجواب: أن الاسم معظم لتعظيم الذات المقدسة، وأيضاً فإذا قال الرجل: زينب طالق، يعنى امرأته طالق، طلقت، ولو كان الاسم غير المسمى لما وقع الطلاق. والجواب: أن المراد أن الذات المسماة بهذا الاسم طالق. قال الرازي: وأما التسمية فإنها جعل الاسم معيناً لهذه الذات فهي غير الاسم أيضاً، والله أعلم^(٢).

﴿اللَّهُ﴾: عَلمٌ على الرب تبارك وتعالى، يقال: إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ مَبْحَأُ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤]، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفي الصحيحين، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٣)، وجاء تعددها في رواية الترمذي، [وابن

(١) سيأتي تخريجه في الشرح التالي.

(٢) زيادة من ط، أ، و.

(٣) صحيح البخاري برقم (٧٣٩٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦٧٧).

ماجه^(١)، وبين^(٢) الروايتين اختلاف زيادات ونقصان، وقد ذكر فخر الدين الرازي في تفسيره عن بعضهم أن لله خمسة آلاف اسم: ألف في الكتاب والسنة الصحيحة، وألف في التوراة، وألف في الإنجيل، وألف في الزبور، وألف في اللوح المحفوظ^(٣).

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى؛ ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل ويفعل، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له. وقد نقل القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم، وروى عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة. قال الخطابي: ألا ترى أنك تقول: يا الله، ولا تقول: يا الرحمن، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام^(٤). وقيل: إنه مشتق، واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج:

لله در الغايات المدة سبحن واسترجعن من تألهي^(٥)

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التأله، من آله يآله وإلهة وتألها، كما روى أن ابن عباس قرأ: «ويذكرك وإلا هتك» قال: عبادتك، أي: أنه كان يُعبد ولا يُعبَد، وكذا قال مجاهد وغيره.

وقد استدل بعضهم على كونه مشتقاً بقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] أي المعبود في السموات والأرض، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ونقل سيبويه عن الخليل: أن أصله: إلاه، مثل فعال، فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة. قال سيبويه: مثل الناس، أصله: أناس، وقيل: أصل الكلمة: لاه، فدخلت الألف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه. قال الشاعر:

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب عني ولا أنت ديانتي فتخزوني^(٦)

قال القرطبي: بإخاء المعجمة، أي: فتسوسني، وقال الكسائي والفراء: أصله: الاله حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى في الثانية، كما قال: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨] أي: لكن أنا، وقد قرأها كذلك الحسن، قال القرطبي: ثم قيل: هو مشتق من وله: إذا تحير، والوله ذهاب العقل؛ يقال: رجل واله، وامرأة ولهي، وماء موله: إذا أرسل في الصحاري، فالله تعالى تحير أولو الآل باب والفكر في حقائق صفاته، فعلى هذا يكون أصله: ولاه، فأبدلت الواو همزة، كما قالوا في وشاح: أشاح، ووسادة: أسادة، وقال فخر الدين الرازي: وقيل: إنه مشتق من ألّهت إلى فلان، أي: سكنت إليه، فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تفرح إلا بعرفته؛ لأنه الكامل على الإطلاق دون

(١) سنن الترمذي برقم (٢٥٠٢) وصن ابن ماجه برقم (٣٨٦١) ورواية الترمذي متكلم فيها

(٢) في و: هوفي. (٣) زيادة من حد، ط، أ، و.

(٤) تفسير القرطبي (١/١٠٣).

(٥) البيت في النسخ، مادة «مده» وفي تفسير الطبري (١/١٢٣).

(٦) البيت لدى الإصبع العدواني، وهو من شواهد ابن عقيل برقم (٢٠٨) على شرح الألفية. ولسان العرب. مادة «لاه».

غيره قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] قال: وقيل: من لاه يلوه: إذا احتجب. وقيل: اشتقاقه من آله الفصيل: إذ ولع بأمه، والمعنى: أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال، قال: وقيل: مشتق من آله الرجل يآله: إذا فرغ من أمر نزل به فألهم، أى: أجاره، فالمجير لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وهو المنعم لقوله: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وهو المطعم لقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وهو الموجد لقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد اختار فخر الدين أنه اسم علم مشتق البتة، قال: وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء، ثم أخذ يستدل على ذلك برجوه:

منها: أنه لو كان مشتقاً لاشترك في معناه كثيرون، ومنها: أن بقية الأسماء تذكر صفات له، فتقول: الله الرحمن الرحيم الملك القدوس، فدل أنه ليس بمشتق، قال: فأما قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]، على قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان، ومنها قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وفي الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامداً غير مشتق نظر، والله أعلم.

وحكى فخر الدين عن بعضهم أنه ذهب إلى أن اسم الله تعالى عبراني لأعربى، ثم ضعفه، وهو حقيق بالتضعيف كما قال، وقد حكى فخر الدين هذا القول ثم قال: واعلم أن الخلق قسمان: واصلون إلى ساحل بحر المعرفة، ومحرومون قد بقوا في ظلمات الخيرة وتيه الجهالة؛ فكانهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم؛ وأما الواجدون فقد وصلوا إلى عرصة النور وفسحة الكبرياء والجلال، فتأهوا في ميادين الصمدية، وبادوا في عرصة الفردانية، فثبت أن الخلق كلهم واليهون في معرفته، وروى عن الخليل بن أحمد أنه قال: لأن الخلق يألوهون إليه بنصب اللام وجرها لغتان، وقيل: إنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تمول لكل شيء مرتفع: لاهها، وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاهت.

وأصل ذلك الإله، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة، فالتفت اللام التي هي عينها مع اللام الزائدة في أولها للتعريف فأدغمت إحداهما في الأخرى، فصارتا في اللفظ لاهاً واحدة مشددة، وفحمت تعظيماً، فقيل: الله.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك، كما تقدم في الأثر، عن عيسى، عليه السلام، أنه قال: والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة.

وقد زعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المحروم وقد قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وحكى ابن الأنبارى فى الزاهر عن المبرد: أن الرحمن اسم عبرانى ليس بعربى، وقال أبو إسحاق الزجاج فى معانى القرآن: وقال أحمد بن يحيى: الرحيم عربى، والرحمن عبرانى، فلهذا جمع بينهما. قال أبو إسحاق: وهذا القول مرغوب عنه^(١). وقال القرطبى: والدليل على أنه مشتق ما أخرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمى، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته»^(٢). قال: وهذا نص فى الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق.

قال: وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له، قال القرطبى: هما بمعنى واحد كندمان ونديم قاله أبو عبيد، وقيل: ليس بناء فعلان كنعيل، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك: رجل غضبان، وفعليل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول، قال أبو على الفارسى: الرحمن: اسم عام فى جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو فى جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، أى أكثر رحمة، ثم حكى عن الخطابى وغيره: أنهم استشكلوا هذه الصفة، وقالوا: لعله أرفق كما جاء فى الحديث: «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله وإنه يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف»^(٣). وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب، وهذا كما جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى صالح الفارسى الخوزى عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»^(٤)، وقال بعض الشعراء:

لا تطلبن بنى آدم حاجة وسل الذى أبوابه لا تغلق^(٥)

الله يغضب أن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

(١) فى: فيه.

(٢) سنن الترمذى برقم (١٩٠٧) من طريق سفيان عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن عبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنه، وقال الترمذى: حديث سفيان عن الزهرى حديث ضعيف.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٩٣) من حديث عائشة، رضى الله عنها، ورواه أبو داود فى السنن برقم (٤٨٠٧) من حديث عبد الله بن مغفل، رضى الله عنه.

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٧٣) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٢٧). وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٩٥/١١): «وهذا الخوزى - أى أبى صالح - مختلف فيه - ضعفه ابن معين، وقواه ابن معين - وطن الحافظ ابن كثير أنه أبو صالح السمان فجزم بأن أحمد تفرد بتخرجه، وليس كما قال، فقد جزم شيخه المزى فى الأطراف بما قلته». قلت: قد رأيت أن الحافظ هنا بين أنه الخوزى الفارسى، فأظن أن ما وقع منه إنما هو وهم.

(٥) ذكره القرطبى فى التفسير (١٠٦/١) غير منسوب.

قال^(١) ابن جرير: حدثنا السري بن يحيى التميمي، حدثنا عثمان بن زُفر، سمعت العرزمي يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرحمن لجميع المخلوق، الرحيم، قال: بالمؤمنين. قالوا: ولهذا قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] وقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يُسم به غيره كما قال تعالى: ﴿قُلْ اذْهَبُوا لِلَّهِ أَوْ اذْهَبُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾. ولما تجهروا مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به؛ فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يُضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضرة من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن؛ لأنه أكد به، والتأكيد^(٢) لا يكون إلا أقوى من المؤكد، والجواب أن هذا ليس من باب التوكيد^(٣)، وإنما هو من باب النعت [بعد النعت]^(٤)، ولا يلزم فيه ما ذكروه، وعلى هذا فيكون تقديم اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ اذْهَبُوا لِلَّهِ أَوْ اذْهَبُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وإنما تجهروا مسيلمة اليمامة في التسمية به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة. وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره، حيث قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ فَزَيَّرَ عَلَيْهِ مَا عَلَيْكُمْ خَرِيسٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] كما وصف غيره بذلك من أسمائه في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَعِيمًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والمخالق والرزاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف^(٥) الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشد مبالغة؛ فهلا اكتفى به عن الرحيم؟ فقد روى عن عطاء الخراساني ما معناه: أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن، جرى بلفظ الرحيم ليقطع التوهم بذلك، فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى. كذا رواه ابن جرير عن عطاء. ووجهه بذلك، والله أعلم.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ اذْهَبُوا لِلَّهِ أَوْ اذْهَبُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلي: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخاري^(٦)، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَرَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

(١) في ج، ط، ب: «وقال» . (٢) في ج، ط: «والمؤكد» . (٣) في ج، ط، ب: «التأكيد» .

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و . (٥) في ج، ط، ب: «أشرفاً» . (٦) صحيح البخاري برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحود وعناد وتعنت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية^(١) تسمية الله تعالى بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهَّال^(٢):

أَلَا ضَرَبْتَ تِلْكَ الْفِتَاةُ هَجَيْنَهَا
أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي بِمِثْلِهَا^(٣)

وقال سلامة بن جندل الطهرى:

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا عَجَلْتِنَا عَلَيْكُمْ
وَمَا يَشَأُ الرَّحْمَنُ يَعْقِدُ وَيُطَلِّقُ^(٤)

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمار، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن: الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب، وقال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]، الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا حماد بن سَعْدَةَ، عن عوف، عن الحسن، قال: الرحمن اسم ممنوع^(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد [ابن]^(٦) يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو الأشهب، عن الحسن، قال: الرحمن: اسم لا يستطيع الناس أن يتحلوه، تسمى به تبارك وتعالى^(٧).

وقد جاء في حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقطع قرآنه حرفاً حرفاً ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ. فَالْكَ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٨)، فقرأ بعضهم كذلك وهم طائفة من الكوفيين ومنهم من وصلها بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكر الميم لالتقاء الساكنين وهم الجمهور. وحكى الكسائي عن بعض العرب أنها تقرأ بفتح الميم وصله الهمة فيقولون: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فنقلوا حركة الهمة إلى الميم بعد تسكينها كما قرئ^(٩) قوله تعالى: ﴿الَمْ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال ابن عطية: ولم ترد بهذا قراءة عن أحد فيما علمت^(١٠).

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢)

القراء السبعة على ضم الدال من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهو مبتدأ وخبر. وروى عن سفيان بن عيينة ورؤية بن العجاج أنهما قالوا: «الحمد لله» بالنصب وهو على إضمار فعل، وقرأ ابن أبي

(١) في ج، ط، ب: في أشعار الجاهلية.

(٢) البيت في تفسير الطبري (١٣١/١) غير مشروب.

(٣) البيت في تفسير الطبري (١٣١/١).

(٤) تفسير الطبري (١٣٤/١).

(٥) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم (١٣/١).

(٨) رواه أحمد في السنن (٢/٦-٣) وأبو داود في السنن برقم (٤٠٠١) من طريق ابن جرير عن ابن أبي مليكة، عن أم سلمة، رضى الله عنها، وصححه ابن خزيمة والدارقطني.

(٩) في أ: فسروا.

(١٠) المحرر الوجيز (١/٥٩، ٦٠).

عبلة: «الحمد لله» بضم الدال واللام اتباعاً للثاني الأول وله شواهد لكنه شاذ، وعن الحسن وزيد ابن علي: «الحمد لله» بكسر الدال اتباعاً للأول الثاني.

قال أبو جعفر بن جرير: معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: اشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لاداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرأ.

[وقال ابن جرير: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ثناء أنثى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يشوا عليه فكانه قال: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾^(١).

قال: وقد قيل: إن قول القائل: الحمد لله، ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنی^(٢)، وقوله: الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه، ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون^(٣) كلا من الحمد والشكر مكان^(٤) الآخر.

[وقد نقل السلمي هذا المذهب أنهما سواء عن جعفر الصادق وابن عطاء من الصوفية. وقال ابن عباس: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. كلمة كل شاكراً، وقد استدل القرطبي لابن جرير بصحة قول القائل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكراً^(٥)].

وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظراً لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون باللسان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

ولكنهم^(٦) اختلفوا: أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه^(٧)؛ لأنه يكون بالقول والعمل^(٨) والنية، كما تقدم، وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إلى. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم.

وقال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: الحمد نقيض الذم، تقول: حمدت الرجل أحمدته حمداً

(١) زيادة من ج، ط، أ، و. (٢) في ج، ط، أ، و: «بأسمائه الحسنی وصفاته العلى». (٣) في ج: «موضع».

(٤) تفسير القرطبي (١/١٣٤).

(٥) زيادة من ج، ط، أ، و. (٦) في ج، ط، ب، أ، و: «تكن».

(٧) في ج، ط، ب، أ، و: «به».

(٨) في ط، ب: «والفعل».

ومحمدة^(١)، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر. وقال في الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له. وباللام أفصح^(٢).

[وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحق وللميت وللجماد - أيضا - كما يمدح الطعام والمال ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضا فهو أعم^(٣).

ذكر أقوال السلف في الحمد

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو معمر القطيعي، حدثنا حنص، عن حجاج، عن ابن أبي مزيكة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قال عمر: قد علمنا سبحانه الله، ولا إله إلا الله، فما الحمد لله؟ فقال علي: كلمة رضىها الله لنفسه^(٤).

ورواه غير أبي معمر، عن حفص، فقال: قال عمر لعلي، وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، قد عرفناها، فما الحمد لله؟ قال^(٥) علي: كلمة أحبها [الله] لنفسه، ورضيها لنفسه، وأحب أن يقال^(٦).

وقال علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهزيان، قال: قال ابن عباس: الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد: الحمد لله، قال: شكرني عبيد.

رواه ابن أبي حاتم.

وروى - أيضا - هو وابن جرير، من حديث بشر بن عمارة، عن أبي روف، عن الضحاك، عن ابن عباس: أنه قال: الحمد لله هو الشكر لله والاستخاء له، والإقرار له بنعمه وهدايته وإبتدائه وغير ذلك.

وقال كعب الأحبار: الحمد لله ثناء الله. وقال الضحاك: الحمد لله رداء الرحمن. وقد ورد الحديث بنحو ذلك.

قال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بقية بن الوليد، حدثني عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير، وكانت له صحبة قال: قال النبي ﷺ: «إذا

(١) في ج: «حمداً ومجدته» وفي ط: «حمداً فهو حميد».

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة «حمد».

(٣) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١/١٤٤).

(٥) في ط، ب: «فقال».

(٦) زيادة من ج، ط.

(٧) رواه الأشعري عن حفص، لكنه خالطه فيه، وضعيف الحفاظ هنا يفيد أنه لا مخالفة قال ابن أبي حاتم في تفسيره، (١/١٥): «كذا رواه أبو معمر القطيعي عن حفص، وحدثنا به الأشعري فقال: ثنا حفص - وخالفه فيه - فقال فيه: قال عمر لعلي - رضى الله عنهما، وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، والحمد لله، والله أكبر قد عرفناها، فما سبحانه الله؟ فقال علي: كلمة أحبها لنفسه، ورضيها لنفسه. وأحب أن يقال». وكلام الحفاظ يفيد أنه لا مخالفة، فلمنه اطلع عليه من رواية أخرى أو أنه سقط نظره والله أعلم.

قلت: الحمد لله رب العالمين، فقد شكرت الله، فزادك^(١).

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا روح، حدثنا عوف، عن الحسن، عن الأسود بن سريع، قال: قلت: يا رسول الله، ألا أتشدك محامد حمدت بها ربي، تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إن ربك يحب الحمد»^(٢).

ورواه النسائي، عن علي بن حجر، عن ابن عليه، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن الأسود ابن سريع، به^(٣).

وروى الترمذي، والنسائي وابن ماجه، من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير، عن طلحة بن خراش، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»^(٤).

وقال الترمذي: حسن غريب.

وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ»^(٥). قال القرطبي في تفسيره، وفي نوادر الأصول عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لو أن الدنيا كلها بحذاقيرها في يد رجل من أمتي ثم قال: الحمد لله، لكان الحمد لله أفضل من ذلك»^(٦). قال القرطبي وغيره: أي لكان إلهامه الحمد لله أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا؛ لأن ثواب الحمد لا يفنى وتعيم الدنيا لا يبقى، قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ [الكهف: ٤٦]. وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حدثهم: «أن عبداً من عباد الله قال: يا رب، لك الحمد كما ينبغي

(١) تفسير الطبري (١/١٣٦) وفي إسناده عيسى بن إبراهيم، قال البخاري: منكر الحديث، وشيخه موسى ضعيف أبو حاتم وغيره، والحاكم بن عمير قال فيه أبو حاتم: أروى عن النبي ﷺ لا يذكر السماع ولا لقاء، أحاديث منكرة، من رواية ابن أخيه موسى بن أبي حبيب وهو شيخ ضعيف الحديث، ويروى عن موسى بن أبي حبيب عيسى بن إبراهيم وهو ذاهب الحديث سمعت أبي يقول ذلك. أ.هـ. مستفاداً من حاشية العلامة أحمد شاكر على تفسير الطبري.

(٢) المسند (٣/٤٣٥) وقال الهيثمي في المجموع (١٠/٩٥): أرواه رجال الصحيح وهو منقطع. فالحسن لم يسمع من الأسود، رض الله عنه.

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٧٤٥).

(٤) سنن الترمذي برقم (٣٣٨٠) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٦٦٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٠٠).

(٥) سنن ابن ماجه برقم (٣٨٠٥) من طريق أبي عاصم، عن شبيب بن بشر عن أنس به. وقال البيهقي في الزوائد (٣/١٩٢): هذا إسناده حسن، شبيب بن بشر مختلف فيه.

(٦) قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٢/٢٦٧): «موضوع»، ورواه ابن عساکر (١٥/٢٧٦/٢) عن أبي المفضل - محمد بن عبد الله بن محمد بن همام بن المطلب الشيباني: حدثني محمد بن عبد الحفيظ بن سويد الحويطي الحافظ، نا زريق - نا عمران بن موسى الجندي يابوري - نا زريل بردعة - نا سورة بن زهير العامري - نا أهل البصرة - حدثني هشيب عن الزبير بن عدي عن أنس بن مالك مرفوعاً. وهذا موضوع آفته أبو المفضل هذا، قال الخطيب (٥/٤٦٦، ٤٦٧): «كان يروى غرائب الحديث وسؤالات الشيوخ، فكتب الناس عنه، بانتخاب الدارقطني، ثم بان كذبه، فسرقوا حديثه، وأبطلوا روايته، وكان بعد يضع الأحاديث للرافضة». قال حمزة بن محمد بن طاهر الدقاق: كان يضع الحديث، وكان له سمت ووفار. وقال في الأزهرى: كان أبو المفضل دجالاً كاذباً. ورواه ابن عساکر عنه في ترجمة أبي المفضل هذا. ومن بينه وبين هشيب لم أعرفهم غير زريق، والقاهر أنه ابن محمد الكوفي، روى عن حماد بن زيد، قال الذهبي: «ضعفه الأمير ابن ماکولا».

لجلال وجهك وعظيم سلطانتك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا: يا رب، إن عبدا قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها، قال الله - وهو أعلم بما قال عبده - : ماذا قال عبدي؟ قالوا: يارب إنه قد قال: يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانتك. فقال الله لهما: اكتبها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها^(١). وحكى القرطبي عن طائفة أنهم قالوا: قول العبد: الحمد لله رب العالمين، أفضل من قول: لا إله إلا الله؛ لاشتغال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد، وقال آخرون: لا إله إلا الله أفضل لأنها الفصل بين الإيمان والكفر، وعليها يقاوم الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله كما ثبت في الحديث المتفق عليه وفي الحديث الآخر في السنن: «أفضل ما قلت أنا والنيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»^(٢). وقد تقدم عن جابر مرفوعاً: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». وحسنه الترمذي.

والألف واللام في الحمد لاستفراق جميع أجناس الحمد، وصنوفه لله تعالى كما جاء في الحديث: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله». الحديث^(٣).

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والرب هو: المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى.

[ولا يستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة تقول: رب الدار رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم]^(٤).

والعالمين: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله عز وجل^(٥)، والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات [في السموات والأرض]^(٦) في البر والبحر، وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً.

قال بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: [الفاتحة: ٢] الحمد لله الذي له الخلق كله، السموات والأرضون، ومن فيهن وما بينهن، مما نعلم، وما لا نعلم.

وفي رواية سعيد بن جبيرة، وعكرمة، عن ابن عباس: رب الجن والإنس. وكذلك قال سعيد بن

(١) سنن ابن ماجه برقم (٣٨٠١) من طريق صدقة بن بشير عن قدامة بن إبراهيم. عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال البوصيري في الزوائد (١٩١/٣): «هذا إسناد فيه مقال، قدامة بن إبراهيم ذكره ابن حبان في الثقات، وصدقة بن بشير لم أذكره ولا من وثقه، وباقى رجال الإسناد ثقات».

(٢) رواه الترمذي في السنن برقم (٣٥٨٥) من طريق حماد بن أبي حميد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، وحماد بن أبي حميد هو محمد بن أبي حميد، وهو أبو إبراهيم الأنصاري المدني وليس بالقوي عند أهل الحديث».

(٣) جاء من حديث أبي سعيد، وسعد بن أبي وقاص، رضي الله عنهما، أما حديث أبي سعيد، فرواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٤٤٠٠) من طريق خالد بن يزيد عن ابن أبي ذئب، عن زيد بن أسلم، عن عطاء، عن أبي سعيد الخدري. وأما حديث سعد، فرواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٤٣٩٩) من طريق أبي بلع، عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبي وقاص.

(٤) (٥) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٦) زيادة من ج، ط.

جبير، ومجاهد وابن جريج، وروى عن علي [نحوه]^(١). وقال^(٢) ابن أبي حاتم: بإسناد لا يعتمد عليه.

واستدل القرطبي لهذا القول بقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وهم الجن والإنس. وقال الفراء وأبو عبيدة: العالم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم: عالم، وعن زيد بن أسلم وأبي عمرو بن العلاء^(٣) كل ما له روح يرتزق. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم - وهو آخر خلفاء بني أمية ويعرف بالجمعد ويلقب بالحمار - أنه قال: خلق الله سبعة عشر ألف عالم أهل السموات وأهل الأرض عالم واحد وسائر ذلك لا يعلمه^(٤) إلا الله، عز وجل.

وقال قتادة: رب العالمين، كل صنف عالم.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى^(٥) ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم، هو يشك، من الملائكة على الأرض، وللأرض أربع زوايا، في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم، وخمسمائة عالم، خلقهم [الله]^(٦) لعبادته. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

[وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح]^(٧).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا المفرات، يعني ابن الوليد، عن معتب^(٨) بن سمي، عن ثبيح، يعني الحميري، في قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: العالمين ألف أمة فستمائة في البحر، وأربعمائة في البر.

[وحكى مثله عن سعيد بن المسيب]^(٩).

وقد روى نحو هذا مرفوعاً كما قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المشي في مسنده:

حدثنا محمد بن المشي، حدثنا عبيد بن واقد القيسي، أبو عباد، حدثني محمد بن عيسى بن كيسان، حدثنا محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، قال: قلّ الجراد في سنة من سنن عمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يخبر بشيء، فاغتم لذلك، فأرسل راجلاً يضرب إلى اليمن، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق، يسأل: هل رأى من الجراد شيء أم لا؟ قال: فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد، فألقاها بين يديه، فلما رآها كبير، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(٢) في رواية: أي محييين العالم.

(٢) في ط: ب: أقاله.

(١) زيادة من جاء ط، ب، أ، و.

(٦) زيادة من جاء.

(٥) في ج: «وما عدا».

(٤) في و: «يعلمهم».

(٧) زيادة من جاء، ط.

(٨) كذا وقع في النسخ وأصل تفسير ابن أبي حاتم، ووقع في كتب الرجال «مغيث».

(٩) زيادة من جاء، ط.

دخلق الله ألف أمة، ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلك^(١) تابعت مثل النظام إذا قطع سلكه^(٢).

محمد بن عيسى هذا - وهو الهلالي - ضعيف.

وحكى البغوي عن سعيد بن المسيب أنه قال: لله ألف عالم؛ ستمائة في البحر وأربعمائة في البر. وقال وهب بن منبه: لله ثمانية عشر ألف عالم؛ الدنيا عالم منها. وقال مقاتل: العوالم ثمانون ألفاً. وقال كعب الأحبار: لا يعلم عدد العوالم إلا الله عز وجل. نقله كله البغوي، وحكى القرطبي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: إن لله أربعين ألف عالم؛ الدنيا من شرقها إلى مغربها عالم واحد منها، وقال الزجاج: العالم كل ما خلق في الدنيا والآخرة. قال القرطبي: وهذا هو الصحيح أنه شامل لكل العالمين؛ كقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ موقنين﴾ والعالم مشتق من العلامة (قلت): لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدهيته كما قال ابن المحتر:

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفسى كل شيء له أبسة تدل على أنه واحد

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٣)

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم الكلام عليه في البسطة بما أغنى عن إعادته.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٤)

قرأ بعض القراء: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. وقرأ آخرون: ﴿مَالِكِ﴾^(٣).

وكلاهما صحيح متواتر في السبع.

ويقال: ملك أيضاً، وأشيع نافع كسرة الكاف فقراً: «ملكى يوم الدين»، وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى، وكلاهما صحيحة حسنة، ورجح الزمخشري ملك؛ لأنها قراءة أهل الحرمين ولقوله: ﴿لَمَنَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، وقوله: ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ وحكى عن أبي حنيفة أنه قرأ «ملك يوم الدين» على أنه فعل وفاعل ومفعول، وهذا غريب شاذ جداً^(٤).

وقد روى أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيئاً غريباً حيث قال: حدثنا أبو عبد الرحمن الأذرمي، حدثنا عبد الوهاب عن عدى^(٥) بن الفضل، عن أبي المطرف، عن ابن شهاب: أنه بلغه أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرؤون: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وأول من حدث «ملك» مروان^(٦).

قلت: مروان عنده علم بصحة ما قرأه، لم يطلع عليه ابن شهاب، والله أعلم.

وقد روى من طرق متعددة أوردها ابن مَرْدُويه أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٧) ومالك مأخوذة من الملْك، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مریم: ٤٠] وقال: ﴿قُلْ أَصْحَابُ بَرِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٢] وملك: مأخوذة من الملْك كما قال تعالى: ﴿لَمَنَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقال: ﴿قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ

(١) في ج، ط، ب: «ملكته».

(٢) ورواه ابن عدى في الكامل (٢٤٥/٦)، (٣٥٢/٥) والخطيب في تاريخه (٢١٨/١١) من طريق عبيد بن واقد به نحوه. وقال ابن عدى: «قال عمرو بن علي: محمد بن عيسى بصري صاحب محمد بن المنكدر، ضعيف منكر الحديث، روى عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن عمرو، عن النبي ﷺ في «الجراد». وقال ابن عدى أيضاً: «عبيد بن واقد لا يتابع عليه».

(٣) في ج، ط، ب: «قرأ بعض القراء: «ملك» وقرأ آخرون: «ملك».

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٥) في هـ: «عبد الوهاب بن عدى بن الفضل».

(٦) ورواه أبو بكر بن أبي داود في المصاحف (ص ١٠٥) والحاكم في المستدرک (٢٣٢/٢) من طريق ابن فضال عن الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قرأ: «ملك يوم الدين» زاد ابن أبي حاتم: «أو قال: «ملك». ورواه أبو بكر بن أبي داود في المصاحف (ص ١٠٥) والحاكم في المستدرک (٢٣٢/٢) من طريق ابن جرير عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقرأ: «ملك يوم الدين».

الْحَقُّ لِلرُّحْمَنِ وَكَانَ يُؤْمَأُ عَلَى الْكَافِرِينَ عَجِيراً ﴿٢٦﴾ [الفرقان: ٢٦].

وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعى أحد هناك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرُّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ [التبأ: ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَوُحِّشَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرُّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾ [طه: ١٠٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]. وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿مَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً، كملكهم في الدنيا. قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر.

وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى أن تفسر ﴿مَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ﴾: أنه القادر على إقامته، ثم شرع يضعفه والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم^(١)، وأن كلا من القائلين بهذا وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر، ولا ينكره، ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا، كما قال: ﴿الْمَلِكُ يُؤَمِّدُ الْحَقَّ لِلرُّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦] والقول الثاني يشبه قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، والله أعلم. والملك في الحقيقة هو الله عز وجل؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (أخضع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولا مالك إلا الله)، وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينته ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارين؟ أين المتكبرون؟ وفي القرآن العظيم: ﴿لَعَنَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾، ﴿وَكَانَ زَوَّاءَ هَم مَلِكاً﴾، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾، وفي الصحيحين: (مثل الملوك على الأسرة). والدين: الجزاء والحساب؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يوفيهم الله دينهم الحق﴾، وقال: ﴿إِنَّا لَمُدِينُونَ﴾ أي مجزيون محاسبون، وفي الحديث: «الكي من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» أي حاسب نفسه لنفسه؛ كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥)

[قرأ البعة والجمهور بتشديد الياء من ﴿إِيَّاكَ﴾ وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر وهي قراءة شاذة مردودة؛ لأن «إيا» ضوء الشمس. وقرأ بعضهم: «أياك» بفتح الهمزة وتشديد الياء، وقرأ بعضهم: «هياك» بالهاء بدل الهمزة، كما قال الشاعر:

فهياك والأمر الذي إن تراحبت
موارده ضاقت عليك مصادره

و﴿نَسْتَعِينُ﴾ بفتح النون أول الكلمة في قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والأعمش فإنهما كراهاها وهي لغة بني أسد وربيعة وبني تميم وقيس^(٢).

العبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق مُعْتَبِدٌ، ويعبر مُعْتَبِدٌ، أي: مدلل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف.

وقدم المنعمول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾، وكرر؛ للاهتمام والحرص، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة. والدين يرجع كله^(٣) إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض

(١) في ج، ط: «وإن ما تقدم». (٢) زيادة من ج، ط، أ، و. (٣) في ط: «كله يرجع».

إلى الله، عز وجل. وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاخْبِذْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رُبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وكذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّاكَ نَعْبُدُ وَإِنَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، وهو مناسبة^(١)؛ لأنه لما أثنى على الله فكانه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلماذا قال: ﴿إِنَّاكَ نَعْبُدُ وَإِنَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحمى، وإرشاد لعباده أن يشوا عليه بذلك؛ ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك، وهو قادر عليه، كما جاء في الصحيحين، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(٢). وفي صحيح مسلم، من حديث العلاء بن عبد الرحمن، مولى الحوافة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل، إذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قال: حمدنى عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣] قال: أثنى على عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال الله: مجدنى عبدي، وإذا قال: ﴿إِنَّاكَ نَعْبُدُ وَإِنَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»^(٣).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿إِنَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعنى: إياك نوحى ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك ﴿وَإِنَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها.

وقال قتادة: ﴿إِنَّاكَ نَعْبُدُ وَإِنَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أمركم. وإنما قدم: ﴿إِنَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِنَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم^(٤) ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم.

فإن قيل: فما معنى التوكل في قوله: ﴿إِنَّاكَ نَعْبُدُ وَإِنَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن كانت للجمع فالدهى واحد، وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام؟ وقد أجيب: بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلى فرد منهم، ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه^(٥) المؤمنين بالعبادة التى خلقوا لأجلها^(٦)، وتوسط لهم بخير، ومنهم من قال: يجوز أن تكون للتعظيم، كأن العبد قيل له: إذا كنت فى العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل: ﴿إِنَّاكَ نَعْبُدُ وَإِنَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإذا كنت خارج العبادة فلا تقل: نحن ولا فعلنا، ولو كنت فى مائة ألف أو ألف ألف لافتقار الجميع إلى الله عز وجل. ومنهم من قال: أطف فى التواضع من إياك أعبد، لما فى الثانى من تعظيمه نفسه

(١) فى ج، ط: مناسب. (٢) صحيح البخارى برقم (٧٥٦) وصحيح مسلم برقم (٣٩٤). (٣) صحيح مسلم برقم (٣٩٥).

(٤) فى ج، ط، ب: «والحزم تقديم». (٥) فى أ، و: «إخوانه». (٦) فى و: «من أجلها».

من جعله نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حتى عبادته، ولا يشئ عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم^(١) يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى، كما قال بعضهم:

لا تدعنى إلا بيا عبداً فإنه أشرف أسمائي

وقد سمي الله رسوله بعبده في أشرف مقاماته [فقال]^(٢): ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيَّ عَبْدَهُ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، فعاء عبداً عند إنزاله عليه وقيامه في الدعوة وإسرائه به، وأرشدته إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين له، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

وقد حكي فخر الدين في تفسيره عن بعضهم: أن مقام العبودية أشرف من مقام الرسالة؛ لكون العبادة تصدر^(٣) من الخلق إلى الحق والرسالة من الحق إلى الخلق؛ قال: ولأن الله متولى مصالح عبده، والرسول متولى مصالح أمته^(٤)، وهذا القول خطأ، والتوجيه أيضاً ضعيف لا حاصل له، ولم يتعرض له فخر الدين بتضعيف ولا رده. وقال بعض الصوفية: العبادة إما لتحصيل ثواب ورد عقاب؛ قالوا: وهذا ليس بظائل إذ مقصوده تحصيل مقصوده، وإما للتحريف بتكاليف الله تعالى، وهذا - أيضاً - عندهم ضعيف، بل العالی أن يعبد الله لذاته المقدسة الموصوفة بالكمال، قالوا: ولهذا يقول المصلي: أصلى لله. ولو كان لتحصيل الثواب ودرء^(٥) العذاب لبطلت صلاته. وقد رد ذلك عليهم آخرون وقالوا: كون العبادة لله، عز وجل، لا ينافي أن يطلب معها ثواباً، ولا أن يدفع عذاباً، كما قال ذلك الأعرابي: أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ إنما أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار فقال النبي ﷺ: «حولها دندن»^(٦).

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦)

قراءة الجمهور بالصاد.

وقرئ: «الراط» وقرئ بالزاي، قال الفراء: وهي لغة بني عذرة وبلقين^(٧) وبني كلب. لما تقدم الشاء على المسؤول، تبارك وتعالى، ناسب أن يعقب بالسؤال؛ كما قال: «فانصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل» وهذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مسؤوله، ثم يسأل حاجته [وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿أَهْدِنَا﴾]^(٨)؛ لأنه أنجح للحاجة وأنجح للإجابة، ولهذا أرشد الله تعالى إليه لأنه الأكمل، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول، كقول ذي النون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد يكون بمجرد الشاء

(٣) في أ، و: تصرفه.

(٢) زيادة من و.

(١) في أ: شريف.

(٥) في أ: وردة.

(٤) في و: العبد.

(٦) رواه أحمد في المسند (٤٧٤/٣) وأبو دارد في السنن برقم (٧٩٢) وابن جبان في صحيحه برقم (٥١٤) من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، رضى الله عنه.

(٧) في أ: بلقين.

(٨) زيادة من ج، ط، أ، و.

على المزول، كقول الشاعر:

أذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أتى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

والهداية ههنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا^(١): ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فتضمن معنى ألهمنا، أو وفقنا، أو ارزقنا، أو اعطنا؛ ﴿وَهْدِيَنَا السُّبُلَ﴾ [البلد: ١٠] أى: بينا له الخير والشر، وقد تعدى بيالى، كقوله تعالى: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٢٣] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقد تعدى باللام، كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] أى وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً^(٢).

وأما الصراط المستقيم، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن «الصراط المستقيم» هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه.

وكذلك ذلك فى لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفى:

أمير المؤمنين على صراطٍ إذا اعوج المواردُ مُسْتَقِيمٍ

قال: والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر. قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فى كل قول وعمل، وصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه.

ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف فى تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شىء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول؛ فروى أنه كتاب الله، قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنى يحيى بن يمان، عن حمزة الزيات، عن سعد، وهو أبو^(٣) المختار الطائى، عن ابن أنس الحارث الأعور، عن الحارث الأعور، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصراط المستقيم كتاب الله»^(٤).

وكذلك رواه ابن جرير، من حديث حمزة بن حبيب الزيات، وقد [تقدم فى فضائل القرآن فيما]^(٥) رواه أحمد والترمذى من رواية الحارث الأعور، عن على مرفوعاً: «وهو جبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم»^(٦).

(٢) فى ط - «وجعلنا أهلاً له».

(١) فى ج، ط، ب: «كما همتنا».

(٣) فى أ، و: «ابن».

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٢٠).

(٥) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٦) سنن الترمذى برقم (٢٩٠٦).

وقد روى هذا موقرفا عن علي، وهو أشبه^(١)، والله أعلم.

وقال الثوري، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم. كتاب الله، وقيل: هو الإسلام. وقال الضحاك، عن ابن عباس، قال: قال جبريل لمحمد، عليهما السلام: قل: يا محمد، اهدنا الصراط المستقيم. يقول: اهدنا^(٢) الطريق الهادي، وهو دين الله الذي لا عوج فيه.

وقال ميمون بن مهران، عن ابن عباس، في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: ذاك الإسلام.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قالوا: هو الإسلام.

وقال عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: الإسلام. قال: هو أوسع مما بين السماء والأرض.

وقال ابن الحنفية في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: قال هو دين الله، الذي لا يقبل من العباد غيره.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: اهدنا الصراط المستقيم، قال: هو الإسلام.

وفي [معنى]^(٣) هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، حيث قال: حدثنا الحسن بن سوار أبو العلاء، حدثنا ليث يعني ابن سعد، عن معاوية بن صالح: أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، حدثه، عن أبيه، عن النوايس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلا صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك، لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم».

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير من حديث الليث بن سعد به^(٤).

ورواه الترمذي والنسائي جميعاً، عن علي بن حجر عن بقية، عن بجير^(٥) بن سعد، عن خالد ابن معدان، عن جبير بن نفير، عن النوايس بن سمعان، به^(٦).

(١) رواه موقرفا الطبري في تفسيره (١٧٢/١) وقد سبق الكلام على هذا الحديث في فضائل القرآن.

(٢) في ج، ط، ب، أ، و: اوالهتاء.

(٣) زيادة من ج، ط.

(٤) المسند (١٨٢/٤) وتفسير ابن أبي حاتم (٢١/١) وتفسير الطبري (١٧٦/١).

(٥) في و: ايحيى.

(٦) سنن الترمذي برقم (٢٨٦٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٣٣).

وهو إسناد صحيح، والله أعلم.

وقال مجاهد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: الحق. وهذا أشمل، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم.
وروى ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم؛ حدثنا حمزة بن المغيرة، عن عاصم الأحول، عن أبي العالية: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: هو النبي ﷺ، وصاحبه من بعده، قال عاصم: فذكرنا ذلك للمحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح.
وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإن من اتبع النبي ﷺ، واتدى باللذنين من بعده أبي بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضاً، والله الحمد.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الفضل المقطي، حدثنا إبراهيم بن مهدي الميضي، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله، قال: الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسول الله ﷺ^(١). ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي - أعني: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ - أن يكون معنياً به: وفقنا للثبات على ما ارتضيت ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليهم^(٢) من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، فقد وفق للإسلام، وتصديق الرسل، والتسكك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبي ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم.

فإن قيل: كيف^(٣) يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها، وهو متصف بذلك؟ فهل^(٤) هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟

فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله إلى ذلك؛ فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيتته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمهده بالمعونة والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله؛ فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس في ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم.

وقال تعالى أمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿زَيْنًا لَا تَنْزِعُ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، وقد كان الصديق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً. فمعنى قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره.

(١) المعجم الكبير (٢٤٥/١٠) . (٢) في ط، ب: أعلمه . (٣) في ط، ب: فكيف . (٤) في ج ب: فهل .

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧).

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ إلى آخرها أن الله يقول: «هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». وقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر للصراط المستقيم. وهو يدل منه عند النحاة، ويجوز أن يكون عطف بيان، والله أعلم.

و﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: هم المذكورون في سورة النساء، حيث قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك، من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [النساء: ٦٩].

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: هم النبيون.

وقال ابن جرير، عن ابن عباس: هم المؤمنون. وكذا قال مجاهد. وقال وكيع: هم المسلمون. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبي ﷺ ومن معه.

والتفسير المتقدم، عن ابن عباس أعم، وأشمل، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾: [قرأ الجمهور: «غير» بالجر على النعمت، قال الزمخشري: وقرئ بالنصب على الحال، وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب، ورويت عن ابن كثير، وذو الحال الضمير في ﴿عليهم﴾ والعامل: ﴿أنعمت﴾ والمعنى^(٢): اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسوله، وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم، [وهم]^(٣) الذين فسدت إرادتهم، فعملوا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بلا، ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين، وهما طريقنا اليهود والنصارى.

وقد زعم بعض النحاة أن ﴿غير﴾ مهنا استثنائية، فيكون على هذا منتظماً لاستثنائهم من النعم عليهم وليسوا منهم، وما أوردناه أولى، لقول الشاعر^(٤):

كَأَنَّكَ مِنْ جَمَالِ بَنِي أَقِيْشٍ بِمَقْعَعٍ عِنْدَ رَجُلِيْهِ بَشْرٍ

أي: كأنك جمل من جمال بني أقيش، فحذف الموصوف واكتفى بالصفة^(٥)، وهكذا، ﴿غير﴾

(١) في جـ، ط، ب: انعم.

(٢) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٣) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٤) في جـ: «بين».

(٥) هو النايقة الذيباني. واليـث في تفسير الطبري (١/١٧٩).

(٦) في ط: «واكتفى بالضاف إليه».

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴿٧﴾. أى: غير صراط المغضوب عليهم.

اكتفى بالمضاف إليه عن ذكر المضاف، وقد دل عليه سياق الكلام، وهو قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

ومنهم من زعم أن (لا) فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ ضَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾، زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين، واستشهد بييت المعجاج:

فِي بئرِ حُورٍ سَرَى^(١) وَمَا شَعَرَ^(٢)

أى فى بئر حور. والصحيح ما قدمناه. ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن، عن أبى معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: أنه كان يقرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ﴾. وهذا إسناد صحيح^(٣)، [وكذا حكى عن أبى بن كعب أنه قرأ كذلك]^(٤)، وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير، فبدل على ما قلناه من أنه إنما جرى بها لتأكيد النفى، [لثلاثا يتوهم أنه معطوف على ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾]^(٥)، وللفرق بين الطريقتين، لتجنب كل منهما؛ فإن طريقة أهل الإيمان مشتتة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم. والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب [كما قال فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾]^(٦) [المائدة: ٦٠]، وأخص أوصاف النصارى الضلال [كما قال: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ مَوَازِئِ السَّبِيلِ﴾]^(٧) [المائدة: ٧٧]، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار. [وذلك واضح بين]^(٨).

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، قال: سمعت سيماك بن حرب، يقول: سمعت عبادة بن حيش، يحدث عن عدى بن حاتم، قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ، فأخذوا عمى وناساً، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صُفُّوا له، فقالت: يا رسول الله، ناء الوافد وانقطع الولد، وأنا عجوز كبيرة، ما بى من خدمة، فمَنْ على مَنْ الله عليك. قال: «من وافدك؟» قالت: عدى بن حاتم، قال: «الذى فر من الله ورسوله!» قالت: فمَنْ على، فلما رجع، ورجل إلى جنبه^(٩)، ترى أنه على، قال: سليه حملانا، فسأته، فأمر لها، قال: فأتنتى، فقالت: لقد فعل فعله ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان، أو صبى، وذكر قريبهم من النبى ﷺ، قال: فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر، فقال:

(١) فى ج، ط: «سرى».

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١/ ١٩٠).

(٣) فضائل القرآن (ص ١٦٢).

(٤) ٦ - ٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٧) زيادة من ج، ط.

(٨) فى ج: «فلما رجع ودخل إلى حنته».

(٩) زيادة من ج، ط، أ، و.

«يا عدى، ما أفرك»^(١) أن يقال^(٢): لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ قال: ما أفرك^(٣) أن يقال: الله أكبر، فهل شيء أكبر^(٤) من الله، عز وجل؟ قال: فأسلمت، فرأيت وجهه استبشراً، وقال: «المغضوب»^(٥) عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى^(٦).

وذكر الحديث، ورواه الترمذى، من حديث سماك بن حرب^(٧)، وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

قلت: وقد رواه حماد بن سلمة، عن سماك، عن مَرْيَ بن قَطْرَى، عن عدى بن حاتم، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» قال: «هم اليهود» ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ قال: «النصارى هم الضالون». وهكذا رواه سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن عدى بن حاتم، به^(٨).

وقد روى حديث عدى هذا من طرق، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بُدَيْلِ العُقَيْلِي، أخبرني عبد الله بن شقيق، أنه أخبره من سمع النبي ﷺ، وهو بوادى القرى، وهو على فرسه، وسأله رجل من بنى القين، فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: «المغضوب عليهم - وأشار إلى اليهود - والضالون هم النصارى»^(٩).

وقد رواه الجُرَيْرِي وعروة، وخالد الحذاء، عن عبد الله بن شقيق، فأرسلوه^(١٠)، ولم يذكرها من سمع النبي ﷺ. ووقع في رواية عروة تسمية عبد الله بن عمر، فالله أعلم.

وقد روى ابن مردويه، من حديث إبراهيم بن طهمان، عن بديل بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم، قال: «اليهود»، [قال]^(١١): قلت: الضالين، قال: «النصارى»^(١٢).

وقال السُّدِّي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ»: هم اليهود، ﴿وَالضَّالِّينَ﴾: هم النصارى.

وقال الضحاك، وابن جريج، عن ابن عباس: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ»: اليهود، ﴿وَالضَّالِّينَ﴾:

(٣) في أ: «ما أفرك».

(٢) في ج: «تقول».

(١) في أ: «ما أفرك».

(٤) في ج: «فهل من شيء هو أكبر».

(٥) في ج، ط، ب: «إن المغضوب».

(٦) المسند (٣٧٨/٤)

(٧) سنن الترمذى برقم (٢٩٥٣، ٢٩٥٤) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٢٢٧٩) «موارد» من طريق محمد بن بشار عن غندر به.

(٨) رواه الحميدي في مسنده (٤٠٦/٢) عن سفيان به.

(٩) تفسير عبد الرزاق (٦١/١).

(١٠) رواه الطبري في تفسيره (١٨٦/١، ١٨٧).

(١١) زيادة من ط، ب، أ، و.

(١٢) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٥٩/٨): «أخرجه ابن مردويه بإسناد حسن عن أبي ذر».

[هم] ^(١) النصارى.

وكذلك قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً.

وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون، الحديث المتقدم، وقوله تعالى في خطابه مع بني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِنُوحٍ أَنْ يَتَّخِذَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ نَبِئًا﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال في المائدة ^(٢): ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً جِزَاءَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لَمِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَجِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُكْرَمِ فَعْلُوهُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وفي السيرة ^(٣) ^(٤)، عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قالت له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. فقال: أنا من غضب الله أفر. وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله فقال: لا أستطيعه. فاستمر على فطرته، وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين، ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية؛ لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك، وكان منهم ورقة بن نوفل، حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الرضى، رضى الله عنه.

(مسألة): والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما؛ وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنابا العليا، ولأن كلاً من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يعيز ذلك والله أعلم. وأما حديث: «أنا أفصح من نطق بالضاد» فلا أصل له والله أعلم.

فصل

اشتملت هذه السورة الكريمة، وهي سبع آيات، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ^(٥)، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبده ^(٦) إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتشبيتهم عليه حتى يقضى بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسى يوم القيامة، المفضى بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة؛ ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ

(١) زيادة من جر . (٢) في جز: «وقال تعالى». (٣) في ط: «وفي السنن». (٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٢٤).

(٥) في جر، ط، ب، أ، و: «العلاء». (٦) في جز: «إرشاد عبده»، وفي ط، ب: «إرشاد عبده».

قَرَأَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴿الآية [المجادلة: ١٤]، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به، وإن كان هو الذي أضلهم بقدره، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وقال: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الاعراف: ١٨٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقوله الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه^(١)، ويحتجون على بدعتهم^(٢) بمشابهة من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغى، وقد ورد في الحديث الصحيح: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سعى الله فاحذروهم»^(٣). يعنى في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، فليس - بحمد الله - لمبتدع في القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله، تنزيل من حكيم حميد^(٤).

فصل

يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين [مثل: يس]^(٥)، ويقال: آمين. بالقصر أيضاً [مثل: يمين]^(٦)، ومعناه: اللهم استجب، والدليل على ذلك^(٧) ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، والترمذي، عن وائل بن حجر، قال: سمعت النبي ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال: «آمين»، مد^(٨) بها صوته، ولا يبي داود: رفع بها صوته^(٩)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. وروى عن علي، وابن مسعود وغيرهم.

وعن أبي هريرة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول. رواه أبو داود، وابن ماجه، وزاد: يرتج^(١٠) بها المسجد^(١١)، والدارقطني وقال: هذا إسناد حسن.

وعن بلال أنه قال: يا رسول الله، لا تسبقني بآمين. رواه أبو داود^(١٢).

(١) في ب: «يفعلون ذلك ويختارونه».

(٢) في ج، ط، ب: «على بدعتهم».

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٥٤٧) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) في ج، ط، ب: «خير».

(٥) زيادة من ج، ط.

(٦) في ج، ط: «على استجاب التامين».

(٧) في ج: «مد».

(٨) المسند (٣١٦/٤) وسنن أبي داود برقم (٩٣٢) وسنن الترمذي برقم (٢٤٨).

(٩) في ج، ط، ب: «يرتج».

(١٠) سنن أبي داود برقم (٩٣٤) وسنن ابن ماجه برقم (٨٥٣).

(١١) سنن أبي داود برقم (٩٣٧).

ونقل أبو نصر القشيري^(١) عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شددا الميم من آمين مثل: ﴿آمِينَ
الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ [المائدة: ٢].

قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء
كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً، وفي جميع الأحوال، لما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة، رضى
الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له
ما تقدم من ذنبه» ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم في الصلاة: آمين، والملائكة^(٢)
في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٣).

[قيل: بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، وقيل: في الإجابة، وقيل: في صفة
الإخلاص]^(٤).

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً: «إذا^(٥) قال، يعني الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا:
آمِينَ. يبيحكم الله»^(٦).

وقال جوير، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: قلت: يا رسول الله، ما معنى آمين؟ قال:
«رب افعل»^(٧).

وقال الجوهري: معنى آمين: كذلك فليكن، وقال الترمذي: معناه: لا تخيب رجاءنا، وقال
الأكثرون: معناه: اللهم استجب لنا، وحكى القرطبي عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن كيسان:
أن آمين اسم من أسماء الله تعالى وروى عن ابن عباس مرفوعاً ولا يصح، قاله أبو بكر بن العربي
المالكي^(٨).

وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم، لما رواه مالك عن سمي، عن أبي صالح،
عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «وإذا قال، يعني الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين».
الحديث^(٩). واستأنسوا - أيضاً - بحديث أبي موسى: «وإذا قرأ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين».

وقد قدمنا في المتن عليه: «إذا أمن الإمام فأمنوا» وأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤمن إذا
قرأ^(١٠): ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

(١) في أ: القشيري.

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٨٠) وصحيح مسلم برقم (٤١٠).

(٣) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) في ج، ط: «وإذا».

(٥) صحيح مسلم برقم (٤٠٤).

(٦) ورواه الثعلبي في تفسيره كما في الدر المنثور (٤٥/١) من طريق الكشي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله، وكلا الإسنادين
ضعيفان.

(٧) تفسير القرطبي (١/١٢٨).

(٨) الموطأ (١/٨٧) ورواه البخاري في صحيحه برقم (٧٩٦) ومسلم في صحيحه برقم (٤٠٩) من طريق مالك به.

(٩) في ج: «كانوا يؤمنوا خلفه إذا قرأ».

وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية، وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً، وإن أمن الإمام جهراً فاجتهد أنه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة، ورواية عن مالك؛ لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة. والقديم أنه يجهر به، وهو مذهب أحمد بن حنبل، والرواية الأخرى عن مالك، لما^(١) تقدم: «حتى يرتج المسجد».

ولنا قول آخر ثالث: أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم^(٢)؛ لأنهم يسمعون قراءة الإمام، وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين من في أرجاء المسجد، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود، فقال: «إنهم لن يحدونا^(٣) على شيء كما يحدونا^(٤) على الجمعة التي هدانا الله لها وصلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وصلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين^(٥)»، ورواه ابن ماجه، ولفظه: «ما حدثكم اليهود على شيء ما حدثكم على السلام والتأمين^(٦)»، وله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما حدثكم اليهود على شيء ما حدثكم على قول: آمين، فآثروا من قول: آمين^(٧)» وفي إسناده طلحة بن عمرو، وهو ضعيف.

وروى ابن مردويه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «آمين: خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين^(٨)».

وعن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيتم آمين في الصلاة وعند الدعاء، لم يعط أحد قبلي إلا أن يكون موسى، كان موسى يدعو، وهارون يؤمن، فاختموا الدعاء بآمين، فإن الله يستجيبه لكم^(٩)».

قلت: ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يُرَوُّوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ. قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]، فذكر الدعاء عن موسى وحده، ومن سياق الكلام ما يدل على أن

(١) في ج: «كما». (٢) في ج: «الإمام».

(٣) في ج: «لم يحدونا»، وفي ط، ب، أ، و: «لم يحدونا».

(٤) في أ: «يحدونا».

(٥) المسند (١٣٥/٦).

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٨٥٦) من طريق حماد بن سلمة، عن سهيل، عن أبي صالح، عن أبيه، عن عائشة مرفوعاً، وقال البوصيري في الزوائد (٢٩٧/١): «هذا إسناده صحيح احتج مسلم بجميع رواته».

(٧) سنن ابن ماجه برقم (٨٥٧) من طريق يزيد بن صبيح، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً.

(٨) ورواه ابن عدى في الكامل (٤٤٠/٦) من طريق مؤمل عن أبي أمية بن يعلى عن القبري عن أبي هريرة به. وقال ابن عدى: إلا يرويه عن أبي أمية بن يعلى - وإن كان ضعيفاً - غير مؤمل هذا.

(٩) ورواه الخازن بن أبي اسامة في مسنده برقم (١٦٧) «بقية الباحث» من طريق - مؤمل - خالد - عن أنس بن مالك به، وروى بن عبد الرحمن ضعيف.

هارون أمَّن، فنزل منزلة من دعاء، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، فدل ذلك على أن من أمَّن على دعاء فكأنما قاله؛ فلهذا قال من قال: إن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها؛ ولهذا جاء في الحديث: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»، وكان بلال يقول: لا تبغنى بآمين. فدل هذا المترج على أن المأموم لا قراءة عليه في الجهرية، والله أعلم.

ولهذا قال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا عبد الله بن محمد بن سلام، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا جرير، عن ليث بن أبي سليم، عن كعب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال: آمين، فتوافق^(١) آمين أهل الأرض آمين أهل السماء، غفر الله للعبد ما تقدم من ذنبه. ومثل من لا يقول: آمين، كمثل رجل غزا مع قوم، فاقترعوا، فخرجت سهامهم، ولم يخرج سهمه، فقال: لِمَ لَمْ يخرج سهمي؟ فقبل: إنك لم تقل: آمين»^(٢).

(١) في ج، ط، ب، و، أ: «توافق».

(٢) ورواه أبو يعلى في مسنده (٢٩٦/١١) عن أبي خيثمة عن جرير به، وليث بن أبي سليم ضعيف.

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ] (١)

تفسير سورة البقرة

خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، وستة آلاف ومائة وعشرون كلمة، ومائتان وستة وثمانون آية في عدد الكوفي وعدد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ذكر ما ورد في فضلها

قال الإمام أحمد: حدثنا عارم، حدثنا معتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقل بن يسار؛ أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنّام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] من تحت العرش، فوصلت بها، أو فوصلت بسورة البقرة، ويس: قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله، والدار الآخرة إلا غفر له، وقرؤها على موتاكم». انفرد به أحمد (٢).

وقد رواه أحمد - أيضاً - عن عارم، عن عبد الله بن المبارك، عن سليمان التيمي (٣)، عن أبي عثمان - وليس بالتهدي - عن أبيه، عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤها على موتاكم» يعني: يس (٤).

فقد يئنا بهذا الإسناد معرفة المبهم في الرواية الأولى. وقد أخرج هذا الحديث على هذه الصفة في الرواية الثانية أبو داود، والنسائي، وابن ماجه (٥).

وقد روى الترمذي من حديث حكيم بن جبیر، وفيه ضعف، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكل شيء سنام، وإن سنّام القرآن البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي» (٦).

وفي مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي، من حديث سهيل (٧) بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان» (٨) وقال الترمذي: حسن صحيح.

(١) زيادة من ج، ط.

(٢) المسند (٢٦/٥).

(٣) في ج: التيمي.

(٤) المسند (٢٦/٥) وأبو عثمان لم يوثقه سوى ابن حبان وأبوه لا يعرف، وقد انضح أن الحديث مضطرب، اختلف فيه على سليمان التيمي.

(٥) سنن أبي داود برقم (٣١٢١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٩١٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٤٤٨).

(٦) سنن الترمذي برقم (٢٨٧٨) ورواه الحاكم في المستدرک (٢/٢٥٩) من طريق حكيم بن جبیر به.

(٧) في أ: سهيل.

(٨) المسند (٢٨٤/٢) وصحيح مسلم برقم (٧٨٠) وسنن الترمذي برقم (٢٨٧٧) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠١٥).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثني ابن أبي مريم، عن ابن^(١) لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سنان بن سعد، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يخرج من البيت إذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه»^(٢).

سنان بن سعد، ويقال بالعكس، وثقه ابن معين، واستنكر حديثه أحمد بن حنبل وغيره.

وقال أبو عبيد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، يعني ابن مسعود، قال: إن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع فيه سورة البقرة.

ورواه النسائي في اليوم والليلة، وأخرجه الحاكم في مستدرکه من حديث شعبة^(٣)، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا أبو إسماعيل الترمذي، حدثنا أيوب بن سليمان ابن بلال، حدثني أبو بكر بن أبي أويس، عن سليمان بن بلال، عن محمد بن عجلان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ألفين أحدكم يضع إحدى رجله على الأخرى يتغنى، ويدع سورة البقرة يقرأها؛ فإن الشيطان يفر من البيت تقرأ فيه سورة البقرة، وإن أصفر البيوت الجوف، الصفر من كتاب الله».

وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة، عن محمد بن نصر، عن أيوب بن سليمان، به^(٤).

وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود قال: ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط^(٥). وقال: إن لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن سورة البقرة، وإن لكل شيء لباب، وإن لباب القرآن المفصل^(٦). وروى - أيضا - من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة أربع من أولها وآية الكرسي وآيات بعدها وثلاث آيات من آخرها^(٧)، وفي رواية: لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء يكرهه ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق.

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء سنام، وإن سنام القرآن البقرة، من قرأها في بيته ليلة^(٨) لم يدخله الشيطان^(٩) ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله

(١) في ج: «أبي».

(٢) فضائل القرآن (ص ١٢١).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ١٢١) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٨٠٠) والمستدرک (٢/ ٢٦٠).

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٧٩٩) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٢٩٢) ومجمع البحرين^١ من طريق حلو بن السري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مرفوعاً وخالفهما - أي ابن عجلان وحلو بن السري - شعبة، فرواه عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مرفوعاً، أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن برقم (١٧٦) وشعبة أوثق الناس في أبي إسحاق، ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن برقم (١٦٥) من طريق إبراهيم، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مرفوعاً.

(٥) سنن الدارمي برقم (٣٣٧٥).

(٦) سنن الدارمي برقم (٣٣٧٧).

(٧) سنن الدارمي برقم (٣٣٨٣).

(٨) في ط، ب: «شيطان».

(٩) في أ: «ليلة».

الشيطان^(١) ثلاثة أيام».

رواه أبو القاسم الطبراني، وأبو حاتم، وابن حبان في صحيحه^(٢).

وقد روى الترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر، عن سعيد المقبري، عن عطاء مولى أبي أحمد، عن أبي هريرة، قال: بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم، يعني ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سناً، فقال: «ما معك يا فلان؟» قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، فقال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: نعم. قال: «اذهب فأنت أميرهم»، فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعتني أن أتعلم البقرة^(٣) إلا أنني خشيت ألا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن وأقرؤوه؛ فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفرح ريحه في كل مكان، ومثل من تعلمه، فبرقه وهو في جوفه، كمثل جراب أوكى على مسك^(٤)».

هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن. ثم رواه من حديث الليث، عن سعيد، عن عطاء مولى أبي أحمد مرسلاً، فالله أعلم^(٥).

قال^(٦) البخاري: وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أسيد بن حضير^(٧)، قال: بينما هو يقرأ من الليل^(٨) سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فكت، فسكنت، فقرأ^(٩) فجالت الفرس، فكت، فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها. فأشفق أن تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: «اقرأ يا ابن حضير^(١٠)». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسى وانصرفت إليه، فرفعت رأسى إلى السماء، فإذا مثل الظلّة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «وتدري ما ذلك؟». قال: لا. قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت^(١١) ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم^(١٢)».

وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام، في كتاب فضائل القرآن، عن عبد الله بن صالح، ويحيى بن بكير، عن الليث، به^(١٣).

وقد روى من وجه آخر^(١٤)، عن أسيد بن حضير، كما تقدم^(١٥)، والله أعلم.

(١) في ط، ب: «شيطان».

(٢) المعجم الكبير (١٦٣/٦) وصحيح ابن حبان برقم (١٧٢٧) «موارد».

(٣) في أ: «سورة البقرة».

(٤) سنن الترمذي برقم (٢٨٧٦) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٧٤٩).

(٥) في ج: «فالله تبارك وتعالى أعلم». (٦) في ب: «وقال».

(٧) في ج، ط: «أبي». (٨) في ط: «ثم قرأ».

(٩) في أ: «لا يصح».

(١٠) صحيح البخاري برقم (٥٠١٨).

(١١) فضائل القرآن (ص ٢٦).

(١٢) في ج، ط، ب، أ: «ووجه آخر».

(١٣) سبق تخريجه في فضائل القرآن.

(٧) في ج، ط، ب، أ: «الحضير».

(١٠) في ج، أ: «الحضير».

وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شماس^(١)، رضى الله عنه، وذلك فيما رواه أبو عبيد [القاسم]^(٢): حدثنا عباد بن عباد، عن جرير بن حازم، عن جرير^(٣) بن يزيد: أن أشياخ أهل المدينة حدثوه: أن رسول الله ﷺ، قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس؟ لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح، قال: «فلعله قرأ سورة البقرة». قال: فثابت، فقال: قرأت سورة البقرة^(٤).

وهذا إسناد جيد، إلا أن فيه إبهاما، ثم هو مرسل، والله أعلم.

[ذكر]^(٥) ما ورد في فضلها مع آل عمران

قال^(٦) الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم، حدثنا بشير بن مهاجر^(٧)، حدثني عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: كنت جالسا عند النبي ﷺ فسمعت يقول: «تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة». قال: ثم سكت ساعة، ثم قال: «تعلموا سورة البقرة، وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يُظَلَّان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة. فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والذاه حلتين، لا يقوم لهما^(٨) أهل الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال: اقرأ واصعد في دَرَج الجنة وغرفها. فهو في صعود ما دام يقرأ هكذا كان أو ترتيلا».

وروى ابن ماجه من حديث بشير بن المهاجر^(٩) بعضه^(١٠)، وهذا إسناد حسن^(١١) على شرط مسلم، فإن بشيرا هذا أخرج له مسلم، ووثقه ابن معين، وقال النسائي: ليس به بأس، إلا أن الإمام أحمد قال فيه: هو منكر الحديث، قد اعتبرت أحاديثه فإذا هي تميم بالعجب. وقال البخاري: يخالف في بعض حديثه. وقال أبو حاتم الرازي: يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال ابن عدي: روى ما لا يتابع عليه. وقال الدارقطني: ليس بالقوي.

قلت: ولكن لبعضه شواهد؛ فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلي؛ قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا هشام، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام، عن أبي أمامة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن؛ فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة، اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلها»^(١٢) ثم قال: «اقرأوا البقرة فإن أخذها بركة»^(١٣)، وتركها حسرة، ولا تستطيعها

(١) في ط، ب: «الشماس».

(٢) زيادة من ط.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ٢٧) ونقدم تخريجه في فضائل القرآن أيضا.

(٤) في ط، ب: «عن جرير».

(٥) زيادة من أ، و.

(٦) في ط، ب: «وقال».

(٧) في ط، ب: «المهاجر».

(٨) في أ، و: «عليهما».

(٩) في ج: «المهاجر به».

(١٠) المسند (٣٤٨/٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٨١).

(١١) في ج: «عن أهلها يوم القيامة».

(١٢) في أ: «حسنة».

(١٣) في ج: «جيد».

البطلة^(١).

وقد رواه مسلم في الصلاة من حديث معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام، عن جده أبي سلام مَطْرُورِ الْحَبَشِيِّ، عن أبي أمامة صُدِّيِّ بْنِ عَجْلَانَ [الباهلي]^(٢) به^(٣).

الزهرآوان: المنيران. والقيابة: ما أظلك من فوقك. والفرق: القطعة من الشيء، والصواف: المصطفة المتضامة^(٤). والبطلة السحرة، ومعنى «لا تستطيعها» أي: لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ في قارتها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث النَّوَّاسِ^(٥) بن سَمْعَانَ. قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن مهاجر، عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشِيِّ، عن جَبْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، قال: سمعت النّوَّاسَ بن سمعان الكلابي، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران». وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما فرقان من طير صَوَافٍ^(٦) يُحَاجَّانِ عن صاحبهما^(٧)».

ورواه مسلم، عن إسحاق بن منصور، عن يزيد بن عبد ربه، به^(٨).

والترمذي، من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشِيِّ، به^(٩). وقال: حسن غريب.

وقال أبو عبيد: حدثنا حجاج، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، قال: قال حماد: أحبه عن أبي منيب، عن عمه؛ أن رجلاً قرأ البقرة وآل عمران، فلما قضى صلاته قال له كعب: أقرأت البقرة وآل عمران؟ قال: نعم. قال: فوالذي نفسي بيده، إن فيهما اسم الله الذي إذا دعى به استجاب^(١٠). قال: فأخبرني به. قال: لا، والله لا أخبرك به، ولو أخبرتك لأوشكت أن تدعوه بدعوة أهلك فيها أنا وأنت^(١١).

[قال أبو عبيد]^(١٢): وحدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن سليم بن عامر: أنه سمع أبا أمامة يقول: إن أخاً لكم^(١٣) أرى في المنام أن الناس يسلكون في صدع جبل وعمر طويل، وعلى رأس الجبل شجرتان خضراوان تهتفان: هل فيكم من يقرأ سورة البقرة؟ وهل فيكم من يقرأ سورة آل عمران؟ قال: فإذا قال الرجل: نعم. دنا منه بأعذاقهما، حتى يتعلق بهما فنخطران به

(١) المسند (٢٤٩/٥).

(٢) زيادة من ج، ب، أ، و.

(٣) صحيح مسلم برقم (٤-٨).

(٤) في ج: «المتضامة».

(٥) في أ: اصحاب لهما.

(٦) المسند (١٨٣/٤) وصحيح مسلم برقم (٨٠٥).

(٧) سنن الترمذي برقم (٢٨٨٣).

(٨) في ط: «أجاب».

(٩) زيادة من ب.

(١٠) فضائل القرآن (ص ١٢٦).

(١١) في ج: «أعالم».

الجبل^(١).

[قال أبو عبيد]^(٢): وحدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن أبي عمران: أنه سمع أم الدرداء تقول: إن رجلاً من قرأ القرآن أغار على جاره، فقتله، وإنه أقيده به^(٣)، فقتل، فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة، حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة، ثم إن آل عمران انسلت منه، وأقامت البقرة جمعة، فقيل لها: ﴿مَا يبدُلُ الْقَوْلُ لَدِي وَمَا أَنَا بِظِلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] قال: فخرجت كأنها السحابة العظيمة^(٤).

قال أبو عبيد: أراه، يعني: أنهما كانتا معه في قبره تدفعان عنه وتؤنسانه، فكانتا من آخر ما بقي معه من القرآن.

وقال - أيضاً -: حدثنا أبو مسهر الغساني، عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي: أن يزيد بن الأسود الجُرَشِي كان يحدث^(٥): أنه من قرأ البقرة وآل عمران في يوم، برئ من النفاق حتى يمسي، ومن قرأهما في ليلة برئ من النفاق حتى يصبح، قال: فكان يقرؤهما كل يوم وليلة سوى جزئه^(٦).

[قال أيضاً]^(٧): وحدثنا يزيد، عن وقاء^(٨) بن إياس، عن سعيد بن جبيرة، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من قرأ البقرة وآل عمران في ليلة كان - أو كتب - من القانتين^(٩).

فيه انقطاع، ولكن ثبت في الصحيحين^(١٠): أن رسول الله ﷺ قرأ بهما^(١١) في ركعة واحدة^(١٢).

[ذكر]^(١٣) ما ورد في فضل السبع الطول

قال أبو عبيد: حدثنا هشام بن إسماعيل الدمشقي، عن محمد بن شعيب، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي المليح، عن وائلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ، قال: «أعطيت السبع الطوال مكان التوراة، وأعطيت المثين مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني^(١٤) مكان الزبور، وفضلت بالمفصل^(١٥)».

هذا حديث غريب، وسعيد بن بشير، فيه لين.

وقد رواه أبو عبيد [أيضاً]^(١٦)، عن عبد الله بن صالح، عن الليث، عن سعيد بن أبي هلال، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: . . . فذكره، والله أعلم. ثم قال^(١٧): حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو^(١٨) بن أبي عمرو، مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن حبيب بن هند الأسلمي،

(١) فضائل القرآن (ص ١٢٦).

(٢) فضائل القرآن (ص ١٢٦، ١٢٧).

(٣) فضائل القرآن (ص ١٢٧).

(٤) زيادة من ب، و.

(٥) فضائل القرآن (ص ١٢٧).

(٦) في ج، ط، ب، أ، و: «الصحيح».

(٧) في ج، ط، ب، و: «قرأ بهن»، وفي أ: «قرآن».

(٨) الحديث وقع لي في سنن النسائي (١٧٧/٢) من حديث حذيفة، رضي الله عنه.

(٩) في أ: «وأعطيت السبع المثاني».

(١٠) فضائل القرآن (ص ١٢٠) ورواه الطبري في تفسيره (١ - / ١٠٠) من طريق رواد بن الجراح عن سعيد بن بشير به، ورواه الطبري

في تفسيره (١ - / ١٠٠) من طريق الطيالسي عن عمران - أبي العوام - عن قتادة به، ورواه الطبري في تفسيره (١ - / ١٠٠) من طريق

ليث بن أبي سليم عن أبي بردة عن أبي المليح به نحوه.

(١١) زيادة من ب.

(١٢) في ب: «قال أيضاً».

(١٣) في ج: «عمرو».

عن عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «من أخذ السبع فهو حير»^(١).

وهذا أيضاً غريب، وحبيب بن هند بن أسماء بن هند بن حارثة الأصلمس، روى عنه عمرو بن أبي عمرو وعبد الله بن أبي بكر، وذكره أبو حاتم الرازي ولم يذكر فيه جرحاً، فإله أعلم.

وقد رواه الإمام أحمد، عن سليمان بن داود، وحسين، كلاهما عن إسماعيل بن جعفر، به^(٢).

ورواه - أيضاً - عن أبي سعيد، عن سليمان بن بلال، عن حبيب بن هند، عن عروة، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حير»^(٣).

قال أحمد: وحدثنا حسين، حدثنا ابن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ مثله^(٤).

قال عبد الله بن أحمد: وهذا أرى فيه، عن أبيه، عن الأعرج، ولكن كذا كان في الكتاب بلا «أبي»^(٥)، أغفله أبي، أو كذا هو مرسل، ثم قال أبو عبيد: حدثنا هشيم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد ابن جبير، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، قال: هي السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. قال: وقال مجاهد: هي السبع الطول. وهكذا قال مكحول، وعطية بن قيس، وأبو محمد الفارسي^(٦). وشَدَاد بن عبيد الله، ويحيى ابن الحارث الهمداني في تفسير الآية بذلك، وفي تعدادها، وأن يونس هي السابعة.

فصل

والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف، قال بعض العلماء: وهي مشتملة على ألف خبير، وألف أمر، وألف نهى.

وقال العادون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائة وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها خمسة^(٧) وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، فإله أعلم.

قال ابن جرير، عن عطاء، عن ابن عباس: نزلت بالمدينة سورة البقرة.

وقال خَصِيف، عن مجاهد، عن عبد الله بن الزبير، قال: أنزل بالمدينة سورة البقرة.

وقال الواقدي: حدثني الضحاك بن عثمان، عن أبي الزناد، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه، قال: نزلت البقرة بالمدينة.

وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء، والمفسرين، ولا خلاف فيه.

(١) فضائل القرآن (ص ١٢٠).

(٢) المسند (٧٣/٦).

(٣) المسند (٨٢/٦).

(٤) المسند (٧٣/٦).

(٥) في ج، ط، ب، أ، و: «فلا أدري».

(٦) في ج، ط، ب، أ: «القاري».

(٧) في ج: «عشر».

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا الحسن بن علي بن الوليد [الفارسي] ^(١)، حدثنا خلف بن هشام؛ حدثنا عيسى ^(٢) بن ميعون، عن موسى بن أنس بن مالك، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا: سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا: السورة التي يذكر فيها البقرة، والتي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله» ^(٣).

هذا حديث غريب لا يصح رفعه، وعيسى بن ميعون هذا هو أبو سلمة الخواص، وهو ضعيف الرواية، لا يحتج به. وقد ثبت في الصحيحين ^(٤)، عن ابن مسعود: أنه رمى الجمرة من بطن الوادي، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ثم قال ^(٥): هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. أخرجاه ^(٦).

وروى ابن مَرْدُويه، من حديث شعبة، عن عقيل بن طلحة، عن عتبة بن فرقد ^(٧)، قال: رأى النبي ﷺ في أصحابه تأخراً ^(٨)، فقال: «يا أصحاب سورة البقرة» ^(٩). وأظن هذا كان يوم حنين، حين ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم: «يا أصحاب الشجرة»، يعني أهل بيعة الرضوان. وفي رواية: «يا أصحاب البقرة» ^(١٠)؛ ولينشطهم بذلك، فجعلوا يقولون من كل وجه ^(١١). وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرون لكثافة حَشْر ^(١٢) بنى حنيفة، فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم ^(١٣). رضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . السَّمِ ١ ﴾

قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور، فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه، فردوا علمها إلى الله، ولم يفسروها [حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضى الله عنهم به، وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري والربيع بن خثيم، واختاره

(١) زيادة من جء ط، ب، ا، و . (٢) في هـ: عيسى .

(٣) ورواه الطبراني في الأوسط برقم (٣٤٥٠) مجمع البحرين والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٥٨٢) من طريق عيسى بن ميعون، عن موسى بن أنس به، وقال البيهقي: «عيسى بن ميعون منكر الحديث، وهذا لا يصح، وإنما روى عن ابن عمر من قوله».

(٤) في جء ط، ب، ا، و: الصحيح . (٥) في و: يقول .

(٦) صحيح البخارى برقم (١٧٤٧) وصحيح مسلم برقم (١٢٩٦).

(٧) في هـ: فرود، وهو خطأ. (٨) في جء: تأخراً في أصحابه .

(٩) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٣٣/١٧) من طريق علي بن قتيبة عن شعبة عن عقيل بن أبي طلحة به، وجاء من حديث أنس، رواه أبو يعلى في مسنده (٢٨٩/٦) من طريق عمرو بن عاصم عن أبي العوام عن معمر عن الزهري عن أنس رضى الله عنه.

(١٠) في ب: سورة البقرة .

(١١) جاء من حديث العباس، رواه مسلم في صحيحه برقم (١٧٧٥) من طريق الزهري، عن كثير بن عباس عن أبيه العباس رضى الله عنه.

(١٢) في جء ط، ب، و: احبش .

(١٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥٠٢/١٢) من طريق هشام بن عروة، عن أبيه قال: «كان شعار أصحاب النبي ﷺ يوم مسيلمة: يا أصحاب سورة البقرة» .

أبو حاتم بن حبان^(١) [٢].

ومنهم من فسرها، واختلف هؤلاء في معناها، فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هي أسماء السور [قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره: وعليه إطباق الأكثر، ونقله عن سيويه أنه نص عليه]^(٣)، ويعتضد هذا بما ورد في الصحيحين، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: الم السجدة، وهل أتى على الإنسان^(٤).

وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: أنه قال: ألم، وحَم، والمص، وصر، فواتح افتتح الله بها القرآن.

وكذا قال غيره، عن مجاهد. وقال مجاهد في رواية أبي حذيفة موسى بن مسعود، عن شبل، عن ابن أبي نجيح. عنه، أنه قال: الم، اسم من أسماء القرآن.

وهكذا قال قتادة، وزيد بن أسلم. ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد: أنه اسم من أسماء السور^(٥)، فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن، فإنه يبعد أن يكون «المص» اسماً للقرآن كله؛ لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت «المص»، إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف، لا لمجموع القرآن. والله أعلم.

وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى. فقال الشعبي: فواتح السور من أسماء الله تعالى، وكذلك قال سالم بن عبد الله، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، وقال شعبة عن السدي: بلغني أن ابن عباس قال: الم اسم من أسماء الله الأعظم، هكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث شعبة.

ورواه ابن جرير عن بُدَّار، عن ابن مهدي، عن شعبة، قال: سألت السدي عن حم وطم والم، فقال: قال ابن عباس: هي اسم الله الأعظم.

وقال ابن جرير: وحدَّثنا محمد بن المنسي، حدَّثنا أبو النعمان، حدَّثنا شعبة، عن إسماعيل السدي، عن مرة الهمداني، قال: قال عبدالله: فذكر نحوه [وحكى مثله عن علي وابن عباس]^(٦).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله تعالى.

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث ابن عُلَيَّة، عن خالد الخذاء، عن عكرمة أنه قال: الم، قسم.

وروي^(٧) - أيضاً - من حديث شريك بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس: الم، قال: أنا الله أعلم.

وكذا قال سعيد بن جبيرة. وقال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن

(١) تفسير القرطبي (١/١٥٤).

(٢) زيادة من ج، هـ، أ، و.

(٣) صحيح البخاري برقم (٨٩١) وصحيح مسلم برقم (٨٨٠).

(٤) في ط، ب، أ، و: السورة. (٥) زيادة من ج، ط، س، أ، و.

(٦) في ج: وروى.

مرة الهمداني عن ابن مسعود. وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: الم. قال: أما الم فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى.

وقال أبو جعفر الرأزي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿الم﴾، قال: هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفاً دارت فيها الألسن كلها، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو من آياته وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وآجالهم. قال عيسى ابن مريم، عليه السلام، وعجب، فقال: وأعجب أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون في رزقه، فكيف يكفرون به؟ فالألف مفتاح اسم الله، واللام مفتاح اسمه لطيف^(١)، والميم مفتاح اسمه مجيد^(٢)، فالألف آلاء الله، واللام لطف الله، والميم مجد الله، والألف^(٣) سنة، واللام ثلاثون سنة، والميم أربعون سنة^(٤). هذا لفظ ابن أبي حاتم. ونحوه رواه ابن جرير، ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الأقوال ويوفق بينها، وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر، وأن الجمع ممكن؛ فهي أسماء السور، ومن أسماء الله تعالى يفتح بها السور، فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، كما افتتح سوراً كثيرة بتحميده وتسيبته وتعظيمه، قال: ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله، وعلى صفة من صفاته، وعلى مدة وغير ذلك، كما ذكره الربيع بن أنس عن أبي العالية؛ لأن الكلمة الواحدة تطلق على معان كثيرة، كلفظة الأمة فإنها تطلق ويراد به الدين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣]. وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله، كقوله: ﴿إِن إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وتطلق ويراد بها الجماعة، كقوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] وتطلق ويراد بها الحين من الدهر، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: بعد حين على أصح القولين، قال: فكذلك هذا.

هذا حاصل كلامه مرجهاً، ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية، فإن أبا العالية زعم أن الحرف دل على هذا، وعلى هذا، وعلى هذا معاً، ولنظرة الأمة وما أشبهها^(٥) من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح، إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام، فأما حمله على مجموع محامله إذا أمكن فصالة مختلف فيها بين علماء الأصول، ليس هذا^(٦) موضع البحث فيها، والله أعلم؛ ثم إن لفظ الأمة يدل على كل^(٧) معانيه في سياق الكلام بدلالة الوضع، فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره، فهذا مما لا يفهم إلا بتوقيف، والمسألة مختلف فيها، وليس فيها إجماع حتى يحكم به.

(١) في ج: «اسمه اللطيف»، وفي أ: «اسم لطيف».

(٢) في ج: «المجيد».

(٣) في ج، ط، ب، أ: «الألف».

(٤) زيادة من ج، ط، ب.

(٥) في أ: «أما».

(٦) في ج، ط، ب، أ: «وما أشبهها».

(٧) في ط، ب: «كل من».

وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة، فإن في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا، كما قال الشاعر:

قلنا قفى لنا فقالت قاف لا تحسبى أنا نسينا الإيجاف^(١)

تعنى: وقتت. وقال الآخر:

ما للظلم عال كيف لا يا يتقدُّ عنه جلده إذا يا^(٢)

قال ابن جرير: كأنه أراد أن يقول: إذا يفعل كذا وكذا، فاكتفى بالياء من يفعل، وقال الآخر:

بالخير خيرات وإن شراً فـ ولا أريد الشر إلا أن تا^(٣)

يقول: وإن شراً فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء، فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما، ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام، والله أعلم.

[قال القرطبي: وفي الحديث: «من أعان على قتل مسلم بشر كلمة»^(٤) الحديث. قال شقيق: هو أن يقول في اقتل: إق]^(٥).

وقال خصيف، عن مجاهد؛ أنه قال: فواتح السور كلها «ق و ص و ح م و ط م و الـ» وغير ذلك هجاء موضوع. وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها، التي هي ثمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما يقول القائل: ابني يكتب في: ا ب ت ث، أى: في حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها. حكاه ابن جرير.

قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهي: ال م ص ر ك ي ع ط م ح ق ن، بجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من الثروك، وبيان ذلك من صناعة التصريف.

[قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس الحروف يعنى من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطقة والمفتوحة، ومن المتعلية والمنخفضة ومن حروف القلقة. وقد سردتها مفصلة ثم قال: فسبحان الذى دقت في كل شيء حكمته، وهذه الأجناس المعدودة ثلاثون بالمذكورة منها، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله]^(٦).

(١) البيت في تفسير الطبري (١/٢١٢).

(٢) البيت في تفسير الطبري (١/٢١٣).

(٣) البيت في تفسير الطبري (١/٢١٣) وينسب إلى القيم بن أوس كما ذكره شلحق الفاضل.

(٤) تفسير القرطبي (١/١٥٦) والحديث رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٦٢٠) من طريق يزيد بن أبى زياد، عن الزهري، عن سعيد، عن أبى هريرة رضى الله عنه به مرفوعاً، وقال البوصيري في الزوائد (٢/٣٣٤): «هذا إسناد ضعيف، يزيد بن أبى زياد الدمشقي قال فيه البخاري وأبو حاتم: منكر الحديث».

تنبيه: وقع في بعض النسخ الساعدة: قال سفيان، بدل شقيق، والذي في تفسير القرطبي موافق لما هنا، وقد روى هذا القول عن سفيان الأصبهاني في الترغيب والترهيب برقم (٢٣٢٩).

(٥) زيادة من جـ، طـ، أـ، وـ. (٦) زيادة من جـ، طـ، بـ، أـ، وـ.

ومن هنا لحظ^(١) بعضهم في هذا المقام كلاماً، فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدى؛ ومن قال من الجهلة: إنه في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية، فقد أخطأ خطأ كبيراً، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين، وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين. هذا مقام .

المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور، ما^(٢) هي؟ مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها. فقال بعضهم: إنما ذكرت لتعرف بها أوائل السور. حكاه ابن جرير، وهذا ضعيف؛ لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه، وفيما ذكرت فيه بالبسملة تلاوة وكتابة.

وقال آخرون: بل ابتدئ بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين - إذ^(٣) تواصلوا بالإعراض عن القرآن - حتى إذا استمعوا له تلى عليهم المؤلف منه. حكاه ابن جرير - أيضاً - ، وهو ضعيف أيضاً؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا^(٤) يكون في بعضها، بل غالبها ليس كذلك، ولو كان كذلك - أيضاً - لانبغى^(٥) الابتداء بها في أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك. ثم إن هذه السورة والتي تليها أعنى البقرة وآل عمران مديتان لينا خطاباً للمشركين، فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه.

وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه [تركب]^(٦) من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها.

ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿الْقَم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢]. ﴿الْم. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ١ - ٣]. ﴿الْمَص. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ [الاعراف: ١، ٢]. ﴿الر. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]. ﴿الْم. نَزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]. ﴿حَم. نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢]. ﴿حَم. عَسَىٰ كَذَلِكَ يَرْجِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١ - ٣]، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن^(٧) النظر، والله أعلم.

(٣) في ط: وإذ.

(٢) في ط: وما.

(١) في ب، و: المخلص، وفي ج، ط: المخلص.

(٦) زيادة من ج، ط، ب.

(٥) في ج، ط: ولا ينبغي.

(٤) في ب: فولأ.

(٧) في ط: فأنعم.

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته. وهو ما رواه محمد بن إسحاق بن يسار، صاحب المغازي، حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رثاب، قال: مر أبو ياسر^(١) بن أخطب، في رجال من يهود، يرسلون الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة سورة البقرة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٢) [البقرة: ١، ٢] فأتى أخاه حنيفة بن أخطب في رجال من اليهود، فقال: تعلمون - والله - لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله عليه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فقال: أنت سمعته؟ قال: نعم. قال: فمشى حنيفة بن أخطب في أولئك النفر من اليهود^(٣) إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٤)؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى». فقالوا: جاءك^(٥) بهذا جبريل من عند الله؟ فقال: «نعم». قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه^(٦) بين نبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك. فقام^(٧) حنيفة بن أخطب، وأقبل على من كان معه، فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفندخلون في دين نبي، إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟ فقال: «نعم»، قال: ما ذاك؟ قال: «المصر»، قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد سبعون^(٨)، فهذه إحدى وثلاثون^(٩) ومائة سنة. هل مع هذا يا محمد غيره^(١٠)؟ قال: «نعم». قال: ما ذاك^(١١)؟ قال: «الر». قال: هذا^(١٢) أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان. فهذه إحدى وثلاثون ومائتان سنة. فهل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: «نعم»، قال: ماذا؟ قال: «الر». قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتان، ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندرى أقليلاً أعطيت أم كثيراً. ثم قال: قوموا عنه. ثم قال أبو ياسر^(١٣) لأخيه حنيفة بن أخطب، ولمن معه من الأحرار: ما يدريكم؟ لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وثلاثون^(١٤) ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع سنين^(١٥). فقالوا: لقد تشابه علينا أمره، فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]^(١٦).

- (١) في ج: «أبو ياسر».
- (٢) زيادة من ج.
- (٣) زيادة من ب.
- (٤) في ج: «أما ذلك».
- (٥) في ج: «سبعون»، وفي ط، ب، أ، و: «ستون».
- (٦) في ج: «إحدى وستون».
- (٧) في ج: «أ»، و: «هل مع هذا غيره يا محمد».
- (٨) في ج: «ط، ب: «هذه».
- (٩) في ج: «أربع وثلاثين سنة».
- (١٠) في ج: «أبو ياسر».
- (١١) في ج: «ط، ب، و: «أما ذلك».
- (١٢) في ج: «إحدى وستون».

(١٦) ورواه البخاري في التاريخ الكبير (٢٠٨/٢) والطبري في تفسيره (٢١٧/١) من طريق ابن إسحاق، وأطب العلامة أحمد شاكر في الكلام عليه في حاشية تفسير الطبري.

فهذا مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتاج بما انفرد به، ثم كان مقتضى هذا الملك إن كان صحيحاً أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها، وذلك يبلغ منه جملة كثيرة، وإن حسبت مع التكرور فأنتم وأعظم^(١)، والله أعلم.

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢)

قال ابن جرير: قال ابن عباس: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾: هذا الكتاب. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والسدي ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم، وابن جرير: أن ذلك بمعنى هذا، والعرب تقارض بين هذين الاسمين من أسماء الإشارة فيستعملون كلا منهما مكان الآخر، وهذا معروف في كلامهم.

و ﴿ الْكِتَابُ ﴾: القرآن. ومن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل، كما حكاه ابن جرير وغيره، فقد أبعد النَّجْعَةَ وَأَغْرَقَ^(٢) في النزاع، وتكلف ما لا علم له به.

والرَّيْبُ: الشك، قال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس^(٣) من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾: لا شك فيه.

وقاله أبو الدرداء وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبيرة وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدي وقناة وإسماعيل بن أبي خالد. وقال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذا خلافاً.

[وقد يستعمل الريب في التهمة قال جميل:

بئينة قالت يا جميل أربتي

فقلت كلانا يا بشين مريب

وامستعمل - أيضاً - في الحاجة كما قال بعضهم^(٤):

قضينا من تهامة كل ريب

وخير ثم أجمنا السيوفاً^(٥)

ومعنى الكلام: أن هذا الكتاب - وهو القرآن - لا شك فيه أنه نزل^(٦) من عند الله، كما قال تعالى في السجدة: ﴿ أَلَمْ نَنْزِلِ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة ١، ٢]. [وقال بعضهم: هذا خبر ومعناه النهي، أي: لا ترتابوا فيه]^(٧).

ومن القراء من يقف على قوله: ﴿ لَا رَيْبَ ﴾. ويبتدئ بقوله: ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ والوقف على قوله تعالى: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أولى للآية التي ذكرنا، ولأنه يصير قوله: ﴿ هُدًى ﴾ صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كون: ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾.

و ﴿ هُدًى ﴾: يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعاً على التعت، ومنصوباً على الحال.

(١) في و: «أظم وأعظم»، وفي أ: «أعظم وأعظم».
(٢) هو كعب بن مالك، والبيت في اللسان، مادة ريب.
(٣) في ج: ط، ب: «منزل».
(٤) في ج: ط، ب: «منزل».
(٥) زيادة من ج: ط، أ، و.
(٦) في ج: ط، ب: «منزل».
(٧) زيادة من ج: ط.

وخصت الهداية للمتقين. كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقد قال السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: نوراً^(١) للمتقين.

وقال الشعبي: هدى من الضلالة. وقال سعيد بن جبير: تبيان للمتقين. وكل ذلك صحيح.

وقال السدي: عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: هم المؤمنون^(٢).

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به.

وقال أبو روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: المؤمنون الذين يتقون^(٣) الشرك بين، ويعملون بطاعتي.

وقال سفيان الثوري، عن رجل، عن الحسن البصري، قوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: اتقوا ما حرم الله عليهم، وأدوا ما افترض عليهم.

وقال أبو بكر بن عياش: سألت الأعمش عن المتقين، قال: فأجبتني، فقال [لي]^(٤): سل عنها الكلبي، فسألته فقال: الذين يجتنبون كبائر الإثم. قال: فرجعت إلى الأعمش، فقال: نرى أنه كذلك. ولم يتكره.

وقال قتادة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: هم الذين نعتهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ الآية والتي بعدها [البقرة: ٣، ٤].

واختار ابن جرير: أن الآية تعم ذلك كله، وهو كما قال.

وقد روى الترمذي وابن ماجه، من رواية أبي عقيل عبد الله بن عقيل، عن عبد الله بن يزيد، عن ربيعة بن يزيد، وعطية بن قيس، عن عطية السعدي، قال: قال رسول الله ﷺ: * لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس^(٥). ثم قال الترمذي: حسن غريب^(٦).

(١) في ج: ب: «نور».

(٢) في ج: «يتعدون».

(٣) زيادة من ج: ط، ب.

(٤) في ب: «الباي».

(٥) سنن الترمذي برقم (٢٤٥١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢١٥).

(٦) في ج: «ب».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن عمران، حدثنا إسحاق بن سليمان، يعني الرازي، عن المغيرة بن مسلم، عن ميمون أبي حمزة، قال: كنت جالساً عند أبي وائل، فدخل علينا رجل، يقال له: أبو عفيف، من أصحاب معاذ، فقال له شقيق بن سلمة: يا أبا عفيف، ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل؟ قال: بلى سمعته يقول: يحبس الناس يوم القيامة في بقيع واحد، فينادى مناد: أين المتقون؟ فيقومون في كنف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستر. قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة، فيمرون إلى الجنة^(١).

وأصل التقوى: التوقى مما يكره لأن أصلها وقوى من الوقاية. قال النابغة:

سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وقال الآخر:

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كف ومعصم

وقد قيل: إن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، سأل أبي بن كعب عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوكة؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى. وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خل الذنوب صغيرها	وكبيرها ذاك التقى
وأنصع كماش فوق أر	ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة	إن الجبال من أخصى

وأنشد أبو الدرداء يوماً:

يريد المرء أن يؤتى مثاه	ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتى ومالى	وتقوى الله أفضل ما استفادا

وفى سنن ابن ماجه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيراً من زوجة سالحة، إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله»^(٢).

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (٣)

قال أبو جعفر الرازي، عن العلاء بن المسيب بن رافع، عن أبي إسحاق، عن أبي الأنحوص، عن عبد الله، قال: الإيمان التصديق.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٣٣/١) وفي إسناده ميمون القصاب ضعيف.

(٢) سنن ابن ماجه برقم (١٨٥٧) من طريق عثمان بن أبي العاتكة عن علي بن زيد عن القاسم. عن أبي أمامة رضى الله عنه، وقال البوصيري في الزوائد (٧٠/٢): «هذا إسناد فيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، وعثمان بن أبي العاتكة مختلف فيه».

وقال على بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عباس، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدقون.

وقال معمر عن الزهري: الإيمان العمل.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يخشون.

قال ابن جرير وغيره: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً، قال: وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان، الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل. قلت: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن، والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الاعمال؛ كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الإنشقاق: ٢٥]، والتين: [٦]، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الائمة، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وقد ورد فيه آثار كثيرة واحاديث أوردها^(١) الكلام فيها في أول شرح البخاري، والله الحمد والمنة.

ومنهم من فسره بالخشية، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢]، وقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، والخشية خلاصة الإيمان والعلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد.

قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وحيته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كله.

وكذا قال قتادة بن دعامة.

وقال السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي^(٢) ﷺ: أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة، وأمر النار، وما ذكر في القرآن.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ قال: بما جاء منه، يعني: من الله تعالى.

وقال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زيدا، قال: الغيب القرآن.

(١) في ج، ط: أو فردنا. (٢) في ج، ط: فوسون الله.

وقال عطاء بن أبي رباح: من آمن بالله فقد آمن بالغيب.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: بغيب الإسلام.

وقال زيد بن أسلم: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: بالقدر. فكل هذه متقاربة في معنى واحد؛ لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن عبد الرحمن بن يزيد^(١)، قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فذكرنا أصحاب رسول الله ﷺ وما سبقوا به، قال: فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بينا لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ كَرَّمُوا هَيْبَتَهُمْ وَإِذَا ذُكِرُوا بِهِ سَكَتُوا﴾ [البقرة: ١٧٥-١٧٦]^(٢).

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم في مستدركه، من طرق، عن الأعمش، به^(٣).

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وفي معنى هذا الحديث الذي رواه [الإمام]^(٤) أحمد، حدثنا أبو المغيرة، أخبرنا الأوزاعي، حدثني أسيد^(٥) بن عبد الرحمن، عن خالد بن دريك، عن ابن محب، قال: قلت لأبي جمعة: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم، أحدثك حديثاً جيداً: تغدينا^(٦) مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فقال: يا رسول الله، هل أحد^(٧) خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: «نعم»، قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني^(٨).

طريق أخرى: قال أبو بكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن صالح بن جبيرة، قال: قدم علينا أبو جمعة الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ بيت المقدس، ليصلي فيه، ومعنا يومئذ رجاء ابن حيوة، فلما انصرف^(٩) خرجنا نسيه، فلما أراد الانصراف قال: إن لكم جائزة وحقا؛ أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، قلنا: هات رحمك الله. قال: كنا مع رسول الله ﷺ ومعنا معاذ ابن جبل عاشر عشرة، فقلنا: يا رسول الله، هل من قوم أعظم أجراً منا؟ أمنا بك واتبعناك، قال:

(١) في ١: زيد.

(٢) سنن سعيد بن منصور برقم (١٨٠) تحقيق د. الحميد.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٣٤/١) والمستدرک (٢/٢٦٠).

(٤) زيادة من جاء، ط، ب، أ، و. (٥) في هذا: أسيد.

(٦) في جاء: افعدنا.

(٧) في جاء: أحد.

(٨) المسند (١٠٦/٤) قال الخفاف ابن حجر في الإصابة (٣٣/٤): «واختلف فيه على الأوزاعي، فقال الأكثر: عن أسيد عن خالد بن

دريك عن ابن محب، وقال ابن شامة: عن الأوزاعي عن أسيد عن صالح بن محمد حدثني أبو جمعة به» وقال في فتح الباري

(٦/٧): «إسناده حسن».

(٩) في جاء: انصرفنا.

«ما يمنكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجراً» مرتين^(١).

ثم رواه من حديث ضَمْرَةَ بن ربيعة، عن مرزوق بن نافع، عن صالح بن جبير، عن أبي جمعة، بنحوه^(٢).

وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوَجَادَة التي اختلف فيها أهل الحديث، كما قررته في أول شرح البخاري؛ لأنه مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجراً من هذه الحيثية لا مطلقاً.

وكذا الحديث الآخر الذي رواه الحسن بن عرفة العبدى: حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصي، عن المغيرة بن قيس التميمي، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «أى الخلق أعجب إليكم إيماناً؟». قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟». قالوا: فالنبيون. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟». قالوا: فنحن. قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟». قال: فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن أعجب الخلق إلى إيماننا لقوم يكونون من بعدكم يجدون صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها»^(٣).

قال أبو حاتم الرازي: المغيرة بن قيس البصري منكر الحديث.

قلت: ولكن قد روى أبو يعلى في مسنده، وابن مردويه في تفسيره، والحاكم في مستدركه، من حديث محمد بن أبي حميد، وفيه ضعف، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر، عن النبي ﷺ، بمثله أو نحوه. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٤)، وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعاً^(٥)، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن محمد المسندي، حدثنا إسحاق بن إدريس، أخبرني إبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصاري، أخبرني جعفر بن محمود، عن جدته تويلة^(٦) بنت أسلم، قالت: صليت الظهر أو العصر في مسجد بنى حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء^(٧)، فصلينا سجدتين، ثم جاءنا من يخبرنا: أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت^(٨) الحرام، فتحول النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، فصلينا السجدتين الباقيتين، ونحن مستقبلون^(٩) البيت الحرام.

قال إبراهيم: فحدثني رجال من بنى حارثة: أن رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك قال: «أولئك قوم

(١) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/٤) عن بكر بن سهل عن عبد الله بن صالح به.

(٢) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/٤) من طريق ضمرة بن ربيعة به.

(٣) جزء الحسن بن عرفة برقم (١٩).

(٤) مستد أبي يعلى (١٤٧/١) والمستدرک (٨٥/٤) وتعقب الذهبي الحاكم فقال: «بل ضعفه».

(٥) رواه الزوار في مسنده (٢٨٤٠) كشف الأستار من طريق سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه، وقال: «غريب من حديث أنس».

(٦) في هذا «تويلة» (٧) في ج: «السجد الأقصى». (٨) في ج: «بيت الله».

(٩) في ط، ب، أ، و: «مستقبلون».

آمنوا بالغييب»^(١).

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (٣)

قال ابن عباس: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أى: يقيمون الصلاة بفروضها.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: إقامة^(٢) الصلاة إتمام^(٣) الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها.

وقال قتادة: إقامة^(٤) الصلاة المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها وسجودها.

وقال مقاتل بن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها^(٥)، وتمام ركوعها وسجودها^(٦) وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، فهذا إقامتها.

وقال على بن أبى طلحة، وغيره عن ابن عباس: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم.

وقال السدى، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس: وعن مرة عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ^(٧) ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ قال: هى نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة.

وقال جرير، عن الضحاك: كانت النفقات قريات^(٨) يتقربون بها إلى الله على قدر ميرثتهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصدقات: سبع آيات فى سورة براءة، مما يذكر فيهن الصدقات، هن الناسخات المبيّئات.

وقال قتادة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عوارى وودائع عندك يا ابن آدم، يوشك أن تفارقها.

واختار ابن جرير أن الآية عامة فى الزكاة والنفقات، فإنه قال: وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم: أن يكونوا لجميع اللازم لهم فى أموالهم مؤدّين، زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته نفقته، من أهل أو عيال وغيرهم، ممن تجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك؛ لأن الله تعالى عم وصدقهم ومدحهم بذلك، وكل من الإنفاق والزكاة مدوح به محمود عليه.

قلت: كثيراً ما يقرون الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهى مشتملة على توحده والثناء عليه، وتمجيده والابتهاال إليه، ودعائه والتوكل عليه؛ والإنفاق هو

(١) تفسير ابن أبى حاتم (٢٦١/١) وفى إسناده إسحاق بن إدريس قال البخارى: «تركه الناس». وقال ابن معين: «ضع الحديث». ورواه

الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤/٧-٢٤) من طريق إبراهيم بن حمزة الزبيرى، عن إبراهيم بن جعفر عن أبيه به نحوه.

(٢) فى ج: ط: «إقام».

(٣) فى ج: ط: ب: «إتمام».

(٤) فى ج: ط: «إقام».

(٥) فى ج: «النبي».

(٦) فى ج: «وإتمام الركوع والسجود».

(٧) فى ج: «أهلها».

(٨) فى ج: ط: ب: «قريبات».

الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ ولهذا ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»^(١). والأحاديث في هذا كثيرة.

وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء، قال الأعشى:

لها حارس لا يبرح الدهر بيتهما
وإن ذُبَحَتْ صلى عليها وزمَماً^(٢)
وقال أيضاً^(٣):

وقابلها الريح في دثها
أنشدهما ابن جرير مستشهداً على ذلك.

وقال الآخر - وهو الأعشى أيضاً -:

تقول بتى وقد قرئت مرتحلاً
عليك مثل الذي صليت فاغتمضى
يارب جنب أبي الأوصاب والوجعاً
نوما فإن لجنب المرء مضطجعاً

يقول عليك: من الدعاء مثل الذي دعيت له. وهذا ظاهر، ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها، وأنواعها [المشروعة]^(٤) المشهورة.

وقال ابن جرير: وأرى أن الصلاة المفروضة سميت صلاة؛ لأن المصلي يتعرض لاستباح ظمته من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه من^(٥) حاجته^(٦).

[وقيل: هي مشتقة من الصلويين إذا تحركا في الصلاة عند^(٨) الركوع، وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتفا^(٩) عجب الذنب، ومنه سمي المصلي وهو الثاني للسابق في حبة الخيل، وفيه نظر، وقيل: هي مشتقة من الصلى، وهو الملازمة للشيء من قوله: ﴿لا يصلها﴾ أي: يلزمها ويدوم فيها ﴿إلا الأشفى﴾ [الليل: ١٥] وقيل: مشتقة من تصلية الخشب في النار لتقوم، كما أن المصلي يقوم عوجه بالصلاة: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ [العنكبوت: ٤٥] واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر، والله أعلم^(١٠).

وأما الزكاة فيأتي الكلام عليها في موضعه، إن شاء الله.

(١) صحيح البخارى برقم (٨) وصحيح مسلم برقم (١٦).

(٢) البيت من تفسير الطبرى (١/٢٤٢).

(٣) في ب: الأخر.

(٤) البيت من تفسير الطبرى (١/٢٤٢).

(٥) زيادة من ط.

(٦) في ج، ط، ب، أ، و: أفيها.

(٧) في أ، و: حاجاته.

(٨) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٩) في أ: ويكتفا.

(١٠) في أ: «في».

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤).

قال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أى: يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاؤوهم به من ربهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أى: بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان.

وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا. وقد اختلف المفسرون في الموصوفين هاهنا: هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] ومن هم؟ على ثلاثة أقوال حكاه ابن جرير:

أحدهما^(١): أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون ثانياً، وهم كل مؤمن، مؤمن العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم، قاله مجاهد، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة.

والثاني: هما واحد، وهم مؤمنو أهل الكتاب، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات، كما قال تعالى: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى. وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى. فَجَعَلَ نَتَأءَ أَحْوَى﴾ [الأعلى: ١ - ٥] وكما قال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المردحم

فقطف الصفات بعضها على بعض، والموصوف واحد.

والثالث: أن الموصوفين أولاً مؤمنو العرب، والموصوفون ثانياً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية مؤمنو^(٢) أهل الكتاب، نقله السدى فى تفسيره، عن ابن عباس وابن مسعود وأنس من الصحابة، واختاره ابن جرير، ويستشهد لما قال بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩]، وبقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤]. وثبت فى الصحيحين، من حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنيه وآمن به، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريتة فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها»^(٣).

وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة، وهى أن الله تعالى وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين، فكما أنه صنف الكافرين إلى صنفين: منافق وكافر، فكذلك المؤمنون صنفهم إلى عربى وكتابى.

قلت: والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثورى، عن رجل، عن مجاهد. ورواه غير واحد، عن

(١) فى ج، ط، ب، أ، و: أحدهما. (٢) فى ج، ط، ب: المؤمنون.

(٣) صحيح البخارى برقم (٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٥٤).

ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد أنه قال: أربع آيات من أول سورة البقرة في نعمت المؤمنين، وآيات في نعمت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين، فهذه الآيات الأربع عامة في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي، وكتابي من إنسي وجنى، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وما جاء به من قبله من الرسل والإيقان بالآخرة، كما أن هذا لا يصح إلا بذلك، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بذلك، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية [النساء: ١٣٦]. وقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي آتَيْنَا إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَاحِدٌ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا الشُّرُوعَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك، فقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرَسُولُهُ لَا تَفَرَّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] وغير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسوله وكتبه. لكن لمؤمى أهل الكتاب خصوصية، وذلك أنهم مؤمنون بما بأيديهم^(١) مفصلاً، فإذا دخلوا في الإسلام وآمنوا به مفصلاً كان لهم على ذلك الأجر مرتين، وأما غيرهم فإمّا يحصل له الإيمان، بما تقدم مجملًا، كما جاء في الصحيح: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، ولكن قولوا: آمنا بالذي^(٢) أنزل إلينا وأنزل إليكم^(٣)»، ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذي بعث به محمد ﷺ أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم في الإسلام، فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحيشة، فغيرهم [قد]^(٤) يحصل له من التصديق ما يُثبِت ثوابه على الأجرين اللذين حصلوا لهم، والله أعلم.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥)

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أى: المتصفون بما تقدم: من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذى رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل، والإيقان بالدار الآخرة، وهو يستلزم الاستعداد لها من العمل بالصالحات وترك المحرمات.

﴿عَلَى هُدًى﴾ أى: نور وبيان وبصيرة من الله تعالى. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

(١) فى ج: «بما فى أيديهم».

(٢) فى ط، ب، أ، و: «بما».

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٥، ٧٣٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) زيادة من ط، ب.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: على نور من ربهم، واستقامة على ما جاءهم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا.

وقال ابن جرير: وأما معنى قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فإن معنى ذلك: أنهم على نور من ربهم، وبرهان واستقامة وسداد، بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم وتأويل قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى المتنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسوله، من الفوز بالثواب، والخلود فى الجنات، والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب^(١).

وقد حكى ابن جرير قولاً عن بعضهم أنه أعاد اسم الإشارة فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إلى مؤسسى أهل الكتاب الموصوفين بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية، على ما تقدم من الخلاف. [قال]^(٢): وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ منقطعاً^(٣) مما قبله، وأن يكون مرفوعاً على الابتداء وخبره ﴿وَأُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. واختار أنه عائد إلى جميع من تقدم ذكره من مؤسسى العرب وأهل الكتاب، لما رواه السدى عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: أما الذين يؤمنون بالغيب، فهم المؤمنون من العرب، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك هم المؤمنون من أهل الكتاب. ثم جمع الفريقين فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وقد تقدم من الترجيح أن ذلك صفة للمؤمنين عامة، والإشارة عائدة عليهم، والله أعلم. وقد نقل هذا عن مجاهد، وأبى العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، ورحمهم الله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى، حدثنا أبى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنى عبيد الله بن المغيرة عن أبى الهيثم واسمه سليمان بن عبد، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ وقيل له: يا رسول الله، إنا نقرأ من القرآن فترجو، ونقرأ من القرآن فنكاد أن نياس، أو كما قال. قال: فقال: «أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ﴿وَالسَّامِ﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَالْمُفْلِحُونَ﴾ هؤلاء أهل الجنة. قالوا: إنا نرجو أن نكون هؤلاء. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ هؤلاء أهل النار. قالوا: لنا هم يا رسول الله. قال: «أجل»^(٥).

(١) تفسير الطبرى (١/٢٤٩).

(٢) زيادة من ج، ب، أ، و.

(٣) فى ج، ط، ب، أ، و: «منقطعاً».

(٤) زيادة من ج، ط، ب.

(٥) تفسير ابن أبى حاتم (١/٤٠).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦)

يقول تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: عَطَوْا الحقَ واستروه، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جنتهم به، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال فى حق المعاندين من أهل الكتاب: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبْهَوْنَ قِبَلَتِكَ ﴾ الآية [البقرة: ١٤٥] أى: إن من (١) كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسْعِدَ له، ومن أضلَّه فلا هادى له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلغهم الرسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهمدنك ذلك؛ ﴿ فَأَسْمِعْ لِكُلِّ الْبَلَاغِ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، و﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرض أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الأول.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: بما أنزل إليك، وإن قالوا: إنا قد آمننا بما جاءنا قبلك ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق، فقد (٢) كفروا بما جاءك، وبما عندهم مما جاءهم به غيرك، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً، وقد كفروا بما عندهم من علمك؟!

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، قال: نزلت هاتان الآيتان فى قادة الأحزاب، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

والمعنى الذى ذكرناه أولاً، وهو المروى عن ابن عباس فى رواية ابن أبى طلحة، أظهر، ويفسر (٣) بقية الآيات التى فى معناها، والله أعلم.

وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثاً، فقال: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى، حدثنا أبى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنى عبد الله بن المغيرة، عن أبى الهيثم (٤)، عن عبد الله ابن عمرو، قال: قيل: يا رسول الله، إنا نقرأ من القرآن فترجو، ونقرأ فتكاد أن نياس، فقال: «ألا أخبركم»، ثم قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ هؤلاء أهل النار. قالوا: لسا هم يا رسول الله؟ قال: «أجل» (٥).

(١) فى ج: «إلا أنه من». (٢) فى ج: ط، ب: «وقد». (٣) فى ج: «وتفسره»، وفى ط، ب: «وتفسره».

(٤) فى ج: «القس».

(٥) تفسير ابن أبى حاتم (٤٢/١).

أوتوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للشيء قبلها: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَلْتَذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْفِرْتَهُمْ﴾ أي هم كفار في كلا الحالين؛ فلهذا أكد ذلك بقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبراً لأن تقديره: إن الذين كفروا لا يؤمنون، ويكون قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَلْتَذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْفِرْتَهُمْ﴾ جملة معترضة، والله أعلم^(١).

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧)

قال السدي: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ أي: طبع الله. وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون.

وقال ابن جريج: قال مجاهد: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال: ثبت أن الذنوب على القلب تحف به^(٢) من كل نواحيه حتى تلغى عليه، فالتأوها عليه الطبع، والطبع الختم، قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع. قال ابن جريج: وحدثني عبد الله بن كثير، أنه سمع مجاهداً يقول: الزان أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأفعال، والأفعال أشد ذلك كله.

وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب في مثل هذه^(٣) - يعني: الكف - فإذا أذنب العبد ذنباً ضُمن منه. وقال بأصبعه المختصر هكذا، فإذا أذنب ضُمن. وقال بأصبع أخرى، فإذا أذنب ضُمن، وقال بأصبع أخرى هكذا، حتى ضم أصابعه كلها، ثم قال^(٤): يطبع عليه بطابع. وقال مجاهد: كانوا^(٥) يرون أن ذلك: الرين.

ورواه ابن جرير: عن أبي كُرَيْب، عن وكيع، عن الأعمش، عن مجاهد، بنحوه.

وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما معنى قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ إخبار من الله عن تكبرهم، وإعراضهم عن الاستماع لما دُعوا إليه من الحق، كما يقال: إن فلاناً لأضَمَّ عن هذا الكلام، إذا امتنع من سماعه، ورفع^(٦) نفسه عن تفهمه تكبراً.

قال: وهذا لا يصح؛ لأن الله قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم. (قلت): وقد أظن الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير هنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً، وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده - تعالى الله عنه في اعتقاده - ولو فهم قوله تعالى: ﴿قَلَمًا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَنَقَلْبُ أُنذِرْتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ سَرُّهُ وَنَذَرْتَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقيح، فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال والله أعلم.

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وذكر حديث تليق القلوب: «ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»، وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكوها

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٢) في ج، ط، ب، أ، و: «وقال: الطبع يثبت الذنوب على القلب فحفت به».

(٣) في ج، ط، ب، أ، و: «هذا». (٤) في ط، ب: «قال: ثم». (٥) في ج، ط، ب: «وكانوا». (٦) في ج: «يرفع».

نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرياد كاللكوز مجعياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً) الحديث.

قال^(١): «والحق عندي في ذلك ما صحّ بنظيره^(٢) الخبير عن رسول الله ﷺ، وهو ما حدثنا به محمد ابن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا ابن عجلان، عن القعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نُكْتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستعتب صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تملو قلبه، فذلك الزان الذي قال الله تعالى: ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»^(٣).

وهذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذي والنسائي، عن قتبية، عن الليث بن سعد، وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم بن إسماعيل والوليد بن مسلم، ثلاثتهم عن محمد بن عجلان، به^(٤).

وقال الترمذي: حسن صحيح.

ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها^(٥) مخلص، فذلك^(٦) هو الختم والطبع الذي ذكر^(٧) في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض^(٨) ذلك عنها ثم حلها، فكذلك^(٩) لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه وحلّه رباطه [عنها]^(١٠).

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة - وهي النطاء - تكون على البصر، كما قال السدي في تفسيره عن أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ^(١١) في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ يقول: فلا يعقلون ولا يسمعون، ويقول: وجعل على أبصارهم غشاوة، يقول: على أعينهم فلا يبصرون.

قال^(١٢) ابن جرير: حدثني محمد بن سعد^(١٣)، حدثنا أبي، حدثني عمي الحسين بن الحسن، عن أبيه، عن جده، عن ابن عباس: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾: والغشاوة على أبصارهم. وقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، يعني ابن داود، وهو سنيّد، حدثني حجاج، وهو ابن محمد الأعور، حدثني ابن جريج قال: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقال: ﴿وَوَخَّخَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَمَلَ عَلَى

(١) في ج: ط: «قال ابن جرير».

(٢) في ج: اما صح به بنظيره.

(٣) تفسير الطبري (٢٦٠/١).

(٤) سنن الترمذي برقم (٣٣٣٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٥٨) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٤٤).

(٥) في آ: و: «سما».

(٦) في ج: «لذلك».

(٧) في و: «ذكره الله».

(٨) في ج: «أظلك».

(٩) في ج: ط: «التي».

(١٠) في ج: ط: «وقال».

(١١) في آ: «سفيان».

(١٢) في ج: ط: «وقال».

(١٣) في ج: ط: «وقال».

بصره غشاوة﴾ [الجاثية: ٢٣]^(١).

قال^(٢) ابن جرير: ومن نصب غشاوة من قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ يحتمل^(٣) أنه نصبها بإضمار فعل، تقديره: وجعل على أبصارهم غشاوة، ويحتمل أن يكون نصبها على الاتباع، على محل ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الراقعة: ٢٢]، وقول الشاعر:

عَلَفْتُهَا تَبَأً وَمَاءً بَارِداً حَتَّى شَتَّتْ هَمَالَةً عَيْنَاهَا^(٤)

وقال الآخر:

ورَأَيْتَ زَوْجَكَ فِي الرَّغْيِ مَتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحاً^(٥)

تقديره: وسقيتها ماء بارداً، ومعتقلاً رمحاً.

لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين، شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشبه على كثير من الناس أظن في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل^(٦) سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لحوالهم لتجنب، ويجتنب من تلبس^(٧) بها أيضاً، فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمْ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) **يُخَادِعُونَ اللَّهَ**
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩).

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب، كما سيأتي تفصيله^(٨) في موضعه، إن شاء الله تعالى، وهذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، وسيرة علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه.

وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافة، من الناس من كان يظهر الكفر مستكراً، وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أملاهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع حلفاء الخزرج، وبنو النضير، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم

(١) تفسير الطبري (١/٢٦٥).

(٢) في ج: «وقال».

(٣) البيت في تفسير الطبري (١/٢٦٤).

(٤) البيت في تفسير الطبري (١/٢٦٥) وهو للحارث المخزومي.

(٥) في ج: «كما أنزلت».

(٦) في ج: «تلبس».

(٨) في ج: «تفسيره».

من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقتل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام، رضى الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه، الصلاة والسلام، وأدعَ اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالى المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبي بن سلول، وكان رأساً فى المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد تَوَجَّهَ فأظهر الدخول فى الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثمَّ وجد النفاق فى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً، بل يهاجر ويترك ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله فى الدار الآخرة.

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى: المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم.

وكذا فسرها بالمنافقين أبو العالية، والحسن، وقتادة، والسدى.

ولهذا نبه الله، سبحانه، على صفات المنافقين لثلاث بظواهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار فى نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خيراً، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أى: يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] أى: إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط، لا فى نفس الأمر؛ ولهذا يؤكدون فى الشهادة بيان ولام التأكيد فى خبرها؛ كما أكدوا قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وليس الأمر كذلك، كما أكذبهم الله فى شهادتهم، وفى خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وبقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْتَصِمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يغرؤون بصنيعهم ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

ومن القراء من قرأ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾^(١) إلا أنفسهم، وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد.

(١) فى ج، ط، ب: يخدعون.

قال ابن جرير: فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعاً، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية؟

قيل: لا تمتنع^(١) العرب من أن تسمى من أعطى بلسانه غير الذي في ضميره تقية، لينجو مما هو له خائف، مخادعاً، فكذلك المنافق، سمي مخادعاً لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر^(٢) بلسانه تقية، بما تخلص به من القتل والسب^(٣) والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر، مستبطن، وذلك من فعله - وإن كان خداعاً للمؤمنين في عاجل الدنيا - فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيته، ويسقيها كأس^(٤) سرورها، وهو موردها به حياض عطبتها، ومجرعها بها كأس عذابها، ومزيرها^(٥) من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به، فذلك خديعته نفسه، ظناً منه - مع إساءته إليها في أمر معادها - أنه إليها محسن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إعلاماً منه عبادة المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسخاطهم^(٦) عليها ربهم بكفرهم، وشكهم وتكذيبهم، غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون^(٧).

وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا علي بن المبارك، فيما كتب إلى، حدثنا زيد بن المبارك، حدثنا محمد ابن ثور، عن ابن جريج، في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ قال: يظهرون «لا إله إلا الله» يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم، وفي أنفسهم غير ذلك^(٨).

وقال سعيد، عن قتادة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ نعمت المنافق عند كثير: خنق الاخلاق يصدق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله، يصبح على حال ويمسى على غيره، ويمسى على حال ويصبح على غيره، يتكفأ تكفأ السفينة كلما هبت ريح هب معها.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (١٠).

قال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس؛ وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾، قال: شك، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: شكاً.

وقال [محمد]^(٩) بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس [في قوله]^(١٠): ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ قال: شك.

(١) في ج: لا تمتنع.

(٢) في آ: وما أظهره.

(٣) في آ: والنس.

(٤) في ج: ديكاس.

(٥) في آ: ويزيدها.

(٦) في ج: بإسخاطهم.

(٧) تفسير الطبري (١/٢٧٣).

(٨) تفسير ابن أبي حاتم (١/٤٦).

(٩) زيادة من ج.

(١٠) زيادة من و.

وكذلك قال مجاهد، وعكرمة، والحسن البصرى، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة.

وعن عكرمة، وطاوس: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾: يعنى: الرياء.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: نفاق. ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال:

نفاقاً، وهذا كالأول.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: هذا مرض فى الدين، وليس مرضاً فى الاجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذى دخلهم فى الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: زادهم رجساً، وقرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، قال: شراً إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم.

وهذا الذى قاله عبد الرحمن، رحمه الله، حسن، وهو الجزء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾: وقرئ «يكذبون»، وقد كانوا متصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كذبة يكذبون بالحق يجمعون بين هذا وهذا. وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفه، عليه السلام، عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم، وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت فى الصحيحين: أنه قال لعمر: «أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه»^(١)، ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول فى الإسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم، وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر، فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون: إن محمداً يقتل أصحابه، قال القرطبي: وهذا قول علمانا وغيرهم كما كان يعطى المولفة قلوبهم مع علمه بشر اعتقادهم. قال ابن عطية: وهى طريقة أصحاب مالك نصر عليه محمد بن الجهم والقاضى إسماعيل والأبهرى وابن الماجشون. ومنها: ما قال مالك، رحمه الله: إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين لئلا يمتدحوا أن الحاكم لا يحكم بعلمه.

قال القرطبي: وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضى لا يقتل بعلمه، وإن اختلفوا فى سائر الأحكام، قال: ومنها ما قال الشافعى: إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم؛ لأن ما يظهرونه يجب ما قبله. ويؤيد هذا قوله، عليه السلام، فى الحديث المجمع على صحته فى الصحيحين وغيرهما: «أسرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، عز وجل»^(٢). ومعنى هذا: أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهراً، فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك فى الدار الآخرة، وإن لم يعتقدها لم ينفعه فى الآخرة جريان الحكم عليه فى الدنيا، وكونه كان

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩٠٢) وصحيح مسلم برقم (٣٣١٤).

(٢) صحيح البخارى برقم (٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٢) من حديث ابن عمرو رضى الله عنهما.

خَلِيطَ أَهْلَ الْإِيمَانِ ﴿يَتَأَفَوْنَهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكَيْتُمْ فَتَنَّمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرِيضْتُمْ وَأُزْبِثْتُمْ وَعَفَىٰ أَعْيُنِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الآية [الحديد: ١٤]؛ فهم يخالطونهم في بعض المحشر، فإذا حفت المحقورية تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم ﴿وَجِبِلَّ بَيْنَهُمْ وَيَتِينَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديث، ومنها ما قاله بعضهم: إنه إنما لم يقتلهم لأنه كان يخاف من شرهم مع وجوده، عليه السلام، بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبيّنة، فأما بعده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون، قال مالك: المنافق في عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم. قلت: وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا. أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا، أو يتكرر منه ارتداده أم لا أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظهر عليه؟ على أقوال موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب الأحكام.

(تنبيه) قول من قال: كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً في غزوة تبوك الذين هموا أن يكتكروا برسول الله ﷺ في ظلمات الليل عند عقبة هناك؛ عزموا على أن يتفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله إليه أمرهم فأطلع على ذلك حذيفة. ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم.

فأما غير هؤلاء فقد قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُتَافِقُونَ وَالذَّيْبُ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدَوْا وَقَتَلُوا قَتِيلًا﴾ فيها دليل على أنه لم يغر بهم ولم يدرك على أعيانهم وإنما كانت تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْتِنَّاكُم فَلَغَرَفْتُم بِسِيْمَاهُمْ وَلَعَرَفْتُم فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبي بن سلول وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذي سبق في صفات المنافقين ومع هذا لما مات [صلى عليه] ﷺ وشهد دفنه كما يفعل بقية المسلمين، وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه فقال: «إني أكره أن تتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه» وفي رواية في الصحيح «إني خيرت فاخترت» وفي رواية «لو أني أعلم لو زدت على السبعين يغفر الله له لزدت».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الطيب الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس^(١) من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: أما لا تفسدوا في الأرض، قال: الفساد هو الكفر، والعمل بالمعصية.

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يعني: لا تعصوا في الأرض. وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأنه من عصي الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والساء بالطاعة.

وهكذا قال الربيع بن أنس، وقادة.

وقال ابن جرير، عن مجاهد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: إذا ركبوا معصية الله، فقيل لهم: لا تفعلوا كذا وكذا، قالوا: إنما نحن على الهدى، مصلحون.

(١) في ط، ب: «ناس». (٢) في أ: «النبي».

وقد قال وكيع، وعيسى بن يونس، وعثام بن علي، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله الأسدي، عن سلمان الفارسي: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾** قال سلمان: لم يحيء أهل هذه الآية بعد.

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبد الرحمن بن شريك، حدثني أبي، عن الأعمش، عن زيد بن وهب وغيره، عن سلمان، في هذه الآية، قال: ما جاء هؤلاء بعد^(١).

قال ابن جرير: يحتمل أن سلمان أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في زمان النبي ﷺ، لا أنه عنى أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد^(٢).

قال ابن جرير: فأهل التفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها^(٣).

وهذا الذي قاله حسن، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾** [الأنفال: ٧٣] فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين، كما قال: **﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ تَوْنِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾** [النساء: ١٤٤] ثم قال: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الذَّرِكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾** [النساء: ١٤٥] فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشبه أمره على المؤمنين، فكان الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذي عز المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمر على حاله^(٤) الأولى لكن شره أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾** أي: نريد أن ندارى الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء، كما قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾** أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. يقول الله: **﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) ﴿

يقول [الله]^(٥) تعالى: وإذا قيل للناس قائلوا آمنوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قائلوا: كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَمَلَانِكَ

(١) تفسير الطبري (٢٨٨/١) . (٢) تفسير الطبري (٢٨٩/١) . (٣) في أ، و: لعالمه . (٤) زيادة من (أ) .

وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك، مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في أمثال الأوامر وترك الزوجات ﴿قَالُوا أَنْزَمُنْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ، رضى الله عنهم، قاله أبو العالية والسدى في تفسيره، بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة، وبه يقول الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء!!

والسفهاء: جمع سفيه، كما أن الحكماء جمع حكيم [والعلماء جمع حليم]^(١)، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرأى القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار؛ ولهذا سمي الله النساء والصبيان سفهاء، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُزْتَرُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥] قال عامة علماء السلف: هم النساء والصبيان.

وقد تولى الله، سبحانه، جوابهم في هذه المواطن كلها، فقال^(٢): ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ فاكد وحصر السفاهة فيهم.

﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعنى: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى، والبعد عن الهدى.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

يقول [الله]^(٣) تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: ﴿آمنا﴾ أى: اظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة، غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وتقية، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومنهم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعنى: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا^(٤) إلى شياطينهم. فضمن ﴿خَلَوْا﴾ معنى انصرفوا؛ لتعديته بآلى؛ ليدل على الفعل المضمر والفعل المفلوظ^(٥) به. ومنهم من قال: «إلى» هنا بمعنى «مع»، والأول أحسن، وعليه يدور كلام ابن جرير.

وقال السدى عن أبي مالك: ﴿خَلَوْا﴾ يعنى: مضوا، و﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعنى: ساداتهم وكبراءهم ورؤساءهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين.

قال السدى في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، عن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعنى: هم رؤوسهم من الكفر. وقال الضحاك عن ابن عباس: وإذا خلوا إلى أصحابهم، وهم شياطينهم.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن

(١) زيادة من ط، ب، و.

(٢) في أ: «كما قال».

(٣) زيادة من أ.

(٤) في أ، و: «أو ذهبوا أو خلصوا».

(٥) في ط، ب، أ، و: «المفلوظ».

عباس: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ من يهود الذين يأمرونهم بالكذب وخلاف ما جاء به الرسول.

وقال مجاهد: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾: إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين.

وقال قتادة: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال: إلى رؤوسهم، وقادتهم في الشرك، والشرك.

وينحو ذلك فسره أبو مالك، وأبو العالية، والسدي، والربيع بن أنس.

قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مردته، وتكون الشياطين من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفي المسند عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن». فقلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم»^(١).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: أي إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: قالوا إنما نحن مستهزون ساخرون بأصحاب محمد ﷺ.

وكذلك قال الربيع بن أنس، وقاتدة.

وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة على صيغهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدَّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

قال ابن جرير^(٢): أخبر الله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة، في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورَةٍ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الآية [الحديد: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّئُ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَمِّئُ لَهُمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. قال: فهذا وما أشبهه، من استهزاء الله، تعالى ذكره، وسخرته ومكره وخديعته للمنافقين، وأهل الشرك به عند قائل هذا القول، ومتأول هذا التأويل.

قال: وقال آخرون: بل استهزأه بهم توبيخه إياهم، ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه، والكفر به.

قال: وقال آخرون: هذا وأمثاله على سبيل الجواب، كتقول الرجل لمن يخدعه إذا ظفر به: أنا الذي خدعتك. ولم تكن منه خديعة، ولكن قال ذلك إذ صار الأمر إليه، قالوا: وكذلك قوله: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] و﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ على الجواب، والله

(١) المسند (٥/١٧٨).

(٢) فرط، ب: «وقال».

لا يكون منه المكر ولا الهزء، والمعنى: أن المكر والهزء حاق بهم.

وقال آخرون: قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾. الله يستهزئ بهم، وقوله: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾: [النساء: ١٤٢]، وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾، [التوبة: ٧٩] و﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وما أشبه ذلك، إخبار من الله تعالى أنه يجازيهم^(١) جزاء الاستهزاء، ويعاقبهم^(٢) عقوبة الخداع، فأخرج خيره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خيره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظاهما فقد اختلف معناهما.

قال: وإلى هذا المعنى وجهها كل ما في القرآن من نظائر ذلك.

قال: وقال آخرون: إن معنى ذلك: أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا: إنا معكم على دينكم، في تكذيب محمد ﷺ وما جاء به، وإنما نحن بما يظهر لهم - من قولنا لهم: صدقنا بمحمد، عليه السلام، وما جاء به مستهزون؛ فأخبر الله تعالى أنه يستهزئ بهم، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا، يعنى من عصمة دمايتهم وأموالهم خلاف الذى لهم عنده فى الآخرة، يعنى من العذاب والنكال^(٣).

ثم شرع ابن جرير بوجه هذا القول وينصره؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله، عز وجل، بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك.

قال: وينحو ما قلنا فيه روى الخبر عن ابن عباس: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان، حدثنا بشر، عن أبي روق، عن الضحاک، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، قال: يسخر بهم للثمة منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: قال السدى، عن ابن مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن أناس^(٤) من الصحابة [قالوا]^(٥): يمدهم: يملئ لهم.

وقال مجاهد: يزيدهم.

قال ابن جرير: والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم فى عتوهم وتمردهم، كما قال: ﴿وَنَقَلِبْ أَعْدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِرُوا بِهِ أُولَٰئِكَ وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

(٢) فى ط، ب، أ، و: «ومعاقبتهم».

(١) فى ط، أ، و: «مجازيتهم».

(٣) تفسير الطبرى (٣/١).

(٥) زيادة من ب، و.

(٤) فى ج، ط، ب، أناس.

والطغيان: هو المجاوزة في الشيء. كما قال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:

١١]، وقال الضحّاك، عن ابن عباس: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: في كفرهم يترددون.

وكذا فسره السدي بسنده عن الصحابة، وبه يقول أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس،

ومجاهد، وأبو مالك، وعبد الرحمن بن زيد: في كفرهم وضلالتهم.

قال ابن جرير: والمعّة: الضلال، يقال: عمه فلان يعمه عمها وعموها: إذا ضل.

قال: وقوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: في ضلالهم^(١)، وكفرهم الذي غمرهم دسسه، وعلاهم

رجسه، يترددون [حيارى]^(٢) ضلّالاً^(٣)، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً؛ لأن الله تعالى قد طبع

على قلوبهم وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رشداً، ولا يهتدون

سبيلاً.

[وقال بعضهم: العمى في العين، والمعمة في القلب، وقد يستعمل العمى في القلب - أيضاً -:

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ويقال: عمه

الرجل يعمه عموها فهو عمه وعامه، وجمعه عمّه، وذهبت إليه العمهاء: إذا لم يدرك أين ذهبت^(٤).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦).

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن

مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾ قال: أخذوا الضلالة وتركوا

الهدى.

وقال [محمد]^(٥) بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبيرة،

عن ابن عباس: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي: الكفر بالإيمان.

وقال مجاهد: آمنوا ثم كفروا.

وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى [أي: الكفر بالإيمان]^(٦). وهذا الذي قاله قتادة يشبهه

في المعنى قوله تعالى في ثمود: ﴿وَأَمَّا^(٧) ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم: أن المنافقين عدّلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن

الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾: أي بذلوا الهدى

ثمناً للضلالة، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال

(١) في ب، أ، و: فضلالتهم.

(٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٣) في هـ: فانما وهو خطأ.

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٥) زيادة من ج.

(٦) في ج: فضلال.

(٧) زيادة من ط.

تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ١٣]، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى، كما يكون^(١) حال فريق آخر منهم، فإنهم أنواع وأقسام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي: ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: أي: راشدين في صنيعهم ذلك.

قال^(٢) ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: قد - والله - رأيتهم يخرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، بمثله سواء.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فِهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)﴾.

[يقال: مثل ومثل ومثيل - أيضا - والجمع أمثال، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾] [٣] [المنكيات: ٤٣].

وتقرير هذا المثل: أن الله، سبحانه، شبههم في اشتراطهم الضلالة بالهدى، وضيوررتهم بعد التبصرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها فيما هر كذلك إذ طفت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدى، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعشى لو كان ضياء لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء^(٤) المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستجابهم العى على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع، والله أعلم.

وقد حكى هذا الذى قلناه فخر الدين الرازى فى تفسيره عن السدى ثم قال: والتشبيه ههنا فى غاية الصحة؛ لانهم بإيمانهم اكتسبوا أولاً نورا ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور فوقعوا فى حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين .

وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا فى وقت من الأوقات، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

والصواب: أن هذا إخبار عنهم فى حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفى أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سلبوه وطغ على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير، رحمه الله، هذه الآية ههنا وهى

(١) فى ج: ط، ب، أ، و: كما قد يكون.

(٢) فى ط: هو قال.

(٣) زيادة من ج: ط.

(٤) فى ج: هم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]؛ فلهذا وجه [ابن جرير]^(١) هذا المثل بأنهم استضاؤوا بما أظهروه من كلمة الإيمان، أى فى الدنيا، ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة.

قال: وضح ضرب مثل الجماعة بالواحد، كما قال: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] أى: كدوران عينى الذى يغشى عليه من الموت، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْكُمُ إِلَّا كَفْسٌ وَاحِدَةٌ﴾ [القمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿مِثْلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وقال بعضهم: تقدير الكلام: مثل قصتهم كقصته الذى استوقد ناراً. وقال بعضهم: المستوقد واحد لجماعة معه. وقال آخرون: الذى ههنا بمعنى الذين كما قال الشاعر:

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد^(٢)

قلت: وقد التفت فى أثناء المثل من الواحد^(٣) إلى الجمع، فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ. صُمُّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وهذا أفصح فى الكلام، وأبلغ فى النظام، وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أى: أذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: لا يبتدون إلى سبيل^(٤) خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صُمُّ﴾ لا يسمعون خيراً ﴿بِكُمْ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عَمِيٌّ﴾ فى ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلالة.

ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه:

قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن أبى عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾: زعم أن ناساً دخلوا فى الإسلام مَقْدَمَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ المدينة، ثم إنهم نافقوا، فكان مثلهم كمثل رجل كان فى ظلمة، فأوقد ناراً، فأضاءت ما حوله من قذى، أو أذى، فأبصره حتى عرف ما يتقى منه^(٥)، فبينما^(٦) هو كذلك إذ طفئت ناره، فأقبل لا يدري ما يتقى من أذى، فكذلك المنافق: كان فى ظلمة الشرك فأسلم، فعرف الحلال والحرام، و [عرف]^(٧) الخير والشر، فبينما^(٨) هو كذلك إذ كفر، فصار لا يعرف الحلال من

(١) زيادة من و.

(٢) البيت للأشهب بن دبيعة، كما فى اللسان، مادة «فلج».

(٣) فى ج، ط، ب، أ، و: «الواحدة».

(٤) فى ط، ب: «سبيل».

(٥) فى ج، ط، ب: «مها».

(٦) فى أ، و: «فبينما».

(٧) زيادة من ج.

(٨) فى أ، و: «فبينما».

الحرام، ولا الخير من الشر.

وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ^(١)﴾ أما إضاءة النار فإقبالهم^(٢) إلى المؤمنين، والهدى.

وقال عطاء الخراساني في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل المنافق، يبصر أحياناً ويعرف أحياناً، ثم يدركه عمى القلب.

وقال ابن أبي حاتم: وروى عن عكرمة، والحن، والسدي، والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراساني.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى آخر الآية، قال: هذه صفة المنافقين. كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم، كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا^(٣)، ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعهم، كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في ظلمات لا يبصرون.

وقال العوفي، عن ابن عباس، في هذه الآية، قال: أما النور: فهو إيمانهم الذي كانوا يتكلمون به، وأما الظلمة: فهي ضلالتهم وكفرهم الذي كانوا يتكلمون به، وهم قوم كانوا على هدى، ثم نزع منهم، فعتوا بعد ذلك.

وأما قول ابن جرير فيشبه ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يعتزون بالإسلام، فينكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفىء، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز، كما سلب صاحب النار ضوئه.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: فإنما ضوء النار ما أوقدتها، فإذا خمدت ذهب نورها، وكذلك المنافق، كلما تكلم بكلمة الإخلاص، بلا إله إلا الله، أضاء له، فإذا شك وقع في الظلمة.

وقال الضحاك [في قوله]^(٤): ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾: أما نورهم فهو إيمانهم الذي تكلموا به.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾: فهي^(٥) لا إله إلا الله؛ أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وأمنوا في الدنيا، ونكحوا النساء، وحققوا دماءهم، حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

وقال سعيد، عن قتادة في هذه الآية: إن المعنى: إن المنافق تكلم بلا إله إلا الله فأضاءت له الدنيا، فناكح بها المسلمين، وغازاهم بها، ووارثهم بها، وحقق بها دمه وماله، فلما كان عند الموت

(١) في ج: «ما حوله ذهب الله بنورهم».

(٢) في ج، ط، ب: «إقباله».

(٣) في ج: «استوقدوا ناراً».

(٤) في ج: «فهم».

(٥) زيادة من ج، ط، ب.

سلبها المنافق؛ لأنه^(١) لم يكن لها أصل في قلبه، ولا حقيقة في عمله^(٢).

﴿وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ يقول: في عذاب إذا ماتوا.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: أي يبصرون الحق ويقولون به، حتى إذا خرجوا من ظلمة الكفر أظفؤوه بكفرهم^(٣) ونفاقهم فيه، فتركهم الله في ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدى، ولا يستقيمون على حق.

وقال السدي في تفسيره بسنده: ﴿وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾: فكانت الظلمة نفاقهم.

وقال الحسن البصري: ﴿وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يَبْصُرُونَ﴾، فذلك^(٤) حين يموت المنافق، فيظلم عليه عمله عمل السوء، فلا يجد له عملاً من خير عمل به يصدق^(٥) به قول: لا إله إلا الله^(٦).

﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ﴾: قال السدي بسنده ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ﴾: فهم خرس عمي^(٧).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ﴾ يقول: لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه، وكذا قال أبو العالية، وقتادة بن دعامة.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: قال ابن عباس: أي لا يرجعون إلى هدى، وكذلك^(٨) قال الربيع بن أنس.

وقال السدي بسنده: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: إلى الإسلام.

وقال قتادة: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: أي لا يتوبون^(٩)، ولا هم يذكرون.

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم ﴿كَصَيْبٍ﴾، والصيب: المطر؛ قاله ابن مسعود، وابن عباس، وناس من الصحابة، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعطاء،

(١) في ج: «لأنها». (٢) في ج: «عمله».

(٣) في ج: «فذلك». (٤) في ج: «يصدق».

(٥) في ج: «ب. أ. وكذا». (٦) في ج: «ب. أ. إلا هو».

(٧) في ج: «عمى خرس». (٨) في ج: «لا يؤمنون».

(٩) في ج: «ظفؤوا بكفرهم به».

(٦) في ج: «ب. أ. إلا هو».

(٩) في ج: «لا يؤمنون».

والحسن البصرى، وقتادة، وعطية العوفى، وعطاء الخراسانى، والسدى، والربيع بن أنس.

وقال الضحاك: هو السحاب.

والأشهر هو المطر نزل من السماء، فى حال ظلمات، وهى الشكوك والكفر والنفاق. ﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع، كما قال تعالى: ﴿يَجْهَرُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [هُم الْعَدُوُّ] (١) ﴿[المنافقون: ٤] وقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ. لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدَاجِلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧].

والبرق: هو ما يلمع فى قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين فى بعض الأحيان، من نور الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى: ولا يُجدى عنهم حذرهم شيئاً، لأن الله محيط [بهم] (٢) بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ. فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ. وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ١٧ - ٢٠]

[والصواعق: جمع صاعقة، وهى نار تنزل من السماء وقت الرعد الشديد، وحكى الخليل بن أحمد عن بعضهم صاعقة، وحكى بعضهم صاعقة وصعقة وصاعقة، ونقل عن الحسن البصرى أنه: قرأ «من الصواعق حذر الموت» بتقديم القاف وأنشدوا لأبى النجم:

يحكوك بالمثقولة القواطع تشق البرق عن الصواعق (٣)

قال النحاس: وهى لغة بنى تميم وبعض بنى ربيعة، حكى ذلك القرطبى فى تفسيره (٤).

ثم قال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أى: لشدة وقوته فى نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يقول: يكاد مُحَكَّمُ القرآن يدل على عورات المنافقين.

وقال ابن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾: أى لشدة ضوءه الخفى، كلما أضاء لهم مشراً فيه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾: أى كلما ظهر لهم من الإيمان شئ، استأنسوا (٥) به واتبعوه، وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوققروا حائرين.

(١) زيادة من ج، ط.

(٢) زيادة من ج، ط، ب.

(٣) البيت من اللسان، مادة «صعق» وهو فيه:

يحكوك بالمثقولة القواطع تشق البرق عن الصواعق

(٥) فى أ: «استأنسوا».

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَافٍ فِيهِ﴾ يقول: كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه، وإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ الآية [الحج: ١١].

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَافٍ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم في قولهم به على استقامة فإذا ارتكروا منه^(٢) إلى الكفر ﴿قَامُوا﴾ أي: متحيرين.

وهكذا قال أبو العالية، والحسن البصري، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي بسنده، عن الصحابة وهو أصح وأظهر. والله أعلم.

وهكذا يكونون^(٣) يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ، وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء له أخرى، فيمشى^(٤) على الصراط تارة ويقف أخرى. ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخُلص من المنافقين، الذين قال تعالى^(٥) فيهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] وقال في حق المؤمنين: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَسْعَاكَ يَوْمَ تَبَىٰ﴾ الآية [الحديد: ١٢] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَيْنَا لَكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: ٨].

ذكر الحديث الوارد في ذلك:

قال سعيد بن أبي عمرو، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية [الحديد: ١٢]: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول: «من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن، أو بين^(٦) صنعاء ودون ذلك، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه». رواه ابن جرير.

ورواه ابن أبي حاتم من حديث عمران بن داور^(٨) القطان، عن قتادة، بنحوه.

وهذا كما قال المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود، قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يرى^(٩) نوره كالنخلة، ومنهم من يرى^(١٠) نوره كالرجل القائم، وأدانهم نوراً على إبهامه يطفأ مرة ويقد^(١١) مرة.

(١) زيادة من جاء. (٢) في أ: وفيه. (٣) في ج: فيكذبون، وفي أ: يكون. (٤) في أ، و: فمشى من يمشى. (٥) في ج، ط، ب، أ، و: الله. (٦) في ج، ط، ب، أ، و: أن نبي الله. (٧) في ج، ط، ب: «بين و». (٨) في أ: «داور». (٩) في و: «يرى». (١٠) في ج: «يرى». (١١) في ج: «يرى».

وهكذا رواه ابن جرير، عن ابن مثنى، عن ابن إدريس، عن أبيه، عن المنهال.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافِي^(١)، حدثنا ابن إدريس، سمعت أبي يذكر عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود: ﴿نورهم يسمى بين أيديهم﴾ [التحریم: ٨]، قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويظنأ أخرى.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا أبو يحيى الحماني، حدثنا عتبة^(٢) بن اليقظان، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فاما المنافق فيظنأ نوره، فالؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين، فهم يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا.

وقال الضحاك بن مزاحم: يعطى كل من كان يظهر الإيمان في الدنيا يوم القيامة نوراً؛ فإذا انتهى إلى الصراط طفئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا، فقالوا: ﴿ربنا أتمم لنا نورنا﴾.

فإذا تقرر هذا صار الناس أقساماً: مؤمنون خلص، وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة، وكفار خلص، وهم الموصوفون بالآيتين بعدها، ومنافقون، وهم قمان: خلص، وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يرددون، تارة يظهر لهم لمع من الإيمان وتارة يخبو^(٣)، وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخف حالاً من الذين قبلهم.

وهذا المقام يشبه^(٤) من بعض الوجوه ما ذكر في سورة التور، من ضرب مثل المؤمن^(٥) وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور، بالمصباح^(٦) في الزجاجية التي كأنها كوكب دري، وهي قلب المؤمن المنظور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله.

ثم ضرب مثل العباد من الكفار، الذين يعتقدون أنهم على شيء، وليوا على شيء، وهم أصحاب الجهل المركب، في قوله:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ الآية [التور: ٣٩].

ثم ضرب مثل الكفار الجهال البسيط، وهم الذين قال [الله]^(٧) فيهم: ﴿أَوْ كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ [التور: ٤٠] فقس الكفار ههنا إلى قسمين: داعية ومقلد، كما ذكرهما في أول سورة الحج: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان

(١) في ج: «الطنافسي» . (٢) في ج: «عتبة» . (٣) في أ: «غير» . (٤) في ج: «وهذا شبه» . (٥) في ج: «المؤمن» . (٦) في ج: «بالمصباح الذي» . (٧) زيادة من ج: «ط» .

مُرِيدٍ [الحج: ٢] وقال بعده: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الحج: ٨] ^(١) وقد قسم الله ^(٢) المؤمنين في أول الواقعة وآخرها ^(٣)، وفي سورة الإنسان، إلى قسمين: سابقون وهم المقربون، وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخص ^(٤) من مجموع هذه الآيات الكريمات: أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين - أيضاً - صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق. كما جاء في الصحيحين، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان» ^(٥).

استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان، وشعبة من نفاق. إما عملى لهذا الحديث، أو اعتقادي كما دلت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء، كما تقدم، وكما سيأتى، إن شاء الله. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو معاوية يعنى شيبان، عن ليث، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراجة فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ومثل الإيمان فيه كمثلي البقلة، يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثلي القرحة يمدّها الصبح والدم، فأى المدتين ^(٦) غلبت على الأخرى غلبت عليه» ^(٧). وهذا إسناد جيد حسن.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ قال: لما تركوا من الحق بعد معرفته.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قال ابن عباس ^(٨): أى إن الله على كل ما أراد بعباده من نعمة، أو عقوب، قدير.

وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وإنه ^(٩) على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير، ومعنى ﴿قَدِيرٌ﴾: قادر، كما أن معنى ﴿عَلِيمٌ﴾: عالم.

(١) في ج، ب: قدم الآية الثامنة على الآية الثالثة من سورة الحج.

(٢) في أ: في أول البقرة وآخرها، وفي ج: في أول سورة الواقعة وفي آخرها.

(٣) في ج: «فلخص».

(٤) في ج: «فلخص».

(٥) صحيح البخاري برقم (٣٦) وصحيح مسلم برقم (٥٨) ولفظه: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً - والرافعة - وإذا خاصم فحرج».

(٦) في ج: «المدتين».

(٧) المسند (١٧/٣).

(٨) في ج، ط، ب: «ابن إسحاق».

(٩) زيادة من ج.

[وذهب ابن جرير الطبري ومن تبعه من كثير من المفسرين أن هذين المثليين مضروبان لصف واحد من المنافقين وتكون «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بمعنى الواو، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمُهُمْ أَنَّمَا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أو تكون للتخيير، أي: أضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا، قاله القرطبي. أو للتساوي مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، على ما وجهه الزمخشري: أن كلا منهما مساوٍ للآخر في إباحة الجلوس إليه، ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم.

قلت: وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين، فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة - ومنهم - ومنهم - ومنهم - يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال، فجعل هذين المثليين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم، والله أعلم؛ كما ضرب المثليين في سورة النور لصنفى الكفار الدعاة والمقلدين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ إلى أن قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَفْشَاءُ مَوْجٌ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠]؛ فالأول للدعاة الذين هم في جهل مركب، والثاني لذوى الجهل البسيط من الاتباع المقلدين، والله أعلم بالصواب^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغهم عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشاً، أي: مهداً كالفرش مفرّقة مبطّنة مثبتة بالرواسي الشامخات، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، وهو السقف، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] وأنزل لهم من السماء ماء - والمراد به السحاب ههنا - في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد؛ رزقاً لهم ولانعامهم، كما قرر هذا في غير موضع^(٢) من القرآن. ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا^(٣) وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَبَارِكُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار، وساكنيها، ورازقهم، فهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وفي الصحيحين عن ابن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنوب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً، وهو خالقك» الحديث^(٤). وكذا حديث معاذ:

(١) زيادة من جده ط، ب، أ، و. (٢) في جده: غير هذا الموضع.

(٣) في جده: «قَرَارًا» وهو خطأ.

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٧٦٦) وصحيح مسلم برقم (٦٨).

«أتدري ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه لا^(١) يشركوا به شيئاً» الحديث^(٢)، وفي الحديث الآخر: «لا يقولن أحدكم: ما شاء الله وشاء فلان. ولكن ليقل^(٣): ما شاء الله، ثم شاء فلان»^(٤).

وقال حماد بن سلمة: حدثنا عبد الملك بن عمير، عن ربيع بن حراش، عن الطفيل بن سخيرة، أخت عائشة أم المؤمنين لأمها، قال: رأيت فيما يرى النائم، كأنى أتيت على نفر من اليهود، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. قال: ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى. قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «هل أخبرت بها أحداً؟» فقلت: نعم. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلمت كلمة كان ينبغي كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده». هكذا رواه ابن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة، به^(٥). وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر، عن عبد الملك بن عمير به، بنحوه^(٦).

وقال مفيان بن سعيد الثوري، عن الأجلح بن عبد الله الكندي، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس، قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلت لله ندا^(٧)؟ قل: ما شاء الله وحده». رواه ابن مردويه، وأخرجه النسائي، وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس، عن الأجلح، به^(٨).

وهذا كله صيانة، وحماية لجناب التوحيد، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ للفريقتين جميعاً من الكفار والمنافقين، أي: وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم.

وبه عن ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يوزقكم غيره وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه

(١) في ج: «ولا».

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٣٧٣) ومسلم في صحيحه برقم (٣٠).

(٣) في ج: «ليقولن».

(٤) رواه أبو داود في السنن برقم (٤٩٨٠) من حديث حذيفة رضى الله عنه.

(٥) ورواه الإمام أحمد في المسند (٧٢/٥) من طريق بهز وعثمان عن حماد بن سلمة به.

(٦) رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢١١٨) عن هشام بن عمار، عن مفيان، عن عبد الملك بن عمير به. وقال البوصيري في الزوائد

(١٥١/٢): «هذا إسناده رجاله ثقات على شرط البخاري لكنه منقطع بين مفيان وبين عبد الملك بن عمير».

(٧) في ج: «أنداداً».

(٨) سنن النسائي الكبرى برقم (١٠٨٢٥) وسنن ابن ماجه برقم (٢١١٧) وقال البوصيري في الزوائد (١٥٠/١): «هذا في الأجلح بن

عبد الله، مختلف فيه».

الرسول ﷺ من توحيدِهِ هو الحق الذي لا شك فيه . وهكذا قال قتادة .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، حدثنا أبي عمرو، حدثنا أبي الضحاك بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس، في قول الله، عز وجل^(١): ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا [وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ]﴾^(٢) قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من ديبب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبه هذا لاتانا للصوص، ولولا البط في الدار لاتي للصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلان». هذا^(٣) كله به شرك.

وفي الحديث: أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني لله ندا». وفي الحديث الآخر: «نعم القوم أنتم، لولا أنكم تنددون، تقولون: ما شاء الله، وشاء فلان».

قال^(٤) أبو العالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾: أي عدلاء شركاء. وهكذا قال الربيع بن أنس، وقاتدة، والسدي، وأبو مالك: وإسماعيل بن أبي خالد.

وقال مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل.

ذكر حديث في معنى هذه الآية الكريمة:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو خلف موسى بن خلف، وكان يُعد من البدلاء، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده محطور، عن الحارث الأشعري: أن نبي الله ﷺ قال: «إن الله، عز وجل، أمر يحيى بن زكريا، عليه السلام، بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكان يبطئ بها، فقال له عيسى، عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغين، وإما أن ابليهن. فقال: يا أخي، إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي». قال: «فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد، فقعده على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وأمركم أن تعملوا بهن، وأولهن: أن تعبدوا الله^(٥) لا تشركوا به شيئا، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بوزن أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلته^(٦) إلى غير سيده فأيكف يسره^(٧) أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأمركم بالصلاة؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما ثم يلتفت. فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة، كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم عند الله أطيب^(٨) من ريح المسك. وأمركم بالصدقة؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فشدها يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدي

(١) في ج: «تعالى».

(٢) زيادة من ج، ط.

(٣) في ج: «وقال».

(٤) في ج: «وعمله».

(٥) في ج: «الله وحده».

(٦) في ج: «يسره».

(٧) في ب: «أطيب عند الله».

نفسى^(١)؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه. وأمركم بذكر الله كثيراً؛ وإن مثل ذلك كمثّل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا أمركم بخمس بالله: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله؛ فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جئى جهنم». قالوا: يا رسول الله، وإن صام وصلى^(٢)؟ فقال: «وإن صلى وصام^(٣) وزعم أنه مسلم؛ فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم^(٤) الله، عز وجل: المؤمنين المؤمنين عباد الله^(٥)».

هذا حديث حسن، والشاهد منه في هذه الآية قوله: «وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً».

وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع فقال: وهى دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطابعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه. كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

وحكى فخر الدين عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل باختلاف اللغات والأصوات والنعومات، وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارئ تعالى، فقال لهم: دعونى فإنى منكر فى أمر قد أخبرت عنه ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهى مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخرق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!! فهبت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

وعن الشافعى: أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق الثوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبعير والآنعام فتلقيه بعرأ وروثاً، وتأكله الطباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد.

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: ههنا حصن حصين أملىس، ليس له باب

(١) فى ج، ب، أ، د: نفس منكم. (٢) فى ج: وصلى وزعم أنه مسلم. (٣) فى أ: أوصل صلى وإن صام.

(٤) فى ج، ط: قبل بما سماهم.

(٥) المسند (٤/١٣٠).

ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت ملبح، يعنى بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة.

ومثل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل فى نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجن شاخصات	بأحداق هى الذهب اليك
على قصب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز:

فيا عجباً كيف يعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية	تدل على أنه واحد

وقال آخرون: من تأمل هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار المنيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم فى كل يوم وليلة دويرة ولها فى أنفسها سير يخصصها، ونظر إلى البحار الملتفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة فى الأرض لتقر ويسكن ساكنيها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]، وكذلك هذه الانهار السارحة من قطر إلى قطر لمنافع العباد وما زرأ فى الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأرابيح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء، علم وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ونطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات فى القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم شرع تعالى فى تقرير النبوة بعد أن قرر أنه ^(١) لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعنى: محمداً ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك.

(١) فى: آيات.

قال ابن عباس: ﴿شُهَدَاءُكُمْ﴾ أعوانكم [أى: قوماً آخرين يساعدونكم على ذلك] (١).

وقال السدي، عن أبي مالك: شركاءكم [أى استعينوا بالهتكم فى ذلك بمدونكم وينصروكم] (٢).

وقال مجاهد: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ قال: ناس يشهدون به [يعنى: حكام الفصحاء] (٣).

وقد تحدهم الله تعالى بهذا فى غير موضع من القرآن، فقال فى سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَمْدٌ مِّنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩] وقال فى سورة سبحان: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال فى سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، وقال فى سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨] وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحدهم [الله تعالى] (٤) بذلك - أيضاً - فى المدينة، فقال فى هذه الآية: ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْهُ﴾ [فى] (٥) شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعنى: محمداً ﷺ. ﴿فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ﴾ يعنى: من مثل [هذا] (٦) القرآن؛ قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير. بدليل قوله: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] وقال بعضهم: من مثل محمد ﷺ، يعنى: من رجل أمى مثله. والصحيح الأول؛ لأن التحدى عام لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأمم، وقد (٧) تحدهم بهذا فى مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَئِن تَفْعَلُوا﴾ «ولن: لئنى التأييد» (٨)، أى: ولن تفعلوا ذلك أبداً. وهذه - أيضاً - معجزة أخرى، وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبداً (٩)، وكذلك وقع الأمر، ثم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز قنونا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٍ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾: [هود: ١]، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، فقد أخرج عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال: ﴿وَوَسَّمتْ كَلِمَتَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أى: صدقاً فى الاخبار وعدلاً فى الاحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء،

(١ - ٣) زيادة من ج، ط.

(٤) زيادة من ج، ط.

(٥) زيادة من ج، ط.

(٦) زيادة من أ، و.

(٧) فى أ: وهو قد.

(٨) فى ج، ب، ا، و: التأييد فى المستقبل.

(٩) فى ج، ط، ا: «أبد الأبدين ودمر الدهرين».

كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه، ونجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سجع، أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعبر على التعبير على الشيء الخفى أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجدد له فيها بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرهما هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً من فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكررت حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشع منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والأذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، كما قال في الترغيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال في الترهيب: ﴿أَفَأَمْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٨]، ﴿أَأَمْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورٌ. أَمْ أَمْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقال في الزجر: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [المنكوت: ٤٠]، وقال في الوعد: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإوعها سمعك فإنه خير ما يأمر به أو شر ينهى عنه. ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأولياته وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والمذاب الآليم، بشرت به وحذرت وأندرت؛ ودعيت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الآخرة، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

ولهذا ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله

إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا^(١) يوم القيامة» لفظ^(٢) مسلم. وقوله: «وإنما كان الذي أوتيته وحياً» أي: الذي اختصاصت به من بينهم هذا القرآن المعجز^(٣) للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية، فإنها ليست معجزة [عند كثير من العلماء]^(٤)، والله أعلم. وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته، وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، والله الحمد والمنة.

[وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصوفية، فقال: إن كان هذا القرآن معجزاً في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا في قواهم معارضته، فقد حصل المدعى وهو المطلوب، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له، كان ذلك دليلاً على أنه من عند الله؛ لصفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته، كما قررنا، إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق وبهذه الطريقة أجاب فخر الدين في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر و﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أما الرقود، بفتح الواو، فهو ما يلقى في النار لإضرارها كالخشب ونحوه، كما قال: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

والمراد بالحجارة هنا: هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، وهي أشد الأحجار حراً إذا حميت، أجارنا الله منها.

قال عبد الملك بن ميسرة الزرّاد^(٦)، عن عبد الرحمن بن سابط، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن مسعود، في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ قال: هي حجارة من كبريت، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا، يعدها للكافرين. رواه ابن جرير، وهذا لفظه. وابن أبي حاتم، والحاكم في مستدركه وقال: على شرط الشيخين^(٧).

وقال السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: أما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود، يعذبون به مع النار.

وقال مجاهد: حجارة من كبريت أتت من الجيفة. وقال أبو جعفر محمد بن علي: [هي]^(٨) حجارة من كبريت. وقال ابن جريج: حجارة من كبريت أسود في النار، وقال لي عمرو بن دينار:

(١) في ج: «تبعاً».

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٩٨١). وصحيح مسلم برقم (١٥٢).

(٣) في ط: «الفهم».

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ.

(٥) زيادة من ج، ط، ب.

(٦) في ج: الرزاد.

(٧) تفسير الطبري (٢٨١/١) وتفسير ابن أبي حاتم (٨٥/١) والمستدرک (٦١/٢).

(٨) زيادة من ج.

أصلب من هذه الحجارة وأعظم.

زوقيل: المراد بها: حجارة الأصنام والانداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٨]؛ حكاه القرطبي وفخر الدين ورجحه على الأول؛ قال: لأن أخذ النار في حجارة الكبريت ليس بمنكر فجعلها هذه الحجارة أولى، وهذا الذي قاله ليس بقوى؛ وذلك أن النار إذا أضمرت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد حرها وأقوى لسعيرها، ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك، ثم إن أخذ النار في هذه الحجارة - أيضا - مشاهد، وهذا الجص يكون أحجاراً فتعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك. وكذلك سائر الأحجار تفخرها النار وتحرقها. وإنما مبيتى هذا في حر هذه النار التي وعدوا بها، وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال: ﴿كُلَّمَا حَبَّتْ ذُرَاتُهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وهكذا رجح القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسعر بها النار لتحمى ويشند لهبها قال: ليكون ذلك أشد عذاباً لأهلها، قال: وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مؤذ في النار» وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف^(١)، ثم قال القرطبي: وقد فسر بمعنيين، أحدهما: أن كل من أذى الناس دخل النار^(٢)، والآخر: كل ما يؤذى فهو في النار يتأذى به أهلها من السباع والبهائم وغير ذلك^(٣).

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: الاظهر أن الضمير في ﴿أُعِدَّتْ﴾، عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عوده إلى الحجارة، كما قال ابن مسعود، ولا منافاة بين القولين في المعنى؛ لأنهما متلازمان.

و ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي: أُرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله، كما قال [محمد]^(٤) بن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر.

وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي: أُرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها: «تحتاج الجنة والنار»، ومنها: «استأذنت النار ربها فقالت: رب أكل بعضى بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف»، وحديث ابن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا حجر ألقى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها» وهو عند مسلم^(٥)، وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا ووافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الأندلس.

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٢٩٩/١١) من طريق المفيد عن الأشج، عن علي رضي الله عنه به مرفوعاً.

(٢) في أ: «عذب في النار».

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٤) زيادة من ج.

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٤).

تنبيه ينبغى الوقوف عليه:

قوله: ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ وقوله في سورة يونس: ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس: ٣٨] يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة؛ لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها، وهذا ما أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً، وقد قال الإمام العلامة فخر الدين الرازي في تفسيره: فإن قيل: قوله: ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يتناول سورة الكوثر وسورة العصر، و﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن. فإن قلت: إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدور البشر كان مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة^(١) إلى الدين: قلنا: فلماذا السبب اخترنا الطريق الثاني، وقلنا: إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود، وإن لم يكن كذلك، كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزاً^(٢)، فعلى التقديرين يحصل المعجز^(٣)، هذا لفظه بحروفه. والصواب: أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة.

قال الشافعي، رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لكففتهم: ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَبِي خَسِرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر]. وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال: وما هي؟ فقال: ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَبِي خَسِرٍ ﴾، ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل على مثلها، فقال: وما هو؟ فقال: يا وبر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر فقير، ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني لأعلم إنك تكذب^(٤).

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢٥)

لما ذكر تعالى ما أعد له لأعدائه من الأشقياء الكافرين به^(٥) وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به^(٦) وبرسله، الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. وهذا معنى تسمية القرآن «مثنى» على أصح أقوال^(٧) العلماء، كما منبسطه في موضعه، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه. وحاصله ذكر الشيء ومقابله. وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه، كما سنوضحه إن شاء الله؛ فلماذا قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾، فوصفها بأنها تجري من تحتها

(١) في أ: «الفهم».

(٢) في أ: «معجز».

(٣) في أ: «الفهم».

(٤) سبأني الكلام على هذه القصة عند تفسير سورة العصر.

(٥) في ج: «قولي».

(٦) في ج: «بالله تعالى».

الأنهار، كما وصف النار بأن وقودها الناس والحجارة، ومعنى ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: من تحت أشجارها وغرفها، وقد جاء فى الحديث: أن أنهارها تجري من ^(١) غير أخدود، وجاء فى الكوثر أن حافته قباب اللؤلؤ المجوف، ولا منافاة بينهما، وطینها المسك الأذقر، وحصاؤها اللؤلؤ والجوهر، نال الله من فضله [وكرمه] ^(٢) إنه هو البر الرحيم.

وقال ابن أبى حاتم: قرئ على الربيع بن سليمان: حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن ثوبان، عن عطاء بن قرة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تُفجر من تحت تلال - أو من تحت جبال - المسك» ^(٣).

وقال أيضا: حدثنا أبو سعيد، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تفجر من جبل مسك.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾: قال السدى فى تفسيره، عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: إنهم أتوا بالثمرة فى الجنة، فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذى رزقنا من قبل فى [دار] ^(٤) الدنيا. —

وهكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ونصره ابن جرير.

وقال عكرمة: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال: معناه: مثل الذى كان بالأمس، وكذا قال الربيع بن أنس. وقال مجاهد: يقولون: ما أشبهه به.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل تأويل ذلك هذا الذى رزقنا من ثمار الجنة من قبل هذا ^(٥)، لشدة مشابهة بعضه بعضاً، لقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال سئد بن داود: حدثنا شيخ من أهل المصيبة، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبى كثير، قال: يؤتى أحدهم بالصحفة ^(٦) من الشيء، فيأكل منها ثم يؤتى ^(٧) بأخرى فيقول: هذا الذى أتينا به من قبل. فتقول الملائكة: كل، فاللون واحد، والطعم مختلف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عامر ^(٨) بن يأسف، عن يحيى ابن أبى كثير، قال: عشب الجنة الزعفران، وكتبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها ^(٩)، ثم يؤتون بمثلها، فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذى أتيتونا أنفاً به، فيقول لهم الولدان: كلوا، فإن اللون واحد، والطعم مختلف. وهو قول الله تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ قال: يشبه

(١) فى ج، ط، ب، أ، وا، هـ. (٢) زيادة من ج، ط، ب.

(٣) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ٨٧) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣١٣) من طريق الربيع بن سليمان به، ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٦٢٢) «موارد» من طريق الفراء عن أسد بن موسى عن ابن ثوبان به.

(٤) زيادة من ج. (٥) فى ج: «هذه».

(٦) فى ج، ب: «بالصحيفة».

(٧) فى ج: «فأكلوا».

(٨) فى أ: «عباس».

(٩) فى ج: «بأنى».

بعضه بعضاً، ويختلف في الطعام.

وقال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، والربيع بن أنس، والسدي، نحو ذلك.

وقال ابن جرير بإسناده عن السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِ مَثَابَهُ﴾ يعني: في اللون والرأى، وليس يشبهه^(١) في الطعام.

وهذا اختيار ابن جرير.

وقال عكرمة: ﴿وَأَتُوا بِهِ مَثَابَهُ﴾ قال: يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أطيب.

وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء. وفي رواية: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء. رواه ابن جرير، من رواية الثوري، وابن أبي حاتم من حديث أبي معاوية كلاهما عن الأعمش، به.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَتُوا بِهِ مَثَابَهُ﴾ قال: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا: التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا في الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأتوا به مثابها، يعرفونه وليس هو مثله في الطعام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: مطهرة من القدر والأذى.

وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام والبراق والمنى والولد.

وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم. وفي رواية عنه: لا حيض ولا كلف. وروى عن عطاء والحسن والضحاك وأبي صالح وعطية والسدي نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: المطهرة التي لا تحيض. قال: وكذلك خلقت حواء، عليها السلام، حتى عصت، فلما عصت قال الله تعالى: إني خلقتك مطهرة وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة. وهذا غريب.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثني جعفر بن محمد بن حرب، وأحمد بن محمد الجوري^(٢)، قالوا: حدثنا محمد بن عبيد الكندي، حدثنا عبد الرزاق بن عمر البزيعي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن شعبة، عن قتادة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: «من الحيض والغائط والنخاعة والبراق»^(٣).

هذا حديث غريب. وقد رواه الحاكم في مستدرکه، عن محمد بن يعقوب، عن الحسن بن علي ابن عفان، عن محمد بن عبيد، به. وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(١) في ج: «يشبه». (٢) في ج: ط، ب: الجوازي.

(٣) رواه أبو نعيم في صفة الجنة برقم (٣١٣) من طريق عبد الله بن محمد بن يعقوب عن محمد بن عبيد به.

وهذا الذي ادعاه فيه نظر؛ فإن عبد الرزاق بن عمر البزيمي^(١) هذا قال فيه أبو حاتم بن حبان البستي: لا يجوز الاحتجاج به^(٢).

قلت: والظاهر أن هذا من كلام قتادة، كما تقدم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: هذا^(٣) هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء، بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام، والله المسؤول أن يحشرنا في زمرة نعيم، إنه جواد كريم، بر رحيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)﴾.

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعني قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] وقوله: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الامثال، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: لما ذكر الله العنكبوت والذباب، قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله [تعالى هذه الآية]^(٤): ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾^(٥).

وقال سعيد، عن قتادة: أي إن الله لا يستحي من الحق أن يذكر شيئاً ما، قل أو كثر، وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾.

قلت: العبارة الأولى عن قتادة فيها إشعار أن هذه الآية مكية، وليس كذلك، وعبارة رواية سعيد، عن قتادة أقرب والله أعلم. وروى ابن جرير عن مجاهد نحو هذا الثاني عن قتادة.

وقال ابن أبي حاتم: روى عن الحسن وإسماعيل بن أبي خالد نحو قول السدي وقاتادة.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في هذه الآية قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا؛ إذ

(١) فر ١: «الربيع».

(٢) الجرحين (٢/ ١٦٠).

(٣) في ج، ط: «وهذا».

(٤) زيادة من ط.

(٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٤).

البعوضة تحيا ما جاءت، فإذا سمنت ماتت. وكذلك مثل هؤلاء^(١) القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن، إذا امتلؤوا من الدنيا رياء أخذهم الله تعالى عند ذلك، ثم تلا: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

هكذا رواه ابن جرير، ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية، بنحوه، فالله أعلم.

فهذا اختلافهم في سبب النزول، وقد اختار ابن جرير ما حكاه السدي؛ لأنه أمس بالسورة، وهو مناسب، ومعنى الآية: أنه تعالى أنخبر أنه لا يستحي، أي: لا يستنكف، وقيل: لا يخشى أن يضرب مثلاً ما، أي: أي مثل كان، بأي شيء كان، صغيراً كان أو كبيراً.

وما «ههنا للتقليل»^(٢)، وتكون ﴿بَعُوضَةً﴾ منصوبة على البدل، كما تقول: لأضربن ضرباً ما، فيصدق بأدنى شيء [أو تكون «ما» نكرة موصوفة ببعوضة]^(٣). واختار ابن جرير أن ما موصولة، و﴿بَعُوضَةً﴾ معربة بإعرابها، قال: وذلك سائغ^(٤) في كلام العرب، أنهم يعربون صلة ما ومن إعرابهما لأنهما يكونان معرفة تارة، ونكرة أخرى، كما قال حبان بن ثابت:

وَكَفَى^(٥) بِنَا فَضْلاً عَلَيَّ مَنْ غَيْرِنَا حُبَّ^(٦) النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا^(٧)

قال: ويجوز أن تكون ﴿بَعُوضَةً﴾ منصوبة بحذف الجار، وتقدير الكلام: إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها.

[وهذا الذي اختاره الكسائي والفراء. وقرأ الضحاك وإبراهيم بن أبي عبلة ورويت «بعوضة» بالرفع، قال ابن جنى: وتكون صلة لما وحذف العائد كما في قوله: ﴿ تَمَاماً عَلَيَّ الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ [الأنعام: ١٥٤] أي: على الذي أحسن هو أحسن، وحكى سيويه: ما أنا بالذي قاتل لك شيئاً، أي: يعني بالذي هو قاتل لك شيئاً]^(٨).

وقوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما: فما دونها في الصغر، والحقارة، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح، فيقول السامع^(٩): نعم، وهو فوق ذلك، يعني فيما وصفت. وهذا قول الكسائي وأبي عبيدة، قال الرازي: وأكثر المحققين، وفي الحديث: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(١٠). والثاني: فما فوقها: فما هو أكبر منها؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة. وهذا [قول قتادة بن دعامة]^(١١) اختار ابن جرير.

(١) في أ: اهذأ. (٢) في ج، ط، ب، أ، و: التقليل زائدة. (٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٤) في ج، أ، و: «سائغ». (٥) في ج، ب، أ، و: «يكفى». (٦) في ج: «احث».

(٧) البيت في تفسير الطبري (١/ ٤٠٤).

(٨) زيادة من ج، ط، ب. (٩) في ج: «القابل».

(١٠) رواه الترمذي في السنن برقم (٢٣٢٠) من طريق عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم، عن سهل بن سعد رضى الله عنه به مرفوعاً، وفيه عبد الحميد بن سليمان ضعيف.

(١١) زيادة من ج، ط.

[ويؤيده ما رواه مسلم عن عائشة، رضى الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «لما من مسلم يشاك شوكاً فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحبت عنه بها خطيئة»^(١)].^(٢)

فأخبر أنه لا يستصغر^(٣) شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان فى الخقارة والصغر كالبعوضة، كما لم يستكف عن خلقها كذلك لا يستكف من^(٤) ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفْذُوهُ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَظْلُوبِ﴾ [الحج: ١٧٣]، وقال: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ - تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ - وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ - يَثِبَتْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ [وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا]^(٥)﴾ [النحل: ٧٥] ثم قال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ [هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ]^(٦)﴾ [النحل: ٧٦]، كما قال: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ [وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ]^(٧)﴾ [الزمر: ٢٩]، وقد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفى القرآن أمثال كثيرة.

قال بعض السلف: إذا سمعت المثل فى القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾.

وقال مجاهد قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾: الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم، ويهديهم الله بها.

وقال قتادة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أى: يعلمون أنه كلام الرحمن، وأنه من عند الله.

وروى عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك.

وقال أبو العالية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعنى: هذا المثل: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، كما قال فى سورة المدثر: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتابَ الَّذِينَ

(١) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٢).

(٢) زيادة من ج، ط، أ، و. (٣) فى ج: لا يستكف. (٤) زيادة من ج، ط.

(٥) زيادة من ج، ط. (٦) (٧) زيادة من ج.

أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴿ المدثر: ٣١ ﴾، وكذلك قال ههنا: ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ﴾.

قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿ يضل به كثيراً ﴾ يعني: المنافقين، ﴿ ويهدي به كثيراً ﴾ يعني المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالهم^(١) لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً، من المثل الذي ضربه الله بما ضربه لهم^(٢)، وأنه لما ضربه له موافق، فذلك^(٣) إضلال الله إياهم به ﴿ ويهدي به ﴾ يعني بالمثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق ما^(٤) ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ قال: هم المنافقون^(٥).

وقال أبو العالية: ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾: قال: هم أهل النفاق. وكذا قال الربيع بن أنس. وقال ابن جريج عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ يقول: يعرفه الكافرون فيكفرون به.

وقال قتادة: ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾: فتروا، فأضلهم الله على فستهم. وقال ابن أبي حاتم: حدثت عن إسحاق بن سليمان، عن أبي سنان، عن عمرو بن مرة، عن مصعب بن سعد، عن سعد ﴿ يضل به كثيراً ﴾: يعني الخوارج.

وقال شعبة، عن عمرو بن مرة، عن مصعب بن سعد، قال: سألت أبي فقلت: قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ إلى آخر الآية، فقال: هم الخوارجية. وهذا الإسناد إن صح عن سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، فهو تفسير على المعنى، لا أن^(٦) الآية أريد منها التنصيص على الخوارج، الذين خرجوا على علي بالنهروان، فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل؛ لأنهم سموا خوارج لخروجهم على^(٧) طاعة الإمام والقيام بشرائع الإسلام.

والفاسق في اللغة: هو الخارج عن الطاعة أيضاً. وتقول العرب: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها^(٨)؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة، لخروجها عن جحرها للفساد. وثبت في الصحيحين، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمسة فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب، والأخدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور»^(٩).

(١) في ج: ب: «ضلالهم».

(٢) في ج: «موافق ذلك».

(٣) في ج: «موافق ذلك».

(٤) في أ: «أهل النفاق».

(٥) في ج: ب: «عن».

(٦) في ج: «لأن»، وفي ط: «إلا أن».

(٧) في أ: «قشرها».

(٨) صحيح البخاري برقم (٣٣١٤) وصحيح مسلم برقم (١١٩٨).

فالفاسق يشمل^(١) الكافر والمعاصي، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر، والله أعلم، بدليل^(٢) أنه وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وهذه الصفات صفات الكفار المبينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ. وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ الآيات، إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٥].

وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه، وعلى لسان رسوله. ونقضهم^(٣) ذلك هو تركهم العمل به.

وقال آخرون: بل هي^(٤) في كفار أهل الكتاب والمناقين منهم، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك [عن^(٥) الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق لبيئته للناس ولا يكتُمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وقول مقاتل بن حيان].

وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق. وعهده إلى جميعهم في توحيدهم: ما وضع لهم^(٦) من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسوله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها^(٧) الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك: تركهم^(٨) الإقرار بما ثبت لهم صحتهم بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق، وروى أيضاً عن مقاتل بن حيان^(٩) نحو هذا، وهو حسن، [والإيه مال الزمخشري، فإنه قال: فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز في عقولهم من الحجج على التوحيد، كأنه أمر وصاحم به ووثقه عليهم وهو معنى قوله: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الاعراف: ١٧٢] إذ أخذ الميثاق عليهم في الكتب المنزلة عليهم لقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]^(١٠).

وقال آخرون: العهد الذي ذكره [الله]^(١١) تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من

(١) في ج: يشمل.
(٢) في ط: الدليل.
(٣) في ج: وينقضهم.
(٤) في ج: وهو.
(٥) زيادة من ج، ط.
(٦) في ج: إليهم.
(٧) في و: بمثلها.
(٨) في ج: عدم.
(٩) في ج، ط، أ، و: من حيان أيضاً.
(١٠) زيادة من ج، ط، أ، و.
(١١) زيادة من ج.

صَلَبَ آدَمَ الَّذِي وَصَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ [شَهِدْنَا] ﴿١١﴾﴾ [الاعراف: ١٧٢، ١٧٣] ونقضهم^(٢) ذلك تركهم الرفاء به. وهكذا روى عن مقاتل بن حيان أيضاً، حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ إلى قوله: ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ قال: هي ست خصال من^(٣) المنافقين إذا كانت فيهم الظَّهْرَةُ^(٤) على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا أؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظَّهْرَةُ^(٥) عليهم أظهروا الخصال^(٦) الثلاث: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا أؤتمنوا خانوا.

وكذا^(٧) قال الربيع بن أنس أيضاً. وقال السدي في تفسيره بإسناده، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قال: هو ما عهد إليهم في القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقربات، كما فسره قتادة بقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] ورجحه ابن جرير. وقيل: المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه.

وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. قال^(٨): في الآخرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء نسيه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر، فلما يعني به الكفر، وما نسيه إلى أهل الإسلام فلانما يعني به الذنب.

وقال ابن جرير في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الخاسرون: جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم [و]^(٩) حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، وكذلك الكافر والنافق خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أخرج ما كانوا إلى رحمته، يقال منه: خسر الرجل يخسر خسراً وخسراً وخساراً، كما قال جرير بن عطية^(١٠):

إِنْ سَلَيْطًا فِي الْخَسَارِ إِنَّهُ أَوْلَادُ قَوْمٍ خَلَقُوا أَقْنَتَهُ^(١١)

(١) زيادة من جـ.

(٢) في جـ: «ونقضهم».

(٣) في جـ: «ط: أي».

(٤) (٥) في جـ: «الظهيرة».

(٦) في جـ: «أخضروا هذه الخصال».

(٧) في جـ: «وقال».

(٨) في أ: «أي».

(٩) زيادة من جـ.

(١٠) في أ: «حطية».

(١١) البيت في تفسير الطبري (١/ ٤١٧).

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨).

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف في عباده: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أى: كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره! ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أى: قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، وقال: ﴿هَلْ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] والآيات في هذا كثيرة.

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن معبود، رضى الله عنه: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] قال: هي التي في البقرة: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

وقال ابن جرير^(١)، عن عطاء، عن ابن عباس ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾: أمواتا في أصلاب آباتكم، لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم، ثم يميتكم مودة الحق، ثم يحييكم حين يبعثكم. قال: وهي مثل قوله: ﴿رَبَّنَا﴾^(٢) أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم^(٣)، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى. فهذه ميتان وحياتان، فهو كتوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

وهكذا روى عن السدي بسنده، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن معبود وعن ناس من الصحابة - وعن أبي العالية والحسن البصري ومجاهد وقتادة وأبي صالح والضحاك وعطاء الخراساني نحو ذلك.

وقال الثوري، عن السدي عن أبي صالح: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قال: يحييكم^(٤) في القبر^(٥)، ثم يميتكم.

وقال ابن جرير عن يونس، عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ خلقهم في^(٦) ظهر آدم ثم أخذ^(٧) عليهم الميثاق، ثم أماتهم ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة. وذلك كقول الله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾.

(١) في ج: ط: «جرير». (٢) زيادة من ج: ط: أ: و. (٣) في ج: «أخلقكم». (٤) في أ: «يحييهم». (٥) في ج: «القبور». (٦) في ج: ط: «من». (٧) في ج: ط: «فأخذ».

وهذا غريب والذي قبله. والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس، وأولئك الجماعة من التابعين، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يَخْتِمْكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

[وعبر عن الحال قبل الوجود بالموت بجامع ما يشتركان فيه من عدم الإحساس، كما قال في الأضنام: ﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١]، وقال: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَاها وَأَخْرَجنا مِنْها حَبًّا فَمَنْهَ يَأْكُلُون﴾ [يس: ٢٣]^(١).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩).

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه في أنفسهم، ذكر دليلاً آخر عما يشاهدونه من خلق السموات والأرض، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: قصد إلى السماء، والاستواء هنا تضمن^(٢) معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدى بالي ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أي: فخلق السماء سبعا. والسماء هنا اسم جنس، فلهذا قال: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وعلمه محيط بجميع ما خلق^(٣). كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تُكْفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وللأرضِ انبِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالا أَنْبِيا طائِعِينَ. ففَضاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحَفِظْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢].

ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتداء بخلق الأرض أولاً، ثم خلق السموات سبعا، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسفله ثم أعاليه بعد ذلك. وقد صرح المفسرون بذلك، كما ستذكره بعد هذا إن شاء الله. فأما قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنَاها. رَفَعَ سَمَكِها فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلِها وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دُحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْها مَاءها وَمَرَعاهَا. وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٢] فقد قيل: إن ﴿ثُمَّ﴾ ههنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر، لا لعطف الفعل على الفعل، كما قال الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده^(٤)

وقيل: إن الدحى كان بعد خلق السموات. رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس.

(١) زيادة من جد، طه، أ، و.

(٢) في ج، ط: «مضمن».

(٣) في ج: «وعلمه محيط بجميع الخلق»، وفي ط: «وعلمه محيط بالأمياء بجميع ما خلق».

(٤) البيت في معنى اللبيب لابن هشام غير منسرب، أ، هـ. مستفادا من حاشية الشعب.

وقد قال السدي في تفسيره، عن أبي مالك - وعن أبي صالح عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ [وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]﴾^(١) قال: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء فسماه عليه، فسماه سماء. ثم أبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين في الأحد والإثنين، فخلق الأرض على حوت، والحوت هو الثور الذي ذكره الله في القرآن: ﴿ثُمَّ وَالْقَلَمِ﴾^(٢)، والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكر^(٣) لقمان - ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت فاضطرب، فترزلت الأرض، فأرسى عليها الجبال فقربت، فالجبال تفخر على الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تُبَدِّيَ بَكُمْ﴾^(٤) [النحل: ١٥]. وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغى لها في يومين، في الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول: ﴿قُلْ أَنتُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ تَحْتِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ٩، ١٠]. يقول: أنبت شجرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ يقول: أقواتها لأهلها ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] يقول: من سأل فهكذا الأمر. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين، في الخميس والجمعة، وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض، ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] قال: خلق الله في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي^(٥) فيها، من البحار وجبال البرد وما لا نعلم، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحفظاً^(٦)، تحفظ من الشياطين. فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش، فذلك حين يقول: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ويقول: ﴿كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال ابن جرير: حدثني المثني، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني أبو معشر عن سعيد بن أبي سعيد، عن عبد الله بن سلام أنه قال: إن الله بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين في الأحد والإثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات في الخميس والجمعة، وفرغ في آخر^(٧) ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم على عجل، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة.

وقال مجاهد في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾

(١) زيادة من جد. (٢) في جد: والقلم وما يسطرون. (٣) في ب: ذكرها. (٤) في جد: أو جعل لها رواسي من فوقها أن تميد بكم، وفي ط: أو جعل لها رواسي أن تميد بكم، وفي ب: أو جعلنا من الأرض رواسي أن تميد بكم. (٥) في جد: ط: الذين. (٦) في أ: وحفظها. (٧) في جد: أو آخر.

﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ قال: بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين، يعنى بعضهن تحت بعض.

وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء، كما قال في آية السجدة: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْفِرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْرَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءِ لِسَانَيْنِ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢] فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة: أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَكَنَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَأَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣١] قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض. وفي صحيح البخاري^(١): أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً، وقد قررنا ذلك في تفسير سورة النازعات، وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠ - ٣٢] ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثابتة والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسير هذه الآية الحديث الذي رواه مسلم والنسائي في التفسير - أيضاً - من رواية ابن جريج قال: أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبي هريرة، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»^(٢).

وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه على بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه^(٣) مرفوعاً، وقد حرر ذلك البيهقي^(٤).

(١) صحيح البخاري (٨/ ٥٥٥) «ضع».

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٠٣) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٠١٠).

(٣) في ج، ط، ب: «فجعل».

(٤) الأسماء والصفات (ص ٢٧٦) وللعلامة عبد الرحمن المجلسي كلام متين في تصحيح هذا الحديث ورد الشبه عنه في كتابه «الأنوار الكاشفة» (ص ١٨٥ - ١٩٠) فليراجع فإنه مهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠) ﴿

يخبر^(١) تعالى بامتثاله على بنى آدم، بتوحيه بذكرهم في الملا الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية [وهو أبو عبيدة]^(٢)، أنه زعم أن «إِذَا» ههنا زائدة، وأن تقدير الكلام: وقال ربك. ورده ابن جرير.

قال القرطبي: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج: هذا اجترأ^(٣) من أبي عبيدة.

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أي: قوما يخلف بعضهم بعضا قونا بعد قون وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال: ﴿ وَيَجْعَلْكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٢]. وقال: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةَ فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴾ [الزحرف: ٦٠]. وقال: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ [مريم: ٥٩]. [وقرئ في الشاذ: «إني جاعل في الأرض خليفة» حكاه الزمخشري وغيره ونقلها القرطبي عن زيد بن علي^(٤). وليس المراد ههنا بالخليفة آدم، عليه السلام، فقط، كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير، حكاه فخر الدين الرازي في تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم عينا إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فإنهم^(٥) إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكانهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من أصناف من حما سنون [أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ويقع بينهم من المظالم ويرد عنهم المحارم والمآثم، قال القرطبي^(٦)، أو أنهم قاسوه على من سبق، كما سذكر أقوال المفسرين في ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبنى آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين [وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي: لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه وههنا لما أعلمهم أنه سيخلق في الأرض خلقا. قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾ الآية^(٧)، وإنما هو سؤال استعمال واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، فتحن نسيح بحمدك وتقدس لك، أي: نصلي لك كما سيأتي، أي: ولا يصدر مني شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: إني أعلم من المصلحة^(٨) الراجعة في خلق هذا الصنف على المقاصد التي ذكرتموها^(٩) ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم

(١) في ج: فأخبره. (٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٣) في أ: اجترأه.

(٤) في ج، ب: «قال الله»

(٥) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٦) (٧) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٨) في ج: الذي ذكرتموها.

(٩) في ج: بالمصلحة.

الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والاولياء، والابرار والمقربون، والعلماء العاملون والخاصعون، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم.

وقد ثبت في الصحيح^(١): ان الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده سألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون. وذلك لانهم يتعاقبون فينا ويجمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيسكت هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه السلام: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل» فقولهم: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقيل: معنى قوله جواباً لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ان لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء والحالة ما ذكرت لا تعلمونها، وقيل: إنه جواب لقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل: بل تضمن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿ طلباً منهم ان يسكنوا الأرض بدل بنى آدم، فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من ان بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم. ذكرها فخر الدين مع غيرها من الأجوبة، والله أعلم.

ذكر أقوال المفسرين يسط ما ذكرناه:

قال ابن جرير: حدثني القاسم بن الحسن قال: حدثنا الحسين قال: حدثني الحجاج، عن جرير ابن حازم، ومبارك، عن الحسن وأبي بكر، عن الحسن وقتادة، قالوا: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إني فاعل. وهذا معناه أنه أخبرهم بذلك.

وقال السدي: استشار الملائكة في خلق آدم. رواه ابن أبي حاتم، قال^(٢): وروى عن قتادة نحوه. وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الأخبار ففيها تساهل، وعبارة الحسن وقتادة في رواية ابن جرير أحسن، والله أعلم.

﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد^(٣)، حدثنا عطاء ابن السائب، عن عبد الرحمن بن سابط أن رسول الله^(٤) ﷺ قال: «دُحِيتِ الْأَرْضُ مِنْ مَكَّةَ، وَأَوَّلُ مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْمَلَكُوتِ، فَقَالَ اللَّهُ: إني جاعل في الأرض خليفته، يعني مكة^(٥)».

وهذا مرسل، وفي سنده ضعف، وفيه مُدْرَجٌ، وهو أن المواد بالأرض مكة، والله أعلم؛ فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك.

﴿ خَلِيفَةً ﴾: قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

(١) صحيح مسلم برقم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في ج، ط: «وقال».

(٤) في ج، ط، ب: «النبي».

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٠٨).

(٣) في ج: «أحمد».

قالوا^(١): ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً.

قال ابن جرير: فكان تأويل الآية على هذا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ منى، يخلفنى فى الحكم بين خلقى، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه فى طاعة الله والحكم^(٢) بالعدل بين خلقه. وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقه^(٣) فمن غير خلفائه.

قال ابن جرير: وإنما [كان تأويل الآية على هذا]^(٤) معنى الخلافة التى ذكرها الله إنما هى خلافة قرن منهم قرناً.

قال: والخليفة الفعيلة من قومك، خلف فلان فلاناً فى هذا الأمر: إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]. ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة؛ لأنه خلف الذى كان قبله، فتأم بالأمر مقامه، فكان منه خلفاً.

قال: وكان محمد بن إسحاق يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يقول: ساكتا وعامراً يسكنها ويعمرها خلفاً ليس منكم.

قال ابن جرير: وحدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: أول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضاً. قال: فبعث الله إليهم إبليس، فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم^(٥) بجزائر البحور وأطراف الجبال. ثم خلق آدم وأسكنه إياها، فلذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٦).

وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن ابن سابط: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ قال: يعنون [به]^(٧) بنى آدم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال الله للملائكة: إني أريد أن أخلق فى الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفة وليس لله، عز وجل، خلق إلا الملائكة، والأرض ليس فيها خلق، قالوا: أتعجل فيها من يفسد فيها [ويسفك الدماء]^(٨)؟!

وقد تقدم ما رواه السدي، عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أن الله أعلم الملائكة بما يفعل ذرية آدم، فقالت الملائكة ذلك. وتقدم آنفاً^(٩) ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: أن الجن أفسدوا فى الأرض قبل بنى آدم، فقالت الملائكة ذلك، ففاسوا هؤلاء بأولئك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنائيسى، حدثنا أبو معاوية، حدثنا

(١) فى ج: «قالوا».

(٢) فى ج: «وحكم».

(٣) فى ج: ط: «حقها».

(٤) فى ج: «الحق».

(٥) زيادة من ج.

(٦) تفسير الطبرى (١/ ٤٥٠).

(٧) زيادة من ج: ط: ب: أ: و.

(٨) فى ج: ط: «أيضاً».

(٩) زيادة من ج.

الاعمش، عن بكير^(١) بن الاخنس، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، قال: كان الجن بنو الجن في الارض قبل أن يخلق آدم بالف سنة، فافسدوا في الارض، وسفكوا الدماء، فبعث الله جندا من الملائكة فضربوهم، حتى أحقوهم بجزائر البحور، فقال الله للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾. قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون^(٢).

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تَدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] قال: خلق الله الملائكة يوم الاربعاء وخلق الجن يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة؛ فكفر قوم من الجن، فكانت الملائكة تهبط إليهم في الارض فتقاتلهم، فكانت الدماء بينهم، وكان الفساد في الارض، فمن ثم قالوا: ﴿ أَنَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ كما أفسدت الجن ﴿ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ كما سفكوا.

قال ابن أبي حاتم: وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مبارك ابن فضالة، حدثنا الحسن، قال: قال الله للملائكة: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ قال لهم: إني فاعل. فأمنوا بربههم^(٣)، فعلمهم علماً وطوى عنهم علماً علمه ولم يعلموه، فقالوا بالعلم الذي علمهم: ﴿ أَنَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾؟ ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

قال الحسن: إن الجن كانوا في الأرض يفسدون^(٤) ويسفكون الدماء، ولكن جعل الله في قلوبهم أن ذلك سيكون فقالوا بالقول الذي علمهم.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ أَنَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾: كان [الله]^(٥) أعلمهم أنه إذا كان في الارض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فذلك حين قالوا: ﴿ أَنَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾^(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام الرازي، حدثنا ابن المبارك، عن معروف، يعني ابن خزيب، عن سمع أبا جعفر محمد بن علي يقول: السَّجِّلُ ملك، وكان هاروت وماروت من أعوانه، وكان له في كل يوم ثلاث لمحات ينظرهن في أم الكتاب، فنظر نظرة لم تكن له فابصر فيها خلق آدم وما فيه من الامور، فأسر ذلك إلى هاروت وماروت، وكانا من أعوانه، فلما قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ قال ذلك استطالة على الملائكة.

وهذا أثر غريب. ويتقدير صحته إلى أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين الباقر، فهو نقله عن أهل الكتاب، وفيه نكارة توجب رده، والله أعلم. ومقتضاه أن الذين قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط،

(١) في أ: ابكر.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٩٠-٩١).

(٣) في أ، و: «أمنوا برأبهم».

(٤) في ج: «يفسدون في الارض».

(٥) زيادة من ج، ط، ب، أ.

(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٥).

وهو خلاف السياق.

وأغرب منه ما رواه ابن أبي حاتم - أيضاً - حيث قال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن أبي عبد الله، حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، قال: سمعت أبي يقول: إن الملائكة الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كانوا عشرة آلاف، فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم.

وهذا - أيضاً - إسرائيلى منكر كالذى قبله، والله أعلم.

وقال ابن جرير: إنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما قالت الملائكة ما قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؛ لأن الله أذن لهم^(١) في السؤال عن ذلك، بعد ما أخبرهم^(٢) أن ذلك كائن من بني آدم، فسألته الملائكة، فقالت على التعجب منها: وكيف يعصونك يارب وأنت خالقهم؟! فأجابهم ربهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: أن ذلك كائن منهم. وإن لم تعلموه أنتم ومن بعض من تروونه لى طائعا.

قال: وقال بعضهم: ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك، فكانهم قالوا: يارب خيرنا، مسألة [الملائكة]^(٣) استخبار منهم، لا على وجه الإنكار. واختاره ابن جرير.

وقال سعيد عن قتادة قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فاستشار الملائكة في خلق آدم، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وقد علمت الملائكة من علم الله أنه لا شيء أكره إلى الله من سفك الدماء والفساد في الأرض ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكان في علم الله أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسول وقوم صالحون وساكنتو الجنة، قال: وذكر لنا عن ابن عباس أنه كان يقول: إن الله لما أخذ في خلق آدم قالت الملائكة: ما الله خالق خلقاً أكرم عليه منا ولا أعلم منا، فابتلوا بخلق آدم، وكل خلق مبتلى كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة فقال: ﴿أَتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: التسيب: التسيب، والتقديس: الصلاة^(٤).

وقال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: يقولون: نصلى لك.

وقال مجاهد: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: نعظمك ونكبرك.

(١) في أ، و: اللهم، (٢) في أ، و: ما أخبرهم.

(٣) زيادة من ج.

(٤) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٥).

وقال الضحاك: التقديس: التطهير.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: لا نعصى ولا نأتى شيئاً تكرهه.

وقال ابن جرير: التقديس: هو التعظيم والتطهير، ومنه قولهم: سُبِّحَ قُدُّوسٌ، يعني بقولهم: سُبِّحْ، تنزيه له، ويقولهم: قدوس، طهارة وتعظيم له. ولذلك قيل للأرض: أرض مقدسة، يعني بذلك المطهرة. فمعنى قول الملائكة إذاً: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، نزهك ونبرئك عما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: نسبك إلى ما هو من صفاتك، من الطهارة من الأذناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك.

لوفى صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل: أى الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله للملائكة سبحانه الله وبحمده»^(١). وروى البيهقي عن عبد الرحمن بن قرظ أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به سمع نسيحاً فى السموات العلاء «سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى»^(٢) م^(٣).

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال قتادة: فكان فى علم الله أنه سيكون فى تلك الخليفة أنبياء ورسول وقوم صالحون وساكنو الجنة، وسيأتى عن ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من الصحابة والتابعين أقوال فى حكمة قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقد استدلل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما يختلفون فيه، ويقطع تنازعهم، ويتنصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطى الفواحش، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التى لا يمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة فى أبى بكر، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو يتركه شورى فى جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو ياجتمع أهل الحل والعقد على مبايعته أو مبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور وحكى على ذلك^(٤) إمام الحرمين الإجماع، والله أعلم، أو يقهر واحد الناس على طاعته فتجب لثلا يودى ذلك إلى الشقاق والاختلاف، وقد نص عليه الشافعى.

وهل يجب الإشهاد على عقد الإمامة؟ فيه خلاف، فمنهم من قال: لا يشترط، وقيل: بلى ويكفى شاهدان، وقال الجبائى: يجب أربعة وعاقده ومعقود له، كما ترك عمر، رضى الله عنه، الأمر شورى بين ستة، فوقع الأمر على عاقده وهو عبد الرحمن بن عوف، ومعقود له وهو عثمان، واستنبط

(١) صحيح مسلم برقم (٢٧٣١).

(٢) ورواه أبو نعيم فى الخلية (٧ / ٢) من طريق مسكين بن ميمون عن عروة بن ربيع، عن عبد الرحمن بن قرظ رضى الله عنه به مرفوعاً وسيأتى من رواية الطبرانى عند تفسير الآية: ٤٤ من سورة الإسراء.

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ.

(٤) فى أ: ذلك.

وجوب الأربعة الشهود من الأربعة الباقين وفي هذا نظر، والله أعلم.

ويجب أن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خيراً بالحروب والآراء قرشياً على الصحيح، ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ خلافاً للقلاة الروافض، ولو فسق الإمام هل ينعزل أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام: «إلا أن تروا كفرةً بواحا عندكم من الله فيه برهان»^(١)، وهل له أن يعزل نفسه؟ فيه خلاف، وقد عزل الحسن ابن علي نفسه ومسلم الأمر إلى معاوية لكن كان هذا لعذر وقد مدح علي ذلك.

فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام: «من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان»^(٢). وهذا قول الجمهور، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد منهم إمام الحرمين، وقالت الكرامية: يجوز نصب إمامين فأكثر كما كان علي ومعاوية إمامين واجبي الطاعة، قالوا: وإذا جاز بعث نبين في وقت واحد وأكثر جاز ذلك في الإمامة؛ لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف، وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما، وتردد إمام الحرمين في ذلك، قلت: وهذا يشبه حال خلفاء بني العباس بالعراق والفاطميين بمصر والأمويين بالمغرب.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له. وإنما قدم هذا الفصل على ذلك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم [الله]^(٣) تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر تعالى^(٤) هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

وقال السدي، عن حديثه، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: عرض عليه أسماء ولده إنساناً إنساناً، والدواب، فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الثرس.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: هي هذه الاسماء التي يتعارف

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٠٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٨٥٢) من حديث عرفة رضي الله عنه.

(٣) في ج: «ذكر تبارك وتعالى»، وفي ب: «ذكر الله تعالى».

(٤) زيادة من ج.

بها الناس: إنسان، ودابة، وسما، وأرض، وسهل، وبحر، وجمل^(١)، وحمار، وأشباه ذلك من الأسم وغيرها.

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث عاصم بن كليب، عن سعيد بن معبد، عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم الصحيفة والقدر، قال: نعم حتى الفسوة والفسية^(٢).

وقال مجاهد: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء.

وكذلك روى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف: أنه علمه أسماء كل شيء. وقال الربيع في رواية عنه: أسماء الملائكة. وقال حميد الشامي: أسماء النجوم. وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته كلهم.

واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهذا عبارة عما يعقل. وهذا الذي رجح به ليس بلازم، فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب. كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

[وقد قرأ عبد الله بن مسعود: «ثم عرضهن» وقرأ أبو بن كعب: «ثم عرضها» أي: السموات]^(٣).

والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها: ذواتها وأفعالها؛ كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسية. يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر؛ ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية من كتاب التفسير من صحيحه: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: وقال لي خليفة: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فأشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم؛ ويذكر ذنبه فيستحي؛ اتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتونه فيقول: لست هناكم. ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحي. فيقول: اتوا خليل الرحمن، فيأتونه، فيقول: لست هناكم؛ فيقول: اتوا موسى عبداً كلمه الله، وأعطاه التوراة، فيأتونه، فيقول: لست هناكم. ويذكر قتل النفس بغير نفس، فيستحي من ربه؛ فيقول: اتوا عيسى عبداً الله ورسوله وكلمة الله وروحه، فيأتونه، فيقول: لست هناكم؛ اتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فأنتطق حتى أستاذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيت ربي وقعتُ ساجداً، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل

(١) في ج، ط، ب: «وجمل». (٢) في ج: «الفسوة والفسية». (٣) زيادة من ج، ط، أ، و.

يُسْمَعُ، وَاشْفَعُ تُشْفَعُ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ^(١) يَعْلَمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتَ رَبِّي مِثْلَهُ^(٢)، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ^(٣)، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ: مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ وَوَجِبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ^(٤).

هكذا ساق البخاري هذا الحديث ههنا. وقد رواه مسلم والنسائي من حديث هشام، وهو ابن أبي عبد الله الدستوائي، عن قتادة، به^(٥). وأخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه من حديث سعيد، وهو ابن أبي عروبة، عن قتادة^(٦). ووجه إيراده ههنا والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام: «فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدُ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلِمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ»، فذل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات؛ ولهذا قال: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ» يعني: المسميات؛ كما قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة «فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» ثم عرض الخلق على الملائكة. وقال ابن جريج، عن مجاهد: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ» عرض أصحاب الأسماء على الملائكة.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني الحجاج، عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة، عن الحسن - وأبي بكر، عن الحسن وقاتدة - قالوا: علمه اسم كل شيء، وجعل يسمى كل شيء باسمه، وعرضت عليه أمة أمة.

وبهذا الإسناد عن الحسن وقاتدة في قوله: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»: إني لم أخلق خلقاً إلا كتتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كتتم صادقين. وقال الضحاك عن ابن عباس: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»: إن كتتم تعلمون^(٧) لم أجعل في الأرض خليفة.

وقال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: إن كتتم صادقين أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء.

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله، ومعنى ذلك فقال: أنبئوني بأسماء من عرضت عليكم أيها الملائكة القائلون: أنجعل في الأرض من يفسد فيها ويسفك

(١) في ج: «تحميداً». (٢) في ج: «إذا رأيت ربته عملت مثله».

(٣) في ج: ط: «فأدخلهم الجنة ثم أعود إليه، فإذا رأيت ربي عملت مثله، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة».

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٤٧٦).

(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٩٨٤).

(٦) صحيح مسلم برقم (١٩٣) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٤٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣١٢).

(٧) في ج: «إن كتتم عالمين».

الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسيح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قيلكم: إني إن جعلتُ خليفتي في الأرض من غيركم عصاني ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لى والتفديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الامور الكائنة التي لم توجد أخرى أن تكونوا غير عالمين.

[وقوله]^(١): ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ هذا تقديس وتزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى؛ ولهذا قالوا: ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: العليم بكل شيء، الحكيم فى خلقك وأمرك وفى تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة فى ذلك، والعدل التام.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن حجاج، عن ابن أبى مليكة، عن ابن عباس: سبحان الله، قال: تزيه الله نفسه عن السوء. [قال]^(٢): ثم قال عمر لعلى وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، قد عرفناها^(٣)، فما سبحان الله؟ فقال له على: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن يقال^(٤).

قال: وحدثنا أبى، حدثنا ابن نفيل، حدثنا النضر بن عريب قال: سأل رجل ميمون بن مهران عن السبحان الله، فقال: اسم يعظم الله به، ويحاشى به من السوء.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال زيد بن أسلم. قال: أنت جبريل، أنت ميكائيل، أنت إسرئيل، حتى عدد الاسماء كلها، حتى بلغ الغراب.

وقال مجاهد فى قول الله: ﴿ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ قال: اسم الحمامة، والغراب، واسم كل شيء.

وروى عن سعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة، نحو ذلك.

فلما ظهر فضل آدم، عليه السلام، على الملائكة، عليهم السلام، فى سرّده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أى: ألم أتقدم إليكم أنى أعلم الغيب الظاهر والخبى، كما قال [الله]^(٥) تعالى: ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧]. وكما قال تعالى إخباراً عن الهدهد أنه

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من ج، ط، أ، و. (٣) من ج، ط، أ، عرفناه.

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١/ ١١٧).

(٥) زيادة من أ.

قال سليمان: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [الزلزال: ٢٥، ٢٦].

وقيل في [معنى]^(١) قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ غير ما ذكرناه؛ فروى الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعني: ما كنتم إبليس في نفسه من الكبر والاعتزاز.

وقال السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، قال: قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فهذا الذي أبدوا ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعني: ما أمر إبليس في نفسه من الكبر.

وكذلك قال سعيد بن جبير، ومجاهد، والسدي، والضحاك، والثوري. واختار ذلك ابن جرير. وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة: هو قولهم: لم يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فكان الذي أبدوا قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وكان الذي كتموا بينهم قولهم: لن^(٢) يخلق ربنا خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم. فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم، والكرم.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قصة الملائكة وآدم: فقال الله للملائكة: كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم، إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها، هذا عندي قد علمته؛ ولذلك^(٣) أخفيت عنكم أني أجعل فيها من يعصيني ومن يُطيعني، قال: وسبق من الله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه قال: ولما^(٤) رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أتروا له بالفضل^(٥).

وقال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس، وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾: وأعلم - مع علمي غيب السموات والأرض - ما نظهرونه بالستكم وما كنتم تخفون^(٦) في أنفسكم، فلا يخفى عليّ شيء، سواء عندي سرايركم، وعلانياتكم.

والذي أظهموه بالستهم قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، والذي كانوا يكتُمون ما كان عليه منظوماً إبليس من الخلاف على الله في أوامره^(٧)، والتكبر عن طاعته.

(٢) في ج: «لم».

(٤) في ج: «ط: انقما».

(٧) في ج: «ط: ب: في أمروا».

(١) رواية من ج: «أ، و».

(٣) في ج: «ب: أفذلك».

(٥) تفسير الطبري (١/ ٤٩٧).

(٦) في أ، و: «تخفونه».

قال: وصح ذلك كما تقول العرب: قُتِلَ الجَيْشُ وهُزِمُوا، وإنما قتل الواحد أو البعض، وهزم الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات﴾ [الحجرات: ٤] ذكر أن الذي نادى إنما كان واحداً من بني تميم، قال: وكذلك قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٤)

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم. وقد دل على ذلك أحاديث - أيضاً - كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى، عليه السلام: «رَبُّ، أَرْنِي آدَمَ الَّذِي أَخْرَجْنَا وَنَفَسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ»، فلما اجتمع به قال: «أنت آدم الذي خلقه»^(١) الله بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته. قال: . . . وذكر الحديث كما سيأتي.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عُمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان إبليس من حُرِّ من أحياء الملائكة يقال لهم: الجن، خلقوا من نار السموم، من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، قال: وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحس. قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، [وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا لهبت قال: وخلق الإنسان من طين]^(٢). فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضاً. قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة - وهم هذا الحس الذين يقال لهم: الجن - فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، فلما فعل إبليس ذلك اعترى في نفسه، فقال: قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد. قال: فاطلع الله على ذلك من قلبه، ولم يطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه، فقال الله تعالى للملائكة الذين معه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فقالت الملائكة مجيبين له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ كما أفدت الجن وسفكت الدماء، وإنما بعثنا عليهم^(٣) لذلك؟ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. يقول: إنى قد اطلعت من^(٤) قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واخترازه، قال: ثم أمر بتربة آدم فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب - واللازب: اللزج الصلب^(٥) - من حملاً مسنون منتن، وإنما كان حملاً مسنوناً بعد التراب. فخلق منه آدم بيده، قال: فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى. فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله، فيصلص، أى فيصوت. قال: فبهر قول الله تعالى: ﴿مَنْ صَلَّصَ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] يقول: كالشيء المنفرج الذي ليس

(١) في ب، أ، و: «خلقك».

(٢) في ج: «إليهم».

(٣) في ج: «على».

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٥) في ب، أ، و: «الطيب».

بُصِّمَتْ. قال: ثم يدخل في فيه ويخرج من دبره، ويدخل من (١) دبره، ويخرج من فيه. ثم يقول: لست شيئاً - للصلصلة - ولشيء ما خلقت، ولئن سلطت عليك لاهلكنك، ولئن سلطت على لأعصيتك. قال: فلما نفخ الله فيه من روحه، أنت النفخة من قبل رأسه، فجعل لا يجرى شيء منها في جسده إلا صار لحماً ودماً. فلما انتهت النفخة إلى سُرته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده، فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] قال: ضَجْرًا لا صَبْرًا له على سراء ولا ضراء. قال: فلما تمت النفخة في جسده عطس، فقال: الحمد لله رب العالمين بإلهام الله. فقال [الله] (٣) له: «يرحمك الله يا آدم» (٤). قال: ثم قال [الله] (٥) تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين في السموات: اسجدوا لآدم. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر، لما كان حدث نفسه من الكبر والاعتزاز. فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه وأكبر سنًا وأقوى خلقًا، خلقتني (٦) من نار وخلقته من طين. يقول: إن النار أقوى من الطين. قال: فلما أبى إبليس أن يسجد أبلىه الله، أي: آيسه من الخير كله، وجعله شيطاناً رجيماً عَقُوبَةً لمعصيته، ثم عَلَّمَ آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار، وأشياء ذلك من الأمم وغيرها. ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة، يعني: الملائكة الذين كانوا مع إبليس، الذين خلقوا من نار السموم، وقال لهم: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ يقول: أخبروني بأسماء هؤلاء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: إن كنتم تعلمون لم أجعل في الأرض خليفة. قال: فلما علمت الملائكة موجدة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب، الذي لا يعلمه غيره، الذي ليس لهم به علم قالوا: سبحانك، تنزيهاً لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره، وتبنا إليك ﴿لَا عَلِمْنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ تبرئاً منهم من علم الغيب، إلا ما علمتنا كما علمت آدم، فقال: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ يقول: أخبرهم بأسمائهم ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾ [يقول: أخبرهم] (٧) ﴿بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ أيها الملائكة خاصة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولا يعلم غيري ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ يقول: ما تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعني: ما كنتم إبليس في نفسه من الكبر والاعتزاز (٨).

هذا سياق غريب، وفيه أشياء فيها نظر، يطول مناقشتها، وهذا الإسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور.

وقال السدي في تفسيره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن

(١) في ب: في أ.
 (٢) زيادة من أ، و.
 (٣) زيادة من جـ.
 (٤) زيادة من أ، و.
 (٥) زيادة من أ، و.
 (٦) في جـ: «فخلقتني».
 (٧) في جـ: «فخلقتني».
 (٨) تفسير الطبري (١/ ٤٥٥).

سمود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على ملك السماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجن، وإنما سماها الجن لانهم خزان الجنة، وكان إبليس مع ملكه خازنا، فوقع في صدره كبر وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي علي الملائكة. فلما وقع ذلك الكبر في نفسه^(٢) اطلع الله على ذلك منه. فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا^(٣): ربنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً. قالوا: ربنا، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: من شأن إبليس. فبعث الله جبريل إلى الأرض ليأنيه بطين منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تقبض^(٤) مني أو تشيتني فرجع ولم يأخذ، وقال: رب مني^(٥) عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل، فعاذت منه فأعادها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت فعاذت منه. فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض، وخلط ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبياض وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعد به قبائل التراب حتى عاد طيناً لازباً - واللازب: هو الذي يلتزق ببعضه ببعض - ثم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢] فخلق الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه، ليقول له: تكبر عما عملت يدي، ولم أتكبر أنا عنه. فخلق^(٦) بشراً، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففرغوا منه لما رأوه، وكان أشدهم فرعاً منه^(٧) إبليس. فكان يمر به فيضوبه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار وتكون له صلصلة. فذلك حين يقول: ﴿مَنْ صَلَّاتٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ويقول: لأمر ما خلقت. ودخل من فيه فخرج من دبره، وقال للملائكة: لا توهبوا من هذا، فإن ربكم صمدٌ وهذا أجوف. لئن سلطت عليه لاهلكته، فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له. فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه، عطس، فقالت الملائكة: قل: الحمد لله. فقال: الحمد لله. فقال له الله: رحمتك ربك. فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة. فلما دخل الروح في^(٨) جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ^(٩) الروح رجليه عجلان^(١٠) إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١]، أبى واستكبر وكان من الكافرين. قال الله له: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك لما خلقت بيدي؟ قال: أنا خير منه، لم أكن لأسجد لمن^(١١) خلقته من طين. قال الله له: اخرج منها فما يكون لك، يعني: ما ينبغي لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾

(١) في ج: ط، ب: رسول الله.

(٢) في ج: في صدره.

(٣) في ط، ب: فقالوا.

(٤) في أ، و: تنقبض.

(٥) في ج، ط، ب: قرب إنها.

(٦) في ج، ط، ب: يخلقه.

(٨) في ج: إلى.

(٧) في ج، ب، ط: أشدهم منه فرعاً.

(٩) في ج: أن يدخل.

(١٠) في ج، ب: العجلان.

(١١) في ج: عجلان.

[الأعراف: ١٢] والصغار: هو الذل. قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ثم عرض الخلق على الملائكة ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن بنى آدم يفسدون في الأرض ويفكرون الدماء، فقالوا^(١): ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال الله: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فهذا الذي أبدوا ﴿وَأَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾
يعنى: ما أسر إبليس في نفسه من الكبر.

فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السُّدى، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعن بعضها مدرج^(٢) ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة. والله أعلم. والحاكم يروى في مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء، ويقول: [هو]^(٣) على شرط البخارى.

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم؛ لأنه - وإن لم يكن من عنصرهم - إلا أنه كان قد^(٤) تشبَّه بهم وتوسم بأفعالهم؛ فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذم في مخالفة الأمر. وسنيسط المسألة إن شاء الله تعالى - عند قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

ولهذا قال محمد بن إسحاق، عن خلاد، عن^(٥) عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس: قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل^(٦)، وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهادا، وأكثرهم علما؛ فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حى يسمون جنًّا.

وفي رواية عن خلاد، عن عطاء، عن طاوس - أو مجاهد - عن ابن عباس، أو غيره، بنحوه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد^(٧) بن سليمان، حدثنا عباد - يعنى: ابن العوام - عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان إبليس اسمه عزازيل^(٨)، وكان من أشرف الملائكة من ذوى الأجنحة الأربعة، ثم أبلس بعد.

وقال مُسَدُّ^(٩)، عن حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: كان^(١٠) إبليس من أشرف^(١١) الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازنا على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض.

وهكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس، سواء.

وقال صالح مولى التَّوأمة، عن ابن عباس: إن من الملائكة قبيلة يقال لهم: الجن، وكان إبليس

(١) فى أ، و: «فقالوا له». (٢) فى ب: «مدرجاً». (٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٤) فى ج: «قد كان». (٥) فى ج، ط، ب: «خلاد بن». (٦) فى ج، ط، ب: «عزرائيل». (٧) فى ب: «مسدد». (٨) فى ج: «عزرائيل». (٩) فى ج: «مسعد». (١٠) فى ج: «من أشرف». (١١) فى ج: «من أشرف».

منهم، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطاناً رجيماً. رواه ابن جرير.
وقال قتادة عن سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عدى بن أبي عدى، عن عوف، عن الحسن، قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس. وهذا إسناد صحيح عن الحسن. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء.

وقال شهر بن حوشب: كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء، رواه ابن جرير.

وقال سفيان بن داود: حدثنا هشيم، أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى، عن موسى بن عمير وعثمان بن سعيد بن كامل، عن سعد^(١) بن مسعود، قال: كانت الملائكة تقاثل الجن، فبى إبليس وكان صغيراً، فكان مع الملائكة، فتعب معها، فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا، فأبى إبليس. فلذلك قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن سنان القزاز، حدثنا أبو عاصم، عن شريك، عن رجل، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: إن الله خلق خلقاً، فقال: اسجدوا لآدم. فقلوا: لا نفعل. فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم، ثم خلق خلقاً آخر، فقال: إنى خالق بشراً من طين، اسجدوا لآدم. قال: فأبوا. فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم. ثم خلق هؤلاء، فقال: اسجدوا لآدم. قالوا: نعم. وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم^(٢). وهذا غريب، ولا يكاد يصح إسناده، فإن فيه رجلا مبهما، ومثله لا يحتاج به، والله أعلم.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فكانت الطاعة لله، والسجدة أكرم الله آدم بها أن أسجد له ملائكة.

وقال في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ حد عدو الله إبليس آدم، عليه السلام، على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا نارى وهذا طينى. وكان بدء الذنوب الكبير، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم، عليه السلام.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، حدثنا صالح بن حيان، حدثنا عبد الله بن بريدة: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ من الذين أبوا، فأحرقتهم النار.

وقال أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يعنى: من العاصين.

وقال السدى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾: الذين لم يخلقهم الله يومئذ يكونون بعد.

(١) في ج: اسعده.

(٢) تفسير الطبرى (١/ ٥٠٨).

وقال محمد بن كعب القرظي: ابتداء الله خلق إبليس على الكفر والضلالة، وعمل بعمل الملائكة، فصيره إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وإكرام، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا، قال معاذ^(١): قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لاساقفتهم وعلماهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: «لا، لو كنت أمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»^(٢)، ورجحه الرازي، وقال بعضهم: بل كانت السجدة لله وآدم قبله فيها كما قال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وفي هذا التنظير نظر، والأظهر أن القول الأول أولى، والسجدة لأدم إكراماً وإعظماً واحتراماً وسلاماً، وهي طاعة لله، عز وجل؛ لأنها امتثال لأمره تعالى، وقد قواه الرازي في تفسيره وضعف ما عداه من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبله إذ لا يظهر فيه شرف، والآخر: أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال.

قلت: وقد ثبت في الصحيح: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر»^(٣) وقد كان في قلب إبليس من الكبر - والكفر - والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس؛ قال بعض المعربين: وكان من الكافرين أي: وصار من الكافرين بسبب امتناعه، كما قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وقال: ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال الشاعر:

بتيها قفر والمطى كأنها قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

أي: قد صارت، وقال ابن فورك: تقديره: وقد كان في علم الله من الكافرين، ورجحه القرظي، وذكر ههنا مسألة فقال: قال علماؤنا من أظهر الله على يديه من نبي كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته، خلافاً لبعض الصوفية والرافضة هذا لفظه. ثم استدل على ما قال: بأننا لا نقطع بهذا الذي جرى الخارق على يديه أنه يوافق الله بالإيمان، وهو لا يقطع لنفسه بذلك، يعنى والولى الذى يقطع له بذلك فى نفس الامر.

قلت: وقد استدل بعضهم على أن الخارق قد يكون على يدى غير الولي، بل قد يكون على يد الفاجر والكافر، أيضاً، بما ثبت عن ابن صياد أنه قال: هو الدخ حين خبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، وبما كان يصدر عنه أنه كان يملأ الطريق إذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمر، وبما ثبت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض

(١) فى و: «معاوية».

(٢) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٢٢٧).

(٣) صحيح مسلم برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

مثل اليعاسيب، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه إلى غير ذلك من الأمور المبهولة. وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي: قلت للشافعي: كان الليث بن سعد يقول: إذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، فقال الشافعي: قصر الليث، رحمه الله، بل إذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، وقد حكى فخر الدين وغيره قولين للعلماء: هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض، أو عام في ملائكة السموات والأرض، وقد رجح كلا من القولين طائفة، وظاهر الآية الكريمة العموم: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . [إِلَّا إِبْلِيسَ] ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١، ص: ٧٣، ٧٤] فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم، والله أعلم.

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿ (٣٦) ﴾ .

يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم، بعد أن أمر الملائكة^(١) بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس: إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء^(٢)، رَغَدًا، أي: هيناً واسعاً طيباً.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، من حديث محمد بن عيسى الدامغانى، حدثنا سلمة بن الفضل، عن ميكائيل، عن ليث، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله؛ أريت آدم، أنبياً كان؟ قال: «نعم، نبياً رسولاً، كلمه الله قبلاً، فقال: ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾»^(٣).

وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم، أهى في السماء أم في الأرض؟ والاكثرون على الأول، [وحكى القرطبي عن المعتزلة والقدرية القول بأنها في الأرض]^(٤)، وسيأتى تقرير ذلك في سورة الاعراف، إن شاء الله تعالى، وسياق الآية يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول آدم^(٥) الجنة. وقد صرح بذلك محمد بن إسحاق، حيث قال: لما فرغ الله من معاتبة إبليس، أقبل على آدم وقد علّمه الاسماء كلها، فقال: ﴿ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾، إلى قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾^(٦). قال: ثم ألقى السَّنة على آدم - فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن ابن عباس وغيره - ثم أخذ ضِلَعاً من أضلاعه من شِقِّه الأيسر، ولأم مكانه لحماً، وآدم نائم لم يهب من

(١) في ج، ط، ب، أ، و: «أمر ملائكته». (٢) في ج، ط: «ما يشاء».

(٣) ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٠٠) من طريق أبي عمر الشامي، عن عبيد الجشتخاش، عن أبي ذر بنحوه، ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (١٦٠ - ١٦١) من طريق جعفر بن الزبير، عن القاسم، عن أبي امامة، عن أبي ذر بنحوه، ورواه أحمد في المسند (٥/ ٢٦٥) من طريق علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي امامة مرفوعاً بنحوه.

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و. (٥) في ب، و: «آدم إلى». (٦) في أ: «وما كنتم تكتمون».

نومه، حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها. فلما كُشف عنه السُّنة وهباً من نومه، رآها إلى جنبه، فقال - فيما يزعمون والله أعلم -: لحمي ودمي وروحي^(١). فكان إليها. فلما زوجّه الله، وجعل له سكناً من نفسه، قال له قَيْلًا: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ويقال: إن خلق حواء كان بعد دخوله الجنة، كما قال السدي في تفسيره^(٢)، ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: أخرج إبليس من الجنة، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليه، فنام نومة فاستيقظ، وعند رأسه امرأة قاعدة خلقتها الله من ضلعه، فمألها: ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلي. قالت له الملائكة - ينظرون ما بلغ من علمه -: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولم سميت حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حي. قال الله: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم. وقد اختلف في هذه الشجرة: ما هي؟

فقال السدي، عن حدثه، عن ابن عباس: الشجرة التي نهى عنها آدم، عليه السلام، هي الكرم. وكذا قال سعيد بن جبير، والسدي، والشعبي، وجعدة بن هبيرة، ومحمد بن قيس.

وقال السدي - أيضاً - في خبر ذكره، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ هي الكرم. وتزعم يهود أنها الخنطة.

وقال ابن جرير وابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمسي، حدثنا أبو يحيى الحماني، حدثنا النضر أبو عمر الخزاز، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: الشجرة التي نهى عنها آدم، عليه السلام، هي السنبل.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمار، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: هي السنبل.

وقال محمد بن إسحاق، عن رجل من أهل العلم، عن حجاج، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: هي البر.

وقال ابن جرير: وحدثني المثنى بن إبراهيم، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا القاسم، حدثني

(١) في ج، ب، أ، و: وروحي. (٢) في ج، ط، ب، أ، و: هي خير.

رجل من بنى تميم، أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن الشجرة التي أكل منها آدم، والشجرة التي تاب عندها آدم. فكتب إليه أبو الجلد: سألتني عن الشجرة التي نهى عنها آدم، وهي السنبل، وسألتني عن الشجرة التي تاب عندها آدم، وهي الزيتون^(١).

وكذلك فره الحسن البصرى، ووهب بن منبّه، وعطية العوفى، وأبر مالك، ومحارب^(٢) بن دثار، وعبد الرحمن بن أبي ليلي.

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل اليمن، عن وهب بن منبه: أنه كان يقول: هي البر، ولكن الحية منها في الجنة ككلى البقر، ألين من الزبد وأحلى من العسل.

وقال سفيان الثوري، عن حصين، عن أبي مالك: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: النخلة.

وقال ابن جرير، عن مجاهد: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ قال: تينة. وبه قال قتادة وابن جريج.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية: كانت الشجرة من أكل منها أحدث، ولا ينبغي أن يكون في الجنة حدث، وقال عبد الرزاق: حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مهرب^(٣)، قال: سمعت وهب بن منبه يقول: لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة، ونهاه عن أكل الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها من^(٤) بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم، وهي الثمرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته.

فهذه أقوال ستة في تفسير^(٥) هذه الشجرة.

قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير، رحمه الله^(٦): والصراب في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه، نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها^(٧)، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعمين؟ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة. وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين. وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم، إذا علم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، والله أعلم. [وكذلك رجح الإمام فخر الدين الرازى في تفسيره وغيره وهو الصراب]^(٨).

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾: يصح أن يكون الضمير في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ عائداً إلى

(١) تفسير الطبري (١/ ٥١٧).

(٢) في ج: أمجاهد. (٣) في ج: مهبدي. (٤) في ج: ط، ب: في.

(٥) في ج: ط، ب، أ، و: «تعمين».

(٦) تفسير الطبري (١/ ٥٢٠، ٥٢١).

(٧) في ج: «سائر الأشجار».

(٨) زيادة من ج، ط، أ، و.

الجنة، فيكون معنى الكلام كما قال^(١) [حمزة و]^(٢) عاصم بن بهدلة، وهو ابن أبي النجود: فأزلهما، أى: فنجأهما. ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين، وهو الشجرة، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أى: من قبيل^(٣) الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أى: بسببها، كما قال تعالى: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفَلَكَ﴾ [الذاريات: ٩] أى: يصرف بسببه من هو مأفوك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أى: من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنئ والراحة.

﴿وَقَلْنَا اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: قرار وأرزاق وأجال ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة.

وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدي بأسانيد، وأبي العالية، ووهب بن منبه وغيرهم، ههنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية، وإبليس، وكيف جرى من دخول إبليس الجنة ووسوسته، وسننبت ذلك، إن شاء الله، في سورة الأعراف، فهناك القصة أبسط منها ههنا، والله الموفق.

وقد قال ابن أبي حاتم ههنا: حدثنا علي بن الحسن بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم رجلاً طويلاً، كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد^(٤) في الجنة، فأخذت شجرة، فنازعها، فتاداه الرحمن: يا آدم، منى تفرأ! فلما سمع كلام الرحمن قال: يارب، لا، ولكن استحياء^(٥).

قال: وحدثني جعفر بن أحمد بن الحكم القومسي^(٦) سنة أربع وخمسين ومائتين، حدثنا سليم^(٧) ابن منصور بن عمار، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد، عن قتادة، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ذاق آدم من الشجرة فرأى هاربا؛ فتعلقت شجرة بشعره، فنودي: يا آدم، أفرأ؟ منى؟ قال: بل حياء منك، قال: يا آدم اخرج من جوارى؛ فبعزتي لا يساكنني فيها من عصاني، ولو خلقت مثلك ماء الأرض خلقاً ثم عصوني لاسكتهم دار العاصين^(٨).

هذا حديث غريب، وفيه انقطاع، بل إعضال بين قتادة وأبي بن كعب، رضى الله عنهما^(٩).

وقال الحاكم: حدثنا أبو بكر بن بألويه^(١٠)، عن محمد بن أحمد بن النضر، عن معاوية بن عمرو، عن زائدة، عن عمار بن معاوية البجلي، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: ما أسكن

(١) في ج: ط: كما قرأه. (٢) زيادة من ج: ط. (٣) في ج: ط: من قبيل.

(٤) في ج: يستدير.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٢٩).

(٦) في ج: القرشي.

(٧) في ج: سليمان.

(٨) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٣٠).

(٩) في ج: امالويه.

(١٠) في ج: ب: و: عنه.

آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا روح، عن هشام، عن الحسن، قال: لبث آدم في الجنة ساعة من نهار، تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، قال: خرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة، فأخرج آدم معه غصناً من شجر الجنة، على رأسه تاج من شجر الجنة وهو الإكليل من ورق الجنة.

وقال السدي: قال الله تعالى: ﴿ أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ فهبطوا فنزل آدم بالهند، ونزل معه الحجر الأسود، وقبضة^(١) من ورق الجنة فبته بالهند، فنبتت شجرة الطيب، فإنما أصل ما يجاء به من الهند من الطيب من قبضة الورد التي هبط بها آدم، وإنما قبضها آدم أسفاً على الجنة حين أخرج منها^(٢).

وقال عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: أهبط آدم من الجنة يدحنا، أرض بالهند.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن عطاء، عن سعيد عن ابن عباس قال: أهبط آدم، عليه السلام، إلى أرض يقال لها: دَحْنَا، بين مكة والطائف.

وعن الحسن البصري، قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستميان^(٣) من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن عدى^(٤)، عن ابن عمر، قال: أهبط آدم بالصفاء، وحواء بالمروة.

وقال رجاء بن سلمة: أهبط آدم، عليه السلام، يده على ركبته مطأطأ رأسه، وأهبط إبليس مشبكا بين أصابعه رافعاً رأسه إلى السماء.

وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني عوف، عن قسامة بن زهير، عن أبي موسى، قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض، علّمه صنعة كل شيء، وزوده من ثمار الجنة، فشارككم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير^(٥).

وقال الزهري، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) في ج، ط، ب، أ، و: «فأنزل معه بالحجر الأسود وقبضه».

(٢) في ج، ط، ب: «وإنما قبضها آدم حين أخرج من الجنة أسفاً على الجنة حين أخرج منها».

(٣) في و: «بدست ميان».

(٤) في ج، ط، ب، أ، و: «عمرو بن أبي قيس عن الزبير عن ابن عدى».

(٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٦).

«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها» رواه مسلم والنسائي^(١).

وقال فخر الدين: اعلم أن في هذه الآيات تهديداً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه: الأول: أن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي، قال الشاعر:

يا ناظراً يرنو بعيني راقداً ومشاهداً للامر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى درج الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنب واحد

قال فخر الدين عن فتح الموصلي أنه قال: كنا يوماً من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها. فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أسكنها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء، فكيف يمكن إبليس من دخول الجنة، وقد طرد من هنالك طرداً قديراً، والقدرى لا يخالف ولا يمانع؟ فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، وقد بسطنا هذا في أول كتاب البداية والنهاية، وأجاب الجمهور بأجوبة، أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرماً، فأما على وجه الردع والإهانة، فلا يمتنع؛ ولهذا قال بعضهم: كما جاء في التوراة أنه دخل في فم الحية إلى الجنة، وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة، وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض، وهما في السماء، ذكرها الزمخشري وغيره. وقد أورد القرطبي هنا أحاديث في الحيات وقتلهن وبيان حكم ذلك، فأجاد وأفاد^(٢).

﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

قيل: إن هذه^(٣) الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ روى هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وأحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب القُرظي، وإخالد بن معدان، وعطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال أبو إسحاق السبيعي، عن رجل من بني تميم، قال: أتيت ابن عباس، فسألته: [قلت]^(٤): ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟ قال: علم [آدم]^(٥) شأن الحج.

(١) صحيح مسلم برقم (٨٥٤) وسنن النسائي (٣/ ٨٩).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٣١٣ - ٣١٧).

(٣) في ج، ط: هؤلاء. (٤) زيادة من ط، ب، و.

(٥) زيادة من ج.

وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن^(١) ربيع، أخبرني من سمع عبيد بن عمير، وفي رواية: [قال]^(٢): أخبرني مجاهد، عن عبيد بن عمير، أنه قال: قال آدم: يا رب، خطيتي التي أخطأت شيء كتبه علي قبل أن تخلقني، أو شيء ابتدعته من قبل نفسي؟ قال: بل شيء كتبه عليك قبل أن أخلقك. قال: فكما كتبه علي فاغفر^(٣) لي. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾.

وقال السدي، عن حدثه، عن ابن عباس: فتلقي آدم من ربه كلمات، قال: قال آدم، عليه السلام: يا رب، ألم تخلقني بيدك؟ قيل^(٤) له: بلى. ونفخت في من روحك؟ قيل^(٥) له: بلى. وعطست فقلت: يرحمك الله، وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل^(٦) له: بلى، وكتب علي أن أعمل هذا؟ قيل^(٧) له: بلى. قال: أفرايت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم.

وهكذا رواه العوفي، وسعيد بن جبيرة، وسعيد بن مَعْبُد، عن ابن عباس، بنحوه. ورواه الحاكم في مستدرکه من حديث سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٨) وهكذا فسره السدي وعطية العوفي.

وقد روى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً شبيهاً بهذا فقال: حدثنا علي بن الحسن بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال آدم، عليه السلام: رأيت يا رب إن تبت ورجعت، أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم. فذلك قوله: ﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾»^(٩). وهذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: يا رب، رأيت إن تبت وأصلحت؟ قال الله: إذن أرجعك إلى الجنة فهي من الكلمات. ومن الكلمات أيضاً: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقال ابن أبي نجيب، عن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى: ﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ قال: الكلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فارحمني، إنك^(١٠) خير الراحمين. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتب علي، إنك أنت التواب الرحيم.

(١) في ج: اع. (٢) زيادة من ج، ط، ب. (٣) في ج، ب: «فاغفر».

(٤ - ٧) في ج: «قال».

(٨) المستدرک (٢/ ٥٤٥).

(٩) تفسير ابن حاتم (١/ ١٣٥).

(١٠) في ج: «فاغفر لي أنت».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أى: إنه يتوب على من تاب إليه وأتاب، كقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ٤-١]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقوله: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

وذكرنا في المسند الكبير من طريق سليمان بن سليم عن ابن بريدة وهو سليمان عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «لما أهبط الله آدم إلى الأرض طاف بالبيت سبعا، وصلى خلف المقام ركعتين، ثم قال: اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى، وتعلم حاجتى فأعطني سؤلى، وتعلم ما عندى فاغفر ذنوبى، أسألك إيمانا يباشر قلبى، ويقيننا صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت لى. قال فأوحى الله إليه إنك قد دعوتنى بدعاء أستجيب لك فيه ولئن يدعونى به، وفرجت همومه وغمومه، ونزعت فقره من بين عينيه، وأجرت له من وراء كل تاجر زينة الدنيا وهى كلمات عهد وإن لم يزدنها رواه الطبرانى فى معجمه الكبير^(١).

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعْ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حتى^(٢) أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية: أنه سينزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسل؛ كما قال أبو العالية: الهدى الأنبياء والرسل والبيان. وقال مقاتل بن حيان: الهدى محمد ﷺ. وقال الحسن: الهدى القرآن. وهذان القولان صحيحان، وقول أبي العالية أعم.

﴿ فَمَنِ تَّبِعْ هُدَايَ ﴾ أى: من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال فى سورة طه: ﴿قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] قال ابن عباس: فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤] كما قال ههنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى: مخلدون فيها، لا محيد لهم عنها، ولا محيص.

وقد أورد ابن جرير، رحمه الله، ههنا حديثاً ساقه من طريقين، عن أبي مَلَكَةَ سعيد بن يزيد،

(١) جامع المسند والسنة برقم (٧٤٢) ولم أفع عليه فى المطبوع من المعجم الكبير.

(٢) فى ج، ط، ب، أ، و: احين.

عن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة^(١)، عن أبي سعيد - واسمه سعد بن مالك بن سنان الخُدري - قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، لكن أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم، أو بذنوبهم فأماتتهم، حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة». وقد رواه مسلم من حديث شعبة عن أبي سلمة، به^(٢).

[وذكر هذا الإبط الثاني لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول، وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير، كما نقول: قم قم، وقال آخرون: بل الإبط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض، والصحيح الأول، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه]^(٣).

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤١﴾ وَأَمِنَّا بِمَا أَنْزَلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى أمرًا بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومُهَيِّجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب، عليه السلام، وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم، افعل كذا. يا ابن الشجاع، بارز الأبطال. يا ابن العالم، اطلب العلم ونحو ذلك.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] فإسرائيل هو يعقوب، عليه السلام، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي: حدثنا عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، قال: حدثني عبد الله بن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ، فقال لهم: «هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟». قالوا: اللهم نعم. فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد^(٤)»^(٥).

وقال الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير مولى ابن عباس، عن عبد الله بن عباس؛ أن إسرائيل كقولك: عبد الله.

وقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾: قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك؛ فحجر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأنجاهم من عبودية آل فرعون.

(١) في ج: «قطعة».

(٢) تفسير الطبري (١/ ٥٥٢) وصحيح مسلم برقم (١٨٥).

(٣) زيادة من ج: «ب، أ، و».

(٤) في ج: «الله فاشهد».

(٥) رواه أحمد في المسند (١/ ٢٧٣) عن حسين، عن عبد الحميد بن بهرام به.

وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب.

قلت: وهذا كقول موسى، عليه السلام، لهم: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] يعنى فى زمانهم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أى: بلانى عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم به من فرعون وقومه ﴿وَأَوْفُوا بعهدي أوف بعهديكم﴾ قال: يعهدى الذى أخذت فى^(١) أعناقكم للنبي محمد ﷺ إذا جاءكم. ﴿أوف بعهديكم﴾ أى: انجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر والاضلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من أحداثكم.

[وقال الحسن البصرى: هو قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لئن أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [المائدة: ١٢]. وقال آخرون: هو الذى أخذ الله عليهم فى التوراة أنه سيبعث من بنى إسماعيل نبياً عظيماً بطيعة جميع الشعوب والمراد به محمد ﷺ فمن اتبعه عُفِرَ له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجران. وقد أورد فخر الدين الرازى ههنا بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم السلام بمحمد ﷺ^(٢).

وقال أبو العالية: ﴿وَأَوْفُوا بعهدي﴾ قال: عهده إلى عباده: دينه الإسلام أن يتبعوه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أوف بعهديكم﴾ قال: أرض عنكم وأدخلكم الجنة.

وكذا قال السدى، والضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس.

وقوله: ﴿وَأَيُّيَ قَارِهُونَ﴾ أى: فاقشون؛ قاله أبو العالية، والسدى، والربيع بن أنس، وقتادة.

وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّيَ قَارِهُونَ﴾: أى أنزل بكم ما أنزل^(٣) بمن كان قبلكم من آبائكم من النعمات التى قد عرفتم من المسخ وغيره.

وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرغبة، لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول والاعتاظ بالقرآن وزواجه، وامتنال أوامره، وتصديق أخباره، والله الهادى لمن يشاء إلى صراطه المستقيم؛ ولهذا^(٤) قال: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ ﴿مُصَدِّقًا﴾ ماضياً منصوباً على الحال من ﴿بِمَا﴾ أى: بالذى أنزلت مصدقاً أو من الضمير المحذوف من قولهم: بما أنزلته مصدقاً، ويجوز أن يكون مصدرأ من غير الفعل وهو قوله: ﴿لِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا﴾^(٥) يعنى به: القرآن الذى أنزله على محمد النبي الامى العربى بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتملاً على الحق من الله

(٢) زيادة من جاء، ط، ب، أ، و.

(١) فى ج، ط، ب: «من».

(٣) فى ج: «فلهذا».

(٤) فى ج، ط، ب: «ما أنزلت».

(٥) زيادة من جاء، ب، و.

تعالى، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل.

قال أبو العالية، رحمه الله، في قوله: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم يقول: لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

وروى عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [قال بعض المفسرين: أول فريق كافر به ونحو ذلك]^(١). قال ابن عباس: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم.

وقال أبو العالية: يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾: أول^(٢) من كفر بمحمد ﷺ [يعنى من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعهم بمحمد وبمبعثه]^(٣).

وكذا قال الحسن، والسدي، والربيع بن أنس.

واختار ابن جرير أن الضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾ عائذ على القرآن، الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ﴾.

وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن.

وأما قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ فيعنى به أول من كفر به من بنى إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بنى إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بنى إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تعترضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، كما قال عبد الله بن المبارك: أبانا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن هارون بن زيد^(٤)، قال: سئل الحسن، يعنى البصرى، عن قوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال: الثمن القليل الدنيا بحذافيرها.

وقال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبيرة، في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: وإن آياته: كتابه الذى أنزله^(٥) إليهم، وإن الثمن القليل: الدنيا وشهواتها.

وقال السدي: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تأخذوا طمعاً قليلاً، ولا تكتسبوا^(٦) اسم

(١) زيادة من جاء، ب، و.

(٢) زيادة من جاء، ط، ب، أ، و.

(٣) زيادة من جاء، ط، ب، أ، و.

(٤) في جاء، ط، ب، أ، و: من يزيد.

(٥) في جاء، ب: فوكتسبوا.

(٦) في جاء، ط، ب، أ، و: فوكتسبوا.

الله لذلك الطمع وهو الثمن.

وقال أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تأخذوا عليه أجراً. قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم، علم مجاناً كما علمت مجاناً.

وقيل: معناه لا تتعاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع في الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحاضرة الزائلة عن قريب، وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يتفنى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة»^(١)، وأما تعليم المعلم بأجرة، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب، فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد في قصة اللديغ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله»^(٢)، وقوله في قصة المخطوبة: «زوجتكها بما معك من القرآن»^(٣)، فأما حديث عبادة بن الصامت، أنه علم رجلاً من أهل الصفة شيئاً من القرآن فأهدى له قوساً، فآل عنه رسول الله ﷺ فقال له: «إن أحببت أن تطوق بقوس من نار فأقبله» فتركه، رواه أبو داود^(٤)، وروى مثله عن أبي بن كعب مرفوعاً^(٥)، فإن صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم: أبو عمر بن عبد البر على أنه لما علمه الله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس، فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فإنه يصح كما في حديث اللديغ وحديث سهل في المخطوبة، والله أعلم.

﴿وَأَيُّيَ فَاتَّقُونَ﴾: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عمر الدوري، حدثنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عاصم الأحول، عن أبي العالية، عن طلق بن حبيب، قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله.

ومعنى قوله: ﴿وَأَيُّيَ فَاتَّقُونَ﴾: أنه تعالى يتوعددهم فيما يعتمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه^(٦)، ومخالفتهم الرسول، صلوات الله وسلامه عليه.

(١) سنن أبي داود برقم (٣٦٦٤).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٠٧) وهذا اللفظ هو لفظ حديث ابن عباس.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم (٥١٤٩) من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه.

(٤) سنن أبي داود برقم (٣٤١٦).

(٥) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١/ ١٢٥) من طريق عبد الرحمن بن أبي سلمة، عن عطية بن قيس - عن أبي بن كعب رضى الله عنه به مرفوعاً، وهو منقطع.

(٦) في ١: «وإظهاره الباطل».

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الرَّكَّاعِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يعتمدونه، من تلبيس^(١) الحق بالباطل، وتغويه به^(٢)، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ فنهاهم عن الشئين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به؛ ولهذا قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾: لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب.

وقال أبو العالية: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ يقول: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمر محمد ﷺ.

ويروى^(٣) عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس، نحوه.

وقال قتادة: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [قال]^(٤): ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام؛ إن دين الله الإسلام، واليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله.

وروى عن الحسن البصري نحو ذلك.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: لا تكتُموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به، وأنتم تجددونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم. وروى عن أبي العالية نحو ذلك.

وقال مجاهد، والسدى، وقاتدة، والربيع بن أنس: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ يعنى: محمداً ﷺ.

[قلت: ﴿وَتَكْتُمُوا﴾ يحتمل أن يكون مجزوماً، ويجوز أن يكون منصوباً، أى: لا تجمعوا بين هذا وهذا كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. قال الزمخشري: وفى مصحف ابن مسعود: «ونكتُمون الحق» أى: فى حال كتمانكم الحق وأنتم تعلمون حال أيضاً، ومعناه: وأنتم تعلمون الحق، ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما فى ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المنقضى بهم إلى النار إلى أن سلكوا ما تدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروجه عليهم، والبيان الإيضاح وعكسه الكتمان وغلط الحق بالباطل]^(٥).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الرَّكَّاعِينَ﴾ قال مقاتل: قوله تعالى لاهل الكتاب: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: أمرهم أن يصلوا مع النبي ﷺ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾: أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أى: يدفعونها إلى النبي ﷺ ﴿وَارْكَبُوا مَعَ الرَّكَّاعِينَ﴾: أمرهم أن يركعوا مع الرَّاكِعِينَ من أمة محمد ﷺ.

(١) فى ج، ط، ب: تلبسهم.

(٢) فى ج: «ونكتُمون» وهو خطأ.

(٣) فى ج، ط، ب، أ، و: «وروى».

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٥) زيادة من ج، ط، ب.

يقول: كونوا منهم ومعهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأَتُوا الزُّكَاةَ﴾^(١) يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص.

وقال وكيع، عن أبي جناب، عن عكرمة عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَأَتُوا الزُّكَاةَ﴾ قال: ما يوجب الزكاة؟ قال: مائتان فصاعداً.

وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن، في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الزُّكَاةَ﴾ قال: فريضة واجبة، لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير عن أبي حيان [العجمي] ^(٢) التيمي، عن الحارث العكلي في قوله: ﴿وَأَتُوا الزُّكَاةَ﴾ قال: صدقة الفطر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْكَبُوا مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ أي: وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكملها^(٣) الصلاة.

[وقد استدلل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة، وبسط ذلك في كتاب الاحكام الكبير إن شاء الله، وقد تكلم القرطبي على مسائل الجماعة والإمامة فأجاد]^(٤).

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تُلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٤)

يقول تعالى: كيف يليق بكم - يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير - أن تنسوا أنفسكم، فلا تأمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تُلُونَ الْكِتَابَ، وتعلمون ما فيه على من قَصُرَ في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؟ فنتبهوا من رقدتكم، وتنبصروا من عميتكم. وهذا كما قال عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه، وبالبر، ويخالفون، فغيرهم الله، عز وجل. وكذلك قال السدي.

وقال ابن جريج: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾: أهل الكتاب والمناقضون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، وَيَدْعُونَ الْعَمَلَ بما يأمرون به الناس، فغيرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي: تتركون أنفسكم ﴿ وَأَنْتُمْ تُلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي: تنهون الناس عن الكفر بما

(١) زيادة من ج، ط، ب.

(٢) زيادة من ج.

(٣) من أ، و: فأجمله.

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أن و.

عندكم من النبوة والعهد من التوراة، وتتركون أنفسكم، أي: وأنتم^(١) تكفرون بما فيها من عهدى إليكم في تصديق رسولي، وتفتضون ميثاقى، ومحجدون ما تعلمون^(٢) من كتابى.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في هذه الآية، يقول: أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم^(٣) به من إقام الصلاة، وتسون أنفسكم.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنى على بن الحسن، حدثنا مسلم الجرمي، حدثنا مخلد بن الحسين، عن أيوب السخيتاني، عن أبي قلابة في قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ قال: قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: هزلأ اليهود إذا جاء الرجل يسألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمره بالحق، فقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطيئهم^(٤) في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف [معروف]^(٥) وهو واجب على العالم، ولكن الواجب^(٦) الأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب، عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنِّي أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولى العلماء من السلف والخلف. وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصى لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تركهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه. [قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير يقول له: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بالمعروف ولا نهى عن منكر. وقال مالك: وصدق من ذا الذى ليس فيه شيء؟ قلت]^(٧): ولكنه - والحالة هذه - مذموم على ترك^(٨) الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم؛ ولهذا جاءت الأحاديث في التوعيد على ذلك، كما قال الإمام أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا أحمد بن المولى الدمشقي والحسن بن على العمري، قالا: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا على

(٢) في ج: «ما تعلمون».

(١) في ج: «أى أنتم».

(٣) في ج: «ما أمرتكم».

(٤) في ج: «خطيئتهم».

(٥) زيادة من ج: ط، ب، أ، و.

(٦) زيادة من ج: ط، أ.

(٨) في ج: ب: «على تركه».

(٧) زيادة من ج: ط، ب، أ، و.

ابن سليمان الكلبى، حدثنا الأعمش، عن أبي تميمه الهُجيم، عن جندب بن^(١) عبد الله، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه»^(٢).

هذا حديث غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده: حدثنا وكيع، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد هو ابن جدعان، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسرى بى على قوم شفاههم تُقرض بمقاريض»^(٣) من نار. قال: قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟^(٤).

ورواه عبد بن حميد فى مسنده، وتفسيره، عن الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة، به.

ورواه ابن مردويه فى تفسيره، من حديث يونس بن محمد المؤدب، والحجاج بن منهل، كلاهما عن حماد بن سلمة، به.

وكذا رواه يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة به.

ثم قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن إبراهيم التستري ببلخ، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا عمر بن قيس، عن على بن زيد^(٥)، عن ثمامة، عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مررت ليلة أسرى بى على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم».

وأخرجه ابن حبان فى صحيحه، وابن أبى حاتم، وابن مردويه - أيضاً - من حديث هشام الدستوائى، عن المغيرة - يعنى ابن حبيب - حتن مالك بن دينار، عن مالك بن دينار، عن ثمامة، عن أنس بن مالك، قال: لما عرج برسول الله ﷺ مرّ بقوم تُقرض شفاههم^(٦)، فقال: «يا جبريل، من هؤلاء؟» قال: هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم؛ أفلا يعقلون؟^(٧).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبى وائل، قال: قيل لاسامة - وأنا رديفه -: ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم تُروون أنى لا أكلمه إلا أسمعكم. إنى لا أكلمه فيما بينى وبينه ما دون أن أفتح أمراً - لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل:

(١) فى ج: «عن».

(٢) المعجم الكبير (٢/ ١٦٥) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٨٥): «رجاله موثقون».

(٣) فى ج، ب: «تقرض شفاههم بمقاريض».

(٤) المسند (٣/ ١٢٠).

(٥) فى أ: «بن يزيد».

(٦) فى ج، ط، ب، أ، و: «تقرض من شفاههم».

(٧) صحيح ابن حبان برقم (٣٥) «موارد» وتفسير ابن أبى حاتم (١/ ١٥١).

إنك خير الناس. وإن كان على أميراً - بعد أن^(١) سمعت رسول الله ﷺ يقول، قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتتدلق به أفتابه^(٢)، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية»^(٣).
ورواه البخاري ومسلم، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، به نحوه^(٤).

[وقال أحمد: حدثنا سيار بن حاتم، حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يعاقب الأمين يوم القيامة ما لا يعاقب العلماء»^(٥). وقد ورد في بعض الآثار: أنه يفجر للجاهل سبعين مرة حتى يفجر للعالم مرة واحدة، ليس من يعلم كمن لا يعلم. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].
وروى ابن عساکر في ترجمة الوليد بن عقبة عن النبي ﷺ، قال: «إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون: بهم دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم. فيقولون: إنا كنا نقول ولا نفعل»^(٦). رواه من حديث الطبراني عن أحمد بن يحيى بن حيان^(٧) الرقي عن زهير بن عباد الرواسي عن أبي بكر الداهري^(٨) عن عبد الله بن حكيم عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن الوليد بن عقبة فذكره^(٩).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أنه جاءه رجل، فقال: يا ابن عباس، إنني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو. قال: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل. قال: وما هن؟ قال: قوله عز وجل^(١٠): ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾. أحكمت هذه؟ قال: لا. قال: فاحرف الثاني. قال: قوله تعالى: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ [الصف: ٢، ٣] أحكمت هذه؟ قال: لا. قال: فاحرف الثالث. قال: قول العبد الصالح شعيب، عليه السلام: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ [هود: ٨٨] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فابدأ بنفسك.

رواه ابن مردويه في تفسيره .

وقال الطبراني^(١١): حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا زيد بن الحريش، حدثنا عبد الله بن خريش، عن العوام بن حوشب، عن [مسعود بن]^(١٢) المسيب بن رافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله

(١) في ج: ب: إذ.

(٢) المسند (٥/ ٢٠٥).

(٤) صحيح البخاري برقم (٣٢٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٩٨٩).

(٥) ورواه أبو نعيم في الخلية (٢/ ٧) من طريق الإمام أحمد وقال: «هذا حديث غريب شرد به سيار عن جعفر، ولم نكتبه إلا من حديث أحمد بن حنبل». وقال عبد الله بن أحمد: «هذا حديث منكر حدثني به أبي، وما حدثني به إلا مرة».

(٦) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٦/ ٣٣٦).

(٧) في ج: «عماد»، والصواب ما أثبتناه.

(٨) في ج: «الزهري»، والصواب ما أثبتناه.

(٩) في ج: «قوله تعالى». (١٠) زيادة من ج: ط: ب: أ، و.

(١١) في ج: «الزاهري»، والصواب ما أثبتناه. (١٢) زيادة من ط: أ، و.

﴿عَلَّمَ﴾: «من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في ظل مسخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال، أو دعا إليه»^(١).

إسناده فيه ضعف؛ وقال إبراهيم النخعي: إنى لاكره القصص الثلاث آيات قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقوله إخباراً عن شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وما أحسن ما قال مسلم بن عمرو:

ما أقيح التزهيد من واعظ	يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقاً	أضحى وأمسى بيته المسجد
إن رفض الناس فما باله	يستفتح الناس ويسترقد
الرزق مقسوم على من ترى	يسقى له الأبيض والأسود

وقال بعضهم: جلس أبو عثمان الخيري الزاهد يوماً على مجلس التذكير فأطال السكوت، ثم أنشأ يقول:

وغير تقى يأمر الناس بالتقى	طيب يداوى والطيب مريض
قال: فضج الناس بالبكاء. وقال أبو العتاهية الشاعر:	
وصفت التقى حتى كأنك ذو تقى	وريح الخطايا من شأنك تقطع
وقال أبو الأسود الدؤلي:	

لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم
فابدأ بنفسك فانها عن غيرها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى	بالقول منك وينفع التعليم

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد بن زيد البصرى العابد الواعظ قال: دعوت الله أن يريني رفيقى في الجنة، فقيل لى في المنام: هي امرأة في الكوفة يقال لها: ميمونة السوداء، فقصدت الكوفة لأراها. فقيل لى: هي ترعى غنماً بواد هناك، فجئت إليها فإذا هي قائمة تصلى والغنم ترعى

(١) ورواه أبو نعيم في الحلية (٧/٢) من طريق الطبراني؛ وقال الهيثمي في المجمع (٧/٢٧٦): وفيه عبد الله بن خراش وثقه ابن حبان وقال: بخطن، وضعفه الجمهور، وبقيته رجاله ثقات.

حولها وبينهن الذناب لا يتفرون منه، ولا يسطوا الذناب عليهن. فلما سلمت قالت: يا ابن زيد، ليس المرعد هنا إنما المرعد ثم، فسألتها عن شأن الذناب والغنم. فقالت: إني أصلحت ما بيني وبين سيدي فأصلح ما بين الذناب والغنم. فقلت لها: عظيمي. فقالت: يا عجبا من واعظ يوخط، ثم قالت: يا ابن زيد، إنك لو وضعت موازين القسط على جوارحك لخبرتك بمكتوم مكتوم ما فيها، يا ابن زيد، إنه بلغني ما من عبد أعطى من الدنيا شيئا فابتغى إليه ثابئا إلا سلبه الله حب الخلوة وبدله بعد القرب

يا واعظاً قام لا حساب	يزجر قوما عن الذنوب
تته عنه وأنت السقيم حقا	هذا من المنكر العجيب
تته عن الغنى والتمادى	وأنت فى النهى كالمريب
لو كنت أصلحت قبل هذا	غيك أو تبت من قريب
كان لما قلت يا حبيبي	موضع صدق من القلوب ^(١)

البعث وبعد الانس الوحشة ثم أنشأت تقول:

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى^(٢) أمراً عبده، فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حيان فى تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض، والصلاة.

فأما الصبر فتعيل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد.

[قال القرطبي وغيره: ولهذا سمي رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث]^(٣).

وقال سفيان الثوري، عن أبى إسحاق، عن جرير بن كليب، عن رجل من بنى سليم، عن النبي ﷺ، قال: «الصوم نصف الصبر».

وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصى؛ ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها: فعل الصلاة.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبيد الله بن حمزة بن إسماعيل، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبى سنان، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله.

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٥/٢٥٣).

(٢) فى ج: «تعالى صبراً». (٣) زيادة من ج، ط، س، أ، و.

[قال] ^(١): وروى عن الحسن البصرى نحو قول عمر.

وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار، عن سعيد بن جبيرة، قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب فيه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد، لا يرى ^(٢) منه إلا الصبر.

وقال أبو العالية فى قوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ على مرضاة الله، واعلموا أنها من طاعة الله.

وأما قوله: ﴿وَالصَّلَاةِ﴾: فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات فى الأمر، كما قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلى، قال: قال عبد العزيز أخو حذيفة، قال حذيفة، يعنى ابن اليمان: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. ورواه أبو داود [عن محمد بن عيسى عن يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار كما سيأتى] ^(٣) ^(٤).

وقد رواه ابن جرير، من حديث ابن جريج، عن عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبيد بن أبى قدامة، عن عبد العزيز بن اليمان، عن حذيفة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ^(٥).

[ورواه بعضهم عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة؛ ويقال: أخى حذيفة مرسلًا عن النبي ﷺ؛ وقال محمد بن نصر المروزي فى كتاب الصلاة: حدثنا سهل بن عثمان أبو مسعود ^(٦) العسكرى، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة قال: قال عكرمة بن عمار: قال محمد بن عبد الله الدؤلى: قال عبد العزيز: قال حذيفة: رجعت إلى النبي ﷺ، ليلة الأحزاب وهو مشتمل فى شملة يصلى، وكان إذا حزبه أمر صلى ^(٧). وحدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبى، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق سمع حارثة بن مضرب سمع عليًا يقول: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فىنا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح ^(٨) ^(٩).

(٢) فى ج: «فلا يرى».

(١) زيادة من ج، ط، ب.

(٣) المسند (٥/ ٣٨٨) وسنن أبى داود برقم (١٣١٩).

(٤) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٥) تفسير المطبرى (١٢/٢).

(٦) فى ط: «ابن مسعود»، والصواب ما أثبتناه.

(٧) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢١٢).

(٨) تعظيم قدر الصلاة برقم (٢١٢).

(٩) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

قال ابن جرير: وروى عنه، عليه الصلاة والسلام، أنه مر بأبي هريرة، وهو منبطح على بطنه، فقال له: «اشكب درده» [قال: نعم] (١) قال: «لعم فصل فإن الصلاة شفاء» (٢) [ومعناه: أيرجعك بطنك؟ قال: نعم] (٣). قال ابن جرير: وقد حدثنا محمد بن العلاء ويعقوب بن إبراهيم، قالوا: حدثنا ابن عُلَيْبَةَ، حدثنا عِيْنَةُ بن عبد الرحمن، عن أبيه: أن ابن عباس نُعى إليه أخوه قُثم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحَّى عن الطريق، فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول: «وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» (٤).

وقال سَيْدٌ، عن حجاج، عن ابن جرير: «وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» قال: إنهما معونتان على رحمة الله.

والضمير في قوله: «وَأِنَّهَا» عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير.

ويحتمل أن يكون عائدا على ما يدل عليه الكلام، وهو الرصية بذلك، كقوله تعالى في قصة قارون: «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ» [القصص: ٨٠]، وقال تعالى: «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» [فصلت: ٣٤، ٣٥] أى: وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا «وَمَا يُلْقَاهَا» أى: يوزاها ويلهمها «إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ».

وعلى كل تقدير، فقوله تعالى: «وَأِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ» أى: مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين. قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعنى المصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: المؤمنين حقا. وقال أبو العالية: إلا على الخاشعين الخائفين، وقال مقاتل بن حيان: إلا على الخاشعين يعنى به المتواضعين. وقال الضحاك: «وَأِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ» قال: إنها لثقيلة إلا على الخاضعين (٥) لطاعته، الخائفين سَطَوَاتِهِ، المصدقين بوعدده ووعدده.

وهذا يشبه ما جاء في الحديث: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يره الله عليه» (٦).

وقال ابن جرير: معنى الآية: واستعينوا أيها الأخبار من أهل الكتاب، بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من رضا الله، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتذللين من مخالفته.

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٢) تفسير الطبري (٢/ ١٣) وانظر ما كتبه المحقق الفاضل عن معنى: «اشكب درده».

(٣) زيادة من ج، ط، ب.

(٤) تفسير الطبري (٢/ ١٤).

(٥) في ج: «الخاشعين».

(٦) رواه أحمد في المسد (٥/ ٢٢١) من حديث معاذ رضى الله عنه.

هكذا قال، والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هي عامة لهم، ولغيرهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي: وإن الصلاة أو الرصاة^(١) لثفيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم، أي: يعلمون أنهم^(٢) محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون، أي: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات.

فأما قوله: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾: قال^(٣) ابن جرير، رحمه الله: العرب قد تسمى اليقين ظناً، والشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة سُدْفَةً، والضياء سُدْفَةً، والمغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده، كما قال دُرَيْدُ بْنُ الصُّعْتَةِ:

فقلت لهم ظنوا بالفي مدجج
سراتهم في الفارسي المرد^(٤)

يعنى بذلك تيقنوا بالفي مدجج يأتيكم، وقال عَمِيْرَةُ بْنُ طَارِقٍ:

بأن يَعتَرُوا^(٥) قومي وأقعد فيكم
وأجعل مني الظن غيباً مرجماً^(٦)

يعنى: وأجعل مني اليقين غيباً مرجماً، قال: والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين، أكثر من أن نحصر، وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيان، عن جابر، عن مجاهد، قال: كل ظن في القرآن يقين، أي: ظننت وظنوا.

وحدثني المشي، حدثنا إسحاق، حدثنا أبو داود الحَقْرِيُّ، عن سفيان عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: كل ظن في القرآن فهو علم. وهذا سند صحيح.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ قال: الظن ههنا يقين.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، والسدي، والربيع بن أنس، وقتادة نحو قول أبي العالية.

(١) في أ: «الرصية».

(٢) زيادة من ج، ب، أ.

(٣) في ط، ب: «فقال».

(٤) البيت في تفسير الطبري (٢/ ١٨).

(٥) في ج: «نصروا»، وفي ب، أ: «تعبروا».

(٦) البيت في تفسير الطبري (٢/ ١٨).

وقال سُبَيْدٌ، عن حجاج، عن ابن جريج: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ علموا أنهم ملاقوا ربهم، كقولهم: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ﴾ [الحاقة: ٢٠] يقول: علمت.
وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

قلت: وفي الصحيح: «أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك، ألم أكرمك، ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. فيقول الله تعالى: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله: اليوم أناك كما نسيتي». وميأتي مبسوطة عند قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٧)

بذكرهم تعالى سألَفَ نعمه على آباؤهم وأسلافهم، وما كان فضَّلَهُم به من إرسال الرسل منهم وإتزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالماً.

وروى عن مجاهد، والربيع بن أنس، وقتادة، وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك. ويجب العمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم، لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفي المساند والسنن^(١) عن معاوية بن حيدة التميمي، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم تُؤفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله». والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

[وقيل: المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً، حكاه فخر الدين الرازي وفيه نظر. وقيل: إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتغالهم على الأنبياء منهم، حكاه القرطبي في تفسيره، وفيه نظر؛ لأن ﴿الْعَالَمِينَ﴾ عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين^(٢)].

(٢) زيادة من ج، ط، س، أ، و.

(١) في ج، أ، و: «وفي السنن والمسند».

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٨).

لما ذكرهم [الله] (١) تعالى بنعمه أولاً، عطف على ذلك التحذير من حلول نقمه بهم يوم القيامة فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أى: لا يغنى أحد عن أحد كما قال: ﴿وَلَا تَرَرُ وَازْرَةٌ وَزِرٌ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٢٧]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٢٣] فهذه (٢) أبلغ المقامات: أن كلا من الوالد وولده لا يغنى أحدهما عن الآخر شيئاً، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ يعني عن الكافرين، كما قال: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الحديد: ١٥]؛ فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به، ووافقوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذى جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِي يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ [إبراهيم: ٣١].

[وقال سنيد: حدثني حجاج، حدثني ابن جريج قال: قال مجاهد: قال ابن عباس: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال: بدل، والبدل: الفدية، وقال السدي: أما عدل فيعدلها من العذاب يقول: لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدى به ما تقبل منها، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، (٣) وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، فى قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ يعني: فداء. قال ابن أبي حاتم: وروى عن أبي مالك، وأخسن، وسعيد بن جبيرة، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه عن علي، رضى الله عنه، فى حديث طويل، قال: والصرف والعدل: التطوع والفريضة. وكذا قال الوليد بن مسلم، عن عثمان بن أبي العاتكة (٤)، عن عمير بن هانى.

(١) زيادة من و. (٢) فى ج، ح، ب: «فهذه». (٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٤) فى ج، أ: «العالية»

وهذا القول غريب هنا، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية، وقد ورد حديث يقويه، وهو ما قال ابن جرير: حدثني نَجِيع بن إبراهيم، حدثنا علي بن حكيم، حدثنا حميد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عمرو بن قيس الملائي^(١)، عن رجل من بنى أمية - من أهل الشام أحسن عليه الشاء - قال: قيل: يا رسول الله، ما العدل؟ قال: «العدل القدية»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء. هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] أي: إنه تعالى لا يقبل فيمن كثر به فدية ولا شفاعاة، ولا ينقذ أحدا من عذابه منقذ، ولا يجيره منه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقال: ﴿فَيَوْمَذٍ لَا يَنْصُرُهُمْ رَبُّهُمْ وَلَا يُقَاتِلُ لَهُمْ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]. وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصُرُونَ . بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَلَمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥، ٢٦]. وقال: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٨].

قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصُرُونَ﴾ ما لكم اليوم لا تمانعون منا؟ ميهات ليس ذلك لكم اليوم.

قال^(٣) ابن جرير: وتاويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعنى: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بطلت هنالك^(٤) المحاباة واضمحلت الرشى والشفاعات، وارتفع من القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلى عدل^(٥) الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزى بالسينة مثلها وبالخسنة^(٦) أضعافها وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَوْلُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنْصُرُونَ . بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَلَمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤ - ٢٦].

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى^(٧): واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي:

(١) في ج: «الملاي».

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٣٤).

(٣) في ج: «وقال».

(٤) في ج: «هنا».

(٥) في ج: «فيجزى السنة مثلها واخسنة».

(٦) في ج: ط، ب: «العدل».

(٧) في ج: «يقول الله تبارك وتعالى».

خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صعبة^(١) مرسى، عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم، أى: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب. وذلك أن فرعون - لعنه الله - كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بنى إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدى رجل من بنى إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بنى إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، وهكذا جاء فى حديث الفتون، كما سيأتى فى موضعه [فى سورة طه]^(٢)، إن شاء الله، فعند ذلك أمر فرعون - لعنه الله - بقتل كل [ذى]^(٣) ذكر^(٤) يولد بعد ذلك من بنى إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بنى إسرائيل فى مشاق الأعمال وأراذلها.

وههنا فسر العذاب بذيح الأبناء، وفى سورة إبراهيم عطف عليه، كما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]، وسيأتى تفسير^(٥) ذلك فى أول سورة القصص، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة والمعونة والتأييد.

ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أى: يولونكم، قاله أبو عبيدة، كما يقال سامه خبطة خسف إذا أولاه إياها، قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبيتنا أن نقر الخسف فينا

وقيل: معناه: يذيمون عذابكم، كما يقال: سائمة الغنم من إدامتها الرعى، نقله القرطبي، وإنما قال ههنا: ﴿يُدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم فى قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ثم فسره بهذا لقوله ههنا ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وأما فى سورة إبراهيم فلما قال: ﴿وَذَكَّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] أى: بأياديه ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، فعطف عليه الذبيح ليدل على تعدد النعم والآيات.

وفرعون علم على كل من ملك مصر، كافراً من العماليق^(٦) وغيرهم، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافراً، وكذلك كسرى لكل من ملك الفرس، وتبع لمن ملك اليمن كافراً [والنجاشى لمن ملك الحبشة، وبظليموس لمن ملك الهند]^(٧)، ويقال: كان اسم فرعون الذى كان فى زمن موسى، عليه السلام: الوليد بن مصعب بن الريان، وقيل: مصعب بن الريان، وأيا ما كان فعليه لعنة الله، [وكان من سلالة عمليق بن داود بن إرم بن سام بن نوح، وكنيته أبو مرة، وأصله فارسي من استخر]^(٨).

(١) فى ج: «صعبة».

(٢) زيادة من ج، ط.

(٣) زيادة من ج.

(٤) ف أ: «ولد».

(٥) فى ج، ط: «تصلي».

(٦) (٧، ٨) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٧) فى ج: «العماليق».

(٥) فى ج، ط: «تصلي».

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال ابن جرير: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا إياكم عما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم. أي: نعمة عظيمة عليكم في ذلك^(١).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس [في]^(٢) قوله: ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة. وقال مجاهد: ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة من ربكم عظيمة. وكذا قال أبو العالية، وأبو مالك، والسدي، وغيرهم.

وأصل البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبِّئُوهُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿وَبَلَّوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

قال ابن جرير: وأكثر ما يقال في الشر: بلوته أبلوه بلاءً، وفي الخير: أبلية إبلاء وبلاء. قال زهير ابن أبي سلمى:

جَزَى اللهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ وَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبِلَاءِ الَّذِي يَبْلُو^(٣)

قال: فجمع بين اللغتين؛ لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده.

[وقيل: المراد بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ﴾: إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء؛ قال القرطبي: وهذا قول الجمهور ولفظه بعد ما حكى القول الأول، ثم قال: وقال الجمهور: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء ههنا في الشر، والمعنى في الذبح مكروه وامتحان]^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسى، عليه السلام، خَرَجَ^(٥) فرعون في طلبكم، ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً^(٦) كما سيأتي في مواضعه^(٧)، ومن أبسطها في سورة الشعراء إن شاء الله.

﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ أي: خلصناكم منهم، وحجزنا بينكم وبينهم، وأغرقناهم وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشقى لصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوكم.

قال^(٨) عبد الرزاق: أبانا معمر، عن أبي إسحاق الهمداني، عن عمرو بن ميمون الأودي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قال: لما خرج موسى بيني إسرائيل، بلغ ذلك فرعون فقال: لا تبعوهم حتى تصيح الديكة. قال: فوالله ما صاح ليبتذ ديك

(١) في ج: أي نعمة عظيم في ذلك.

(٢) البيت في تفسير الطبري (٢/ ٤٩).

(٣) زيادة من ج: ط، أ، و.

(٤) في ج: فوخرج.

(٥) في ج: مفصلاً عن ذلك.

(٦) في ج: مفصلاً.

(٧) في ج: ط، أوقال.

حتى أصبحوا؛ فدعا بشاة فذُبِحَتْ، ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط. فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط ثم سار، فلما أتى موسى البحر، قال له رجل من أصحابه، يقال له: يوشع بن نون: أين أمر ربك؟ قال: أمامك، يشير إلى البحر. فأقحم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ العَمْرَ، فذهب به الغمر، ثم رجع. فقال: أين أمر ربك يا موسى؟ فوالله ما كذبت وما كذبت^(١). فعل ذلك ثلاث مرات، ثم أوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] يقول: مثل الجبل. ثم سار موسى ومن معه وأتبعهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تناموا فيه أطبقه الله عليهم فلذلك قال: ﴿وَاعْرِفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٢).

وكذلك قال غير واحد من السلف، كما سيأتي بيانه في موضعه^(٣). وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عفان، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب، عن عبد الله بن سعيد بن جبيرة، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «لما هذا اليوم الذي تصومون؟». قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بني إسرائيل من عدوهم^(٤)، فصامه موسى، عليه السلام. فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم». فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصومه.

وروى هذا الحديث البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه من طرق، عن أيوب السخيتي، به^(٥) نحو ما تقدم.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو الربيع، حدثنا سلام - يعني ابن سليم - عن زيد العمى عن يزيد الرقاشي عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «فلق الله البحر لبني إسرائيل يوم عاشوراء»^(٦). وهذا ضعيف من هذا الوجه فإن زيدا العمى فيه ضعف، وشيخه يزيد الرقاشي أضعف منه.

﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

(١) في ج: «ولا كذبت». وفي ط: «وكذبت».

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٧).

(٣) في أ: «كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله».

(٤) في ج: «من الفرق»، وفي ط: «من غرقهم».

(٥) المسند (١/ ٢٩١) وصحيح البخاري برقم (٤ - ٢٠) وصحيح مسلم برقم (١١٣٠).

(٦) مسند أبي يعلى (٧/ ١٣٣).

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى عفوى عنكم، لَمَّا عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه، عند انقضاء أمد المواعدة، وكانت أربعين يوماً، وهى المذكورة فى الاعراف، فى قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ [الاعراف: ١٤٢] قيل: إنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذى الحجة، وكان ذلك بعد خلاصهم من قوم فرعون وإغماهم من البحر.

وقوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعنى: التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾: وهو ما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. وكان ذلك - أيضاً - بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام فى سورة الاعراف. ولقوله^(١) تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

وقيل: الواو زائدة، والمعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب والفرقان وهذا غريب، وقيل: عطف عليه وإن كان المعنى واحداً، كما فى قول الشاعر:

وقدمت الأديم لراقشيه فالفى قولها كذباً ومينا

وقال الآخر:

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد
فالكذب هو المين، والنأى: هو البعد. وقال عترة:

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيم
فمعطف الإقفار على الإقواء وهو هو.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

هذه صفة توبته تعالى على بنى إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصرى، رحمه الله، فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ فقال: ذلك حين وقع فى قلوبهم من شأن عبادتهم العجل بما وقع حين قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية [الاعراف: ١٤٩].

قال: فذلك حين يقول موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾.

وقال أبو العالية، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾: أى إلى خالقكم.

قلت: وفى قوله هنا: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ تنبيه على عظم جرمهم، أى: توبوا إلى الذى خلقكم

وقد عبدتم معه غيره.

(١) فى ج: فوكفوله.

وروى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن هارون، عن الأصمغ بن زيد الوراق عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال^(١) الله تعالى: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من ولد ووالد^(٢)، فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن. فتاب أولئك الذين كانوا يخفى على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا به فغفر الله تعالى للقاتل والمقتول. وهذا^(٣) قطعة من حديث القُتون، وسيأتي في تفسير سورة طه بكلامه، إن شاء الله^(٤).

وقال ابن جرير: حدثني عبد الكريم بن الهيثم، حدثنا إبراهيم بن بشَّار، حدثنا مفيان بن عيينة، قال: قال أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال موسى لقومه: ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾. قال: أمر موسى قومه - من أمر ربه عز وجل - أن يقتلوا أنفسهم قال: واحتبى الذين عبدوا^(٥) العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلَّة^(٦) شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فأنجلت الظلَّة^(٧) عنهم، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقى كانت له توبة.

وقال ابن جرير: أخبرني القاسم بن أبي بزة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهداً يقولان في قوله تعالى: ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ قالوا: قام بعضهم إلى بعض بالخناجر فقتل بعضهم بعضاً، لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد، حتى ألوى موسى بثوبه، فطرحوا ما بأيديهم، فكشفت عن سبعين ألف قتيل. وإن الله أوحى إلى موسى: أن حَيِّ، فقد اكتنبت، فذلك حين ألوى موسى بثوبه، [وروى عن علي رضي الله عنه نحو ذلك]^(٨).

وقال قتادة: أمر القوم بشديد من الأمر، فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضاً، حتى بلغ الله فيهم نقمته، فسقطت الشفار من أيديهم، فأمسك عنهم القتل، فجعله لحبهم توبة، وللمقتول شهادة.

وقال الحسن البصري: أصابتهم ظلمة حنُوس، فقتل بعضهم بعضاً [نقمة]^(٩)، ثم انكشف عنهم، فجعل توبتهم في ذلك.

وقال السدي في قوله: ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ قال: فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيف، فكان من قُتل من الفريقين شهيداً، حتى كثرت القتل، حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قتل بينهم^(١٠) سبعون ألفاً، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلكت بني إسرائيل، ربنا البقية البقية،

(١) في ج: اذقال. (٢) في ط: أو والدا.

(٣) في ج: وهذه.

(٤) وهو في سنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٢٦) وسيأتي عند الموضع الذي أشار إليه الحافظ بن كثير.

(٥) في ج: ط، ب: عكفوا.

(٦) في ج: ط، ب، أ: واظلمة.

(٧) في ج: ط، ب، أ: واظلمة.

(٨) زيادة من ج: ط، ب، وفي أ: وا: روى عن علي راحة الله عليه نحو ذلك.

(٩) زيادة من أ.

(١٠) في ج: ط، ب: منهم.

فأمرهم أن يضعوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيداً، ومن بقى مكفراً عنه؛ فذلك قوله: ﴿قَاتِبْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال الزهري: لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها، برزوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخنجر، وموسى رافع يديه، حتى إذا أفتوا بعضهم^(١)، قالوا: يا نبي الله، ادع الله لنا. وأخذوا بعضديه يسندون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك، حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله، جل ثناؤه، إلى موسى: ما يحزنك؟ أما من قتل منكم فحي عندى يرزقون، وأما من بقى فقد قبلت توبته. فسرى بذلك موسى، وبنو إسرائيل.

رواه ابن جرير بإسناد جيد عنه.

وقال ابن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه، وأحرق العجل وذراه في اليم، خرج إلى ربه بمن اختار من قومه، فأخذتهم الصاعقة، ثم بعثوا، فسأل موسى ربه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل. فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم قال: فبلغني أنهم قالوا لموسى: نصبر لأمر الله. فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده. فجلسوا بالآفنية وأصلت عليهم القوم السيوف، فجعلوا يقتلونهم، وبكى موسى، وبهش إليه النساء والصبيان، يطلبون العفو عنهم، فتاب الله عليهم، وعفا عنهم وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما رجع موسى إلى قومه، وكان^(٢) سبعون^(٣) رجلاً قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه. فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم. فقالوا: يا موسى، ما من^(٤) توبة؟ قال: بلى، ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ عَلَيْهِمُ﴾ الآية، فاخرطوا السيوف والجرزة والخنجر والسكاكين. قال: وبعث عليهم ضيابة. قال: فجعلوا يتلامسون بالأيدي، ويقتل بعضهم بعضاً. قال: ويلقى الرجل أباه واتحاه فيقتله ولا يدري. قال: ويتنادون [فيها]^(٥): رحم الله عبداً صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه، قال: فقتلهم شهداء، وتيب على أحيائهم، ثم قرأ: ﴿قَاتِبْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى بعضى لكم بعد الصعق، إذ سألتهم رؤيتى جهرة عياناً، مما لا يستطيع^(٦) لكم ولا لأمثالكم، كما قال ابن جريج، قال ابن عباس فى هذه الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا

(١) فى جزء: «بعضهم بعضاً».

(٢) فى أ: «سبعين».

(٣) فى أ: «عمل من».

(٤) فى جزء: «ينطلق».

(٥) زيادة من جزء ط، ب، أ.

(٦) فى جزء: «وكانوا».

مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴿٥٥﴾ قال: علانية.

وكذا قال إبراهيم بن طهمان عن عباد بن إسحاق، عن أبي الحويرث، عن ابن عباس، أنه قال في قول الله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾: أى علانية، أى حتى نرى الله.

وقال قتادة، والربيع بن أنس: ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾: أى عياناً.

وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه. قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، يقول: ماتوا.

وقال مروان بن الحكم، فيما خطب به على منبر مكة: الصاعقة: صيحة من السماء.

وقال السدي في قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ الصاعقة: نار.

وقال عروة بن زويمر في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قال: فصعق بعضهم وبعض ينظرون^(١)، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء.

وقال السدي: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب، ماذا أقول لبي إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايْ أَهْلَكْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنْآ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين من اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا^(٢) رجلٌ رجلٌ، ينظر^(٣) بعضهم إلى بعض: كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقال الربيع بن أنس: كان موتهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وكذا قال قتادة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، قال: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرَّق العجل وذراه في اليم، اختار موسى منهم سبعين^(٤) رجلاً أحَبَّ فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله بما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء^(٥) ليلقات وقتة له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون، فيما ذكر لي، حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا للقاء الله، قالوا: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله^(٦) وقع على جبهته نور ساطع،

(٢) في ج: «عاش».

(٤) في ج: «سبعون» وهو خطأ.

(٦) في ج: «كلمه ربه».

(١) في ج: «ينظر».

(٣) في ج: «ط، ب: «ينظر».

(٥) في ج: «الطور سيناء».

لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه^(١) بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقموا سجوداً^(٢) فسموه وهو يكلم موسى بأمره وينهاه: افعل ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة^(٣)، وهي الصاعقة، فماتوا جميعاً. وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ [وَأَيَّ] ^(٤)﴾ [الأعراف: ١٥٥] قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بنى إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أي: إن هذا لهم هلاك. اختارت منهم سبعين رجلاً، الحخير فالحخير، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد! فما الذي يصدقوني به ويأمنوني عليه بعد هذا؟ ﴿إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فلم يزل موسى يناشد ربه، عز وجل، ويطلب إليه، حتى رد إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل. فقال: لا؛ إلا أن يقتلوا أنفسهم^(٥).

هذا سياق محمد بن إسحاق.

وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير: لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضاً كما أمرهم به، أمر الله موسى أن يأتيه في كل أناس من بنى إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موسى، فاختر موسى قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. وساق البقية.

[وهذا السياق يقتضى أن الخطاب توجه إلى بنى إسرائيل في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ والمراد السبعون المختارون منهم، ولم يحك كثير من المفسرين سواه، وقد أعرب فخر الدين الرازي في تفسيره حين حكى في قصة هؤلاء السبعين: أنهم بعد إحيائهم قالوا: يا موسى، إنك لا تطلب من الله شيئاً إلا أعطاك، فادعه أن يجعلنا أنبياء، فدعا بذلك فأجاب الله دعوته، وهذا غريب جداً، إذ لا يعرف في زمان موسى نبي سوى هارون ثم يوشع بن نون، وقد غلط أهل الكتاب أيضاً في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل، فإن موسى الكليم، عليه السلام، قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون؟

القول الثاني في الآية^(٦): قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية: قال لهم موسى - لما رجع من عند ربه بالألواح، قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم، ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه^(٧) أمركم الذي أمركم به ونهيكم الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى

(١) في ج: ادونها.

(٢) في ط: «الصاعقة».

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٧٧).

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٥) في ج: اسجدوا.

(٦) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٧) في ج: فيها كتاب الله الذي.

يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فماله لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى! وقرأ قول الله: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾. قال: فجاءت غضبة من الله، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة، فصحفتهم فماتوا أجمعون. قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله. فقالوا: لا، فقال: أى شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متا ثم حيناً. قال^(١): خذوا كتاب الله. قالوا: لا. فبعث الله ملائكة فتفتت الجبل فوقهم.

[وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا. وقد حكى الماوردي في ذلك قولين: أحدهما: أنه سقط التكليف عنهم لمعايبتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق؛ والثاني: أنهم مكلفون لثلا يخلو عاقل من تكليف، قال القرطبي: وهذا هو الصحيح لأن معايبهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم؛ لأن بنى إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظيماً من خوارق العادات، وهم في ذلك مكلفون وهذا واضح، والله أعلم^(٢)].

﴿وَوَضَعْنَا عَلَىٰكُمْ الْعِمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥٧).

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم - أيضاً - بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَوَضَعْنَا عَلَىٰكُمْ الْعِمَامَ﴾ وهو جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يغم السماء، أى: يوارئها ويسترها. وهو السحاب الأبيض، ظللوا به في التيه ليقبهم حر الشمس. كما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس في حديث الغنم، قال: ثم ظلل عليهم في التيه بالغمام.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن عمر، والربيع بن أنس، وأبي مجلز، والضحاك، والسدي، نحو قول ابن عباس.

وقال الحسن وقتادة: ﴿وَوَضَعْنَا عَلَىٰكُمْ الْعِمَامَ﴾ [قال^(٣): كان هذا في البرية^(٤)، ظلل عليهم الغمام من الشمس.

وقال ابن جرير^(٥): قال آخرون: وهو غمام أبرد من هذا، وأطيب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَوَضَعْنَا عَلَىٰكُمْ الْعِمَامَ﴾ قال: ليس بالسحاب، هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، ولم يكن إلا لهم.

وهكذا رواه ابن جرير، عن المثني بن إبراهيم، عن أبي حذيفة.

(٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) في أ: في التيه.

(٦) في ج، ط: عليهم؛ وهو خطأ.

(١) في ج: فقال.

(٣) زيادة من ج، ط.

(٥) في ج، ط: ابن جرير.

وكذا رواه الثوري، وغيره، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد. وكأنه يريد، والله أعلم، أنه ليس من زى هذا السحاب، بل أحسن منه وأطيب وأبهى نظراً، كما قال سنيذ في تفسيره عن حجاج بن محمد، عن ابن جريج قال: قال ابن عباس: ﴿وَوَظَلْنَا عَلَيْكَ الْغَمَامُ﴾ قال: غمام أبرد من هذا وأطيب، وهو الذي يأتي الله فيه في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٢١٠] وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر. قال ابن عباس: وكان معهم في التيه.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمُنَّ﴾: اختلفت عبارات المفسرين في المن: ما هو؟ فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا. وقال مجاهد: المن: صمغة. وقال عكرمة: المن: شيء أنزله الله عليهم مثل الطل، شبه الرب الغليظ.

وقال السدي: قالوا: يا موسى، كيف لنا بما ههنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على شجر^(١) الزنجبيل.

وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في محلثهم^(٢) سقوط الثلج، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى ذلك فد ولم يبق، حتى إذا كان يوم سادسه، ليوم جمعته، أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشيء، وهذا كله في البرية.

وقال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه.

وقال وهب بن منبه - وسئل عن المن - فقال: خبز الرقاق مثل الذرة أو مثل النقي.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن جابر، عن عامر وهو الشعبي، قال: عملكم هذا جزء من سبعين جزءاً من المن.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه العسل.

ووقع في شعر أمية بن أبي الصلت، حيث قال:

فَرَأَى اللَّهُ أَنَّهُمْ بِمَضِيعِ	لَا بَدَى مَرْزَعٍ وَلَا مَثْمُورَا
فَسَاهَا عَلَيْهِمْ غَادِيَاتُ	وَتَرَى مَرْزَهُمْ خَلَايَا وَخُورَا
عَسَلًا نَاطِقًا وَمَاءَ فَرَاتَا	وَحَلِيًّا ذَا بَهْجَةٍ مَرْمُورَا ^(٣)

(٢) من: من نخلتها.

(١) في ط: «الشجرة»، وفي ب: «الشجر».

(٣) الآيات في تفسير الطبري (٢/ ٩٤، ٩٥).

فالتأطف: هو السائل، والخليب المرمور: الصافي منه.

والفرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب والظاهر، والله أعلم، أنه^(١) كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب^(٢) وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك قول البخاري:

حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن عبد الملك، عن عمرو بن حرث^(٣)، عن سعيد^(٤) بن زيد، رضى الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «الكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ، وماؤها شفاء للعين».

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الملك، وهو ابن عمير، به^(٥).

وأخرجه الجماعة في كتبهم، إلا أبا داود، من طرق عن عبد الملك، وهو ابن عمير، به^(٦). وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه البخاري ومسلم والنسائي من رواية الحكم، عن الحسن العرني، عن عمرو بن حرث، به^(٧).

وقال الترمذي: حدثنا أبو عبيدة بن أبي السفر ومحمود بن غيلان، قالوا: حدثنا سعيد بن عامر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «العجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم، والكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ وماؤها شفاء للعين»^(٨).

تفرد بإخراجه الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن عمرو، وإلا من حديث سعيد^(٩) بن عامر، عنه، وفي الباب عن سعيد بن زيد، وأبي سعيد وجابر.

كذا قال، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره، من طريق آخر، عن أبي هريرة، فقال: حدثنا أحمد بن الحسن^(١٠) بن أحمد البصري، حدثنا أسلم بن سهل، حدثنا القاسم بن عيسى، حدثنا طلحة بن عبد الرحمن، عن قتادة^(١١)، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ، وماؤها شفاء للعين».

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وطلحة بن عبد الرحمن هذا سلمى واسطى، يكتب بأبي

(١) في ج: أن.

(٢) في ج: شراب.

(٣) في ج: حوثب.

(٤) في ج: سفيان.

(٥) صحيح البخاري برقم (٤٤٧٨) والمسند (١/ ١٨٧).

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٦٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٠٤٩) وسنن الترمذي برقم (٢٠٦٧) وسنن النسائي الكبير برقم (٦٦٦٧).

(٧) صحيح البخاري برقم (٥٧٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٠٤٩) وسنن النسائي الكبير برقم (١٠٩٨٨).

(٨) سنن الترمذي برقم (٣٠١٣).

(٩) في ج: محمد.

(١٠) في ج: .. وا: الخمين.

(١١) في ج: عيادة.

محمد، وقيل: أبو سليمان المؤدب قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدى: روى عن قتادة أشياء لا يتابع عليها^(١).

ثم قال [الترمذى]^(٢): حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: الكمأة جُدري الأرض، فقال نبي الله ﷺ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم».

وهذا الحديث قد رواه النسائي، عن محمد بن بشار، به^(٣). وعنه، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن أبي بشر جعفر بن إياس، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة، به^(٤). وعن محمد بن بشار، عن عبد الأعلى، عن خالد الحذاء، عن شهر بن حوشب. بقصة الكمأة فقط^(٥).

وروى النسائي - أيضاً - وابن ماجه من حديث محمد بن بشار، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز ابن عبد الصمد، عن مطر الوراق، عن شهر: بقصة العجوة عند النسائي، وبالقصتين عند ابن ماجه^(٦).

وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبي هريرة فإنه لم يسمعه^(٧) منه، بدليل ما رواه النسائي في الوليمة من سننه، عن علي بن الحسين الدرهمي^(٨)، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ وهم يذكرون الكمأة، وبعضهم يقول^(٩): جُدري الأرض، فقال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»^(١٠).

وروى عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن شهر بن حوشب، عن جابر ابن عبد الله وأبي سعيد الخدري، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم»^(١١).

قال^(١٢) النسائي في الوليمة أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب، عن أبي سعيد وجابر، رضى الله عنهما، أن

(١) الكامل لابن عدى (٤ / ١١٤).

(٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٣) هو في سنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٧١) عن نصير بن الفرج، عن معاذ بن هشام به، ولم أتع عليه عن محمد بن بشار، وقد ذكره المزى عن محمد بن بشار في تحفة الأشراف (١٠٠ / ١١٢).

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٧٣).

(٥) سنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٧٢).

(٦) سنن ابن ماجه برقم (٣٤٠٠).

(٧) في ج: «لم يسم».

(٨) سنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٧٠).

(٩) المسند (٣ / ٤٨).

(١٠) في ج، ط: «وقال».

(٩) في ج: «وبعضهم يذكرون».

(٨) في ج: «الدهرم».

رسول الله ﷺ قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»^(١). ثم رواه - أيضاً - وابن ماجه من طرق، عن الأعمش، عن أبي بشر، عن شهر عنهما، به^(٢).

وقد روي^(٣) - أعنى النسائي^(٤)، وابن ماجه - من حديث سعيد بن مسلم^(٥)، كلاهما عن الأعمش، عن جعفر بن إياس عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، زاد النسائي: [وحديث]^(٦) جابر، عن النبي ﷺ قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»^(٧).

ورواه ابن مردويه، عن أحمد بن عثمان، عن عباس الدوري، عن لاحق بن صواب^(٨)، عن عمار بن رزيق^(٩)، عن الأعمش، كابن ماجه.

وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا أحمد بن عثمان، حدثنا عباس الدوري، حدثنا الحسن^(١٠) بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي سعيد الخدري، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كمآت، فقال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين».

وأخرجه النسائي، عن عمرو بن منصور، عن الحسن بن الربيع^(١١)، ثم [رواه]^(١٢) ابن مردويه. رواه أيضاً عن عبد الله بن إسحاق عن الحسن بن سلام، عن عبيد الله بن موسى، عن شيبان^(١٣)، عن الأعمش به، وكذا رواه النسائي عن أحمد بن عثمان بن حكيم، عن عبيد الله بن موسى [به]^(١٤)(١٥).

وقد روى من حديث أنس بن مالك، رضى الله عنه، كما قال ابن مردويه:

حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا حمدون بن أحمد، حدثنا حوثرة بن أشرس، حدثنا حماد، عن شعيب بن الحبحاب^(١٦)، عن أنس: أن أصحاب رسول الله ﷺ تدارؤوا^(١٧) في الشجرة التي اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فقال بعضهم: نحسبه الكمأة. فقال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم»^(١٨).

(١) لم أقع عليه في المطبع من سنن النسائي الكبرى.

(٢) سنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٣) ولم أقع عليه في سنن النسائي الكبرى المطبوعة.

(٣) في ج: أو قد رويها. (٤) في من ج: و: «النسائي من حديث جرير».

(٥) في ج: مسلمة. (٦) زيادة من ج: و.

(٧) سنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٧٦، ٦٦٧٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣٤٥٣) لكن وقع في سنن النسائي عن جرير عن الأعمش والله أعلم.

(٨) في ج: «صوان». (٩) في ج: «رزيق».

(١٠) في ج: «الحسين». (١١) لم أقع عليه في المطبع من سنن النسائي الكبرى.

(١٢) زيادة من ج: ط، أ.

(١٣) سنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٧٨).

(١٤) في ج: «ابن الحبحاب»، وفي أ: «ابن الحجاج».

(١٥) في ج: «تذاكروا».

(١٦) ورواه ابن عدى في الكامل (٢/ ٣٧٠) من طريق حساد بن سباه عن ثابت عن أنس بنحوه.

وهذا الحديث محفوظ أصله من رواية حماد بن سلمة. وقد روى الترمذي والنسائي من طريقه شيئاً من هذا والله أعلم^(١) (٢).

[وقد]^(٣) روى عن شهر، عن ابن عباس، كما رواه النسائي - أيضاً - في الوليمة، عن أبي بكر أحمد بن علي بن سعيد، عن عبد الله بن عون الخزاز، عن أبي عبيدة الخداد، عن عبد الجليل بن عطية، عن شهر، عن عبد الله بن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «الكُمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»^(٤).

فقد اختلف - كما ترى فيه - علي شهر بن حوشب، ويحتمل عندي أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها، وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم، فإن الأسانيد إليه جيدة، وهو لا يعتمد الكذب، وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله ﷺ، كما تقدم من رواية سعيد بن زيد.

وأما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السلوى طائر شبيه بالسَّمَانِي، كانوا يأكلون منه.

وقال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس^(٥) من الصحابة: السلوى: طائر يشبه السَّمَانِي.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا قرة بن خالد، عن جهضم، عن ابن عباس، قال: السلوى: هو السَّمَانِي.

وكذا قال مجاهد، والشعبي، والضحاك، والحسن، وعكرمة، والربيع بن أنس، رحمهم الله.

وعن عكرمة: أما السلوى فطير^(٦) كطير يكون بالجنة^(٧)، أكبر من العصفور، أو نحو ذلك.

وقال قتادة: السلوى من طير إلى الحمرة، تحشرها عليهم الريح الجنوب. وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعة^(٨) أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه شيء، ولا يطلبه.

وقال وهب بن منبه: السلوى: طير سمين مثل الحمام، كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت. وفي رواية عن وهب، قال: سألت بنو إسرائيل موسى، عليه السلام، اللحم، فقال الله: لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض، فأرسل عليهم ريحاً، فأذرت عند ماكنهم السلوى، وهو السَّمَانِي^(٩)، مثل ميل في ميل قيد رمح إلى^(١٠) السماء فخبّروا للغد فنن اللحم وخبز الخبز.

(١) في ج: والله تبارك أعلم.

(٢) سنن الترمذي برقم (٣١١٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٢٦٢).

(٣) زيادة من ط.

(٤) سنن النسائي الكبرى برقم (٦٦٦٩).

(٥) في ج: ط: وعن أناس.

(٦) في ج: «طير».

(٨) في ج: «جمعة».

(٧) في ج: «في الجنة».

(٩) في ج: «في».

(١٠) في ج: «السمان».

وقال السدي: لما دخل بنو إسرائيل التيه، قالوا لموسى، عليه السلام: كيف لنا بما ههنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ فكان يسقط على الشجر^(١) الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه، فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سمياً ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر، فأنفجرت^(٢) منه اثنتا عشرة عيناً، فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب، فأين الظل؟ فظلل عليهم الغمام. فقالوا: هذا الظل، فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم^(٣) تطول معهم كما يطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾، وقوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ [البقرة: 6٠].

وروى عن وهب بن منبه، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدي.

وقال سنيّد، عن حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: خلق لهم في التيه ثياب لا تخرق^(٤) ولا تدرن، قال ابن جريج: فكان الرجل إذا أخذ من المن والسلوى فوق طعام يوم فد، إلا أنهم كانوا يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسداً.

[قال ابن عطية: السلوى: طير بإجماع المفسرين، وقد غلط الهذلي في قوله: إنه العسل، وأنشد في ذلك مستشهداً:

وقاسمها بالله جهداً لانتهم ألد من السلوى إذا ما أشورها

قال: فظن أن السلوى عسل^(٥) قال القرطبي: دعوى الإجماع لا تصح؛ لأن المؤرخ أحد علماء اللغة والتفسير قال: إنه العسل، واستدل بيت الهذلي هذا، وذكر أنه كذلك في لغة كنانة؛ لأنه يلى به ومنه عين سلوان، وقال الجوهري: السلوى العسل، واستشهد بيت الهذلي - أيضاً - والسلوان بالضم خرزة، كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربها العاشق سلا، قال الشاعر:

شربت على سلوان ماء مزنة فلا وجديد العيش يا منى ما أسلو

واسم ذلك الماء السلوان، وقال بعضهم: السلوان دواء يشفى الحزين فيسلو والأطباء يسمونه (مضرج)، قالوا: والسلوى جمع بلفظ - الواحد - أيضاً، كما يقال: سمانى للمفرد والجمع ويلى كذلك، وقال الخليل واحده سلوانة، وأنشد:

وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض السلوانة من بلبل القطر

(١) في ج: «عنى شجر». (٢) في ج: ب: «فانفجرت».

(٣) في ج: «اليسهم».

(٤) في ج: «لا تخلق».

(٥) المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٢٢٩).

وقال الكاسي: السلى واحدة وجمعه سلاوى، نقله كله القرطبي^(١) [٢].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾: أمر بإباحة وإرشاد وامتنان. وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، أى: أمرناهم بالاكل عما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥] فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهده من الآيات البيّنات والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ^(٣) ورضى عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه فى أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلا على الرسول ﷺ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مَبْرُكِ الشاة، فدعا [الله]^(٤) فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم. وكذا لما احتاجوا إلى الماء سال الله تعالى، فجاءت سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم. ثم نظروا فإذا هى لم تجاوز العكر. فهذا هو الاكمل فى الاتباع: المشى مع قدر الله، مع متابعة الرسول ﷺ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول^(٥) الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى، عليه السلام، فأمروا بدخول الأرض المقدسة التى هى ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقاتل من فيها من العماليق الكفرة، فاكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله فى التيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى فى سورة المائدة؛ ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هى بيت المقدس، كما نص على ذلك السدى، والربيع بن أنس، وقتادة، [وأبو مسلم الاصبهاني وغير واحد وقد قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [الآيات]^(٦) [المائدة: ٢١-٢٤].

وقال آخرون: هى أريحا [ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد]^(٧)، وهذا بعيد؛ لأنها ليست على طريقهم، وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحا [وأبعد من ذلك قول من ذهب أنها مصر، حكاه فخر الدين فى تفسيره، والصحيح هو الأول؛ لأنها بيت المقدس]^(٨). وهذا كان لما خرجوا من

(١) تفسير القرطبي (١/ ٤٠٨).

(٢) زيادة من جاء ط، ب، أ، و.

(٣) فى ط: صلوات الله وسلامه عليه.

(٤) فى ب: عن دخولهم.

(٥-٦) زيادة من جاء ط، ب، أ، و.

التيه بعد أربعين سنة مع يروشع بن نون، عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبت لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، وأما أريحا فقريه لست مقصودة لبني إسرائيل، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب - باب البلد - ﴿سُجِّدًا﴾ أي: شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلادهم^(١) إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال.

قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجِّدًا﴾: أي ركعاً.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا أبو أحمد الزبير، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجِّدًا﴾ قال: ركعاً^(٢) من باب صغير.

ورواه الحاكم من حديث سفيان، به. ورواه ابن أبي حاتم من حديث سفيان، وهو الثوري، به^(٣). وزاد: فدخلوا من قبل استاهم.

[وقال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، واستبعده الرازي، وحكى عن بعضهم: أن المراد بالجدود هنا الخضوع لتعذر حمله على حقيقته]^(٤).

وقال خصيف: قال عكرمة، قال ابن عباس: كان الباب قبل القبلة.

وقال [ابن عباس و]^(٥) مجاهد، والسدي، وقتادة، والضحاك: هو باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس، [وحكى الرازي عن بعضهم أنه عن باب جهة من جهات القرية]^(٦).

وقال خصيف: قال عكرمة: قال ابن عباس: فدخلوا على شق. وقال السدي، عن أبي سعيد الأزدي، عن أبي الكنود، عن عبد الله بن معبود: وقيل لهم ادخلوا الباب سجداً، فدخلوا مقنعين رؤوسهم، أي: رافعي رؤوسهم خلاف ما أمروا.

وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: قال الثوري عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: قال: مغفرة، استغفروا.

وروى عن عطاء، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: قال: قولوا: هذا الامر حق، كما قيل لكم.

وقال عكرمة: قولوا: لا إله إلا الله.

وقال الأوزاعي: كتب ابن عباس إلى رجل قد سماه يسأله عن قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾،

(١) في ج: «بلادهم».

(٢) في ج: «أي ركعاً».

(٣) تفسير الطبري (٢/ ١١٣) والمستدرک (٢/ ٢٦٢) وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٨٢).

(٤ - ٦) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

فكتب إليه: أن أقروا بالذنب.

وقال الحسن وقناة: أي احفظ عنا خطايانا.

﴿نُفِّرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَيِّدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: هذا جواب الامر، أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات.

وحاصل الامر: أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْرَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر] فسر بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس بأنه نُعى إلى رسول الله ﷺ أجله فيها، وأقره على ذلك عمر ابن الخطاب^(١)، رضى الله عنه. ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك، ونعى إليه روحه الكريمة أيضاً، ولهذا كان عليه السلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روى أنه كان يوم الفتح - فتح مكة - داخلاً إليها من الثنية العليا، وأنه الخاضع لربه حتى إن عثونه ليمس مورك رجليه، يشكر الله على ذلك. ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات وذلك ضحى، فقال بعضهم: هي صلاة الضحى، وقال آخرون: بل هي صلاة الفتح، فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بطلاً أن يصلى فيه ثماني ركعات عند أول دخوله، كما فعل سعد بن أبي وقاص، رضى الله عنه، لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثماني ركعات، والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بسليم؛ وقيل: يصلها كلها بسليم واحد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: قال البخارى: حدثنى محمد، حدثنا^(٢) عبد الرحمن بن مهدي، عن ابن المبارك، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «قيل لبنى إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فدخلوا يزحفون على آسافهم، فبدلوا وقالوا: حطة: حبة في شعرة»^(٣).

ورواه النسائي، عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، عن^(٤) عبد الرحمن بن مهدي به موقوفاً^(٥). وعن محمد بن عبيد بن محمد، عن ابن المبارك ببعضه منسداً، في قوله تعالى: ﴿حِطَّةٌ﴾ قال: فبدلوا، فقالوا: حبة^(٦) (٧).

(٢) في ج: حدثنى محمد بن.

(١) زيادة من ج.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٩).

(٤) في ج: ط: «بن».

(٥) سنن النسائي الكبرى برقم (٩٨٩ - ١).

(٦) في ج: «فقال حطة».

(٧) سنن النسائي الكبرى برقم (٩٩٠ - ١).

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن هَمَّامِ بْنِ مَبْنَةَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فَبَدَلُوا، وَدَخَلُوا الْبَابَ يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِمِمْ، فَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ»^(١).

وهذا حديث صحيح، رواه البخاري عن إسحاق بن نصر، ومسلم عن محمد بن رافع. والترمذي عن عبد بن حميد، كلهم عن عبد الرزاق، به^(٢). وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم^(٣) كما حدثني صالح بن كيسان، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، وعمن لا أنهم، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «دخّلوا الباب - الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً - يزحفون على استاهمهم، وهم يقولون: حنطة في شعيرة»^(٤).

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، وحدثنا سليمان بن داود، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «قَالَ اللَّهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾». ثم قال أبو داود: حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا ابن أبي فديك، عن هشام بن سعد، مثله^(٥) (٦).

هكذا رواه منفرداً به في كتاب الحروف مختصراً.

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا أحمد بن محمد بن المنذر القزّاز، حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، عن^(٧) هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان من آخر الليل، أجزنا في ثنية^(٨) يقال لها: ذات الحنظل، فقال رسول الله ﷺ: «ما مثل هذه الثنية الليلة إلا كمثل الباب الذي قال الله لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾»^(٩).

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن البراء: «سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] قال اليهود: قيل لهم: ادخلوا الباب سجداً، قال: ركعاً، وقولوا: حطة: أي مغفرة، فدخلوا على

(١) في ج: ط: «شعيرة».

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٦٤١) وصحيح مسلم برقم (٣٠١٥) وسنن الترمذي برقم (٢٩٥٦).

(٣) في ج: ط: «بتبديلهم».

(٤) ورواه الطبري في تفسيره (٢/ ١١٢) عن محمد بن إسحاق، عن صالح بن كيسان، عن أبي هريرة، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس.

(٥) في ج: «ممنه».

(٦) سنن أبي داود برقم (٦٠٠٦).

(٧) في ج: «حدثنا». (٨) في ج: «ضربة».

(٩) ورواه البزار في مسنده برقم (١٨١٢) عن إسحاق بن بهلول، عن محمد بن إسماعيل بن أبي فديك به نحوه، وقال الهيثم في المجمع (٦/ ١٤٤): «وجاه لغات».

استأههم، وجعلوا يقولون: حنطة حمراء فيها شعيرة^(١)، فذلك قول الله تعالى: ﴿قَبْدَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وقال الثوري، عن السدي، عن أبي سعد الأزدي، عن أبي الكنود، عن ابن معمر: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فقالوا: حنطة حبة حمراء فيها شعيرة^(٢)، فانزل الله: ﴿قَبْدَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وقال أسباط، عن السدي، عن مرة، عن ابن معمر أنه قال: إنهم قالوا: «هطلي سمعانا أزية مزيا» فهي بالعربية: حبة حنطة حمراء مثقوبة^(٣) فيها شعرة سوداء، فذلك قوله: ﴿قَبْدَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وقال الثوري، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد، عن ابن عباس في قوله: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾: ركعاً من باب صغير، فدخلوا^(٤) من قبل استأههم، وقالوا: حنطة، فهو قوله تعالى: ﴿قَبْدَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾.

وهكذا روى عن عطاء، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، ويحيى بن رافع.

وحاصل ما ذكره المفكرون وما دل عليه السياق من الحديث أنهم بدلوا أمر^(٥) الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجداً، فدخلوا يزحفون على استأههم من قبل استأههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أي: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا: حنطة في شعرة^(٦). وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفقهم، وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من «الرجز» يعني به العذاب.

وهكذا روى عن مجاهد، وأبي مالك، والسدي، والحسن، وقتادة، أنه العذاب. وقال أبو العالية: الرجز الغضب. وقال الشعبي: الرجز: إما الطاعون، وإما البرد. وقال سعيد بن جبيرة: هو الطاعون.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وكيع، عن^(٧) سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن إبراهيم بن سعد - يعني ابن أبي وقاص - عن سعد بن مالك، وأسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت، رضى الله عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذاب عذب^(٨) به من كان

(١) في ج: شعيرة.

(٢) في ج: يدخلون.

(٣) في ج: استهزؤوا.

(٤) في ج: ادخلوا ما أمراً.

(٥) في ج: ادخلوا ما أمراً.

(٦) في ج: شعيرة.

(٧) في ج: حدثنا.

(٨) في أ: عذب الله.

قبلكم»^(١).

وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري به^(٢). وأصل الحديث في الصحيحين من حديث حبيب بن أبي ثابت: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها» الحديث^(٣).

قال^(٤) ابن جرير: أخبرني يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن يونس، عن الزهري، قال: أخبرني عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ، قال: «إن هذا الروع والسقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم»^(٥). وهذا الحديث أصله مخرج في الصحيحين، من حديث الزهري، ومن حديث مالك، عن محمد بن المنكدر، وسالم أبي النضر، عن عامر بن سعد، بنحوه^(٦).

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لبيكم موسى، عليه السلام، حين استسقائكم لكم، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم، وتفجيرى الماء لكم منه من اثني عشرة عيناً لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعت لكم بلا سعي منكم ولا كد، وابدعوا الذي سخر لكم ذلك. ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتلبوها. وقد بسطه المفردون في كلامهم، كما قال ابن عباس: وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع وأمر موسى، عليه السلام، فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنا عشرة عيناً، في كل ناحية منه ثلاث^(٧) عيون، وأعلم كل سبط عينهم، يشربون منها لا يرتحلون من منقطة إلا وجدوا ذلك معهم^(٨) بالمكان الذي كان منهم بالمتزل الأول.

وهذا قطعة من الحديث الذي رواه النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وهو حديث الطويل^(٩).

وقال عطية العوفي: وجعل لهم حجر مثل رأس الثور يحمل على ثور، فإذا نزلوا منزلاً وضعوه فضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنا عشرة عيناً، فإذا ساروا حملوه على ثور، فاستمك الماء.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٨٦).

(٢) سنن النسائي الكبرى برقم (٧٥٢٣).

(٣) صحيح البخاري برقم (٥٧٢٨) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٨).

(٤) في ج: «وقال».

(٥) تفسير الطبري (٢/ ١١٦).

(٦) صحيح البخاري برقم (٣٤٧٣، ٦٩٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٢١٨).

(٧) في ج: «ثلاثة».

(٨) في ج: «ذلك منهم».

(٩) سبأ في تفسير سورة طه.

وقال عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه: كان لبني إسرائيل حجر، فكان يضعه هارون ويضربه موسى بالعصا.

وقال قتادة: كان حجراً طورياً، من الطور، يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه.

[وقال الزمخشري: وقيل: كان من رخام وكان ذراعاً في ذراع، وقيل: مثل رأس الإنسان، وقيل: كان من أسس الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى. وله شعبتان تتقدان في الظلمة وكان يحمل على حمار، قال: وقيل: أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه، حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتسل، فقال له جبريل: ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته. قال الزمخشري: ويحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، قال: وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فيببس، فقالوا: إن فقد موسى هذا الحجر عطشنا، فأوحى الله إليه أن يكلم الحجارة فتنفجر ولا يمسه بالعصا لعلمهم يقرون^(١)].

وقال يحيى بن النضر: قلت لجوير: كيف علم كل أناس مشربهم؟ قال: كان موسى يضع الحجر، ويقوم من كل سبط رجل، ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنا عشرة عيناً فينتضح من كل عين على رجل، فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين.

وقال الضحاك: قال ابن عباس: لما كان بنو إسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهاراً.

وقال سفيان الثوري، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ذلك في التيه، ضرب لهم موسى الحجر فصار فيه^(٢) اثنا عشرة عيناً من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها.

وقال مجاهد نحو قول ابن عباس.

وهذه القصة شبيهة بالقصة المذكورة في سورة الأعراف، ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالى يقص ذلك^(٣) على رسوله ﷺ عما فعل بهم. وأما في هذه السورة، وهي البقرة فهي^(٤) مدنية؛ فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم. وأخبر هناك بقوله: ﴿فَأَنْبَجَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشَرَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وهو أول الانفجار، وأخبر هنا بما آل إليه الأمر^(٥) آخراً وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار^(٦) هنا، وذاك هناك، والله أعلم.

وبين السياقين تباين من عشرة أوجه لفظية ومعنوية قد سألت عنها الرازي في تفسيره وأجاب عنها بما عنده، والأمر في ذلك قريب والله تبارك وتعالى أعلم بأسرار كتابه.

(١) زيادة من جاء، ط، أ، و.
(٢) في ج: «نص هناك».
(٣) في ج: «منه».
(٤) في و: «فإنها».
(٥) في ج، و: «الحال».
(٦) في ج: «ذكر هذا».

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَاءً سَأَلْتُمْ﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى إنزالى عليكم المن والسلوى، طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً، واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم^(١) وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالاطعمة الدنية من البقول ونحوها مما سألتهم. وقال الحسن البصرى رحمه الله: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيبتهم^(٢) الذى كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل ويقول وفوم، فقالوا: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا﴾ [وهم يأكلون المن والسلوى؛ لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو كأكل واحداً^(٣)]. فالبقول والقتاء والعدس والبصل كلها معروفة. وأما «الفوم» فقد اختلف السلف فى معناه فوقع فى قراءة ابن مسعود «وثومها» بالهاء، وكذلك فسره مجاهد فى رواية لىث بن أبى سليم، عنه، بالثوم. وكذا الربيع ابن أنس، وسعيد بن جبیر.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحاق البصرى، عن يونس، عن الحسن، فى قوله: ﴿وَفُومِهَا﴾ قال: قال ابن عباس: الثوم.

قالوا: وفى اللغة القديمة: قَوْمًا لَنَا بِمَعْنَى: اخْتَبَرُوا. وقال ابن جرير: فإن كان ذلك صحيحاً، فإنه من الحروف المبدلة كقولهم: وقعوا فى «عائور شر»، وعافور شر، وأثافى وأثانى، ومغافير ومغائير. وأشابه^(٤) ذلك مما قلب الفاء ثاء والشاء فاء لتقارب مخرجيهما، والله أعلم.

وقال آخرون: الفوم الخنطة، وهو البر الذى يعمل منه الخبز.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنبأنا ابن وهب قراءة، حدثنى نافع بن أبى نعيم: أن ابن عباس سئل عن قول الله: ﴿وَفُومِهَا﴾: ما فومها؟ قال: الخنطة. قال ابن عباس: أما سمعت قول أحيحة بن الجلاح وهو يقول:

قد كنت أغنى الناس شخصاً واحداً
ورَدَّ المدينة عن زراعة قوم^(٥)

وقال ابن جرير: حدثنا على بن الحسن، حدثنا مسلم الجرمى، حدثنا عيسى بن يونس، عن رشدين بن كريب، عن أبيه، عن ابن عباس، فى قول الله تعالى: ﴿وَفُومِهَا﴾ قال: الفوم الخنطة بلسان بنى هاشم.

(١) فى ج: «مما رزقناكم». (٢) فى ج: «شيء هم».

(٣) زيادة من ج: «فى و: «وما أشبه».

(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٢/ ١٢٩).

وكذا قال علي بن أبي طلحة، والضحاك^(١)، وعكرمة عن ابن عباس أن القوم: الحنطة.
وقال سفيان الثوري، عن ابن جُرَيْج، عن مجاهد وعطاء: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قال: خبزها.
وقال هُثَيْم عن يونس، عن الحسن، وحسين، عن أبي مالك: ﴿وَقَوْمَهَا﴾ قال: الحنطة.
وهو قول عكرمة، والسدي، والحسن البصري، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم،
وغيرهم، والله أعلم^(٢).

[وقال الجوهري: القوم: الحنطة. وقال ابن دريد: القوم: السبلة، وحكى القوطي عن عطاء
وقتادة أن القوم كل حب يختبز. قال: وقال بعضهم: هو الحمص لغة شامية، ومنه يقال لبائعه: قامى
مغير عن قومى]^(٣).

وقال البخاري: وقال بعضهم: الحبوب التي تؤكل كلها قوم.
وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ فيه تقريع لهم وتوبيخ^(٤) على
ما سألوا من هذه الأطعمة الدنية مع ما هم فيه من العيش الرغيد، والطعام الهنيء الطيب النافع.
وقوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ هكذا هو منون مصروف مكتوب بالالف في المصاحف الأئمة
العثمانية، وهو قراءة الجمهور بالصرف.

قال ابن جرير: ولا استجيز^(٥) القراءة بغير ذلك؛ لإجماع المصاحف على ذلك.
وقال ابن عباس: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ قال: مصراً من الأمصار، رواه ابن أبي حاتم، من حديث
أبي سعيد^(٦) البقال سعيد بن المرزبان، عن عكرمة، عنه.
قال: وروى عن السدي، وقتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود: «اهبظوا مصر»، من غير إجراء يعنى
من غير صرف. ثم روى عن أبي العالية، والربيع بن أنس أنهما فريا ذلك بمصر فرعون.
وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية، وعن الأعمش أيضاً.

وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضاً. ويكون ذلك من
باب الاتباع لكتابة المصحف، كما في قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرًا . قَوَارِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]. ثم
توقف في المراد ما هو؟ أمصر فرعون أم مصر من الأمصار؟

وهذا الذي قاله فيه نظر، والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روى عن ابن عباس وغيره،

(١) في ط: «عن الضحاك».

(٢) في ج: ط، أ، و.

(٣) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) في ج: «وتوبيخ لهم».

(٥) في ج: «ولا استحسن».

(٦) في ج: «أبي سعيد».

والمعنى على ذلك لأن موسى، عليه السلام، يقول لهم: هذا الذي سألتكم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أي بلد دخلتموه وجدتموه، فليس ياروي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه؛ ولهذا قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَاءً سَأَلْتُمْ﴾ أي: ما طلبتم، ولما كان سؤالهم^(١) هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه، لم يجابوا إليه، والله أعلم^(٢).

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٦١).

يقول تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي: وضعت عليهم والزموا بها شرعاً وقدرأ، أي: لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكون^(٣).

قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ قال: هم أصحاب النيات^(٤)، يعني أصحاب الجزية.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن وقتادة، في قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ قال: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون^(٥)، وقال الضحاك: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ قال: الذل. وقال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين. ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجيبهم الجزية.

وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدي: المسكنة الفاقة. وقال عطية العوفى: الخراج. وقال الضحاك: الجزية.

وقوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله، وقال الربيع ابن أنس: فحدثت عليهم غضب من الله. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، يقول: استوجبوا سخطاً، وقال ابن جرير: يعني بقوله: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾: انصرفوا ورجعوا، ولا يقال: باؤوا إلا موصولاً: إما بخير وإما بشر، يقال منه: باء فلان بذنبه يبوء به بؤءاً وبؤاء. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩] يعني: تنصرف متحملهما وترجع بهما، قد صارا عليك دوني. فمعنى الكلام إذا: فرجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم من الله سخط.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يقول تعالى:

(١) في ج، ط: «كان سألهم».
 (٢) في ج، ط: «مستذلين»، وفي ط، أ، و: «مستكينين».
 (٣) في ج، ط، و: «القبالات»، وفي أ: «السلالات».
 (٤) في ج، ط، و: «القبالات»، وفي أ: «السلالات».
 (٥) تفسير عبد الرزاق (١/ ٦٩).

هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم^(١) بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم إلى^(٢) أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كبر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق، ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال: «الكبر بَطْرُ الحق، وَعَمَطُ الناس»^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، عن ابن عون، عن عمرو بن سعيد، عن حميد بن عبد الرحمن، قال: قال ابن مسعود: كنت لا أحجب عن النَّجْوَى، ولا عن كذا ولا عن كذا قال: فأتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوي، فأدركته^(٤) من آخر حديثه، وهو يقول: يا رسول الله، قد قسم لي من الجمال ما ترى، فما أحب أن أحداً من الناس فضّلني بشراكين فما فوقهما أفليس ذلك هو البغي؟ فقال: «لا، ليس ذلك من البغي، ولكن البغي من بطن - أو قال: سفه - الحق وعمط الناس». يعني: رد الحق وانتقاص الناس، والأزدراء بهم والتعاضم عليهم. ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبه من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم، أحل الله بهم بأسمه الذي لا يرد، وكساهم ذلًا في الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاءً وفاقاً^(٥).

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن عبد الله ابن مسعود، قال: كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبان، حدثنا عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله - يعني ابن مسعود - أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبي، أو قتل نبياً، وإمام ضلالة وممثل من المثليين»^(٦).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به، أنهم كانوا يعصون ويعتدون، فالعصيان فعل المناهي، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه أو المأمور به. والله أعلم.

(١) في ج: «عنهم».

(٢) في ج: ط، أ، و: «حتى».

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) في ج: ط: «قال فأدركت».

(٥) المسند (١) / ٣٨٥.

(٦) المسند (١) / ٧ - ٤٤.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢) .

لما بين [الله] (١) تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم، وما أحل بهم من النكاح، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن له جزاء الحسن، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة؛ كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه، كما قال تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

قال (٢) ابن أبي حاتم: حدثنا ابن أبي عمر العدني، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: قال سلمان: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم، فنزلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى آخر الآية.

وقال السدي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ الآية: نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، بينا هو يحدث النبي ﷺ إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون (٣) أنك ستبعث نبياً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له نبي الله ﷺ: «يا سلمان، هم من أهل النار». فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية، فكان إيمان اليهود: أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى، عليه السلام؛ حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى، فلم يدعها ولم يتبع عيسى، كان هالكاً. وإيمان النصاري أن (٤) من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم ويدع (٥) ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل - كان هالكاً.

وقال ابن أبي حاتم: وروى عن سعيد بن جبير نحو هذا.

قلت: وهذا لا ينافي ما روى علي بن (٦) أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ

(١) زيادة من أ.

(٢) في ج: ويشهدوا.

(٣) في ج: «فانه».

(٤) في ج: «عن ابن».

(٥) في أ: «ولم يدع».

الإسلام ديناً قلن يُقْبَلُ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْغَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥].

فإن هذا الذي قاله [ابن عباس]^(١) إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً، إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه [الله]^(٢) بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى، عليه السلام، الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم.

واليهود من الهوادة وهي المودة أو التهود وهو التوبة؛ كقول موسى، عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: تبتا، فكانهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض.

[وقيل: لنسبتهم إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب عليه السلام، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يهودون، أي: يتحركون عند قراءة التوراة]^(٣).

فلما بعث عيسى ﷺ^(٤) وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم: أنصار أيضاً، كما قال عيسى، عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقيل: إنهم إنما سُموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة، قاله قتادة وابن جرير، وروى عن ابن عباس أيضاً، والله أعلم.

والنصارى: جمع نصران^(٥) كنشأوى جمع نشوان، وسكاري جمع سكران، ويقال للمرأة: نصرانة، قال الشاعر:

نصرانة لم تحنّف^(٦)

فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر. وهؤلاء هم المؤمنون [حقاً]^(٧). وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية. وأما الصابئون فقد اختلف فيهم؛ فقال سفيان الثوري، عن ليث بن أبي سليم، عن

(١) زيادة من جاء، ط، أ، و.

(٢) زيادة من أ.

(٣) زيادة من جاء، ط، أ، و.

(٤) في جاء: عليه السلام.

(٥) في جاء: نصراني.

(٦) البيت في تفسير الطبري (٢/ ١٢٤) وهو لا يلى الآخر الجماني، وهذا جزء منه وهو يشبهه:
فكلناهما حرّت وأسجد رأسها كما سجدت نصرانة لم تحنّف

(٧) زيادة من جاء، ط، أ، و.

مجاهد، قال: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين. وكذا رواه ابن أبي نجيح، عنه وروى عن عطاء وسعيد بن جبيرة نحو ذلك.

وقال أبو العالية والربيع بن أنس، والسدي، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك [واسحاق بن راهويه]^(١): الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور.

[ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائهم ومناجحتهم]^(٢).

وقال هشيم عن مطرف: كنا عند الحكم بن عتيبة^(٣) فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول في الصابئين: إنهم كالمجوس، فقال الحكم: ألم أخبركم بذلك.

وقال عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن عبد الكريم: سمعت الحسن ذكر الصابئين، فقال: هم قوم يعبدون الملائكة.

[وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا معتمر بن سليمان عن أبيه، عن الحسن قال: أخبر زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة ويصلون الخمس. قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية. قال: فخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة]^(٤).

وقال أبو جعفر الرازي: بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور، ويصلون إلى القبلة.

وكذا قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد، عن أبيه، قال: الصابئون قوم مما يلي العراق، وهم بكوثى، وهم يؤمنون بالنبیین كلهم، ويصومون من كل سنة ثلاثين يوماً ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات.

وسئل وهب بن منبه عن الصابئين، فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً.

وقال عبد الله بن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله. وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم، يعنى في قول: لا إله إلا الله.

وقال الخليل^(٥): هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون

(١) (٢) زيادة من جد، ط، أ، و. (٣) في جد: «عينة».

(٤) زيادة من جد، ط، أ، و. (٥) في أ: «الخنزري».

أنهم على دين نوح، عليه السلام. وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن وابن أبي نجيح: أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس، ولا تؤكل ذبائحهم، قال ابن عباس: ولا تكح نساؤهم. قال القرطبي: والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم، وأنها فاعلة؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الأصبخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم، واختار فخر الدين الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب؛ بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال: وهذا القول هو المنسوب إلى الكشترانيين الذين جاءهم إبراهيم الخليل، عليه السلام، راداً عليهم ومبطلاً لقرلهم.

وأظهر الأقوال، والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، وهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصراني ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون يميزون من أسلم بالصابئ، أي: إنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.

وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى مذكراً بنبي إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل على رؤوسهم ليقروا بما عاهدوا عليه، وبأخذوه^(١) بقوة وحزم وهمة وامثال^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَقَعَ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١] فالطور هو الجبل، كما فر بآية^(٣) الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس، ومجاهد، وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس، وغير واحد، وهذا ظاهر^(٤).

وفى رواية عن ابن عباس: الطور ما أنبت من الجبال، وما لم ينبت فليس بطور.

وفى حديث الفتن: عن ابن عباس: أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليمعروا [فسجدوا]^(٥).

وقال السدي: فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يتع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيهم،

(١) في ج: ط: فأخذوه.

(٢) في ج: ط: «مسرنا به آية».

(٣) في أ: الميثاق أمر.

(٤) في ط: وهذا الظاهر.

(٥) زيادة من ج.

فَسَقَطُوا سُجَّدًا [فَسَجَدُوا]^(١) عَلَى شِقِّ، وَنظَرُوا بِالشَّقِّ الأخرى، فَرَحِمَهُمُ اللهُ فَكشَفَهُ عَنْهُمْ، فَقَالُوا^(٢):
وَاللهَ مَا سَجَدَ أَحِبُّ إِلَى اللهِ مِنْ سَجْدَةٍ كَشَفَ بِهَا العَذَابَ عَنْهُمْ، فَهَمَّ يَسْجُدُونَ كَذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا فَرْقَكُمْ^(٣) الطُّورَ﴾.

وقال الحسن في قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾: معنى التوراة.

وقال أبو العالية، والربيع بن أنس: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى بطاعة. وقال مجاهد: بقوة: بعمل بما فيه.
وقال قتادة: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ القوة: الجِدُّ وإلا قذفته^(٤) عليكم.

قال: فأقروا بذلك: أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة. ومعنى قوله: وإلا قذفته عليكم، أى^(٥):
أسقطته عليكم، معنى الجليل.

وقال أبو العالية والربيع: ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ يقول: اقروا ما فى التوراة واعملوا به.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم
عنه وانتميم ونقضتموه ﴿فَقُلُوبًا فَضَّلَ اللهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ﴾ أى: توبته^(٦) عليكم وإرساله النبيين
والمُرسلين إليكم ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق فى الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾
فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمْ﴾ يا معشر اليهود، ما حلَّ من اليأس بأهل القرية التى عصت أمر الله
وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيَّلوا
على اصطبياد الحيتان فى يوم السبت، بما وضعوه لها من الشصوص والحبال والبرك قبل يوم السبت،
فلما جاءت يوم السبت على عاداتها فى الكثرة نشبت بتلك الحبال والحيل، فلم تخلص منها يوماً
ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت. فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة،
وهى أشبه شئ بالإناسى فى الشكل^(٧) الظاهر وليست بإنسان حقيقة. فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم
لما كانت مشابهة للحق فى الظاهر ومخالفة له فى الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم. وهذه
القصة مبسطة فى سورة الأعراف، حيث يقول تعالى: ﴿وَاسْأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ
الْبَحْرِ إِذْ يَعْبُدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] القصة بكمالها.

(١) زيادة من ج، ب، أ، و.
(٢) فى ج: افقوهم، وهو خطأ.
(٣) فى ج، ب، أ، و: دفنته إلا.
(٤) فى ج، ب، أ، و: ماى توبته.
(٥) فى ج: ابالاناسى والشكل.
(٦) فى ج: افقاله.
(٧) فى ج، ب، أ، و: دفنته.

وقال السدي: أهل هذه القرية هم أهل «أيلة». وكذا قال قتادة، وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسطة إن شاء الله وبه الثقة^(١).

وقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: مسخت قلوبهم، ولم يسخروا قرودة، وإنما هو مثل ضربه الله ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

ورواه ابن جرير، عن المثني، عن أبي^(٢) حذيفة. وعن محمد بن عمرو^(٣) الباهلي، عن أبي عاصم، عن عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، به.

وهذا سند جيد عن مجاهد، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبَكُمْ بِشَرِّ مَنْ ذَلِكَ مُتَوَبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الآية [المائدة: ٦٠].

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: فجعل [الله]^(٤) منهم القردة والخنازير. فزعم أن شباب القوم صاروا قرودة والمشيمة صاروا خنازير.

وقال شيان النحوي، عن قتادة: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: فصار القوم قروداً تعاروا لها أذنان بعد ما كانوا رجالاً ونساء.

وقال عطاء الخراساني: نودوا: يا أهل القرية، ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان، ألم نهكم؟ فيقولون برؤوسهم، أي بلى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين^(٥)، حدثنا عبد الله بن محمد بن ربيعة بالمصيصة، حدثنا محمد بن مسلم - يعني الطائفي - عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قرودة فواقا ثم هلكوا. ما كان للمسخ^(٦) نسل^(٧).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: فمسخهم الله قرودة بمعصيتهم، يقول: إذا لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: ولم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. وقد خلق الله القردة والخنازير ومائر الخلق في السنة الأيام التي ذكرها الله^(٨) في كتابه، فمسخ [الله]^(٩) هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء. ويحول كما يشاء.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: يعني

(١) في أ: أوبه الثقة والإعانة.

(٢) في ج: ب: ابن عمر.

(٣) في ج: ط: ابن عيسى.

(٤) في ج: ط: ابن عيسى.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٩-٢).

(٦) في ج: ط: ب: التي ذكر الله.

(٧) زيادة من أ.

(٨) زيادة من أ.

(٩) زيادة من أ.

أذلة صاغرين. وروى عن مجاهد، وقتادة والربيع، وأبي مالك، نحوه.

وقال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، قال: قال ابن عباس: إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم - يوم الجمعة - فخالفوا إلى ^(١) السبت فعظموه، وتركوا ما أمروا به. فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه، فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره. وكانوا في قرية بين أيلة والطور، يقال لها: «مدين»، فحرم الله عليهم في السبت الحيتان: صيدها وأكلها. وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعاً إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السبت ذهب، فلم يروا حوتاً صغيراً ولا كبيراً. حتى إذا كان يوم السبت أتت شرعاً، حتى إذا ذهب السبت ذهب، فكانوا كذلك، حتى إذا طال عليهم الأمد وقرموا إلى الحيتان، عمد رجل ^(٢) منهم فأخذ حوتاً سراً يوم السبت، فخزمه بخيط، ثم أرسله في الماء، وأوتد له وتداً في الساحل فأوثقه، ثم تركه. حتى إذا كان الغد جاء فأخذه، أي: إلى لم أخذه في يوم السبت ثم انطلق به فأكله. حتى إذا كان يوم السبت الآخر، عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ربيع الحيتان. فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ربيع الحيتان، ثم عثروا على صنيع ^(٣) ذلك الرجل. قال: ففعلوا كما فعل، وصنعوا ^(٤) سراً زماناً طويلاً، لم يعجل الله عليهم العقوبة ^(٥) حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق ^(٦). فقالت طائفة منهم من أهل البقية: ويحكم، اتقوا الله. ونهوه عما يصنعون. فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان، ولم تنه القوم عما صنعوا: ﴿لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ لسخطنا أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

قال ابن عباس: فيما هم على ذلك أصبحت تلك البقية في أنديةهم ومساجدهم وفقدوا الناس فلا يرونهم قال: فقال بعضهم لبعض: إن للناس لشأناً! فانظروا ما هو. فذهبوا ينظرون في دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم، قد دخلوها ليلاً فغلقتها على أنفسهم، كما يغلق الناس على أنفسهم فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقردة، والصبي بعينه وإنه لقرد. قال: يقول ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنه أنجى الذين نهوا عن السوء لقلنا ^(٧): أهلك الجميع منهم، قال: وهي القرية التي قال الله جل ثناؤه لمحمد ﷺ: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣]. وروى الضحاك عن ابن عباس نحوه من هذا.

قال ^(٨) السدي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: فهم أهل «أيلة»، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت - وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا ^(٩) في السبت شيئاً - لم يبق في البحر حوت إلا خرج،

(١) في ج، ط: «إلى يوم».

(٢) في ج: عمد رجلاً وهو خطأ.

(٣) في ج: «على صنع».

(٤) في ج، ط، ب، أ، ن: «واكلوا».

(٥) في ج: «في الأسواق».

(٦) في ج، ط، ب، أ، و: «لقد».

(٨) في ج، ط، ب: «وقال».

(٩) في ج، ط: «أن تعمل».

(٥) في ج، ط، ب، أ، و: «يعقوبة».

حتى يخرجن خراطيمهن من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمن مقل البحر، فلم يرَ منهن شيء^(١) حتى يكون يوم السبت، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ [كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ]^(٢)﴾ [الأعراف: ١٦٣]. فاشتبهى بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفيرة، ويجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيا في الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوى السمك فيجد جاره ريحه فيأله فيخبره، فيصنع مثل ما صنع جاره، حتى نشأ فيهم أكل السمك، فقال لهم علماءهم: ويحكم! إنما تصطادون يوم السبت، وهو لا يحل لكم، فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه. فقال العلماء^(٣): لا ولكنكم صدقوه يوم فتحكم^(٤) الماء فدخل، قال: وغلبوا أن يتهروا. فقال بعض^(٥) الذين نهرهم لبعض: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، يقول: لم تعظوهم، وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم؟ فقال بعضهم: ﴿مُعَذِّرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] فلما أبوا قال المسلمون: والله لا نأكلكم في قرية واحدة. فقموا القرية بجدار، ففتح المسلمون باباً والمعتدون في السبت باباً، ولعنهم داود، عليه السلام، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكفار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم، ولم يفتح الكفار بابهم، فلما أبطروا عليهم تموز المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردة يشب بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم، فذهبوا في الأرض، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦] وذلك حين يقول: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨] فهم القردة.

قلت: والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد، رحمه الله، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً بل الصحيح أنه معنوي ضروري، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: قال بعضهم: الضمير في ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد على القردة، وقيل: على الحيتان، وقيل: على العقوبة، وقيل: على القرية؛ حكاه ابن جرير.

والصحيح أن الضمير عائد على القرية، أي: فجعل الله هذه القرية، والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم ﴿نَكَالًا﴾ أي: عاقبتهم عقوبة، فجعلناها^(٦) عبرة كما قال الله عن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ

(١) نى ج: «شيئاً» وهو خطأ.

(٢) نى ج، ط، ب، أ، و: «الفتها».

(٣) نى أ: «فقال بعضهم».

(٤) نى ج، ط، ب، أ، و: «فجعلناهم».

(٥) زيادة من ج.

(٦) نى أ، و: «فنجتم له».

نَكَالَ الآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿ [النازعات: ٢٥]، وقوله: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أى من القرى. قال^(١) ابن عباس: يعنى جعلناها بما أحللتنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الآية [الرعد: ٤١] على أحد الأقوال، فالمراد: لما بين يديها وما خلفها فى المكان، كما قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى. وكذا قال سعيد بن جبیر ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [قال]^(٢): من بحضرتها من الناس يومئذ.

وروى عن إسماعيل بن أبى خالد، وقتادة، وعطية العوفى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [قال]^(٣): ما [كان]^(٤) قبلها من الماضين فى شأن السبت.

وقال أبو العالية والربيع وعطية: ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: لما^(٥) بقى بعدهم من الناس من بنى إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم.

وكان هؤلاء يقولون: المراد بما بين يديها وما خلفها فى الزمان.

وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتى بعدهم من الناس أن يكون أهل تلك القرية صيرة لهم، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن تكون عبرة لمن سبقهم؟ هذا لعل أحداً من الناس لا يقوله بعد تصوره، فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها فى المكان، وهو ما حولها من القرى؛ كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبیر، والله أعلم.

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع عن أبى العالية: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أى: عقوبة لما خلا من ذنوبهم.

وقال ابن أبى حاتم^(٦): وروى عن عكرمة، ومجاهد، والسدى، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك.

وحكى القرطبى، عن ابن عباس والسدى، والفراء، وابن عطية ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ بين ذنوب القوم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب، وحكى فخر الدين ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المراد بما بين يديها وما خلفها: من تقدمها من القرى، بما عندهم من العلم بخبرها، بالكتب المتقدمة ومن بعدها.

الثانى: المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم.

(٢) زيادة من جاء ط، ب، أ، و.

(٤) زيادة من جاء ط، ب، أ، و.

(٦) فى أ: «وقال ابن أبى جرير».

(١) فى ج، ط، ب، أ، و: «قاله».

(٣) زيادة من جاء.

(٥) فى ج، ط، ب، أ، و: «من».

والثالث: أنه جعلها تعالى عقوبة لجميع ما ارتكبه من قبل هذا الفعل وما بعده، قال: وهذا قول الحسن. قلت: وأرجح الأقوال أن المراد بما بين يديها وما خلفها: من بحضرتها من القرى التي يبلغهم خبرها، وما حل بها، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَرَّلْنَا مَا حَرَّلْنَاكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا نَصِيحُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد: ٣١]، وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الانبيا: ٤٤]، فجعلها عبرة ونكالا لمن في زمانهم، وعبرة لمن يأتي بعدهم بالخير المتواتر عنهم، ولهذا قال: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: الذين من بعدهم إلى يوم القيامة.

وقال الحسن وقناة: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾: بعدهم، فيتقون نقمة الله، ويحذرونها.

وقال السدي، وعطية العوفي: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: أمة محمد ﷺ.

قلت: المراد بالموعظة هنا الزاجر، أي: جعلنا ما أحفلنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبه من محارم الله، وما تحيلوا به من الخيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما قال الإمام أبو عبد الله بن بطة: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو [عن أبي سلمة]^(١)، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكب^(٢) اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الخيل»^(٣).

وهذا إسناد جيد، وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الخافظ أبو بكر الخطيب البغدادي، وبقى رجاله مشهورون على شرط الصحيح. والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ

بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى: واذكروا - يا بني إسرائيل - نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها وإحياء الله المقتول، ونصه على من قتله منهم. [مسألة الإبل تنحر والغنم تذبح واختلفوا في البقر فليل: تذبح، وقيل: تنحر، والذبح أولى لنص القرآن ولقرب منحراها من مذبحها. قال ابن المنذر: ولا أعلم خلافا صحيحا بين ما ينحر أو نحر ما يذبح، غير أن مالكا كره ذلك. وقد يكره الإنسان ما لا يحرم، وقال أبو عبد الله: أعلم أن نزول قصة البقرة على موسى،

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٢) في ج، ط، ب، أ، و: وما ارتكبت.

(٣) جزء الخلع وإبطال الخيل لابن بطة (ص ٢٤).

عليه السلام، في أمر القتل قبل نزول القسامة في التوراة.

بسط القصة [١] - كما قال ابن أبي حاتم -:

حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حسان، عن محمد ابن سيرين، عن [٢] عبيدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان [٣] ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا، وركب بعضهم إلى [٤] بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهي: علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى، عليه السلام، فذكروا ذلك له، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةَ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. قال: فلو لم يعترضوا [البقرة] [٥] لاجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم [٦] شددوا فشدد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملاء جلدها ذهباً، فأخذوها بملاء جلدها ذهباً فذبحوها، فضربوه ببعضها فقام فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا، لابن أخيه. ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً، فلم يورث قاتل بعد.

ورواه ابن جرير من حديث أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة [٧]، بنحو من ذلك [٨]، والله أعلم.

ورواه عبد بن حميد في تفسيره: أنبأنا يزيد بن هارون، به.

ورواه آدم بن أبي إياس في تفسيره، عن أبي جعفر - هو الرازي - عن هشام بن حسان، به. وقال آدم بن أبي إياس في تفسيره: أنبأنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةَ﴾ قال: كان رجل من بني إسرائيل، وكان غنياً، ولم يكن له ولد، وكان له قريب وكان وارثه، فقتله ليرثه، ثم ألقاه على مجمع الطريق، وأتى موسى، عليه السلام، فقال له: إن قريبي قتل وإني إلى أمر عظيم، وإني لا أجد أحداً يبين [٩] لي من قتله غيرك يا نبي الله. قال: فنادى موسى في الناس، فقال: أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا بينه لنا، [قال] [١٠]: فلم يكن عندهم علم، فأقبل القاتل على موسى عليه السلام، فقال له: أنت نبي الله فاسأل لنا ربك أن يبين لنا، فسأل ربه فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةَ﴾ فمجبوا من

(١) زيادة من ج، ط، ب، و.

(٢) في ط، ب: وكان له.

(٣) في ج: على.

(٤) في ج: أولئك.

(٥) في ج: عبيدة.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢١٤) وتفسير الطبري (١/ ٣٣٧).

(٧) زيادة من ط، ب، أ، و.

(٨) زيادة من أ.

ذلك، فقالوا: ﴿ اتَّخَذْنَا هُرُوقًا قَالِ أَعْرُذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ ﴿ يعنى: لا هَرْمَةَ ﴿ وَلَا بَكْرًا ﴿ يعنى: ولا صغيرة ﴿ عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ ﴿ أى: نَصَفَ بَيْنَ الْبَكْرِ وَالْهَرْمَةِ ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُنَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴿ أى: صَافٍ لَوْنُهَا ﴿ تُسْرُ النَّاطِرِينَ ﴿ أى: تعجب الناظرين ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُولَ ﴿ أى: لم يذلها^(١) العمل ﴿ تُشِيرُ الْأَرْضُ ﴿ يعنى: وليست بذلول تشير الارض ﴿ وَلَا تَسْفِي الْحَرْثَ ﴿ يقول: ولا تعمل فى الحرث ﴿ مُسَلِّمَةٌ ﴿ يعنى: مسلمة من العيوب ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴿ يقول: لا يياض فيها ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ قَذَّبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿ قال: ولو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها، لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، ولولا أن القوم استنوا فقالوا: ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿ [البقرة: ٧٠]، لما هدوا إليها أبداً. فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التى نعتت لهم إلا عند عجوز عندها يتامى، وهى القِيَمَةُ عليهم، فلما علمت أنه لا يذكرو لهم^(٢) غيرها، أضعفت عليهم الثمن. فاتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة، وأنها سألتهم أضعاف ثمنها. فقال لهم موسى: إن الله قد كان خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فاعطوها رضاها وحكمها. ففعلوا، واشتروها^(٣) فذبحوها، فأمرهم موسى، عليه السلام، أن يأخذوا عظماً^(٤) منها فيضربوا به القليل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان، فأخذ قاتله - وهو الذى كان أتى موسى فشكا إليه [مقتله]^(٥) - فقتله الله على أسوأ^(٦) عمله.

وقال محمد بن جرير: حدثنى ابن سعد^(٧)، حدثنى أبى، حدثنى عمى، حدثنى أبى، عن أبيه [عن جده]^(٨)، عن ابن عباس، فى قوله فى شأن البقرة: وذلك أن شيخاً من بنى إسرائيل على عهد موسى، عليه السلام، كان مكثراً من المال، وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم، وكان الشيخ لا ولد له وبنو أخيه ورثته فقالوا: ليت^(٩) عمنا قد مات فورثنا ماله، وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عنهم، أتاهم الشيطان فقال لهم: هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم، فترثوا ماله، وتغرّموا أهل المدينة التى لستم بها ديتة، وذلك أنهما كانتا مدينتين، كانوا فى إحداهما وكان القليل إذا قتل فطرح بين المدينتين^(١٠)، قيس ما بين القليل والقريتين فأيهما^(١١) كانت أقرب إليه غرمت الدية، وأنهم لما سأل لهم الشيطان ذلك، وتطاول عليهم ألا يموت عنهم عمدوا إليه فقتلوه، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التى ليسوا فيها. فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخى الشيخ، فقالوا: عمنا قتل على باب مديتكم، فوالله

(٢) فى أ: «أنهم لا يتركوا».

(٤) فى ج: «عظمتها».

(٦) فى ج: «اشترا»، وفى أ: «سوة».

(٨) زيادة من أ، و.

(١٠) فى ب: «القريتين».

(١) فى ب، أ، و: «لم يذلها».

(٣) فى ط: «واشتروا».

(٥) زيادة من و.

(٧) فى ج، ط، ب، أ، و: «ابن أبى سعيد».

(٩) فى ج: «يا ليت».

(١١) فى ج، ط، ب، أ، و: «فأيهما».

لتغرم لنا دية عمن. قال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا^(١) قاتلاً، ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا. وإنهم عمّدوا إلى موسى، عليه السلام، فلما أتوه قال بنو أخى الشيخ: عمن وجدناه مقتولاً على باب مدينتهم. وقال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا، وإنه جبريل^(٢) جاء بأمر^(٣) السميع العليم إلى موسى، عليه السلام، فقال: قل لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ فنضربوه ببعضها.

وقال السدى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ قال: كان رجل من بنى إسرائيل مكثراً من المال وكانت له ابنة، وكان له ابن أخ محتاج، فخطب إليه ابن أخيه ابنته، فأبى أن يزوجه، فغضب الفتى، وقال: والله لأقتلن عمى، ولأخذن ماله، ولأنكحن ابنته، ولأكلن ديته. فأتاه الفتى وقد قدم تحار في بعض أسباط بنى إسرائيل، فقال: يا عم^(٤)، انطلق معى فخذ لى من تجارة هؤلاء القوم، لعلنى أن أصيب منها^(٥)، فإنهم إذا رأوك معى أعطونى. فخرج العم مع الفتى ليلاً، فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتل الفتى، ثم رجع إلى أهله. فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه، كأنه لا يدرى أين هو، فلم يجده. فانطلق نحوه، فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه، فاخذهم وقال: قتلتم عمى، فأدوا إلى ديته فجعل يبكى ويحثو التراب على رأسه، وينادى: واعماه. فرفعهم إلى موسى، فقصى عليهم بالدية، فقالوا له: يا رسول الله، ادع الله لنا^(٦) حتى يبين لنا من صاحبه، فيؤخذ صاحب الجريمة^(٧)، فوالله إن ديته علينا لهينة، ولكننا نستحي أن نعير به فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فقال لهم موسى، عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ قالوا: نسألك عن القتل وعن قتله، ونقول: اذبحوا بقرة. أتتهراً بنا! ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قال ابن عباس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا وتعنتوا [على]^(٨) موسى فشدد الله عليهم. فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾. والفارض: الهرمة التى لا تلد والبكر التى لم تلد إلا ولداً واحداً. والعوان: النصف التى بين ذلك، التى قد ولدت وولد ولدها ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ﴾. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ قال: نئى لونها ﴿تَسْرُ النَّاطِرِينَ﴾ قال: تعجب الناظرين ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾. قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها﴾ من بياض ولا سواد ولا حمرة ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ فظلموها فلم يقدرها عليها.

(١) من جاء: ما قتلناه ولا علمناه.

(٢) من جاء: ما قتلناه ولا علمناه.

(٣) من جاء: ما قتلناه ولا علمناه.

(٣) من جاء: ما قتلناه ولا علمناه.

(٤) من جاء: ما قتلناه ولا علمناه.

(٥) من جاء: ما قتلناه ولا علمناه.

(٦) من جاء: ما قتلناه ولا علمناه.

(٧) من جاء: ما قتلناه ولا علمناه.

(٨) زيادة من جاء: ما قتلناه ولا علمناه.

وكان رجل في^(١) بنى إسرائيل، من أبر الناس بأبيه، وإن رجلاً مَرَّ به معه لؤلؤٌ يسعه، وكان أبوه نائماً تحت رأسه المفتاح، فقال له الرجل: تشتري^(٢) منى هذا اللؤلؤ بسبعين ألفاً؟ فقال له الفتى: كما أنت حتى يستيقظ أبى فأخذه منك بثمانين ألفاً. فقال الآخر: أيقظ أباك وهو لك بستين ألفاً، فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفاً، وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف، فلما أكثر عليه قال: والله لا أشتريه منك بشيء أبداً، وأبى أن يرقظ أباه، فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة وأبصروا البقرة عنده، فسألوه أن يبيعهم إياها بقره بقره، فأبى، فأعطوه ثنتين فأبى، فزادوه حتى بلغوا عشراً، فأبى، فقالوا: والله لا نتركك حتى نأخذها منك. فانطلقوا به إلى موسى، عليه السلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا وجدناها عند هذا فأبى أن يعطيها وقد أعطيناها ثمناً فقال له موسى: أعطهم بقرتك. فقال: يا رسول الله، أنا أحق بمالى. فقال: صدقت. وقال للقوم: أرضوا صاحبكم، فأعطوه وزنها ذهباً، فأبى، فأضعفوا^(٣) له مثل ما أعطوه وزنها، حتى أعطوه عشر مرات ذهباً، فباعهم إياها وأخذ ثمنها، فذبحوها. قال: اضربوه ببعضها، فضربوه بالْبَضْعَةِ التي بين الكتفين، فعاش، فسألوه: من قتلك؟ فقال لهم: ابن أختى، قال: أقتله، فأخذ ماله، وأنكح ابنته. فأخذوا الغلام فقتلوه^(٤).

وقال سَيِّدٌ: حدثنا حجاج، هو ابن محمد، عن ابن جُرَيْجٍ، عن مجاهد، وحجاج، عن أبي معشر، عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس - دخل حديث بعضهم في حديث بعض - قالوا: إن مبطلاً من بنى إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس، بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس، فكانوا إذا أمروا لم يتركوا أحداً منهم خارجاً إلا أدخلوه، وإذا افتتحوا^(٥) قام رئيسهم فنظر وأشرف، فإذا لم ير شيئاً فتح المدينة، فكانوا مع الناس حتى يمضوا. قال: وكان رجل من بنى إسرائيل له مال كثير، ولم يكن له وارث غير أخيه، فطال عليه حياته فقتله ليرثه، ثم حمله فوضعه على باب المدينة، ثم كمن في مكان هو وأصحابه. قال: فأشرف^(٦) رئيس المدينة على باب المدينة فنظر، فلم ير شيئاً ففتح الباب، فلما رأى القتييل رد الباب، فناداه أخو المقتول وأصحابه: هيهات! قتلتموه ثم تردون الباب. وكان موسى لما رأى القتل كثيراً في أصحابه بنى إسرائيل، كان إذا رأى القتييل بين ظهراني القوم أخذهم، فكاد يكون بين أخى المقتول وبين أهل المدينة قتال، حتى لبس الفريقان السلاح، ثم كف بعضهم عن بعض، فأتوا موسى فذكروا له شأنهم. قالوا: يا رسول الله، إن هؤلاء قتلوا قتيلاً ثم ردوا الباب، وقال أهل المدينة: يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور^(٧)، وبيننا مدينة، كما رأيت، نعتزل شرور الناس، والله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً. فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقرة فقال لهم موسى:

(١) في ج: من.

(٢) في ج، ط، ب: «أشترى».

(٣) تفسير الطبري (٢/ ١٨٥).

(٤) في ج، ط، ب، أ، و: «وإذا أصبحوا».

(٥) في ج: «اعتزالنا عن الناس الشرور».

(٦) في و: «أشرف».

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾^(١).

وهذه السياقات [كلها]^(٢) عن عبيدة^(٣) وأبي العالية والسدي وغيرهم، فيها اختلاف ما، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل وهي مما يجوز نقلها^(٤)، ولكن لا نصدق ولا نكذب^(٥)، فلماذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾^(٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾^(٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾^(٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لِأَشْيَاءِ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٧١).

أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم. ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق عليهم، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع عندهم، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد، ولكنهم شددوا فشدد عليهم، فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ ما هذه البقرة؟ وأى شيء صفتها؟

قال^(٦) ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثام^(٧) بن علي، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم^(٨).

إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس. وكذا قال عبيدة، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية وغير واحد.

وقال ابن جرير: قال [لى]^(٩) عطاء: لو أخذوا أدنى بقرة كفتهم. قال ابن جرير: قال رسول الله ﷺ: «إنما أمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد الله عليهم؛ وأيم الله لو أنهم لم يشئوا ما بينت لهم آخر الأبد»^(١٠).

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ﴾ أى: لا كبيرة هَرَمَةٌ ولا صغيرة لم يلحقها^(١١)

(١) ورواه الطبري في تفسيره (٢/ ١٨٨) من طريق سنيد.

(٢) زيادة من جد.

(٣) في أ: «ابن عبيدة».

(٤) في أ: «فعله».

(٥) في ط: «ب: إلا تصدق ولا تكذب».

(٦) في ج: «اشتم».

(٧) في ط: «وقال».

(٨) تفسير الطبري (٢/ ٢٠٤).

(٩) زيادة من جد، ط، ب، و.

(١٠) رواه الطبري في تفسيره (٢/ ٢٠٥).

(١١) في ج، ط: «يلحقها»، وفي أ: «يلحقها».

الفحل، كما قاله أبو العالية، والسدى، ومجاهد، وعكرمة، وعطية العوفى، وعطاء الخراسانى^(١)،
ووهب بن منبه، والضحاك، والحسن، وقتادة، وقاله ابن عباس أيضاً.

وقال الضحاك، عن ابن عباس ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [يقول: نصف]^(٢) بين الكبيرة والصغيرة،
وهى أقوى ما يكون من الدواب والبقر وأحسن ما تكون. وروى عن عكرمة، ومجاهد، وأبي العالية،
والربيع بن أنس، وعطاء الخراسانى، والضحاك نحر ذلك.

وقال السدى: العوان: النَّصْفُ الذى بين ذلك الذى ولدت، وولد ولدها.

وقال هشيم، عن جوير، عن كثير بن زياد، عن الحسن فى البقرة: كانت بقرة وحشية.

وقال ابن جرير، عن عطاء، عن ابن عباس: من لبس نعلا صفراء لم يزل فى سرور ما دام
لابها، وذلك قوله^(٣) تعالى: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ﴾. وكذا قال مجاهد، ووهب بن
منبه أنها كانت صفراء.

وعن ابن عمر: كانت صفراء الظلف. وعن سعيد بن جبيرة: كانت صفراء القرن والظلف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نصر بن على، حدثنا نوح بن قيس، أنبأنا أبو رجاء،
عن الحسن فى قوله: ﴿بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ قال: سوداء شديدة السواد.

وهذا غريب، والصحيح الأول، ولهذا أكد صفرتها بأنه ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾.

وقال عطية العوفى: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾: تكاد تسود من صفرتها.

وقال سعيد بن جبيرة: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ قال: صافية اللون. وروى عن أبي العالية، والربيع بن
أنس، والسدى، والحسن، وقتادة نحوه.

وقال شريك، عن صفراء^(٤)، عن ابن عمر: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ قال: صاف^(٥).

وقال العوفى فى تفسيره، عن ابن عباس: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾: شديد الصفرة، تكاد من صفرتها
تبيض.

وقال السدى: ﴿تَسُرُّ النَّاطِرِينَ﴾ أى: تعجب الناظرين^(٦). وكذا قال أبو العالية، وقتادة،

والربيع بن أنس.

[وفى التوراة: أنها كانت حمراء، فلعل هذا خطأ فى التعريب أو كما قال الأوك: إنها كانت
شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسواد، والله أعلم]^(٧).

(٢) زيادة من ج، ط، أ، و.

(٤) فى أ: عن ابن عباس.

(٦) فى ج: أى تعجبهم.

(١) فى ج: الخراسانى وسائى.

(٣) فى ج، ب: «قول الله تعالى»، وفى ط: «قول الله».

(٥) فى ج، ط، ب: «صافى».

(٧) زيادة من ج، ط، ب، و.

وقال وهب بن منبه: إذا نظرت إلى جلدها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها.
وقوله: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا﴾ أى: لكثرتها، فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا ﴿وَأَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إذا بينتها لنا ﴿لَمْهْتَدُونَ﴾ إليها.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن يحيى الأودى^(١) الصوفى، حدثنا أبو سعيد أحمد بن داود الحداد، حدثنا سرور بن المغيرة الراسطي، ابن أخى منصور بن زاذان، عن عباد بن منصور، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن بنى إسرائيل قالوا: ﴿وَأَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْهْتَدُونَ﴾ ما أعطوا، ولكن استنروا»^(٢).

ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من وجه آخر، عن سرور بن المغيرة، عن^(٣) زاذان، عن عباد بن منصور، عن الحسن، عن حديث أبي رافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن بنى إسرائيل قالوا: ﴿وَأَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْهْتَدُونَ﴾ ما أعطوا أبداً، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا، فشدد الله عليهم»^(٤).

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة، كما تقدم مثله^(٥) عن السدى، والله أعلم.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لِذُلُولٍ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أى: إنها ليست بمذلة بالحرثة ولا معدة للسقى فى السانية، بل هى مكرومة حنة صبيحة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ صحيحة لا عيب فيها ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ أى: ليس فيها لون غير لونها.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يقول: لا عيب فيها، وكذا قال أبو العالية والربيع، وقال مجاهد ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من الشية.

وقال عطاء الخراسانى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ القوائم والخلق ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾. قال مجاهد: لا بياض ولا سواد. وقال أبو العالية والربيع، والحسن وقاتدة: ليس فيها بياض. وقال عطاء الخراسانى: ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ قال: لونها واحد بهيم. وروى عن عطية العوفى، وهب بن منبه، وإسماعيل بن أبى خالد، نحو ذلك. وقال السدى: ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ من بياض ولا سواد ولا حمرة، وكل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى، وقد زعم بعضهم أن المعنى فى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لِذُلُولٍ﴾ ليست بمذلة بالعمل ثم استأنف فقال: ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ أى: يعمل عليها بالحرثة لكنها لا تسقى الحرث، وهذا ضعيف؛ لأنه فسر الذلول التى لم تذلل بالعمل بأنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث كذا قرره القرطبي وغيره^(٦).

(١) فى ج، ط: الأودى.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٢٣).

(٣) فى ج، ط، ب: بن.

(٤) قال الحافظ ابن حجر: «فيه عباد بن منصور وهو ضعيف».

(٥) فى ج، ط: نقله. (٦) زيادة من ج، ط، ب، أ.

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾: قال قتادة: الآن بَيَّنَّتْ لنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وقبل ذلك - والله^(١) - قد جاءهم الحق.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾: قال الضحاك، عن ابن عباس: كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا ألا يذبحوها.

يعنى أنهم مع هذا البيان^(٢)، وهذه الأسئلة، والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعتت، فلهذا ما كادوا يذبحونها.

وقال محمد بن كعب، ومحمد بن قيس: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لكثرة ثمنها.

وفي هذا نظر؛ لأن كثرة ثمنها لم يثبت إلا من نقل بنى إسرائيل، كما تقدم من حكاية أبي العالية والسدي، ورواه العوفي عن ابن عباس. وقال عبيدة، ومجاهد، ووهب بن منبه، وأبو العالية، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنهم اشتروها بمال كثير^(٣)، وفيه اختلاف، ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك. وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة، أخبرني محمد بن سوقة، عن عكرمة، قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير^(٤). وهذا إسناد جيد عن عكرمة، والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضاً.

قال ابن جرير: وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن اطلع الله على قاتل القتل الذي اختصموا فيه.

ولم يسنده عن أحد، ثم اختار أن الصواب في ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها، وللفضيحة. وفي هذا نظر، بل الصواب - والله أعلم - ما تقدم من رواية الضحاك، عن ابن عباس، على ما وجهناه. وبالله التوفيق.

مسألة: استدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق على صحة السلم في الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً بدليل ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: «لا تبيع المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها»^(٥). وكما وصف النبي ﷺ إبل الدية في قتل خطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث، وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون: لا يصح السلم في الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله، وحكى مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم.

(١) في ج، ط: «والله أعلم».
 (٢) في ج: «الشان».
 (٣) في ب: «بئس كثير».
 (٤) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧١).
 (٥) صحيح البخاري برقم (٥٢٤١).

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ .

قال البخارى: ﴿ فادَّارَأْتُمْ ﴾: اختلفتم. وهكذا قال مجاهد فيما رواه ابن ابي حاتم، عن ابيه، عن ابي حذيفة، عن شبل عن ابن ابي نجيج، عن مجاهد، أنه قال في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾: اختلفتم.

وقال عطاء الخراساني، والضحاك: اختلفتم فيها. وقال ابن جريج ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾. قال: قال بعضهم انتم قتلتموه.

وقال آخرون: بل انتم قتلتموه. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم.

﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾: قال مجاهد: ما تَكْتُمُونَ. وقال ابن ابي حاتم: حدثنا عمرو بن مسلم البصرى، حدثنا محمد بن الطفيل العبدى، حدثنا صدقة بن رستم، سمعت الميب بن رافع يقول: ما عمل رجل حسنة في سبعة آيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة آيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كلام الله: ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾. فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا . هذا البعض أى شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به.

وخرق العادة به كائن، وقد كان معنا في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيد الله تعالى لنا، ولكن أبهمه، ولم يجز من طريق صحيح عن معصوم بيانه^(١)، فنحن نبهمه كما أبهمه الله.

ولهذا قال ابن ابي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عَمَّان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: إن أصحاب بقرة بنى إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل في بقر له، وكانت بقرة تعجبه، قال: فجعلوا يعطونه بها فيأبى، حتى أعطوه ملء مَسْكِهَا دنائير، فذبحوها، فضربوه - يعنى القتل - بعضو منها، فقام تَشْحَبُ أوداجه دماً [فألوه]^(٢)، فقالوا له: من قتلك؟ قال^(٣): قتلتى فلان^(٤).

وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم: إنه ضرب ببعضها.

وفى رواية عن ابن عباس: إنهم ضربوه بالعظم الذى يلى الخضروف.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، قال: قال أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة: ضربوا القليل ببعض لحمها. وقال معمر: قال قتادة: فضربوه بلحم فخذها فعاش، فقال: قتلتى فلان.

وقال أبو أسامة، عن النضر بن عريبي، عن عكرمة: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ [قال]^(٥): فضرب

(١) فى جء: عن معصوم حدثنا به.

(٢) زيادة من جء.

(٣) فى جء: عن معصوم حدثنا به.

(٤) تفسير ابن ابي حاتم (١/ ٢٢٩).

(٥) زيادة من جء، أ، و.

بفخذها فقام، فقال: قتلنى فلان.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد، وقتادة، نحر ذلك.

وقال السدى: فضربوه بالبصعة التى بين الكتفين فعاشر، فسألوه، فقال: قتلنى ابن أحمى.

وقال أبو العالية: أمرهم موسى، عليه السلام، أن يأخذوا عظماً من عظامها، فيضربوا به القتل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتاً كما كان.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فضربوه ببعض آرابها [وقيل: بلسانها، وقيل: بمجيب ذنبها]^(١).

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أى: فضربوه فحى. ونبّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتل: جعل تبارك وتعالى ذلك الصنع حجة لهم على المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والفساد^(٢) والله تعالى قد ذكر فى هذه السورة ما خلقه فى^(٣) إحياء الموتى، فى خمسة مواضع: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]. وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم والطيور الأربعة.

ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الاجسام بعد صيرورتها^(٤) ريماء، كما قال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، أخبرنى يعلى بن عطاء، قال: سمعت وكيع بن عُدُس، يحدث عن أبى رزِين العُقَيْلى، قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى؟ قال: «أما مررت بوادٍ مُمَجَل، ثم مررت به خَضِرًا؟» قال: بلى. قال: «كذلك النشور». أو قال: «كذلك يحيى الله الموتى»^(٥). وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَيًّا فَهُمْ بِأَكْلُونَهَا. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ. لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٥].

مسألة: استدل للذهب مالك فى كون قول الجريح: فلان قتلنى لوثاً بهذه القصة؛ لأن القتل لما حى سئل عن قتله فقال: قتلنى فلان، فكان ذلك مقبولاً منه؛ لأنه لا يخبر حينئذ إلا بالحق، ولا يتهم والحالة هذه، ورجحوا ذلك بحديث أنس: أن يهودياً قتل جارية على أوضاع لها، فوضع رأسها بين حجرتين فقيل: من فعل بك هذا؟ أفلان؟ أفلان؟ حتى ذكر اليهودى، فأومات برأسها، فأخذ اليهودى، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر رسول الله ﷺ أن يرد رأسه بين حجرتين^(٦)، وعند مالك: إذا كان لوثاً حلف أولياء القتل قسامة، وخالف الجمهور فى ذلك ولم يجعلوا قول القتل فى

(٢) فى ج، ط، ب، أ، و: «والعناد».

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) فى ج، ط، ب، أ، و: «من».

(٤) فى ج، ط، ب، أ، و: «بعد صيرورتها».

(٥) مسند الطيالسى برقم (١٠٨٩).

(٦) دواء البخارى فى صحيحه برقم (٦٨٨٥).

ذلك لوثاً.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤)

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل، وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى، وإحيائه الموتى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ كنه ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ ﴾ التي لا تلين أبداً. ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال العمري، في تفسيره، عن ابن عباس: لما ضُربَ المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط، فقيل له: من قتلك؟ فقال: بنو أخي قتلوني. ثم قبض. فقال بنو أخيه حين قبض: والله ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد إذا رأوا^(١). فقال^(٢) الله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ يعني: بنو^(٣) أخي الشيخ ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ فصارت قلوب بنو^(٤) إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج لئنها أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما تنفجر منها العيون الجارية بالأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال: ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد أنه كان يقول: كل حجر يتفجر منه الماء، أو يشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، لمن خشية الله، نزل بذلك القرآن.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾: أي وإن من الحجارة لالين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

[وقال أبو علي الجبائي في تفسيره: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾: هو سقوط البرد من

(١) في ١، وا: إذا رأوه.

(٢) في ج: ثم قال.

(٣) في ١، وا: يعني ابن.

(٤) في ج: قلوب بنوا وهو خطأ.

السحاب. قال القاضي الباقلاني: وهذا تأويل بعيد وتبعه في استبعاده فخر الدين الرازي وهو كما قال؛ فإن هذا خروج عن ظاهر اللفظ بلا دليل، والله أعلم^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الحكم بن هشام الثقفي، حدثني يحيى بن أبي طالب - يعني يحيى بن يعقوب - في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ الْجِبَارَةِ لَنَا يَتْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ قال: هو كثرة البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ النَّعَاءُ﴾ قال: قليل البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ غَشِيَةِ اللَّهِ﴾ قال: بكاء القلب، من غير دموع العين.

(وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز؛ وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾. قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة: ولا حاجة إلى هذا فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ الآية، وقال: ﴿وَالشُّجْرَ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَان﴾ و﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَضَوُّ بِظِلَالِهِ﴾ الآية، ﴿قَالُوا آتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ الآية، ﴿وَقَالُوا لَاجِلْوَيْهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ﴾ الآية، وفي الصحيح: «هذا جبل يحيى ونحيه»، وكحسين الجذع المتواتر خبره، وفي صحيح مسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»، وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة، وغير ذلك مما في معناه. وحكى القرطبي قولاً أنها للتخيير؛ أي مثلاً لهذا وهذا وهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين. وكذا حكاة الرازي في تفسيره وزاد قولاً آخر: إنها للإيهام بالنسبة إلى المخاطب كقول القائل أكلت خبزاً أو تمرأ، وهو يعلم أيهما أكل، وقال آخر: إنها بمعنى قول القائل كلوا حلواً أو حامضاً؛ أي لا يخرج عن واحد منهما؛ أي وتلوكم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها لا يخرج عن واحد من هذين الشئين. والله أعلم.

تنبيه:

اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: «أو» ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهى كالحجارة وأشد قسوة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُ مِنْهُمْ لَبْأً أَوْ كُفُوراً﴾ [الإنسان: ٢٤]، وكما قال التابعي الذبياني:

قالت ألا ليثما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو يصفه فقدي^(٢) تريد: ونصفه، قاله ابن جرير. وقال جرير بن عطية:

نال الخِلافةَ أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قُدْرِ^(٣) قال ابن جرير: يعني نال الخلافة، وكانت له قدراً.

وحكى القرطبي قولاً: أنها للتخيير في مفهومها بهذا أو بهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، وكذا حكاة فخر الدين في تفسيره وزاد قولاً آخر وهو: أنها للإيهام وبالنسبة إلى المخاطب، كقول القائل: أكلت خبزاً أو تمرأ وهو يعلم أيهما أكل، وقولاً آخر وهو أنها بمعنى قول القائل: أكلت حلواً أو حامضاً، أي: لا يخرج عن واحد منهما، أي: وتلوكم صارت في قسوتها كالحجارة أو أشد قسوة منها لا يخرج عن واحد من هذين الشئين والله أعلم.

وقال آخرون: «أو» ههنا بمعنى بل، تقديره^(٤): فهى كالحجارة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩] وقال آخرون: معنى^(٥) ذلك ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عندكم. حكاة ابن جرير.

وقال آخرون: المراد بذلك الإيهام على المخاطب، كما قال أبو الأسود:

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٢) البيت في تفسير الطبري (٢٣٦/٢). (٣) البيت في تفسير الطبري (٢٣٦/٢).

(٤) في ج، ط، ب: «تقديره». (٥) في ج: «بمعنى».

أحبَّ محمداً حباً شديداً
وعميلاً وحمزةً والوصيا^(١)
فإن يك حُبهم رشداً أصبه
ولت^(٢) بمخطئٍ إن كان غيياً^(٣)

قال ابن جرير: قالوا: ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكاً في أن حُبَّ من سَمَّى رَشَدًا، ولكنه أبهم على من خاطبه، قال: وقد ذكر عن أبي الأسود أنه لما قال هذه الآيات قيل له: شككت؟ فقال: كلا والله. ثم انتزع بقول الله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوْ بِآئِكُمْ لَعَلِّي هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. فقال: أو كان شاكاً من أخبر بهذا في الهدى منهم من الضلال^(٤)؟

وقال بعضهم: معنى ذلك: فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثليين، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة وإما أن تكون أشد منها قسوة.

قال ابن جرير: ومعنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة. وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره.

قلت: وهذا القول الأخير يبقى شبيها بقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] مع قوله: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] مع قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ الآية [النور: ٤٠]، أي: إن منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم.

قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أيوب، حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، حدثنا علي بن حفص، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن حاطب، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي».

رواه الترمذي في كتاب الزهد من جامعه، عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، صاحب الإمام أحمد، به. ومن وجه آخر عن إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب، به، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم^(٥).

[وروى البزار عن أنس مرفوعاً: «أربع من الشقاء: جمود العين، وقسى القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا»^(٦)] (٧).

(١) في ج، ط، ب: «أو علياً».

(٢) في ج، ط، ب: «وليس».

(٣) البيهقي في تفسير الطبري (٢/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٤) في ج، ط، ب، و: «من الضال».

(٥) سنن الترمذي برقم (٢٤٦١) وأورده الإمام مالك في الموطأ (٢/ ٩٨٦) بلافاً عن عيسى عليه السلام.

(٦) مسند البزار برقم (٣٢٣٠) من طريق هانئ بن التوكل، عن عبد الله بن سليمان وأبان عن أنس به مرفوعاً، وقال البزار: «عبد الله ابن سليمان حدث بإحاديث لم يتابع عليها»، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٦): «وفيه هانئ بن التوكل، وهو ضعيف».

(٧) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

﴿ أَتَقْتَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥) وَإِذَا تَقَرَّوْا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ .

يقول تعالى: ﴿ أَتَقْتَمُونَ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ أي: ينقاد^(١) لكم بالطاعة، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود، الذين شاهد آباؤهم^(٢) من الآيات البينات ما شاهدوه^(٣)، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أي: فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مسخطون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة: ١٣].

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ، ولئن معه من المؤمنين يؤيهم منهم: ﴿ أَتَقْتَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ وليس قوله: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾: يسمعون التوراة. كلهم قد سمعها. ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فآخذتهم الصاعقة فيها.

قال محمد بن إسحاق: فيما حدثني بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حيل بيننا وبين رؤية الله تعالى، فاسمعنا كلامه حين يكلمك. فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى فقال: نعم، مرهم فليطهروا، وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا، ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشيتهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا، فوقعوا سجوداً، وكلمه ربه تعالى، فسمعوا^(٥) كلامه يأمرهم وينهاهم، حتى عقّلوا عنه ما سمعوا. ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل، فلما جاؤوهم حَرَفَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ما أمرهم به، وقالوا حين قال موسى لبني إسرائيل: إن الله قد أمركم بكذا وكذا. قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله: إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله عز وجل لهم، فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ.

وقال السدي: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ ﴾ قال: هي التوراة، حرفوها.

وهذا الذي ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسحاق، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق. فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه^(٦)، كما سمعه الكلبي موسى بن

(١) في ج: ط: «ينقادوا».

(٢) في ج: ط: «أما شاهدوه».

(٣) في ج: ط: ب: «فلما سمعوا».

(٤) في ج: ط: «المن يكون منه»، وفي ط: «المن تكون منه».

(٥) في ج: ط: «فما آتاهم».

(٦) في أ: «من بعد» و«مخطأ».

عمران، عليه الصلاة والسلام^(١)، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أى: مبلغاً إليه؛ ولهذا قال قتادة فى قوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه.

وقال مجاهد: الذين يحرفونه والذين يكتُمونه هم العلماء منهم.

وقال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله فى كتابهم، من نعت^(٢) محمد ﷺ، فحرفوه عن مواضعه.

وقال السدى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أى أنهم أذنبوا. وقال ابن وهب: قال ابن زيد فى قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: التوراة التى أنزلها الله عليهم يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً؛ إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل^(٣) برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإن جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق، ولا رشوة، ولا شيء، أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ الآية.

قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾: أى بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة. ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا﴾: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم. فانزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أى: تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبى الذى كنا ننتظر، ونجد فى كتابنا. اجحدوه ولا تقروا به. يقول الله تعالى: ﴿أَوْ لَوْلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: يعنى المنافقين من اليهود. كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا: آمنا.

وقال السدى: هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا. وكذا قال الربيع بن أنس، وقاتة وغير واحد من السلف والخلف، حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فيما رواه ابن وهب عنه: كان رسول الله ﷺ قد قال: «لا يدخلن^(٤) علينا قسبة المدينة إلا مؤمن». فقال رؤسائهم^(٥) من أهل الكفر والنفاق: اذهبوا فقولوا: آمنا، واكفروا إذا رجعت إلينا، فكانوا يأتون المدينة بالبكر، ويرجعون إليهم بعد العصر. وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ

(١) فى ج: «كما سمعه الكلبي عليه السلام»، وفى ط: «كما سمعه الكلبي موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام».

(٢) فى ج: ط: «من نصر».

(٣) فى ج: «لا يدخل».

(٤) فى ج: «فقال رؤسائهم» وهو خطأ.

(٥) فى ج: «الباطل».

آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ [آل عمران: ٧٢] وكانوا يقولون، إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون. ليعلموا خير رسول الله ﷺ وأمره. فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر. فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون. وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون^(١)، فيقولون: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون: بلى. فإذا رجعوا إلى قومهم [يعنى الرؤساء]^(٢) قالوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية^(٣).

وقال أبو العالية: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى: بما أنزل عليكم فى كتابكم من نعت^(٤) محمد ﷺ.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ قال: كانوا يقولون: سيكون نبي. فخلا بعضهم إلى بعض^(٥)، فقالوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾^(٦).

قول آخر فى المراد بالفتح: قال ابن جرير: حدثنى القاسم بن أبى بزة، عن مجاهد، فى قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: قام النبى ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: «يا إخوان^(٧) القردة والخنزير، ويا عبدة الطاغوت»، فقالوا: من أخبر بهذا^(٨) الأمر محمداً؟ ما خرج هذا القول^(٩) إلا منكم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما حكم الله، للفتح، ليكون لهم حجة عليكم. قال ابن جرير، عن مجاهد: هذا حين أرسل إليهم علياً^(١٠)، فأذوا محمداً ﷺ.

وقال السدى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب (لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ) هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا وكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به. فقال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب، ليقولوا: نحن أحب إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم.

وقال عطاء الخراسانى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى: بما قضى [الله]^(١١) لكم وعليكم.

وقال الحسن البصرى: هؤلاء اليهود، كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض، قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم بما فى كتابكم، فيحاجوكم^(١٢) به عند ربكم، فيخصموكم.

(١) فى ج: «أنهم يؤمنون».

(٢) زيادة من ج: ب، أ، و.

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٢/ ٢٥٤) عن يونس عن أبى وهب به.

(٤) فى أ: «من يعث».

(٥) فى ج: ط، ب: «فخلا بعضهم ببعض».

(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧١).

(٧) فى ج: «يا إخوان».

(٨) فى ج: ط، ب: «من أخبر هذا».

(٩) فى أ، و: «هذا الأمر».

(١٠) فى ج: «حين أرسل إليهم».

(١١) زيادة من ج: أ.

(١٢) فى ج: ط، ب: «ليحاجوكم».

وقوله: ﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: قال أبو العالية: يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به، وهو^(١) يجدونه مكتوباً عندهم. وكذا قال قتادة.

وقال الحسن: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلوا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد^(٢) منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم، خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند^(٣) ربهم. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعني: حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: آمنا. وكذا قال أبو العالية، والربيع، وقاتدة.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨) قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩).

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ أي: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد: والأميون جمع أمي، وهو: الرجل الذي لا يحسن الكتابة، قاله أبو العالية، والربيع، وقاتدة، وإبراهيم النخعي، وغير واحد^(٤)، وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ [إِلَّا أَمَانِي]﴾^(٥) أي: لا يدرون ما فيه. ولهذا في صفات النبي ﷺ أنه أمي؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِمِثْنِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبِطُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال عليه الصلاة والسلام: «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا الحديث. أي: لا نفتقر في عبادتنا ومواقفتها إلى كتاب ولا حساب وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتاب دون أبيه، قال: وقد روى عن ابن عباس، رضى الله عنهما^(٦)، قول خلاف هذا، وهو ما حدثنا به أبو كريب: حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ قال: الأميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سقطة جهال: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سحاهم أميين، لجهودهم كتب الله ورسله. ثم قال ابن جرير: وهذا التأويل^(٧) على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم. وذلك أن الأمي عند العرب: الذي لا يكتب^(٨).

قلت: ثم في صحة هذا عن ابن عباس، بهذا الإسناد، نظر. والله أعلم.

(١) في ج، ض، ب، أ، و: وهم.

(٢) في ج: أخبروا واحداً، وفي أ: أخبروا أحداً.

(٣) في ج: وعتداً.

(٤) في أ: وإبراهيم النخعي وغيرهم.

(٥) زيادة من ج، ط، ب.

(٦) في ط: أَرْضَى اللَّهُ عَنْهُ.

(٧) في ج، ط، ب، أ، و: وهذا التأويل لتأويل.

(٨) تفسير الطبري (٢/ ٢٥٩).

قوله^(١) تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾: قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾: إلا أحاديث. وقال الضحاك، عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ يقول: إلا قولا يقولونه بأفواههم كذباً. وقال مجاهد: إلا كذباً. وقال سنيدي، عن حجاج، عن ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَخْلُقُونَ فِى الْكُتُبِ﴾ قال: أناس من يهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمون بالظن^(٢) بغير ما فى كتاب الله، ويقولون: هو من الكتاب، أمانى يتمنونها. وعن الحسن البصرى، نحوه.

وقال أبو العالية، والربيع وقتادة: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ يتمنون على الله ما ليس لهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾، قال: تمنوا فقالوا: نحن من أهل الكتاب. وليوا منهم.

قال ابن جرير: والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس، وقول مجاهد: إن الاميين الذين وصفهم الله أنهم لا يفقهون من الكتاب - الذى أنزل^(٣) الله على موسى - شيئاً، ولكنهم يتخرصون الكذب ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً. والتمنى فى هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه. ومنه الخبر المروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه: «ما تمنيت ولا تمنيت». يعنى ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب^(٤).

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿لَا يَخْلُقُونَ فِى الْكُتُبِ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَنْظُنُونَ﴾ ولا يدرون ما فيه، وهم يجحدون^(٥) نبوتك بالظن.

وقال مجاهد: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَنْظُنُونَ﴾: يكذبون.

وقال قتادة: وأبو العالية، والربيع: يظنون الظنون بغير الحق.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ الآية: هؤلاء صنف^(٦) آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل.

والويل: الهلاك والدمار، وهى كلمة مشهورة فى اللغة. وقال سفيان الثورى، عن زياد بن فياض: سمعت أبا عياض يقول: ويل: صديد فى أصل جهنم.

وقال عطاء بن يسار: الويل: واد فى جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت.

(١) فى ج، ط: «وقوله».

(٢) فى ج: «يتكلمون الظن».

(٣) فى ج، ط، ب: «الذى أنزل».

(٤) تفسير الطبرى (٢/ ٢٦٢).

(٥) فى ج: «هو صنف».

(٦) فى أ، و: «وهم يجحدون».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن درّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ، قال: «ويل واد في جهنم، يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره».

ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعة، عن دراج، به^(١). وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

قلت: لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى، ولكن الآفة ممن بعده، وهذا الحديث بهذا الإسناد - مرفوعاً - منكر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا المشي، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح العثري^(٢)، حدثنا علي ابن جرير، عن حماد بن مسلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوي، عن عثمان بن عفان، عن رسول الله ﷺ: «فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ». قال: «الويل جبل في النار. وهو الذي أنزل في اليهود؛ لأنهم حرقوا التوراة، زادوا فيها ما أحبوا، ومحووا منها ما يكرهون، ومحووا اسم محمد ﷺ من التوراة. ولذلك غضب الله عليهم، فرفع بعض التوراة، فقال: «فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ»^(٣).

وهذا غريب أيضاً جداً.

[وعن ابن عباس: الويل: السعير من العذاب، وقال الخليل بن أحمد: الويل: شدة الشر، وقال سيويه: ويل: لمن وقع في الهلكة، وويح لمن أشرف عليها، وقال الأصمعي: الويل: تفجع والويل ترحم، وقال غيره: الويل الحزن^(٤). وقال الخليل: وفي معنى ويل: ويح وويش وويه وويك وويب، ومنهم من فرق بينها، وقال بعض النحاة: إنما جاز الابتداء بها وهي نكرة؛ لأن فيها معنى الدعاء، ومنهم من جوز نصبها، بمعنى: الزمهم ويلاً. قلت: لكن لم يقرأ بذلك أحداً^(٥).

وعن عكرمة، عن ابن عباس: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ» قال: هم أحيار اليهود. وكذا قال سعيد، عن قتادة: هم اليهود.

وقال سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن علقمة: سألت ابن عباس عن قوله تعالى: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ» قال: نزلت في المشركين وأهل الكتاب.

وقال السدي: كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم، يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله، ليأخذوا^(٦) به ثمناً قليلاً.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٣) وسنن الترمذي برقم (٣١٦٤).

(٢) في ج: العثري.

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٢٦٨).

(٤) في أ: الخوف.

(٥) زيادة من ج، ط، ب.

(٦) من ج، ط، ب: «فياخذوا».

وقال الزهري: أخبرني عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسلمين، كيف تالون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه، أحدث أخبار الله تقرؤونه^(١) محضاً^(٢) لم يشب؟ وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؛ أفلا^(٣) ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سالكم عن الذي أنزل إليكم. رواه البخاري^(٤) من طرق عن الزهري.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بخذافيرها.

وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب^(٥) والبهتان، والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ يقول: فالعذاب عليهم، من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم.

﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠).

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لانفسهم، من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾^(٦) أي: بذلك؟ فإن كان قد وقع عهد فهو لا يُخْلَفَ عهد^(٧).

ولكن هذا ما جرى ولا كان. ولهذا أتى بـ «أم» التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه.

قال^(٨) محمد بن إسحاق، عن سيف بن سليمان^(٩)، عن مجاهد، عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون: هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعَذَّبُ بكل ألف سنة يوماً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة^(١٠). فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

ثم رواه عن محمد، عن سعيد - أو عكرمة - عن ابن عباس، بنحوه.

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾: اليهود قالوا^(١١): لن

(١) في ط: «يعرفونه»، وفي و: «تعرفونه».

(٢) في ج: ط، و: «غضاً».

(٣) في ج: «أفلم».

(٤) صحيح البخاري برقم (٧٣٦٣، ٧٥٢٣، ٢٦٨٥).

(٥) في ج: «من الكذب».

(٦) بعدها في ج: «فلن يخلف الله عهد».

(٧) في ج: ط، ب، أ، و: «وعده».

(٨) في ج: ط، و: «وقال».

(٩) في ج: «اسلمان».

(١٠) في ج: ط، ب، أ، و: «أيام معدودات».

(١١) في ج: «وقالوا».

تمسنا النار إلا أربعين ليلة، [زاد غيره: هي مدة عبادتهم المعجل، وحكاه القرطبي عن ابن عباس وقتادة]^(١).

وقال الضحاك: قال ابن عباس: زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوباً: أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم، التي هي نابتة في أصل الجحيم. وقال أعداء الله: إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فنذهب جهنم ونهلك. فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ يعني: الأيام التي عبدنا فيها المعجل^(٢).

وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله ﷺ^(٣)، فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا إليها^(٤) قوم آخرون، يعنون^(٥) محمداً ﷺ وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم: «بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم إليها أحد». فانزل الله: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ الآية.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا محمد بن محمد بن صخر، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا ليث بن سعد، حدثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال^(٦) رسول الله ﷺ: «اجمعوا لى من كان من اليهود ههنا» فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: فلان^(٧). قال: «كذبتكم، بل أبوكم فلان». فقالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم: «هل أنتم صادقى عن شىء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبتك عرفت كذبتنا كما عرفته في أينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «احمضوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً». ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «هل أنتم صادقى عن شىء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سم؟» فقالوا: نعم. قال^(٨): «فما حملكم على ذلك؟» فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نتريع منك، وإن كنت نبياً لم يضرك.

ورواه أحمد، والبخارى، والنسائي، من حديث الليث بن سعد، بنحوه^(٩).

(١) زيادة من ج، ط، ب، و.

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٧١، ٧٢).

(٣) في ج: «رسول الله ﷺ وأصحابه».

(٤) في ج، ط، أ، و: «بمس»، وفي ب: «تعنى».

(٥) في ج: «قالوا: أبونا فلان».

(٦) في ج: «فيها».

(٧) في ط، ب: «فقال لهم».

(٨) في ج، ط، ب: «فقال».

(٩) المسند (٢/ ٤٥١) وصحيح البخارى برقم (٣١٦١، ٤٢٤٩) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٥٥).

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ .

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات، فهذا من أهل النار، والذين آمنوا بالله ورسوله^(١)، وعملوا الصالحات - من العمل الموافق للشريعة - فهم^(٢) من أهل الجنة. وهذا المقام شبيهه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد - أو عكرمة - عن ابن عباس: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي: عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره^(٣)، فماله من حسنة.

وفي رواية عن ابن عباس، قال: الشرك.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن أبي وائل، وأبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحوه^(٤).

وقال الحسن - أيضاً - والسدي: السيئة: الكبيرة من الكبائر.

وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قال: بقلبه.

وقال أبو هريرة، وأبو وائل، وعطاء، والحسن: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قالوا: أحاط به شركه.

وقال الأعمش، عن أبي رزين، عن الربيع بن خثيم: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، قال: الذي يموت على خطايا^(٥) من قبل أن يتوب. وعن السدي، وأبي رزين، نحوه.

وقال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، في رواية عنهما، وقتادة، والربيع بن أنس: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾: الكبيرة المرجية.

وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، والله أعلم. ويذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمرو بن قتادة^(٦)، عن عبد ربه، عن أبي عياض، عن عبد الله

(١) في أ: «ورسله».

(٢) في ج: «فمنى يحيط عمله».

(٣) في ج: «بحره».

(٤) في أ: «عن عمر بن صادق».

(٥) في ج: «ب، أ، و: «فهره».

(٦) في ج: «بحره».

ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه». وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنّ مثلاً، كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود، والرجل يجىء بالعود، حتى جمعوا سواداً^(١)، وأججوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها^(٢).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد، عن سعيد - أو عكرمة - عن ابن عباس: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»: أي من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله، لا انقطاع له أبداً^(٣).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ
وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يُذَكَّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْأَوْامِرِ، وَأَخَذَ مِيثَاقَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ تَوَلَّوْا
عَنِ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَعْرَضُوا قَصْداً وَعَمداً، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ وَيَذَكِّرُونَهُ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ
شَيْئاً. وَبِهَذَا أَمْرٌ جَمِيعٌ خَلَقْتَهُ، وَلِذَلِكَ خَلَقْتَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ
اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وَهَذَا هُوَ أَعْلَىٰ الْحَقُوقِ وَأَعْظَمُهَا، وَهُوَ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَىٰ،
أَنْ يَعْبُدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ بَعَدَهُ حَقُّ الْمَخْلُوقِينَ، وَآكَدَهُمْ وَأَوْلَاهُمْ بِذَلِكَ حَقُّ الْوَالِدَيْنِ، وَلِهَذَا
يَقْرُنُ اللَّهُ تَعَالَىٰ بَيْنَ حَقِّهِ وَحَقِّ الْوَالِدَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾
[لقمان: ١٤] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الْآيَةَ إِلَىٰ أَنْ قَالَ:
﴿وَأَتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٦]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ ابْنِ
مَسْعُودٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَىٰ وَقْتِهَا». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ:
«بِرِّ الْوَالِدَيْنِ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٤). وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنْ
رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنْ أَيْرِ؟ قَالَ: «أَمْكُ». قَالَ: ثُمَّ مِنْ؟ قَالَ: «أَمْكُ». قَالَ: ثُمَّ مِنْ؟ قَالَ:
«أَبَاكَ». ثُمَّ أَذْنَاكَ أَذْنَاكَ»^(٥).

(١) في ج: جمعوا أعوداً.

(٢) المسند (١/ ٤٠٢).

(٣) في ج، ط، ب: «أبداً لا انقطاع له».

(٤) صحيح البخاري برقم (٥٢٧٠، ٥٩٧٠، ٧٥٣٤) وصحيح مسلم برقم (٨٥).

(٥) في ط: ثم قال من.

(٦) جاء من حديث معاوية بن جندب، رواه أبو داود في السنن برقم (٥١٣٩)، ومن حديث كليب بن منقعة عن أبيه عن جده، رواه =

[وقوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾: قال الزمخشري: خير بمعنى الطلب، وهو أكد. وقيل: كان أصله: ألا تعبدوا كما قرأها بعض السلف^(١)، فحذفت أن فارتفع، وحكى عن أبي وابن مسعود، رضى الله عنهما، أنهما قرأها: «لا تعبدوا إلا الله». وقيل: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ مرفوع على أنه قسم، أى: والله لا تعبدون إلا الله، ونقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيبويه. وقال: اختاره المبرد والكسائي والفراء^(٢).

قال: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وهم: الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء. [وقال أهل اللغة: اليتيم فى بنى آدم من الآباء، وفى البهائم من الأم، وحكى الماوردي أن اليتيم أطلق فى بنى آدم من الأم أيضاً]^(٣). ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾: الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم، وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء، التى أمرنا الله تعالى بها صريحاً فى قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [النساء: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أى: كلموهم طيباً، وليأمر لهم جانباً، ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: فالْحُسْنُ من القول: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضىه الله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا أبو عامر الخزاز، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله ابن الصامت، عن أبي ذر، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، وإن لم نجد فالق أخاك بوجه منطلق^(٤)».

وأخرجه مسلم فى صحيحه، والترمذى [وصححه]^(٥)، من حديث أبي عامر الخزاز، واسمه صالح بن رستم، به^(٦).

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفى الإحسان الفعلى والقولى. ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمعنى^(٧) من ذلك، وهو الصلاة والزكاة، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أى: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به، إلا القليل منهم. وقد أمر تعالى هذه الأمة بتظير ذلك فى سورة النساء، بقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا

= أبو داود فى السنن برقم (٥١٤).

(١) فى أ: «كما قرأها من السلف».

(٢) زيادة من ج، ط، ب، أ.

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ.

(٤) فى ط: «بوجه منطلق».

(٥) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٦) السنن (٥/ ١٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٢٦) وسنن الترمذى برقم (١٨٣٣).

(٧) فى ج، ط، ب، أ، و: «بالمعنى».

مَلَكَتْ أَيْمَانَكُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُحْتَالًا فَخُورًا ﴿٨٤﴾ [النساء: ٣٦] فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، والله الحمد والمنة.

ومن النقول الغريبة هنا ما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره:

حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خلف العقلائي، حدثنا عبد الله بن يوسف - يعني الثَّيْسِي - حدثنا خالد بن صبيح، عن حميد بن عقبة، عن أسد بن وداعة: أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهودياً ولا نصرانياً إلا سلم عليه، فقيل له: ما شأنك؟ سلم على اليهودي والنصراني. فقال: إن الله يقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا﴾ وهو: السلام. قال: وروى عن عطاء الخراساني، نحوه.

قلت: وقد ثبت في السنة أنهم لا يبدؤون بالسلام، والله أعلم^(١).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفْتُرْمُونَ بَعْضَ الْكُتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَعْضٌ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَسَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِعَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

يقول، تبارك وتعالى، منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت^(٢) بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليه في دينه ونص كتابه. ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأثاث والأمنعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفقوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفْتُرْمُونَ بَعْضَ الْكُتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَعْضٌ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يخرج من منزله، ولا يظاهر عليه، كما قال تعالى: ﴿فَتَوَبُوا إِلَى بَارِنِكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢١٦٦) عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه».

(٢) في: انشبت.

بَارِئِكُمْ﴾، [البقرة: ٥٤] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

[وقوله] ^(١): ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أى: ثم أقررتكم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مَحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ﴾، قال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبيرة - أو عكرمة - عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية، قال: أتتني الله ^(٢) من فعلهم، وقد حرّم عليهم في التوراة سفك دمائهم ^(٣)، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وإنهم ^(٤) حلفاء الخزرج، والنضير، وقريظة وإنهم ^(٥) حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر ^(٦) كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى يتافكروا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم. والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنة ولا ناراً، ولا بعثاً ولا قيامة، ولا كتاباً، ولا حلالاً ولا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم، تصديقاً لما في التوراة، واخذاً به؛ بعضهم من بعض، يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي ^(٧) الأوس، ويفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي ^(٨) الخزرج منهم، ويطلقون ^(٩) ما أصابوا من دمائهم ^(١٠)، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم، مظاهره لأهل الشرك عليهم. يقول الله تعالى ذكره حيث أتتكم ^(١١) بذلك: ﴿أَفْتَوْمِنُونَ بَعْضُ الْكُتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَعْضٌ﴾ أى: يفاديه بحكم التوراة ويقتله، وفي حكم التوراة ألا يفعل، ولا يخرج ^(١٢) من داره، ولا يظاهر عليه من يُشرك بالله، ويعبد الأوثان من دونه، ابتغاء عرض الدنيا. ففى ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج - فيما بلغنى - نزلت هذه القصة ^(١٣).

وقال أسباط عن السدي: كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون في حرب سُمير، فيقاتل بنو قريظة مع حلفائهم النضير وحلفاءهم، وكانت النضير تقاتل قريظة

(٢) في ج: ط، ب، أ، و: «أتيتهم الله بذلك».

(١) زيادة من ج: ط، أ.

(٣) في ج: «سفك الدماء».

(٤، ٥) في ج: «وهم».

(٦، ٧) في ج: «أيدي».

(٦) في ج: ط، ب: «نظائر».

(١٠) في ج: ط، ب، أ، و: «من الدماء وقتلوا».

(٩) في ج: ط، أ: «يطلقون».

(١٢) في ج: ط، ب: «ويخرجه».

(١١) في ج: ط، ب، أ، و: «حين أتيتكم».

(١٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٤) وتفسير الطبري (٢/ ٣٠٥).

وحلفاءها، ويغلبونهم، فيخربون ديارهم، ويخرجونهم منها، فإذا أمر رجل من الفريقين كليهما، جمعوا له حتى يفدوه. فتعيرهم العرب بذلك، ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم، وحرّم علينا قتالهم، قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنا نستحي أن تستدلّ حلفاؤنا^(١).
فذلك حين عيرهم الله، فقال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾.

وقال شعبة، عن السدي: نزلت هذه الآية في قيس بن الخطيم: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

وقال أسباط، عن السدي، عن عبد خير، قال: غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلي بلسج^(٢)، فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبأيا واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسعمانة، فلما مر برأس الجالوت نزل به، فقال له عبد الله: يا رأس الجالوت، هل لك في عجز ههنا من أهل دينك، تشتريها مني؟ قال: نعم. قال: أخذتها بسعمانة درهم. قال: فإني أربحك سعمانة أخرى. قال: فإني قد حلفت ألا أنقصها من أربعة آلاف. قال: لا حاجة لي فيها، قال: والله لتشتريها مني، أو لتكفرن بدينك الذي أنت عليه. قال: أدن مني، فدنا منه، فقرأ في آذنه التي في التوراة: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَضَاوَهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾، قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال: نعم. قال: فجاء بأربعة آلاف، فأخذ عبد الله الفين، ورد عليه ألفين.

وقال آدم بن أبي إياس في تفسيره: حدثنا أبو جعفر يعني الرازي، حدثنا الربيع بن أنس، أخبرنا أبو العالية: أن عبد الله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة، وهو ينادى من النساء من لم يقع عليها العرب، ولا ينادى من وقع عليها العرب، فقال^(٣) عبد الله بن سلام: أما إنه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهن كلهن.

والذي أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق، ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلماذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما يكتُمونه من صفة رسول الله^(٤) ﷺ ونعته، ومبعثه ومخرجه، ومهاجره، وغير ذلك من شئونه، التي قد أخبرت بها الأنبياء قبله. واليهود عليهم لعائن الله يتكاثرون بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أشدِّ الْعَذَابِ﴾ جزاء على ما كتّموه من كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. أولئك الذين اشترُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴿أَي: استحبرها على الآخرة واختاروها﴾ ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا

(١) في أه و: استدل بحلفائنا.

(٢) في ج: ابكتجر.

(٣) في ج: ط، ب، أ، و: فقال له.

(٤) في ج: اصفة محمداً.

هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٧﴾ أى: وليس لهم ناصر يتقدمهم بما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧) ﴿

بنت، تبارك وتعالى، بنى إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب - وهو التوراة - فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها. وأرسل الرسل والنبين من بعده الذين يحكمون بشريعته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَضُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ الآية [المائدة: ٤٤]، ولهذا قال: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ قال السدي، عن أبي مالك: أتبعنا. وقال غيره: أردفتنا. والكل قريب، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤] حتى ختم أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البيّنات، وهي: المعجزات. قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفع فيها فتكون طيراً بإذن الله، وإبرائه الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام - ما يدلهم^(١) على صدقه فيما جاءهم به. فاشتد تكذيب بنى إسرائيل له وحسدّهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى: ﴿وَلَأَجَلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حَرَمَ عَلَيْكُمْ وَجَنَّتْكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٥٠]. فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام^(٢) أسوأ المعاملة، ففريقاً يكذبونه. وفريقاً يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا ياتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبالزمامهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان يشق ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

والدليل على أن روح القدس هو جبريل، كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك [ابن عباس و]^(٣) محمد بن كعب القرظي، وإسماعيل بن أبي خالد، والسدي، والريعي بن أنس، وعطية العوفي، وقتادة مع قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. [يَلْسَانَ غَرِيْبٍ مُبِينٍ]﴾^(٤) [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] ما قال البخاري: وقال ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة: إن رسول الله ﷺ وضع لسان بين ثابت منبراً في المسجد، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك^(٥). وهذا من

(١) في ج، ط، ب، أ، و: «يدلهم به».

(٢) في ج: «عليهم الصلاة والسلام».

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٤) في ج، ط، ب، أ، و: «عن نبيه».

(٥) زيادة من ج.

البخارى تعليق^(١).

وقد رواه أبو داود في سننه، عن لوين، والترمذى، عن على بن حجر، وإسماعيل بن موسى الفزارى، ثلاثهم عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه وهشام بن عروة، كلاهما عن عروة، عن عائشة به^(٢). وقال الترمذى: حسن صحيح، وهو حديث أبي الزناد^(٣).

وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: أن عمر مر بحسان، وهو ينشد الشعر فى المسجد^(٤)، فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة، فقال: أنشدك الله سمعت رسول الله ﷺ يقول: أجب عني، اللهم أيده بروح القدس؟ فقال: اللهم نعم^(٥).

وفى بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «أهجهم - أو: هاجهم - وجبريل معك».

[وفى شعر حان قوله:

وجبريل رسول الله ينادى وروح القدس ليس به خفاء]^(٦)

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين المكى، عن شهر بن حوشب الأشعرى: أن نفرأ من اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنا عن الروح. فقال: «أنشدكم بالله وبأيامه^(٧) عند بنى إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل؟ وهو الذى يأتينى؟» قالوا: نعم^(٨).

[وفى صحيح ابن حبان أظنه عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفخ^(٩) فى روعى: إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»^(١٠)] ^(١١).

أقوال أخرى:

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا بشر، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: «**بِرُوحِ الْقُدُسِ**» قال: هو الاسم الأعظم الذى كان عيسى يُحیی به

(١) وكذا عزاء المزى فى تحفة الأشراف (١٢ / ١٠) للبخارى، وقال الحافظ ابن حجر فى «الذکر الطراف»: «لم أر هذا الموضع فى صحيح البخارى، وقد وصله أحمد والطبرانى ووضحه الحاكم».

(٢) سنن أبى داود برقم (٥٠١٥) وسنن الترمذى برقم (٢٨٤٦).

(٣) فى ط، ب، أ، و: وهو حديث ابن أبى الزناد.

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٢١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٥).

(٥) زيادة من ج، ط، ب، أ.

(٦) فى ج، أ: «وبآياته».

(٧) ورواه الطبرانى فى تفسيره (٢ / ٣٢٠) من طريق سلمة عن ابن إسحاق به.

(٨) فى و: «نفث».

(٩) ورواه البيهقى فى شرح السنة (١٤ / ٣٠٤) من طريق أبى عبيد عن هشيم عن إسماعيل بن أبى نعانة عن زبيد اليمامى، عن أخيره، عن ابن مسعود به مرفوعاً.

(١٠) زيادة من ج، ط، ب، و.

الموتى. وقال ابن جرير: حدثت عن المنجاب، فذكره. قال ابن أبي حاتم: وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك. [ونقله القرطبي عن عبيد بن عمير - أيضاً - قال: وهو الاسم الأعظم^(١)].

وقال ابن أبي نجيع: الروح هو حفظة على الملائكة.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: القدس هو الرب تبارك وتعالى. وهو قول كعب، وقال السدي: القدس: البركة. وقال العوفي، عن ابن عباس: القدس: الطهر.

[وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالوا: القدس: هو الله تعالى، وروحه: جبريل، فعلى هذا يكون القول الأول]^(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد^(٣) في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّدُنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً، كلاهما روح من الله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ثم قال ابن جرير: وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال: الروح في هذا الموضع جبريل، لأن الله، عز وجل، أخبر أنه أيد عيسى به، كما أخبر في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالتَّوْرَةَ﴾ [المائدة: ١١٠]. فذكر أنه أيد به، فلو كان الروح الذي أيد به هو الإنجيل، لكان قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالتَّوْرَةَ وَالتَّوْرَةَ﴾ تكرير قول لا معنى له، والله أعز أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به.

قلت: ومن الدليل على أنه جبريل ما تقدم في أول السياق؛ والله الخمد^(٤).

وقال الزمخشري ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: بالروح المقدسة، كما يقول: حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال: ﴿وَرُوحٍ مِنْهُ﴾ فوصفه بالاختصاص والتقريب تكريماً، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل، كما قال في القرآن: ﴿رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقيل باسم الله الأعظم الذي كان يحيى الموتى بذكره، وتضمن كلامه قولاً آخر وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة.

وقال الزمخشري في قوله: ﴿فَقَرِيفًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيفًا تَقْتُلُونَ﴾: إنما لم يقل: وفريقاً تقتلتم؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل - أيضاً - لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسحر، وقد قال، عليه السلام، في مرض موته: «ما زالت أكلة خيبر تعادني فهذا أوان انقطاع أنهرى»، وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره^(٥).

(١) زيادة من ج، ط، ب، أ، و. (٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) في ج: قال ابن أبي زيد.

(٤) في ج، ط: والله الخمد والمئة.

(٥) صحيح البخاري برقم (٢٦١٧) وصحيح مسلم برقم (٢١٩٠).

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٨٨)

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أي: في أكنة.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أي: لا نفقه.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [قال^(١)]: هي القلوب المطبوع عليها.

وقال مجاهد: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾: عليها غشاوة.

وقال عكرمة: عليها طابع. وقال أبو العالية: أي لا نفقه. وقال السدي: يقولون: عليها غلاف، وهو الغطاء.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ هو كقوله: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ [فصلت: ٥].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قوله: ﴿ غُلْفٌ ﴾ قال: يقول: قلبي في غلاف فلا يَخْلُصُ إليه ما تقول، قرأ^(٢): ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾.

وهذا هو الذي رجحه ابن جرير، واستشهد مما روى من حديث عمرو بن مرة الجملي، عن أبي البختري، عن حذيفة، قال: القلوب أربعة. فذكر منها: وقلب أغلف مَغْضُوبٌ عليه، وذلك قلب الكافر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن العرزمي، أنبأنا أبي، عن جدي، عن قتادة، عن الحسن في قوله: ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ قال: لم نختن.

هذا^(٣) القول يرجع معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم، وأنها بعيدة من الخير. قول آخر:

قال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ قال قالوا: قلوبنا مملوءة علماً لا تحتاج إلى علم محمد، ولا غيره.

وقال عطية العوفي: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أي: أوعية للمعلم.

وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار^(٤)، فيما حكاه ابن جرير: « وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ » بضم اللام، أي: جمع غلاف، أي: أوعية، بمعنى أنهم ادعوا^(٥) أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر. كما كانوا يَمْتَنُونَ^(٦) بعلم التوراة.

ولهذا قال تعالى: ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾، أي: ليس الأمر كما ادعوا بل

(١) زيادة من ج، ط. (٢) في ج، ط، ب: فوهذا. (٣) في أ، و: بعض الأمصار. (٤) في ج: أنهم زعموا. (٥) في ج، ط، ب: فوهذا. (٦) في أ: كما كانوا يكتنون.

قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال في سورة النساء: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقد اختلفوا في معنى قوله: ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم [واختاره فخر الدين الرازي وحكاه عن قتادة والأصم وأبي مسلم الأصبهاني]^(١) وقيل: فقليل إيمانهم. بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم، لأنه منمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ.

وقال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قال: ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط. تريد: ما رأيت مثل هذا قط. [وقال الكسائي: تقول العرب: من زنى بأرض قلما تنبت، أي: لا تنبت شيئاً]^(٢).
حكاه^(٣) ابن جرير، والله أعلم.

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩).

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعني اليهود ﴿ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ وهو: القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يعني: من التوراة، وقوله: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقلكم معه قتل عاد وإرم، كما قال محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمرو بن قتادة الأنصاري، عن أشياخ منهم قال: قالوا: فينا والله وفيهم - يعني في الأنصار - وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم، نزلت هذه القصة يعني: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ قالوا^(٤): كنا قد علوناهم دهرأ في الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبياً من [الأنبياء]^(٥) يبعث الآن تبعه، قد أظل زمانه، نقلكم معه قتل عاد وإرم. فلما بعث الله رسوله من قريش [واتبعناه]^(٦) كفروا به. يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾.

وقال الضحاك، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، قال: يستظهرون يقولون: نحن نعين محمداً عليهم، وليسوا كذلك، يكذبون.

(١) زيادة من جاء، ط، ب، أ، و.

(٢) في جاء، ط، ب: احكاهما.

(٤) في جاء، ط، ب: قالوا.

(٦) زيادة من جاء، ط، ب، أ، و.

(٥) زيادة من جاء.

وقال محمد بن إسحاق: أخبرني محمد بن أبي محمد، أخبرني عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس: أن يهود^(١) كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل بعثه. فلما بعث الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور، أخو بني سلمة^(٢): يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون عليها بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفوننا لنا بصفته. فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم فانزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقول: يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركي العرب - يعني بذلك أهل الكتاب - فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه.

وقال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمداً ﷺ، ورأوا أنه^(٤) من غيرهم، كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ؛ فقال الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وقال قتادة: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: كانوا يقولون: إنه سيأتي نبي. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قال: هم اليهود.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيد، أخى بنى عبد الأشهل عن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان من أهل بدر قال: كان لنا جار يهودى فى بنى عبد الأشهل قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث رسول الله ﷺ يسير، حتى وقف على مجلس بنى عبد الأشهل. قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيهم سناً على بردة مضطجماً فيها بقاء أصلى. فذكر البعث والقيامة والحسنات والميزان والجنة والنار. قال ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان لا يرون بعثاً كائناً بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائناً أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجوزون فيها بأعمالهم؟ فقال: نعم، والذي يحلف به، لود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور فى الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي

(١) فى ج، ط، ب، أ، و: أن يهوداً.

(٢) فى ج، ط، ب، أ، و: «وداد بن سلمة».

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٤٧) وتفسير الطبري (٢/ ٢٣٣).

(٤) فى ج: «ورأوه».

يبحث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إلى وأنا من أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو بين أظهرنا، فأما به وكفر به بغياً وحسداً.

فقلنا: ويلك يا فلان، ألت بالذي قلت لنا؟ قال: بلى وليس به. تفرد به أحمد^(١).

وحكى القرطبي وغيره عن ابن عباس، رضى الله عنهما: أن يهود خيبر اقتتلوا في زمان الجاهلية مع غطفان فهزمتهم غطفان، فدعى اليهود عند ذلك، فقالوا: اللهم إنا نسالك بحق النبي الامى الذى وعدتنا بإخراجه فى آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم. قال: فنصروا عليهم. قال: وكذلك كانوا يصنعون يدعون الله فينصرون على أعدائهم ومن نازلهم. قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا ﴾ أى من الحق وصفة محمد ﷺ كفروا به فلعنة الله على الكافرين.

﴿ بِشْمًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبَاءٌ وَبِغْضٍ عَلَيَّ وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٩٠).

قال مجاهد: ﴿ بِشْمًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾: يهودُ شَرَوْا الحَقَّ بالباطل، وكتماناً ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ بان بينوه.

وقال السدى: ﴿ بِشْمًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يعنى: بشما اعتاضوا لانفسهم ورضوا به [وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ إلى تصديقه ومؤازرته ونصرته]^(٢).

وأما حملهم على ذلك البغى والحسد والكراهية ﴿ أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ولا حسد أعظم من هذا.

قال ابن إسحاق عن محمد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عباس: ﴿ بِشْمًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أى: أن الله جعله من غيرهم ﴿ قَبَاءٌ وَبِغْضٍ عَلَيَّ وَغَضْبٍ ﴾ قال ابن عباس: فالغضب على الغضب، فغضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وعن معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذى أحدث الله إليهم.

قلت: ومعنى ﴿ بَاءُوا ﴾: استوجبوا، واستحققوا، واستقروا بغضب على غضب. وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب عليهم بكفرهم بمحمد، وبالقرآن^(٣)، عليهما السلام، [وعن عكرمة وقتادة مثله]^(٤).

(١) المسد (٣/ ٤٦٧).

(٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) في ج، ط، ب، أ، و: بكفرهم بمحمد والقرآن.

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

وقال السدي: أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم في العجل، وأما الغضب الثاني فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ [وعن ابن عباس مثله] (١).

وقوله: ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، فويلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، [أي صاغرين حقيرين ذليلين راغمين] (٢).

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، حدثنا ابن عجلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يحشر التكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلمهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم، يقال له: بولس فيعلمهم نار الانبار يسقون» (٣) من طينة الخبال: عصارة أهل النار (٤).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نَزَمْنَا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [أي] (٥): على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه ﴿قَالُوا نَزَمْنَا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ أي: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ يعني: بما بعده ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي: وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ الحق (٦) ﴿مُصَدِّقًا﴾ (٧) منصوب على الحال، أي: في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ (٨) ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم تقتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغياً [وحسداً] (٩) وعناداً واستكباراً على رسل الله، فليستم تبعون إلا مجرد الأهواء، والآراء والشهوى (١٠)، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]

(١) (٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٣) في ج، ط: «ويسقون».

(٤) المسد (٢/ ١٧٩).

(٥) زيادة من ط، ب، و.

(٦) في و: «هو الحق».

(٧) في ج: «مصدقاً لما معهم».

(٨) زيادة من ج، ط، ب، و.

(٩) في ج: «والشهوة».

(١٠) زيادة من ج.

وقال السدي: في هذه الآية يعيرهم الله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال أبو جعفر بن جرير: قل يا محمد، لليهود بنى إسرائيل - [الذين]^(١) إذا قلت لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: ﴿ نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ﴾ - لم تقتلون^(٢) - إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم - أنبياءه وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، وذلك من الله تكذيب لهم في قولهم: ﴿ نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ﴾ ، وتعير لهم .

﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي: بالآيات الواضحات^(٣) والدلائل القاطعة^(٤) على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله. والبيئات هي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفلق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن والسلوى، والحجر، وغير ذلك من الآيات التي شاهدها ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ أي: معبوداً من دون الله في زمان موسى وآياته. وقوله: ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي: من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لاجابة الله كما قال تعالى: ﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمٌ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حَلِيهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ ﴾ [الاعراف: ١٤٨]، ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [أي: وأنتم ظالمون]^(٥) في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الاعراف: ١٤٩].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٣) .

يَعُدُّ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، عَلَيْهِمْ خَطَايَاهُمْ وَمَخَالَفَتُهُمْ لِلْمِيثَاقِ وَعَتْوَاهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ، حَتَّى رَفَعَ الطُّورَ عَلَيْهِمْ حَتَّى قَبَلَهُ ثُمَّ خَالَفُوهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ .

﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾^(٦) قال: أشربوا [في قلوبهم]^(٧) حبه، حتى خلص ذلك إلى قلوبهم. وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عصام بن خالد، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن خالد بن محمد الثقفي، عن بلال بن أبي الدرداء، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «حَبَّكَ

(١) زيادة من ب.

(٢) في ج، ط، ب: الواضحة.

(٣) في ج، ط، ب، أ، و: زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٤) في أ: «القاطعة».

(٥) في ج، ط، ب، و: زيادة من ج، ط، ب، و.

(٦) في ج، ط، ب، و: زيادة من ج، ط، ب، و.

(٧) في ج، ط، ب، و: زيادة من ج، ط، ب، و.

الشيء يُعْمَى وَيُصَمُّ.

ورواه أبو داود عن حبرة بن شريح عن بَقِيَّةَ، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به^(١)، وقال السدي: أخذ موسى، عليه السلام، العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه في البحر، فلم يبق بحر يجري يومئذ إلا وقع فيه شيء منه، ثم قال لهم موسى: اشربوا منه. فاشربوا، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب. فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلُ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل^(٢)، عن أبي إسحاق، عن عمارة بن عبد^(٣) وأبي عبد الرحمن السلمى، عن علي بن أبي طالب، قال: عمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد، فبرده بها، وهو على شاطئ نهر، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب^(٤).

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلُ﴾ قال: لما أحرق العجل بُرِدَ ثم نسف، فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعفران.

وحكى القرطبي عن كتاب القشيري: أنه ما شرب منه أحد ممن عبد العجل إلا جنّ ثم قال القرطبي^(٥): وهذا شيء غير ما ههنا؛ لأن المتصور من هذا السياق، أنه ظهر التنكير على شفاههم ووجوههم، والمذكور ههنا: أنهم أشربوا في قلوبهم حب العجل، يعني: في حال عبادتهم له، ثم أشد قول النابغة في زوجته عثمة:

تغلغل حب عثمة في فؤادي	فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب	ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها	أطير لو أن إنساناً يطير

وقوله: ﴿قُلْ بِسْمِ اللَّهِ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: بسما نعتدونه في قديم الدهر وحديثه، من كفرتم بآيات الله ومخالفتمك الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفرتم بمحمد ﷺ - وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمور عليكم - إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل التبيحة، من نقضكم الموائيق، وكفرتم بآيات الله، وعبادتكم العجل؟!!

(١) المسند (٥ / ١٩٤) وسنن أبي داود برقم (٥١٣).

(٢) في ١: «حدثنا إسماعيل». (٣) في هـ: «عبد الله» وهو خطأ.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١ / ٢٨٢).

(٥) زيادة من أ، و.

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ .

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: ادعوا بالموت على أى الفريقين أكذب. فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أى: يعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقى على الأرض يهودى إلا مات.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ ﴾: فلو الموت.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن عبد الكريم الجزرى، عن عكرمة، قوله: ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال: قال ابن عباس: لو تمنى اليهود الموت لما توار.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو، حدثنا على بن محمد الطائى، حدثنا عثام، سمعت الأعمش قال: لا أظنه إلا عن المنهال، عن سعيد بن جبير - عن ابن عباس، قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه.

وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس.

وقال ابن جرير فى تفسيره: وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لما تواروا. ولراوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يبأهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون^(١) أهلاً، ولا مالاً». حدثنا بذلك أبو كريب، حدثنا زكريا بن عدى، حدثنا عبيد الله^(٢) بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ.

ورواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن زيد^(٣) الرقى [أبى يزيد]^(٤)، حدثنا فرات، عن عبد الكريم، به^(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أحمد [قال]^(٦): حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار،

(١) فى ج: «ولا يجدون».

(٢) فى ج: «عن إسماعيل بن زيد»، وفى أ، و: «عن إسماعيل بن يزيد».

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٤) تفسير الطبرى (٢/ ٣٦٢) والمسنَد (١/ ٢٤٨).

(٥) زيادة من ج.

حدثنا سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن، قال: قول الله ما كانوا ليتموه بما قدمت أيديهم. قلت: أرايتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم: تمنوا، أترأهم كانوا ميتين؟ قال: لا، والله ما كانوا ليتموا لو تمنا الموت، وما كانوا ليتموه، وقد قال الله ما سمعت: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْا أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

وهذا غريب عن الحسن. ثم هذا الذي فسره به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله^(١) ابن جرير عن قتادة، وأبى العالية، والربيع بن أنس، رحمهم الله.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَائِكُمْ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦ - ٨] فهم - عليهم لعائن الله - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، دعوا إلى المباحلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم، أو من المسلمين. فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد^(٢) أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم. وهذا^(٣) كما دعا رسول الله ﷺ وقد نجران من النصرى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعتوهم وعتادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتهم هذا النبي لا يبتى منكم عين تطرف. فعند ذلك جنحوا إلى السلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم. وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، رضى الله عنه، أميناً. ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى ليهيئ الله ﷻ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مریم: ٧٥]، أى: من كان في الضلالة منا أو منكم، فزاده الله بما هو فيه ومد له، واستدرجه، كما سيأتى تقريره في موضعه، إن شاء الله^(٤).

فأما من فسر الآية على معنى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن كنتم صادقين في دعواكم، فتمنوا الآن الموت. ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول؛ فإنه قال: القول في تفسير^(٥) قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه الآية مما احتج الله به لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا

(١) في ج: ونقله.

(٢) في أ: واحده.

(٣) في ج: وهكذا.

(٤) في ج: إن شاء الله وبه الثقة.

(٥) في ج: ط، ب، أ، و: وفي ثوابه.

بين ظهراني مهاجرة، وفضح بها أبحارهم وعلماءهم؛ وذلك أن الله أمر نبيه ﷺ إلى قضية عادلة بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره أن يدعوا الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه في عيسى ابن مريم، عليه السلام، وجادلوه فيه، إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة. فقال لفريق [من] (١) اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت، فإن ذلك غير ضار بكم (٢)، إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل أعطاكم أميبتكم من الموت إذا تميتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جناته (٣)، إن كان الامر كما تزعمون: من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا. وإن لم تعطرها علم الناس أنكم المبتلون ونحن المحقون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك لعلها (٤) أنها إن تمت الموت هلكت، فذهبت دنياها وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق [من] (٥) النصارى.

فهذا الكلام منه أوله حسن، وأما آخره ففيه نظر؛ وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أن يتمنوا الموت فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت، وكم من صالح لا يتمنى الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيراً وترفع درجته في الجنة، كما جاء في الحديث: «خيركم من طال عمره وحسن عمله» (٦). [وجاء في الصحيح النهى عن تمنى الموت، وفي بعض ألفاظه: «لا يتمنن أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فلعله أن يزداد، وإما مسيئاً فلعله أن يستعيب» (٧) (٨). ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فما أنتم تعتقدون - أيها المسلمون - أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تمنون في حال الصحة الموت؛ فكيف نلزمونا بما لا نلزمكم؟

وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم شيء من ذلك، بل قيل لهم كلام نصّف: إن كنتم تعتقدون أنكم (٩) أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحبّاءه، وأنكم أهل الجنة ومن عداكم [من] (١٠) أهل النار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة. فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم واقترانهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه. فعلم كل أحد باطلهم، وخزيهم، وضلالهم وعنادهم -

(٢) في أ، و: «غير ضار بكم».

(١) زيادة من جـ.

(٤) في جـ، ط، ب، أ، و: «لعلهم».

(٣) في جـ: «وجناته».

(٥) زيادة من جـ.

(٦) جاء من حديث عبد الله بن بسر، وأبي بكر، وأبي هريرة رضى الله عنهم. فأما حديث عبد الله بن بسر، فرواه الترمذى في السنن برقم (٢٣٢٩) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وأما حديث أبي بكر، فرواه الترمذى في السنن برقم (٢٣٣٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأما حديث أبي هريرة، فرواه أحمد في المسند (٢/ ٢٣٥).

(٧) صحيح البخارى برقم (٥٦٧١) وصحيح مسلم برقم (٢٦٨٠) من حديث انس رضى الله عنه.

(٨) زيادة من جـ، ب، أ، و.

(١٠) زيادة من أ.

(٩) في و: «أنهم».

عليهم لعائن الله المتتابعة^(١) إلى يوم القيامة.

[وسميت هذه المباهلة تميهاً؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له فيها بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عظيمة عزيزة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت]^(٢).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَتَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ﴾ أي: [أحرص الخلق على حياة أي]^(٣): على طول عمر، لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم. وما يحذرون^(٤) واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص [الناس]^(٥) من المشركين الذين لا كتاب لهم. وهذا من باب عطف الخاص على العام.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: الأعاجم.

ورواه الحاكم في مستدركه من حديث الثوري، وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه. قال: وقد اتفقا على سند تفسير الصحابي^(٦).

وقال الحسن البصري: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ﴾ قال: المناقق أحرص الناس على حياة، وهو أحرص على الحياة من المشرك ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ﴾ أي: أحد اليهود كما يدل عليه نظم السياق.

وقال أبو العالية: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ﴾: يعني المجرم، وهو يرجع إلى الأول.

﴿لَوْ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو كقول الفارسي: «زه هزارسال» يقول: عشرة آلاف سنة. وكذا روى عن سعيد بن جبير نفسه أيضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق قال: سمعت أبي يقول: حدثنا أبو حمزة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو قول الأعاجم: «هزارسال نوروز مهرجان».

وقال مجاهد: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: حببت إليهم الخطيئة طول العمر.

(١) في ج، ط، ب: «التابعة»، وفي أ: «البالغة».

(٢) زيادة من ج، ب، أ، و.

(٣) زيادة من ج، ب، أ، و.

(٤) في أ: «وما يجدون».

(٥) زيادة من ط.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٨٦) والمستدرک (٢/ ٢٦٣).

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمَزْحَزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ﴾ أى: ما هو بمنجيهِ من العذاب. وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة^(١) وأن اليهودى قد عرف ما له فى الآخرة من الخزي بما صنع^(٢) بما عنده من العلم. وقال العرفى، عن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمَزْحَزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ﴾ قال: هم الذين عادوا جبريل.

وقال أبو العالية وابن عمر^(٣): فما ذلك بمغيثه^(٤) من العذاب ولا منجيهِ منه.

وقال عبد الرحمن بن زيد^(٥) بن أسلم [فى هذه الآية]^(٦): يهود أحرص على [هذه]^(٧) الحياة من هؤلاء، وقد ود هؤلاء أن^(٨) يعمر أحدهم ألف سنة، وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عمر، كما أن عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى: خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازى كل عامل بعمله.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبرى رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً [على]^(٩) أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولى لهم، ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك. فقال بعضهم: إنما كان سبب قتلهم ذلك من أجل مناظرة جرّت بينهم وبين رسول الله ﷺ فى^(١٠) أمر نبوته.

ذكر من قال ذلك

حدثنا أبو كريب، حدثنا يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس أنه قال: حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نساءك عنهن، لا يعلمهن إلا نبى، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لى

(١) فى أ: «طول العمر».

(٢) فى ج: ط، ب: «وإن عمر».

(٣) فى ج: «لا ذلك بمغيثه».

(٤) فى ج: ابن يزيد.

(٥) زيادة من ج: ط، ب، و.

(٦) فى ط، ب، أ، و: «هؤلاء لو».

(٧) زيادة من ج.

(٨) فى ج: ط، ب، أ: «من».

(٩) زيادة من ج: ط.

ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعنني على الإسلام». فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله ﷺ: «سلوني عما شئتم». فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نألك عنهن: أخبرنا أى الطعام حرم^(١) إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء^(٢) المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم^(٣) ووليه من الملائكة؟ فقال رسول الله ﷺ: «عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتابعنني؟» فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. فقال: «نشدتكم^(٤) بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر الله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم^(٥) الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها؟». فقالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد^(٦) عليهم وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». قال: «أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». قالوا: أنت الآن، فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجتمعك أو نفارقك. قال: «فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه». قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك^(٧) وصدقناك. قال: «فما متعكم أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣] فعندها باؤوا بغضب على غضب^(٨).

وقد رواه الإمام أحمد في مسنده، عن أبي النضر هاشم بن القاسم وعبد بن حميد في تفسيره، عن أحمد بن يونس، كلاهما عن عبد الحميد بن بهرام، به^(٩).

ورواه الإمام أحمد - أيضاً - عن الحسين بن محمد المروزي، عن عبد الحميد، بنحوه [به] (١٠٠) (١١).

وقد رواه محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، عن شهر ابن حوشب، فذكره مرصلاً، وزاد فيه: قالوا: فأخبرنا عن الروح. قال: «أنشدكم بالله وبآياته^(١٢)

(١) في ج، ط: «الذي حرم».

(٢) في ج، ط، ب، أ، و: «في التوراة».

(٣) في ج، ط، ب، أ، و: «أنشدكم».

(٤) في ج، ط، ب، أ، و: «الحمان».

(٥) في ج، ط، ب، أ، و: «اللهم اشهدك».

(٦) في ج، ط، ب، أ، و: «تابعناك».

(٧) تفسير الطبري (٢/ ٣٧٧).

(٨) المسند (١/ ٢٧٨).

(٩) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(١٠) المسند (١/ ٢٧٣).

(١١) في ط، ب، أ، و: «وبآياته».

(١٢) في ط، ب، أ، و: «وبآياته».

عند بنى إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل، وهو الذى يأتى؟ قالوا: نعم، ولكنه لنا عدو، وهو ملك إنما يأتى بالشدة وسفك الدماء، فلولا ذلك اتبعناك^(١). فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد^(٢)، حدثنا عبد الله بن الوليد المعجلى، عن بكير بن شهاب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك. فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦] قال: «هاتوا». قالوا: أخبرنا عن علامة النبى. قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه». قالوا: أخبرنا كيف تؤثت المرأة وكيف يذكر الرجل؟ قال: «يلتقى الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت»، قالوا: أخبرنا ما^(٣) حرم إسرائيل على نفسه. قال: «كان يشتكى عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا وكذا» - قال أحمد: قال بعضهم: يعنى الإبل، فحرم لحومها - قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملك من ملائكة الله، عز وجل، موكل بالسحاب بيديه - أو فى يده - مخراق من نار يزجر به السحاب، يسوقه حيث أمره الله عز وجل». قالوا: فما هذا الصوت الذى نسمعه؟ قال: «صوته». قالوا: صدقت. إنما بقيت واحدة وهى التى نتابعك إن أخبرتنا^(٤): إنه ليس من نبي إلا له ملك يأتىه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام»، قالوا: جبريل ذلك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت: ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان^(٥). فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية.

ورواه الترمذى، والنسائى من حديث عبد الله بن الوليد، به^(٦). وقال الترمذى: حسن غريب.

وقال سُبَيْدٌ فى تفسيره، عن حجاج بن محمد، عن ابن جُرَيْج: أخبرنى القاسم بن أبى بزة أن يهود سألوا النبى ﷺ عن صاحبه الذى ينزل^(٧) عليه بالروحى. قال: «جبريل». قالوا: فإنه لنا عدو، ولا يأتى إلا بالشدة والحرب والقتال. فنزل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية. قال ابن جريج: وقال مجاهد: قالت يهود: يا محمد، ما ينزل^(٨) جبريل إلا بشدة وحرب وقتال، وإنه لنا عدو. فنزل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية.

وقال البخارى: قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قال عكرمة: جبر، وميك، وإسراف: عبد. وإيل: الله. حدثنا عبد الله بن منبى^(٩) سَمِعَ عبد الله بن بكر^(١٠)، حدثنا حميد، عن أنس بن مالك،

(١) فى ج: «اتبناك».

(٢) فى ج: «أبو عمر».

(٣) فى ج: ط: «أخبرنا عما».

(٤) فى ب: «أخبرتنا بها».

(٥) فى ب: «أخبرتنا بها».

(٦) المسند (١/ ٢٧٤) وسنن الترمذى برقم (٣١١٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (٩٠٧٢).

(٧) فى أ: «نزل».

(٨) فى ج: ط، أ: «ما نزل».

(٩) فى أ: «ابن بكر».

(١٠) فى ج: ط، ب، أ: «ابن منبى».

قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ، وهو في أرض يخترف. فأتى النبي ﷺ، فقال: إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن^(١) إلا نبي: ما أول أشراف الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهن جبريل آنفاً». قال: جبريل؟ قال: «نعم». قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾. «أما أول أشراف الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة [ماء الرجل]^(٢) نزعته». قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك^(٣) رسول الله. يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني^(٤). فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: «أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام». فقالوا: أعاده الله من ذلك. فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا. فانتقصوه.

قال^(٥): هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله.

انفرد به البخاري من هذا الوجه^(٦)، وقد أخرجاه من وجه آخر، عن أنس بنحوه^(٧). وفي صحيح مسلم، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قريب من هذا السياق^(٨)، كما سيأتي في موضعه^(٩).

وحكاية البخاري عن عكرمة ما تقدم هو المشهور أن «إيل» هو الله. وقد رواه سفيان الثوري، عن خصيف، عن عكرمة.

ورواه عبد بن حميد، عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن عكرمة، ورواه ابن جرير، عن الحسين بن يزيد الطحان، عن إسحاق بن منصور، عن قيس، عن عاصم، عن عكرمة، أنه قال: جبريل اسمه عبد الله وميكائيل: عبيد الله. إيل: الله.

ورواه يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس، مثله سواء. وكذا قال غير واحد من السلف، كما سيأتي قريباً.

(١) في أ: «لا يعرفهن».

(٢) زيادة من جـ.

(٣) في جـ، ط: «وأن محمداً».

(٤) في جـ: «يهتوني».

(٥) في جـ: «فقال».

(٦) صحيح البخاري برقم (٤٤٨).

(٧) صحيح البخاري برقم (٣٣٢٩) من طريق مروان بن معاوية عن حميد، عن أنس، وصحيح البخاري برقم (٣٩٣٨) من طريق بشر

ابن الفضل، عن حميد، عن أنس.

(٨) صحيح مسلم برقم (٣١٥).

(٩) في جـ: «كما سيأتي في موضعه إن شاء الله».

[وقال الإمام أحمد في أثناء حديث سمرة بن جندب: حدثنا محمد بن سلمة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن عمرو بن عطاء قال: قال لي علي بن الحسين: اسم جبريل عبد الله، واسم ميكايل: عبد الله^(١)].

ومن الناس من يقول: «إيل» عبارة عن عبد، والكلمة الأخرى هي اسم الله؛ لأن كلمة «إيل» لا تنحرف في الجمع، فوزائه: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد الكافي، عبد الجليل. فعبء موجودة في هذا كله، واختلقت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبريل وميكايل وإسرافيل وعزرائيل ونحو ذلك، وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف، والله أعلم.

ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: بل كان سبب قبلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب وبينهم في أمر النبي ﷺ.

ذكر من قال ذلك

حدثني محمد بن المشي، حدثني ربعي بن علقمة، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، قال: نزل عمر الروحاء، فرأى رجلاً يتدرون أحجاراً يصلون إليها، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا. قال: فكره ذلك. وقال: إنما رسول الله ﷺ أدركته الصلاة بواد فصلها ثم ارتحل، فتركه. ثم أنشأ يحدثهم، فقال: كنت أشهد اليهود يوم مدرّاسهم^(٢)، فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان ومن الفرقان كيف يصدق التوراة؟ فبينما أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابن الخطاب، ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك. قلت: ولم ذلك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا. قلت: إنني آتيكم فأعجب من الفرقان^(٣) كيف يصدق التوراة، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان. قال: ومر رسول الله ﷺ فقالوا: يا ابن الخطاب، ذاك صاحبكم فالحق به، قال: فقلت لهم عند ذلك: نشدتم^(٤) بالله الذي لا إله إلا هو، وما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه: اتعلمون أنه رسول الله؟ قال: فسكتوا. فقال لهم علمهم وكبيرهم: إنه قد غلّظ عليكم فأجيبوه. فقالوا: فأنت عالنا وكبيرنا فأجبه أنت. قال: أما إذ نشدنا بما نشدنا به فإننا نعلم أنه رسول الله، قال: قلت: ويحكم فأنتي هلكتم؟! قالوا^(٥): إنا لم نهلك^(٦). [قال^(٧)]: قلت: كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله [ثم^(٨)] لا تبعونه ولا تصدقونه؟ قالوا: إن لنا عدواً من الملائكة وسليماً من الملائكة، وإنه قرن بنوته عدونا من الملائكة. قال: قلت: ومن عدوكم ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكايل. قال: قلت: وفيهم عاديتهم جبريل، وفيهم سلمتكم ميكايل؟ قالوا: إن جبريل ملك الغظاظ والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكايل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا.

(١) في أ، و: القرآن.

(٢) في ج، ط: إياكم بهلك.

(٣) في ج، أ: يوم مدرّاسهم.

(٤) في ج: فقالوا.

(٥) زيادة من ط.

(٦) زيادة من ج، ط.

(٧) في أ: أنشدكم.

(٨) زيادة من أ.

قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما عز وجل؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال: قلت: فو [الله] (١) الذى لا إله إلا هو، إنيهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما ما ينهى لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل وما ينهى لميكائيل أن يسالم عدو جبريل. قال: ثم قمت فاتبعته النبي ﷺ فلحقته وهو خارج من خوخة لبني فلان، فقال: يا ابن الخطاب، ألا أقرئك آيات نزلن (٢) قبل؟ فقرا على: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حتى قرأ هذه الآيات. قال: قلت: بأبي وأمي يا رسول الله، والذى بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر (٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مجالد، أنبأنا عامر، قال: انطلق عمر إلى اليهود، فقال: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى: هل تجدون محمداً في كتبكم؟ قالوا: نعم. قال: فما يمنعكم أن تتبعوه؟ قالوا: إن الله لم يبعث رسولا (٤) إلا جعل له من الملائكة كفلاً وإن جبريل كفّل محمداً، وهو الذى يأتيه، وهو عدونا من الملائكة، وميكائيل سلمنا؛ لو كان ميكائيل هو الذى يأتيه أسلمنا. قال: فإني أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى: ما منزلتهما من رب العالمين؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله. قال عمر: وإني أشهد ما ينزلان إلا بإذن الله، وما كان ميكائيل ليسالم عدو جبريل، وما كان جبريل ليسالم عدو ميكائيل. فبينما هو عندهم إذ مر النبي ﷺ فقالوا: هذا صاحبك يا ابن الخطاب؛ فقام إليه عمر، فأنابه، وقد أنزل الله عز وجل، عليه: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٥).

وهذان الإسنادان يدلان على أن الشعب حدث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر، فإنه لم يدرك وفاته (٦)، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا بشر (٧)، حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود. فلما أبصروه (٨) رحبوا به، فقال لهم عمر: أما والله ما جئت لحبكم ولا للريبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم. فسألهم وسألوه. فقالوا: من صاحبك (٩)؟ فقال لهم: جبريل. فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء، يُطلع محمداً على سرنا، وإذا جاء الحرب والسنة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء الخصب والسلم. فقال لهم عمر: هل تعرفون جبريل وتشكرون محمداً ﷺ؟ فقارفتهم عمر عند ذلك وتوجه نحو النبي ﷺ،

(٢) في ج: أنزلت.

(١) زيادة من ج، ب، أ، و.

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٣٨٢).

(٤) في ج: نبياً رسولاً.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٩٠).

(٦) في ج، ط، ب، أ، و: زمانه.

(٧) في أ: محمد بن بشر.

(٨) في أ، و: صاحبكم.

(٩) في ج، ط، ب، أ، و: فلما انصرف.

ليحدثه حديثهم، فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (١).

ثم قال: حدثني المشي، حدثنا آدم، حدثنا أبو جعفر عن قتادة، قال: بلغنا أن عمر أقبل إلى اليهود يوماً، فذكر نحوه. وهذا - أيضاً - منقطع، وكذلك رواه أسباط، عن السدي، عن عمر مثل هذا أو نحوه، وهو (٢) منقطع أيضاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن - يعني الدشتكي - حدثنا أبو جعفر، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن يهودياً أتى (٣) عمر بن الخطاب، فقال: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدو لنا. فقال عمر: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾، قال: فنزلت على لسان عمر، رضى الله عنه (٤).

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أخبرنا حصين بن عبد الرحمن، عن ابن أبي ليلى في قوله: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ قال: قالت اليهود للمسلمين: لو أن ميكائيل كان الذي ينزل عليكم لتبعناكم، فإنه ينزل بالرحمة والغيث، وإن جبريل ينزل بالعذاب والنعمة، فإنه لنا عدو (٥). قال: فنزلت هذه الآية.

حدثني يعقوب قال: حدثنا هشيم، أخبرنا عبد الملك، عن عطاء، بنحوه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ قال: قالت اليهود: إن جبريل عدونا، لأنه ينزل بالشدّة والسنة، وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب، فجبريل عدونا. فقال الله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ [الآية] (٦).

وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي: من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذکر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي [عليه وعلى سائر إخوانه من الملائكة السلام] (٧) ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سُبُلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] فحكم عليهم بالكفر المحقق، إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم (٨)، وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله؛

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٨٣).

(٢) في أ: وهذا.

(٣) في ج، ط، ب، أ، و: القى.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٩١) وهذا منقطع، ابن أبي ليلى لم يذكر عمر.

(٥) في ج: فإنه عدونا.

(٦) زيادة من ج.

(٨) في أ: وكفروا ببعض.

لان جبريل لا ينزل بالامر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه كما قال: ﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤] وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَنُنزِّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزْلًا بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]. وقد روى البخارى فى صحيحه، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب»^(١). ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه، فقال: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى: من الكتب المتقدمة ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين. كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ثم قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾، يقول تعالى: من عادائى وملائكتى ورسلى - ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ النَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾^(٢) وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا فى الملائكة، ثم^(٣) عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر؛ لان السياق فى الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل فى اللفظ؛ لان اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم، فأعلمهم أنه من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً؛ لانه - أيضاً - ينزل على الأنبياء بعض الأحيان، كما قرن^(٤) برسول الله ﷺ فى ابتداء الامر، ولكن جبريل أكثر، وهى وظيفته، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، هذاك بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالصور للنفخ للبعث يوم^(٥) القيامة؛ ولهذا جاء فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول^(٦): «اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل^(٧) فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم»^(٨). وقد تقدم ما حكاه البخارى، ورواه ابن جرير^(٩) عن عكرمة أنه قال: جبر، وميك، وإسراف: عبّد. وإيل: الله.

(١) صحيح البخارى برقم (٢٠٥٠٠ - ٢٠٥٠١).

(٢) فى ج، ط، ب: «وميكائيل».

(٣) من: «ومى».

(٤) فى ط، ب: «اليوم».

(٥) فى آ: «كما مر».

(٦) فى ج، ط، ب: «رب جبريل وميكائيل وإسرافيل».

(٧) فى ج، ط، ب: «وقال».

(٨) صحيح مسلم برقم (٧٧٠٠) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٩) فى ب: «وغیره».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، عن عمير^(١) مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: إنما قوله: «جبريل» كقوله: «عبد الله» و«عبد الرحمن». وقيل^(٢): جبر: عبد، وإيل: الله.

وقال محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن علي بن الحسين، قال: أتدرون^(٣) ما اسم جبرائيل^(٤) من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبد الله، قال: فتدرون ما اسم ميكائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا. قال: اسمه عبيد الله^(٥). وكل اسم مرجعه إلى «إيل»^(٦) فهو إلى الله.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد وعكرمة والضحاك ويحيى بن يعمر نحو ذلك. ثم قال: حدثني أبي، حدثنا أحمد بن أبي الخوارزمي، حدثني عبد العزيز بن عمير قال: اسم جبريل في الملائكة خادم الله. قال: فحدثت^(٧) به أبا سليمان الداراني، فانتفض وقال: لهذا الحديث أحب إلي من كل شيء [وكتبه]^(٨) في دفتر كان بين يديه.

وفي جبريل وميكائيل لغات وقراءات، تذكر في كتب اللغة والقراءات، ولم نطوِّق كتابنا هذا برّد ذلك إلا أن يدور فهم المعنى عليه، أو يرجع الحكم في ذلك إليه، وبالله الثقة، وهو المستعان.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾: فيه إيقاع المظهر مكان المضمّر حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرين. بل قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾، كما قال الشاعر:

لا أرى الموتَ يسبق^(٩) الموتَ شيء نَعَصُ^(١٠) الموتُ ذا الغنى والفقيرا

وقال آخر:

ليتَ الغرابُ غداةً ينعبُ^(١١) دأبنا كان الغرابُ مقطّعَ الأوداجِ^(١٢)

وإنما أظهر الاسم هنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره، وإعلامهم أن من عادى أولياء الله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما تقدم الحديث: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب». وفي الحديث الآخر: «إني لأثأر لأوليائي كما يثأر أليتي الحرب». وفي الحديث الصحيح: «ومن كنت خصمه خصمته».

(١) في أ: اعمرأ.

(٢) في ج: ط، ب، أ، وا: أتدرون.

(٣) في ج: ط، ب، أ، وا: أتدرون.

(٤) في ج: ط، ب، أ، وا: جبريل.

(٥) في ج: عبد الله.

(٦) في أ: وا: إيل.

(٧) في ج: فحدثت.

(٨) زيادة من ج.

(٩) في ج: اسوى.

(١٠) في ج: ط، ب: سبق، وفي أ: سبق، وفي وا: اسبق.

(١١) في ج: ينعب.

(١٢) البيت في تفسير الطبري (٢ / ٣٩٦) وهو جبريل بن عصفية.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات [دلالات] ^(١) على نبوتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكونات سراير أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلماءهم، وما حرفة أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم، التي كانت في التوراة. فأطلع الله في كتابه الذي أنزله إلى نبيه محمد ﷺ؛ فكان في ذلك من أمره الآيات البيّنات لمن أنصف نفسه، ولم يدعها إلى هلاكها الحسد ^(٢) والبغى، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ^(٣) ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البيّنات التي وصّف، من غير تعلم تعلمه من بشري ^(٤) ولا أخذ شيئاً ^(٥) منه عن آدمي. كما قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يقول: فأنزلنا عليهم وتخيّرهم به غدوة وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لا تقرأ ^(٦) كتاباً، وأنت تخيّرهم بما في أيديهم على وجهه. يقول الله: في ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون.

وقال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: قال ابن صوريا الفطيموني لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتني بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فتبعك. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ

(١) في ج: «ملاكه بالخلافة».

(٢) في ج: «من بشري».

(٣) في ج: «ط، ب: «فلم تقرأ».

(٤) زيادة من ج: «ط، ب: «أو».

(٥) في ج: «تصديق ذلك من أن يميل».

(٦) في ج: «ط، ب: «مشي» وهو خطأ».

بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ». وقال مالك بن الصيف - حين بعث رسول الله ﷺ وذكرهم^(١) ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ^(٢): «والله ما عهد إلينا في محمد ﷺ ولا أخذ [له]^(٣) علينا ميثاقاً. فأنزل الله: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾.

وقال الحسن البصرى في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: نعم، ليس في الأرض عهدٌ يعاهدون عليه إلا نتضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم، ويتقضون غداً.

وقال السدى: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ. وقال قتادة: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أى: نقضه فريق منهم.

وقال ابن جرير: أصل النبذ: الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط: منبذاً، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء. قال أبو الأسود الدؤلى:

نظرت إلى عنوانه فنبتته كنبذك نعلًا أخلفت من نعالكا^(٤)

قلت: فالتقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها. ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعتة وصفته وأخباره، وقد أمروا فيها باتباعه وموازرتة ومناصرتة، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وقال مهنا: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: أطرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم، مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، أى: تركوها، كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه. ولهذا أرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسحروه في سُحُوطٍ وَمُسَاقَاةٍ وَجُفٍّ طَلْعَةَ ذَكَرٍ، تحت راعونة بئر ذى أروان. وكان الذى تولى ذلك منهم رجل، يقال له: لبيد بن الأعصم، لعنه الله؛ فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ، وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، كما سيأتى بيانه^(٥).

قال^(٦) السدى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ قال: لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبدوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وعماروت، فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال قتادة في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم، وكنتموه وجحدوا به.

(١) في أ: «وما ذكر لهم».

(٢) في أ: «وما عهد الله إليهم فيه». (٣) زيادة من أ.

(٤) البيت في تفسير الطبرى (٢/ ٤٠١).

(٥) في ج: «كما سيأتى بيانه إن شاء الله وبه الثقة»، وفي أ: «كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى».

(٦) في ج: ط: «وقال».

وقال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾: وكان حين ذهب ملك سليمان ارتد فتأم من الجن والإنس واتبعوا الشهوات، فلما رجع^(١) الله إلى سليمان ملكه، وقام الناس على الدين كما كان أوان سليمان، ظهر على كتبهم فدفتها تحت كرسيه، وتوفى سليمان، عليه السلام، حدثان ذلك، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل^(٢) على سليمان واخفاه عنا فأخذوا به فجعلوه ديناً. فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَأَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ واتبعوا الشهوات، [أى]^(٣): التي كانت [تتلو الشياطين]^(٤)، وهى المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم «الأعظم»، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجه^(٥) الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذى كان سليمان يعمل بها^(٦). قال: فأكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماءهم فلم يزل جهالهم يسبونه، حتى أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾^(٧).

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب سلم^(٨) بن جنادة السوائي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس، قال: كان سليمان، عليه السلام، إذا أراد أن يدخل الخلاء، أو يأتي شيئاً من نسائه، أعطى الجرادة - وهى امرأة - خاتمه. فلما أراد الله أن يتلى سليمان، عليه السلام، بالذى ابتلاه به، أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه، فجاء^(٩) الشيطان فى صورة سليمان فقال لها: هاتى خاتمى. فأخذته فلبسه. فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس. قال: فجاءها سليمان، فقال: هاتى خاتمى فقالت: كذبت، لست سليمان. قال: فعرف سليمان أنه بلاء ابتلى به. قال: فانطلقت الشياطين فكتبت فى تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفر. ثم دفنها تحت كرسي سليمان، ثم أخرجوها وقرؤوها^(١٠) على الناس، وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب. قال: فبرئ الناس من سليمان، عليه السلام، وأكثروه حتى بعث الله محمداً ﷺ وأنزل عليه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمران،

(١) فى ج: «فلما أرجع».

(٢) فى ج: «أنزل».

(٣) زيادة من ج.

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٥) فى ج، ط، أ، و: «أخرجه».

(٦) فى ج: «أى»، و«نصواب ما أشتبه من ج، ط، ب، أ، و».

(٧) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٩٧).

(٨) فى ج، ط، ب: «مسئم».

(٩) فى ج: «فجاءها».

(١٠) فى ج، ط، ب، أ: «قرؤوها».

وهو ابن الحارث قال: بينا نحن عند ابن عباس - رضى الله عنهما^(١) - إذ جاء^(٢) رجل فقال له: من أين جئت؟ قال: من العراق. قال: من أيه؟ قال: من الكوفة. قال: فما الخبر؟ قال: تركتهم يتحدثون أن عليا خارج إليهم. ففزع ثم قال: ما تقول؟ لا أبا لك! لو شعرنا ما نكحنا نساء، ولا قسمنا ميراثه، أما إنى سأحدثكم^(٣) عن ذلك: إنه كانت الشياطين يترقون السمع من السماء، فيجىء أحدهم بكلمة حتى قد سمعها، فإذا جُرِبَ منه صدق كذب معها سبعين كذبة، قال: فَتَشْرِبُهَا قلوب الناس. فأطلع الله عليها سليمان، عليه السلام، فدفعها تحت كرسية. فلما توفي سليمان، عليه السلام، قام شيطان الطريق، فقال: أفلا أدلكم على كثره المنع^(٤) الذي لا كثر له مثله؟ تحت الكرسى. فأخرجوه، فقالوا: هذا سحره^(٥) فتأسخها الامم - حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق - وأنزل الله عز وجل^(٦): ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

ورواه الحاكم في مستدرکه، عن أبي زكريا العنبري، عن محمد بن عبد السلام، عن إسحاق بن إبراهيم، عن جرير، به^(٧).

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: على عهد سليمان. قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء، فتتعد منها مشاعدا للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون في الأرض من موت أو غيب^(٨) أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم. فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا. حتى إذا أمتهم الكهنة كذبوا لهم. وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتب الناس ذلك الحديث في الكتب، وفشا في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب. فبعث سليمان في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق، ثم دفنها تحت كرسية. ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسى إلا احترق. وقال: لا أسمع أحدا يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه. فلما مات سليمان، عليه السلام، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف بعد ذلك خلف تمثل شيطان في صورة إنسان، ثم أتى نفرا من بني إسرائيل، فقال لهم: هل أدلكم على كثر لا تأكلونه أبدا؟ قالوا: نعم. قال: فاحفروا تحت الكرسى. وذهب معهم وأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: فادن. قال^(٩): لا ولكتى هاهنا في أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلوني. فحفروا فوجدوا تلك الكتب. فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين^(١٠) والطير بهذا السحر. ثم طار وذهب. وفشا في الناس أن سليمان كان

(١) في ط: اعنه.

(٢) في ط: ب، أو: إذ جاءه.

(٣) في ج: ط: سأحدثكم.

(٤) في ج: المنع.

(٥) في ج: الله تعالى.

(٦) في ج: أو عبس.

(٧) في ج: فقال.

(٨) في ج: والجن.

(٩) في ج: ط: سأحدثكم.

(١٠) في ج: ب، أ، و: هذا سحر.

(١١) تفسير الطبري (٢/ ٤١٥) والمستدرک (٢/ ٢٦٥).

ساحراً. واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها^(١)، فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

وقال الربيع بن أنس: إن اليهود سألو محمداً ﷺ زماناً عن أمور من التوراة، لا يألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله تعالى عليه ما سأله عنه، فيخصمهم^(٢)، فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا. وإنهم سأله عن السحر وخصموه به، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ﴾. وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك، فدفعوه تحت مجلس سليمان، وكان [سليمان]^(٣)، عليه السلام، لا يعلم الغيب. فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخذعوا الناس، وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتبه ويحسد^(٤) الناس عليه. فأخبرهم النبي ﷺ بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد حزنوا، وأدحض الله حججتهم.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ قال: كانت الشياطين تسمع^(٥) الوحي فما سمعوا من كلمة [إلا]^(٦) زادوا فيها مائتين مثلها. فأرسل سليمان، عليه السلام، إلى ما كتبوا من ذلك. فلما توفي سليمان وجدته الشياطين فعلته الناس [به]^(٧)، وهو السحر.

وقال سعيد بن جبيرة: كان سليمان، عليه السلام، يتبع ما في يدي الشياطين من السحر فيأخذه منهم، فيدفنه تحت كرسیه في بيت خزائنه، فلم يقدر الشياطين أن يصلوا إليه، فدبت^(٨) إلى الإنس، فقالوا لهم: أندرون ما العلم^(٩) الذي كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم. قالوا: فإنه في بيت خزائنه وتحت كرسیه. فاستثار به^(١٠) الإنس واستخرجوه فعملوا^(١١) بها. فقال أهل الحجاز: كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر. فأنزل الله تعالى على [الإنس]^(١٢) نبيه محمد ﷺ براءة سليمان، عليه السلام، فقال: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار^(١٣): عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود، عليه السلام^(١٤)، فكتبوا أصناف السحر: «من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فليقل كذا وكذا». حتى إذا صنفوا أصناف السحر جعلوه في كتاب. ثم ختموا بخاتم على نقش خاتم سليمان، وكتبوا في

(١) في ج: «بهذا».
 (٢) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.
 (٣) في ج، ط، أ، و: «تسمع».
 (٤) زيادة من ط.
 (٥) في ج، ب، أ، و: «دبت».
 (٦) في ج، ط، ب، أ، و: «فاستثارته».
 (٧) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.
 (٨) في ج، ب: «عملها السلام».
 (٩) في ج: «بهذا».
 (١٠) في ج، ط، ب، أ، و: «تسمع».
 (١١) في ج، ط، ب، أ، و: «عملوا».
 (١٢) في ج، ط، ب، أ، و: «عملها السلام».

عنوانه: «هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود، عليهما السلام»^(١)، من ذخائر كنوز العلم». ثم دفته تحت كرسيه واستخرجته^(٢) بعد ذلك بقايا بنى إسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا. فلما عثروا عليه قالوا: والله ما كان سليمان بن داود إلا بهذا. فأقشوا السحر في الناس [وتعلموه وعلموه]^(٣). وليس هو في أحد أكثر^(٤) منه في اليهود لعنهم الله. فلما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من الله، سليمان بن داود، وعده فيمن عدّه من المرسلين، قال من كان بالمدينة من يهود: ألا تعجبون من محمد! يزعم أن ابن داود كان نبياً، والله ما كان إلا ساحراً. وأنزل الله [في]^(٥) ذلك من قولهم: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَٰ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثنا الحجاج^(٦)، عن أبي بكر، عن شهر بن حوشب، قال: لما سلب سليمان، عليه السلام، ملكه، كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سليمان. فكتبت: «من أراد أن يأتي كذا وكذا فليستقبل الشمس، وليقل كذا كذا»^(٧)، ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدير الشمس وليقل كذا وكذا. فكتبته وجعلت عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان [بن داود]^(٨) من ذخائر كنوز العلم». ثم دفته تحت كرسيه. فلما مات سليمان، عليه السلام، قام إبليس، لعنه الله، خطيباً، [ثم]^(٩) قال: يا أيها الناس، إن سليمان لم يكن نبياً، إنما كان ساحراً، فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته. ثم دلهم على المكان الذي دفن فيه. فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحراً! هذا^(١٠) سحره، بهذا تعبدنا، وبهذا قهرنا. وقال المؤمنون: بل كان نبياً مؤمناً. فلما بعث الله النبي ﷺ جعل يذكر الأنبياء حتى ذكر داود وسليمان. فقالت اليهود [لعنهم الله]^(١١): انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل. يذكر سليمان مع الأنبياء. إنما كان ساحراً يركب الريح، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَٰ﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، قال: حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت عمران بن حدير، عن أبي مجلز، قال: أخذ سليمان، عليه السلام، من كل دابة عهداً، فإذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد، خلى عنه. فزاد الناس السجع والسحر، وقالوا: هذا يعمل به

(١) في ط: «عليه السلام».

(١) في ط: «عليه السلام».

(٢) في ط: «واستخرجه».

(٣) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٤) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٥) في ج، ط، ب، أ، و: «حجاج».

(٦) في ج، ط، ب، أ، و: «كذا وكذا».

(٧) زيادة من ج، ط، ب، أ، و.

(٨) زيادة من ج.

(٩) في ج: «وهذا».

(١٠) زيادة من ج.

سليمان. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن رواد، حدثنا آدم، حدثنا المسعودي، عن زياد مولى ابن مصعب، عن الحسن: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ قال: ثلث الشعر، وثلث السحر، وثلث الكهانة.

وقال: حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار الواسطي، حدثني سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ﴾: واتبعته اليهود على ملكه. وكان السحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان.

فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها، وأنه لا تعارض بين الياقات على اللبيب الفهم، والله الهادي. وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: واتبعت اليهود - الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم الرسول محمدا ﷺ - ما تتلو^(٢) الشياطين، أي: ما ترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين على ملك سليمان. وعدها بعلى؛ لأنه ضمن تتلو: تكذب. وقال ابن جرير: «على»^(٣) هنا بمعنى «في»، أي: تتلو في ملك سليمان. ونقله عن ابن جرير، وابن إسحاق.

قلت: والتضمين أحسن وأولى، والله أعلم.

وقول الحسن البصري، رحمه الله: «قد كان السحر قبل زمان»^(٤) سليمان بن داود صحيح لا شك فيه؛ لأن السحرة كانوا في زمان^(٥) موسى، عليه السلام، وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٦]، ثم ذكر القصة بعدها، وفيها: ﴿وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال قوم صالح - وهم قبل إبراهيم الخليل، عليه السلام، لنبيهم صالح: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أي: [من] المسحورين على المشهور.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾: اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن «ما» نافية، أعنى التي في قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾. قال القرطبي: «ما» نافية ومعطوفة على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أَنْزَلْنَا﴾ أي: السحر ﴿عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ وذلك أن اليهود - لعنهم الله - كانوا يزعمون أنه نزل

(١) تفسیر الطبری (٢/ ٤١٤).

(٢) في ج، ط، ب، أ، و: «ما تتلو».

(٣) في ج، ط، ب، أ، و: «قبل زمن».

(٤) في ج: «زمن».

(٥) زيادة من ج، ط.